أعلام الفقهاء

إعداد

دكتور/ رجب محمود إبراهيم بخيت



بطاقة فهرسة

مكتبة كنوز المعرفة

اسم الكتاب: أعلام الفقهاء

إعـــــداد: د. رجب محمود إبراهيم بخيت

رقم الإيداع:

الطبعة الأولى ٢٠١١



المقدمة

الحمد لله القديم بلا غاية والباقي بلا نهاية الذي علا في دنوه ودنا في علوه فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ولا يؤوده حفظ ما خلق ولم يخلقه على مثال سبق بل أنشأه ابتداعًا وعدله اصطناعًا فأحسن كل شيء خلقه وتمم مشيئته وأوضح حكمته فدل على ألوهيته فسبحانه لا معقب لحكمه ولا دافع لقضائه تواضع كل شيء لعظمته وذل كل شيء لسلطانه ووسع كل شيء فضله لا يعزب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم وأشهد أن لا إله إلا الله وحده إلهًا تقدست أسماؤه وعظمت آلاؤه وعلا عن صفات كل مخلوق وتنزه عن شبيه كل مصنوع فلا تبلغه الأوهام ولا تحيط به العقول ولا الأفهام يعصى فيحلم ويدعى فيسمع ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون وأشهد شهادة حق وقول صدق بإخلاص نية وصحة طوية أن محمد بن عبد الله عبده ونبيه وخالصته وصفيه ابتعثه إلى خلقه بالبينة والهدى ودين الحق فبلغ مألكته ونصح لأمته وجاهد في سبيل الله لا تأخذه في الحق لومة لائم ولا يصده عنه زعم زاعم ماضيًا على سنته موفيًا على قصده حتى أتاه اليقين فصلى الله على محمد وعلى آل محمد.

أما بعد...

فالقدوة الحسنة عنصر هامّ في كل مجتمع، فمهما كان أفراده صالحين فهم في أمس الحاجة لرؤية القدوات، وكما قيل: جالسوا من تذكّركم بالله رؤيتُهم، كيف لا وقد أمر اللهُ نبيَه بالاقتداء فقال:{أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ} [الأنعام: ٩٠].

وتشتدّ الحاجة إلى القدوة كلما بَعُد الناس عن الالتزام بقيم الإسلام وأحكامه، وتتأكد الحاجة بل تصل إلى درجة الوجوب إذا وُجدت قدواتٌ سيئةٌ فاسدةٌ تُحْسِن عرضَ باطلها.

إن القدوةَ - سواءً أكانت حسنةً أو سيئة - أكثرُ أثرًا وإقناعًا من الكلام النظري مهما كان بليغًا ومؤثرًا، ولعل هذا هو السرُ في إرسالِ اللهِ رسلاً من البشر عبر التاريخ مع أنه تعالى قادر - وهو الذي لا يعجزه شيء - على أن يلهم الناس شرعه، خاصة أن بشرية الرسل تعلَّلَ بها الجاحدون لرفض الإيمان كما قال تعالى:{ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾} [الإسراء: ٩٤]، لكن الذي قال عن نفسه:{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾} [الملك: ١٤] اقتضت حكمته إرسال الرسل من البشر؛ ليكونوا منارات هدى وقدوات حسنةً عبر التاريخ، فهم التطبيق النموذجي لشرع الله في كل عصر، وتطبيقهم حجةٌ على العباد ودليلٌ على واقعيةِ الشرع.

وأوضح دليل على هذا الأثر ما وقع في يوم الحديبية، ففي صحيح البخاري قال عمر: فلما فرغ من قضية الكتاب - أي: بنود الصلح - قال رسول الله لأصحابه:《قوموا، فانحروا ثم احلقوا》، قال: فوالله، ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة رضي الله عنها: يا نبيّ الله، أتحبّ ذلك؟ اخرُج لا تكلم أحدًا منهم كلمةً حتى تنحر بُدْنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بُدْنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضُهم يقتل بعضًا.

إنّ هذا التأثيرَ القويَ والمباشرَ للقدوة يرجع إلى عدة أسباب منها:

أن الإنسان مفطور على حب التقليد، وكثيرًا ما يكتسب معارفه وخبراته ومهاراته بالتقليد والمحاكاة، انظر إلى الطفل كيف يحاكي أباه وينقمص شخصيته؛ لأن التعلم بالرؤية والمشاهدة أسهلُ وأيسر

بل وأسرع، والنفس بطبعها تحبّ الحصولَ على الشيء بأسهل الطرق وأسرعها ولو كان محرّمًا، لكن الشرع والعقل يضبطها.

وقوعُ الإنسان - مهما كان كسولاً أو مقصرًا - أسيرًا للقدوة، فيحمله ذلك الإعجابُ على التقليد والمحاكاة، وهنا تكمن خطورةُ الموضوع؛ لأنّ القدوةَ إما أن تكون حسنةً لها بريقها الذاتي فتَنجذبُ إليها النفوسُ تلقائيًا وتتأثر بها إيجابيًا، وإمّا أن تكون قدوةً سيئةً زخرفت وزينت بالأصباغ والألوان الخادعة، وسُلّط عليها الأضواءُ الإعلاميةُ الباهرة، وأُضفيَ عليها عباراتُ الثناء والتمجيد الكاذبة لإثارة إعجاب المخدوعين، وحقًّا منهم من يقع في حبائلهم وشراكهم، حتى إذا فحصه عن قرب أدرك أنه كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، بل تبين له الوجهُ الحقيقيُّ، فما كان إلا إثارةً للغرائز والشهوات وتمجيدًا للكفرةِ والفساق والفجار باسم الفن والأناقة والرقص والغناء، وترويجًا للمنكرات والفواحش والرذائل باسم الترويح والسياحة، ومحاربةً للفضائل والحياء باسم الحرية والحضارة، وتنفيرًا من دين الله باسم التأخر والجمود، وتهجينًا لأحكامه باسم الكبت والقسوة،{وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ} [النور: ٤٠]، وتحقيرًا لدعاته باسم التطرف والإرهاب. نعم، هذا هو البديل عند غيابِ أو تغيّبِ القدواتِ الصالحة الحسنة.

وللأسف فإنّ دعاةَ الشر وشياطينَ الفساد استطاعوا أن يغزونا في عُقر دارنا بهذه القدوات السيئة الفاسدة المفسدة عبر فضائياتهم، وبدأ المخطط - ولمّا يمضي عليه سنوات - يؤتي أكله الفاسد بمباركة الشيطان، فوُجد في فتيانِنا وفتياتنا من يقلّد أعداء الإسلام والساقطين في كل شيء، في مظهرهم وملبَسِهم، بل حتى في القضايا الجبلّية من أكل وشرب ومشي.

إنّ هذه المظاهرَ الشاذةَ لهي دليلٌ قويٌ على الشعور بالنقص والانهزام النفسي، وصدق ابنُ خلدون في قوله: " المغلوب مولعٌ بتقليد الغالب أبدًا في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده ".

أيها الأحبة، في هذه الأيام وفي هذه الظروف المحيطة بنا ما أحوجنا إلى الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة، فهي محطّ آمال العقلاء وغاية أمانيهم؛ لأنها نهج راشد وطريق مستقيم لا اعوجاج فيه ولا التواء.

وإن في طليعة من يجب أخذ الأسوة الحسنة منهم والاقتداء بأفعالهم وأقوالهم وكريم شمائلهم رسلَ الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فهم الصفوة من خلق الله، المهتدون بهداية الله، المسارعون إلى فعل الخير والحرص عليه، قال الله تعالى:{إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء: ٩٠]. وقد أمر الله تعالى رسوله الكريم بالاقتداء بهم والسير على نهجهم حيث قال:{أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: ٩٠].

أيها المسلمون، إذا كان الحبيب محمد مأمورًا بأخذ الأسوة والقدوة من سلفه رسل الله فنحن أحرى أن نأخذها منه، كما وجهنا إلى ذلك ربّ العزة. وفي هذا التوجيه الرباني دعوة إلى كل ذي عقل رشيد أن يضع نصب عينه أخذ الأسوة والقدوة من سيد الخلق أجمعين، في أقواله وأفعاله، وفي مناهجه وشمائله وأخلاقه وسلوكيّاته، فهو المثل الكامل للإنسانية.

وقد سار أصحابه رضوان الله عليهم على نهجه، فلم يحجموا عن مكرمة أو يقصروا عن شيء من فعل الخير، ويأتي بعد ذلك أخذ الأسوة والقدوة الحسنة من خيار الأمة، وفي طليعتهم أهل القرون

المفضّلة المشهود لهم بالهداية من التابعين وتابعي التابعين، قال:﴿خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم﴾.
وهكذا في كل زمان يجب أخذ الأسوة الحسنة من أهل الفضل، ومن العلماء العاملين بعلمهم، المخلصين لدينهم، الذين يتقون الله في سرهم وعلانيتهم، الذين يقولون كلمة الحق بدون خوف أو وجل، لا تأخذهم في الله لومة لائم، الذين لا يلحدون في آيات الله، ولا يحرّفون الكلم عن مواضعه، الذين لا ينافقون ولا يجاملون. فهؤلاء العلماء ممن هدى الله وشرح صدورهم للإيمان، ففي السير على هدايتهم والاقتداء بأفعالهم فلاح وفوز في الدنيا والآخرة.

ولكي ندرك خطورة وأهمية القدوة الحسنة في تاريخ الأمة؛ فلنتأمل هذه القصة:

يروي أن أبا جعفر الأنباري صاحب الإمام أحمد عندما أخبر بحمل الإمام أحمد للمأمون في الأيام الأولى للفتنة؛ عبر الفرات إليه فإذا هو جالس في الخان، فسلم عليه، قال: يا هذا أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله، وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل - يعني المأمون - إن لم يقتلك فأنت تموت، ولا بد من الموت فاتق الله ولا تجبهم إلى شيء. فجعل أحمد يبكي ويقول: ما قلت؟ فأعاد عليه فجعل يقول: ما شاء الله، ما شاء الله.

وتمر الأيام عصيبة على الإمام أحمد، ويمتحن فيها أشد الامتحان ولم ينس نصيحة الأنباري، فها هو المروزي أحد أصحابه يدخل عليه أيام المحنة ويقول له: "يا أستاذ قال الله تعالى:{وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ} [النساء: ٢٩]. فقال أحمد: يا مروزي اخرج، انظر أيّ شيء ترى!! قال: فخرجت على رحبة دار الخليفة فرأيت خلقًا من الناس

لا يحصى عددهم إلا الله والصحف في أيديهم والأقلام والمحابر في أذرعتهم، فقال لهم المروزي: أي شيء تعملون؟ فقالوا: ننظر ما يقول أحمد فنكتبه، قال المروزي: مكانكم. فدخل إلى أحمد بن حنبل فقال له: رأيت قومًا بأيدهم الصحف والأقلام ينتظرون ما تقول فيكتبونه فقال: يا مروزي أضل هؤلاء كلهم!! أقتل نفسي ولا أضل هؤلاء".

فمن أبرز أسباب أهمية القدوة أنها تساعد على تقويم الفرد المسلم دونما توجيه خارجي وهذا بالتالي يساعد على خلق أجيال صالحة لقيادة العالم.

أيها المسلمون، أما الأسوة السيئة التي تَبَنّتْها المجتمعات الإسلامية في العصر الحاضر وفي كل مجالات الحياة فهي في الواقع وفي الحقيقة نكسة في الظاهرة الدينية والأخلاقية، يجب أن يترفّع عنها المسلم حفاظًا على دينه وإيمانه، وصونًا لأخلاقه، حتى ولو انتشرت هذه الأسوة السيئة بين الناس، وشملت جميع الطبقات والفئات، حيث أصبح العلماء الذين لا يعملون بعلمهم، ولكن يقصدون به المنصب والجاه والسلطان، وأصبح يمثلها أيضًا الوعّاظ والمرشدون الذين لا يأتمرون بما يأمرون به، والذين يصفون الدواء للأمراض التي هم بها مصابون، فمخبَرهم لا يطابق مظهرهم، فبئست الأسوة والقدوة بهم، قال الله تعالى:{أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾} [البقرة: ٤٤].

ورد في الأثر الذي رواه أحمد بسند حسن من حديث ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً عليه قال: (من كان مستناً فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا أفضل هذه الأمة، وأبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً،

اختارهم الله لصحبة نبيه، ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم).

والحقيقة أن كل مجتمع مهما بلغ من الفضل والاستقامة لا بد له من طائفة تتمثل فيها المُثُل العليا، تحفظ للمجتمع وجوده المعنوي المتمثل في صلاح عقيدته وحسن أخلاقه وأدب تعامله، على حد قول الله عزَّ وجلَّ: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾} [آل عمران: ١٠٤].

إنهم طائفة تمثل الخيرية في المجتمع، وتحافظ عليها وتحميها.

إن في أرواحها من التوهج، وفي نفوسها من الحيوية ما يجعل هم مجتمعها هو همها الأكبر، فيسعد بها المجتمع، إذ تحفظ عليه توازنه واستقامته، وعناصر استمراره وبقائه.

إنهم فئة من المجتمع مسموعة الصوت، واضحة التأثير، تملأ الفراغ، وتملك من التأثير ما يجعل جادة الحق واضحة، وطريق الصواب بارزة، ومسالك الخير بينة، فتستمر سُنَّة المدافعة بين الحق والباطل.

إنهم{أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ} [هود: ١١٦] مشاعل وسرج يصلحون ما أفسد الناس، بدين الله قائمون، وعلى الحق حراس، يدعون من ضل إلى الهدى، ويبصرون من العمى، ويصبرون على الأذى، همهم - أثابهم الله وأعظم أجورهم - إقامة دين الله، وإعلاء كلمته، وإعزاز أوليائه.

إنهم صمام الأمان بإذن الله، وسبب نجاة الأمة من الهلاك.

وهكذا جيل الفقهاء - رضي الله عنهم - كانوا روحًا نابضة، وقوة متجددة، وصفحة مشرقة لم تزدها الأيام إلا قوة ومضاء ولا

الأحداث إلا نصوعًا وإشراقًا، فكانوا يبادرون إلى كل خير ويتنافسون في الاستباق إليه، ويكفيهم فخرًا وعزًا أنهم - على رغم ما مروا به من ظروف قاسية - سطروا أروع الأمثلة وأنصعها في بلوغ الكمال الإنساني، إذ من السابقين المضحين منهم تكون نواة لمجتمع رباني نما واتسع فيما بعد بسرعة فائقة حتى عم خيره بقاع الدنيا بأسرها، ولا تزال آثاره باقية بفضل الله تعالى.

فهذا الذي فعلوه وحققوه ليس ضربًا من ضروب الأحلام، أو الخيال، أو المحال، لا بل هو مثال واقع محسوس في دنيا الناس وعلى أرضهم، وسنة سنوها وحازوا سبقها فنالوا أجرها وأجر من تبعهم فيها.

وأخيرًا فلئن كانت حياة الفقهاء - رحمهم الله جميعًا - كلها مليئة بالصور المضيئة المشرقة فإنني لأرجو أن أكون قد وفقت في عرضي لجانب من هذه الجوانب المشرقة من حياتهم، وذلك تذكيرًا بجهادهم وسبقهم وتنويهًا بمنزلتهم وفضلهم.

سائلاً الله أن يجزيهم عنا خير الجزاء، وأن يمتن علينا بحسن الاتباع والاقتداء.

تشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ::: إن التشبه بالكرام فلاح

وأسأل الله عز وجل أن ينفع بهذا العمل وأن يتقبله مني ويثيبني عليه.

رب تقبل عملي ولا تخيب أملي.

أصلح أموري كلها قبل حلول الأجل.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه،

رجب محمود إبراهيم بخيت

* * *

أهمية الفقه والفقهاء:

مما لا يخفى على عاقل أن الفقه هو من أهم العلوم الإسلامية وأشرفها، ويكفي في الدلالة على ذلك قول المولى سبحانه وتعالى:{وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾} [التوبة: ١٢٢].

وقال جل جلاله:{ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾} [آل عمران: ١٨].

وقال الإمام الغزالي رحمه الله في الإحياء (١): فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه، وثنى بالملائكة وثلث بأهل العلم، وناهيك بهذا شرفًا وفضلاً وجلاء ونبلاً. اهـ

وقال الله عز وجل:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾} [المجادلة: ١١].

ويقول النبي ﷺ فيما رواه الشيخان عن سيدنا معاوية رضي الله عنه:﴿من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين﴾.

وفي الترمذي وأبي داود بإسناد صحيح عن أبي أمامة الباهلي قال: ذكر لرسول الله ﴿ رجلان أحدهما عابد والآخر عالم فقال رسول الله ﷺ : ﴿فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم﴾ ثم قال رسول الله ﷺ :﴿إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير﴾.

وقد ذكر الخطيب البغدادي عن عمر بن عبد العزيز قال: من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح.

(١) الإحياء ٤/١.

ولا يحتاج الناس إلى شيء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل كحاجتهم إلى الفقه، فهو يَمَسُّ أكثرَ مجالات الحياة، ولهذا كان للفقهاء المنزلة السامية، والمكانة الرفيعة، وكان الأئمة يقدمون الاعتناء بالفقه على الاعتناء بالحديث، بل ويقدِّمون في الحديث نفسه رواية الفقيه عن الفقيه على رواية المحدث عن المحدث.

والفقه هو العلم بالشيء، والفهم له، والفطنة فيه.

يقال: فقُه الرجل فقاهة إذا صار فقيهاً، وفقِه: أي فهم فقهاً.

وبعض العلماء يرى أن الفقه أخص من العلم، قال الراغب الأصفهاني: الفقه هو التوصل إلى علمٍ غائبٍ بعلم شاهد؛ فهو أخص من العلم[1].

وقال النسفي: الفقه هو الوقوف على المعنى الخفي الذي يحتاج في حكمه إلى النظر والاستدلال. يقول ابن خلدون رحمه الله. الفقه معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والإباحة وهي متلقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفته من الأدلة فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه.

وقد وردت مادة (فقه) في القرآن الكريم عشرين مرة تحمل المعاني السابقة، فمن ذلك قوله - تعالى -:{فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا} [النساء: ٧٨].

وقوله - عز وجل:{فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ} [التوبة: ١٢٢].

وقوله - تعالى:{وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ} [الإسراء: ٤٤].

---

(١) انظر المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص٤٠.

وقد غلب استعمال (الفقه) على علوم الدين؛ لشرفها، وذلك من باب تخصيص الدلالة، ولكنه يستعمل في غير علوم الدين بقرينة.

والفقه هو مرجع القاضي في قضائه والمفتي في فتواه ومرجع لكل مكلف لمعرفة الحكم الشرعي فيما يصدر عنه من أقوال وأفعال وهذه الغاية منه.

وعرفه الآمدي بأنه: " العلم الحاصل بجملة من الأحكام الشرعية الفروعية بالنظر والاستدلال " (١).

والأمة الآن في أمس الحاجة إلى ثلة من الفقهاء، يذودون عن حياض السنة، لأن الفقهاء هم بمثابة الجهاز المناعي لهذه الأمة، فأخطر مرض معلن حتى الآن هو مرض (الإيدز)، ومرض (الإيدز) يصيب الجهاز المناعي، الذي معناه: أن أي مرض مهما كان دقيقاً وتافهاً يمكن أن يقتل الإنسان إذا أصيب الجهاز المناعي لديه.

فالفقهاء هم الجهاز المناعي لهذه الأمة، وبقاء هذه الأمة حية حتى الآن مع ضعفها وكثرة أعدائها معجزة، وهذا دليل على أن الله عز وجل هو الذي يكلؤها بحفظه ورعايته، لكن لابد أن نقوم بما أوجب الله علينا من حفظ الدين، ولا يكون ذلك إلا بتعلم العلم.

فاليوم غزت الفضائيات العقول، وأتت بالسموم، ولبّس الحق في الباطل، فلا بد من وعي، وهناك شباب بريء وأطفال صغار يسمعون، وتحاك لهم المؤامرات من التشويش عليهم لنزع ثقتهم من أمتهم ودينهم وشريعتهم، هناك تشكيك في هذه الأمور، وطعن للأمة من داخلها حتى تنشأ أفراد تتأثر بهذه الأفكار لأن أعداء

---

(١) سيف الدين الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق د. سيد الجميلي، ط٢ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٦م) ٨/١.

الإسلام دائماً يرمون ويخططون إلى الغد لا إلى اليوم.

ولذلك لا بد أن نواجه هذا السيل الجارف، والحقد الدفين، والإفك المبين بقوة تردعه، ولا يردعه مثل سلطان الحق، ولا تردعه مثل الكلمة الصادقة المبنية على كتاب الله وسنة النبي ﷺ يقولها الموفق المسدد.

فلا بد للفقهاء أن يعتنوا بهذا، وأن يتواصى طلاب العلم فيما بينهم ببيان حكم الشريعة، والتحدث عن مثل هذه الحدود وآثارها الإيجابية وعواقبها الحميدة، وأن نتواصى بالحق؛ لأنه لا يسعنا السكوت.

إن العلماء والفقهاء قوم أفرغوا جهدهم في تحصيل العلم من مظانه فنالوا منه حظاً وافراً. هم أهل العقل والنهى، وأهل الذكر ورياض الجنة. هم القوم لا يشقى بهم جليسهم ويكفي أنهم ورثة الأنبياء، فإن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً ولكن ورّثوا العلم. فأي مكانة رفيعة نالوها، وأي قدر عظيم استحقوه، وأي دور في نهضة الأمة جدير بهم أن يؤدوه.

إن دور العلماء والفقهاء في نهضة الأمة دور رئيس في التهيئة والتوجيه والقدوة والتقويم. وهل تنهض الأمة بغير علمائها وفقهائها؟ بغير كتاب هادٍ جمعته في الصدور، ووعته العقول، واطمأنت به القلوب، واستنارت به البصائر؟ بغير اتباع لسنن رضيه الرب الحكيم، فبعث به رسله مبشرين ومنذرين، وختمهم بنبينا محمد ﷺ الهادي إلى صراط المستقيم؟.

إن نهضة الأمة تحتاج إلى كلمة مجتمعة، ومن غير الفقهاء والعلماء الربانيين يجمع الكلمة؟ فإن أمة الإسلام ليس لها ما يوحدها من مصلحة دنيوية، أو توجهات فكرية، إلا الدين، فإنه

وعاؤها ووطاؤها، وجلدتها ورباطها، وإن العلماء هم من يبينون أحكامه، ويحكمون بمقتضاه، ويبسطون هديه وسلطانه، فإذا اجتهدوا في تبسيط الشرع بين أفراد الأمة، حتى تعلقت به قلوبهم ورضيت به عقولهم، فأبشروا بوحدة الكلمة التي هي أرضية النهضة وقاعدتها.

إن النهضة تحتاج إلى الإعداد النفسي كي تشتد على سوقها، وإلى النشاط العملي المبدع كي توطد أركانها. ومن غير العلماء يبعث الهمم، ويلهب المشاعر، ويثير الحماس، ويلهب النشاط نحو تحقيق المقاصد: عملاً بغير كلل، وسعياً بغير ملل. فقد أوتوا من نور الكتاب والحكمة قبساً، واتخذوا من جوامع كلم المصطفى ﷺ نَفَساً، واستعملوا أبدانهم في تحقيق الغايات... إن النهضة إن قامت تحتاج إلى الحفظ والتقويم، حتى تستمر وتتجدد، وتزدان وتتألق. ومن غير العلماء يحفظ توجهها، ويحرس استقامتها، ويبسط ظلها، ويحمي بيضتها، فشأن العلماء أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر عامة الناس وخاصتهم، يردون المظالم ويحقرون الظالم، يبينون مواقع الخلل، ويمسكون بحجز الناس عن الزلل، فهم الذين يقومون على النهضة حرساً، ويسهرون على بقائها عسساً.

والحقيقة أن الفقيه في كل مكان وزمان هو الذي يحمل هموم أمته، وهو لسان حال المجتمع، يتبنى قضاياها ويدافع عنها.

ولأهمية دور الفقهاء في حياة الأمة وفي إنارة طريق النهضة لها وتصحيح مسارها المعوج، فقد اجتهدت أن يكون الكتاب الثاني من " سلسلة الأعلام " عن الفقهاء ودورهم في حياة العامة والخاصة، ومن خلال التعريف بهم وأهم المواقف التي مرت بهم وأهم أقوالهم الحكيمة.

* * *

الإمام الأوزاعي

الإمام الأوزاعي

أعـلام الفقهـاء

الإمام الأوزاعي

قال محمد بن عجلان: " لم أرَ أحداً أنصح للمسلمين من الأوزاعي.. " كان إذا وعظ الناس لم يبق أحد في مجلسه إلا بكى بعينه أو قلبه، ما رؤي ضاحكاً مقهقهاً ولا باكياً في مجلسه قط، وكان إذا خلا بكى حتى يُرحَم..

أفتى وله من العمر خمس وعشرون سنة.. ولم يزل يفتي حتى مات رحمه الله، وقد أفتى في سبعين مسألة بحدثنا وأخبرنا..

هو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد، أبو عمرو الأوزاعي، نسبة إلى محلة " الأوزاع " [١] ولد بمدينة بعلبك سنة ثمان وثمانين للهجرة، ونشأ بالبقاع يتيماً في حجر أمه التي كانت تنتقل به من بلد إلى بلد. تأدّب بنفسه، فلم يكن من أبناء الملوك والخلفاء والوزراء والتجار وغيرهم أعقل منه، ولا أورع، ولا أعلم، ولا أفصح، ولا أحلم، ولا أكثر صمتاً منه. ما تكلم بكلمة إلا كان المتعين على من سمعها من جلسائه أن يكتبها عنه من حسنها، كما قال ابن كثير رحمه الله.

سكن بيروت مرابطاً إلى أن مات فيها سنة سبع وخمسين ومائة للهجرة، وعمره يومذاك سبع وستون سنة..

سمع جماعات من التابعين، كعطاء بن أبي رباح، وقتادة، ونافع مولى ابن عمر، ومحمد بن المنكدر، والزهري..

وحدث عنه جماعات من سادات المسلمين، كمالك بن أنس، والثوري، والزهري، وهو من شيوخه، وأثنى عليه غير واحد من الأئمة. قال النووي رحمه الله: " وقد أجمع العلماء على إمامة الأوزاعي وجلالته وعلو قدره وكمال فضله.. ".

وقال أبو عمرو الشامي الدمشقي: " الأوزاعي إمام أهل الشام في عصره

(١) قرية خارج باب الفراديس من قرى دمشق.

بلا مدافعة ولا مخالفة ".

وقال الإمام مالك بن أنس رحمه الله: " كان الأوزاعي إماماً يقتدى به ".

أما سفيان بن عيينة فقال: " كان الأوزاعي إمام أهل زمانه ".

كان رحمه الله كثير العبادة، حسن الصلاة، حتى قال في حقه الوليد بن مسلم: " ما رأيت أحداً أشد اجتهاداً من الأوزاعي في العبادة ". وكان رحمه الله يقول: " من أطال القيام في صلاة الليل هوّن الله عليه طول القيام يوم القيامة " أخذ ذلك من قوله تعالى:{وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾} [الإنسان: ٢٦ - ٢٧].

كما كان، رحمه الله، إلى جانب زهده وورعه كريماً سخياً، لم يمسك شيئاً، ولم يترك يوم مات سوى سبعة دنانير كانت جهازه، وكان ينفق كل ما يأتيه في سبيل الله، وفي الفقراء والمساكين عدا عن كونه شديد التمسك بالسنة، فهو القائل: " العلم ما جاء عن أصحاب محمد ﷺ، وما لم يجئ عنهم فليس بعلم.. عليك بآثار السلف وإن رفضك الناس، وإياك وأقوال الرجال وإن زخرفوه وحسنوه، فإن الأمر ينجلي وأنت منه على طريق مستقيم.. اصبر على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل ما قالوا، وكفّ عما كفوا، وليسعك ما وسعهم.. ".

إلى جانب كونه قائماً بالحق لا يخشى في الله لومة لائم، وقد روي عن والي بيروت عند وفاة الأوزاعي رحمه الله قوله: " رحمك الله يا أبا عمرو، فقد كنتُ أخافك أكثر ممّن ولاني " أي: الخليفة.

وهو القائل: " لا يجتمع حب عثمان وعلي رضي الله عنهما إلا في قلب مؤمن.. وإذا أراد الله بقوم شراً فتح عليهم باب الجدل وسدّ عنهم باب العلم والعمل.. ".

ذكر صاحب كتاب " الأموال " أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله، وكذلك

صاحب " فتوح البلدان " البلاذري وغيرهما من المؤرخين، ما أقدم عليه نفر من أهل الذمة - النصارى - في جبل لبنان أيام العباسيين من نكث للعهود وحمل للسلاح وإعلان للفتنة والتمرد، وكيف قضى على فتنتهم الوالي العباسي صالح بن علي بن عبد الله بن عباس، وكيف أقر من بقي منهم على دينهم وردّهم إلى قراهم، ثم كيف شرّد أهل القرى وأجلاهم عن قراهم رغم عدم اشتراكهم جميعاً في هذه الفتنة..

ويذكرون كيف أن إمام أهل الشام، الأوزاعي رحمه الله، لم يرضَ بما حلّ بهم، ولم يسكت عن هذا الظلم، فما كان منه إلا أن أرسل رسالة إلى الوالي يقول فيها: "... وقد كان من إجلاء أهل الذمة من أهل جبل لبنان، ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه، ممن قتلتَ بعضهم، ورددتَ باقيهم إلى قراهم ما قد علمتَ، فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يُخرَجوا من ديارهم وأموالهم؟ وحكم الله تعالى:{وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ} [الأنعام: ١٦٤]، وهو أحق ما وقف عنده واقتدى به.. وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله ﷺ فإنه قال:﴿من ظلم معاهداً أو كلَّفه فوقَ طاقته فأنا حجيجه﴾ (أي: خصمه). وأصرّ على الوالي أن يبادر برفع هذا الظلم، وإزالة الحيف عن كاهل هؤلاء المظلومين مبيناً له ضرورة التزام مبادئ الإسلام مهما كانت الظروف.. ولقد استجاب الوالي وفعل ما طلبه الأوزاعي..

هذا على الرغم من أن الذين قاموا بالفتنة من هؤلاء النصارى نكثوا العهد، وكانوا على صلة بالبيزنطيين، يعملون لحسابهم، إضافة إلى ارتكابهم عمليات النهب والقتل وقطع الطريق وترويع الآمنين. يقول فيليب حتي اللبناني [(١)]: ".. لجأت جماعة من نصارى الجبل إلى السلاح تفادياً لمصادرات جديدة تنزل بهم، منتهزين فرصة وجود الأسطول البيزنطي في مياه طرابلس، وانقضوا من قاعدتهم وانتهبوا عدداً من قرى البقاع، وكان يتزعمهم فتى قروي عظيم البنية، بلغ من جرأته وتهوره أن أقام

(١) تاريخ سورية، ١٦٥/٢.

نفسه ملكاً، لكن العصابة اللبنانية قيدت بعد حين إلى كمين قرب بعلبك، نصبته لهم فرقة فرسان عباسية وفتكت بهم.. "

ولقد أوردتُ في هذا الجانب رواية فيليب حتي لأنه غير متهم بمعاداة هؤلاء بل بموالاتهم وحبهم والحدب عليهم.. ومع ذلك لم يقبل الأوزاعي، رحمه الله، ما لجأ إليه الوالي لكسر شوكتهم، احتياطاً وتحسباً لأمر قد يحدث مستقبلاً، فشردهم من القرى في الجبل وأسكنهم غيرها... وأصر عليه بضرورة التزام حكم الله عز وجل وإنفاذ سنة رسوله ﷺ. " وقد بلغنا أن حكم الله عز وجل أن يؤخذ العامة بعمل الخاصة، ولكن يؤخذ الخاصة بعمل العامة، ثم يبعثهم الله على أعمالهم، فأحق الوصايا أن تحفظ وصية رسول الله ﷺ " (١).

مواقف من حياة الأوزاعي:

فاطلب فضيلة الآخرة فقد فرغك لها:

دخل الأوزاعي على المهدي فوعظه وذكّره، فقال له: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى أعطاك فضل الدنيا وكفاك طلبها، فاطلب فضيلة الآخرة فقد فرّغك لها؛ فاستحسن قوله.

وأبيه لقد حدّثكم فأحسن:

وقال عمرو بن هشام: تحدّثنا عند الأوزاعي ومعنا أعرابيٌّ من بني عليم لا

---

(١) طبقات ابن سعد: ٧ / ٤٨٨، طبقات خليفة: ٣١٥ - ٣١٦، تاريخ خليفة: ٤٢٨، التاريخ الكبير: ٥ / ٣٢٦، التاريخ الصغير: ٢ / ١٢٤، المعرفة والتاريخ: ٢ / ٣٩٠ - ٣٩٧، ٤٠٨ - ٤١٠، الجرح والتعديل: ١ / ١٨٤ - ٢١٩، ٥ / ٢٦٦ - ٢٦٧، مشاهير علماء الأمصار: ١٨٠ حلية الاولياء: ٦ / ١٣٥ - ١٤٩، تاريخ ابن عساكر: ١٠ / ٣٤ / آ، وفيات الاعيان: ٣ / ١٢٧ - ١٢٨، تهذيب الكمال: خ: ٨٠٨ - ٨٠٩، تذهيب التهذيب: خ: ٢ / ٢٢٠ - ٢٢٣، تاريخ الإسلام: ٦ / ٢٢٥ - ٢٣٨، تذكرة الحفاظ: ١ / ١٧٨ - ١٨٥، ميزان الاعتدال: ٢ / ٥٨٠، عبرالذهبي: ١ / ٢٢٦ - ٢٢٧، البداية والنهاية: ١٠ / ١١٥ - ١٢٠، تهذيب التهذيب: ٦ / ٢٣٨ - ٢٤٢، طبقات الحفاظ: ٧٩، خلاصة تذهيب الكمال: ٢٣٢، شذرات الذهب: ١ / ٢٤١ - ٢٤٢.

يتكلّم فقلنا: بحقّ ما سمّيتم خرس العرب ألا تتحدث مع القوم؟ فقال: إنّ الحظّ للمرء في إذنه، وإنّ الحظّ في لسانه لغير، وقد ذكرنا ذلك للأوزاعي فقال: وأبيه لقد حدّثكم فأحسن.

دع لأهل البصرة خصلتين:

قال الأوزاعي: دع لأهل البصرة خصلتين وهما: القول بالقدر، والرّخصة بالخضخضة، واللتان لأهل الكوفة: تأخير السّحور، وشرب النبيذ، ولأهل مكة خصلتين وهما: الظّرف والمتعة، لأهل المدينة: السماع وإتيان النساء في أدبارهن، واللتان لأهل الشام: إيثار السلطان وبغض بني هاشم (١).

كسالى ينامون تحت شجرة كمثرى:

عن الأوزاعي أنه قال: كان قوم كسالى ينامون تحت شجرة كمثرى يقولون: إن سقط في أفواهنا شيء أكلنا وإلا فلا، فسقطت كمثراة إلى جانب أحدهم، فقال له الذي يليه: ضعها في فمي. قال: لو استطعت أن أضعها في فمك وضعتها في فمي (٢).

كيف رأيت صنع الله؟!:

الأوزاعي: جاءه جار له، فقال: هذا عيد وما عندنا شيء، فقال لامرأته: أعطيه ما معك؛ فقالت: معي نيف وعشرون درهمًا فأشاطره؛ فقال أعطيه كلها عسى الله أن يبعث بخير منها. فإذا رجل يدق الباب، فأذن له، فقال: أني كنت عبداً لأبيك ابتعت فاكتسبت هذه الدنانير وهي نيف وعشرون ديناراً؛ فقال: أنت حر. ثم قال لامرأته: كيف رأيت صنع الله، أعطى بكل درهم ديناراً وأعتق نسمة.

---

(١) أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، البصائر والذخائر، ٢ / ١٢٦، ٧ / ١٥٤، ٨ / ١٢، ١٦٢، ٢٠٩.
(٢) الحموي، معجم الأدباء، ١ / ٤٢٢.

نعم إن رسول الله ﷺ لم يلحن:

سئل الأوزاعي عن رجل يسمع حديث رسول الله ﷺ فيه لحن أيقيمه؟ قال: نعم إن رسول الله ﷺ لم يلحن.

يا بن أخي لك ولأصحابك، لا للحمالين:

رأى الأوزاعي شاباً بين القبر والمنبر يتهجد، فلما طلع الفجر استلقى ثم قال: عند الصباح يحمد القوم السرى؛ فقال له: يا بن أخي لك ولأصحابك، لا للحمالين.

اللحوق بمن يرجى خيره خير من البقاء مع من لا يؤمن شره:

الأوزاعي: عدنا مكحولاً فقال: اللحوق بمن يرجى خيره خير من البقاء مع من لا يؤمن شره.

الأوزاعي: ما يسرني أن هذه الألوان تجري علي وعليكم غدوة وعشياً من حلال ولا نسأل عنها يوم القيامة. قالوا: ولم يا أبا عمرو؟ قال: لأنها تقسي القلب.

بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه:

الأوزاعي: قلت لمكحول: أين ترى لي أن أنزل؟ قال: انزل حيث يصفو لك الخبز فإن الدين مع الخبز.

الأوزاعي: شكت النواويس ما تجد من نتن ريح الكفار، فأوحى الله إليها: بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه.

فمع من تريد أن تكون؟:

الأوزاعي: لو لم تكن جنة ولا نار إلا أنهما داران، دار فيها الملائكة، والمرسلون، والصديقون، والشهداء، والصالحون، ودار فيها إبليس، والشياطين، وفرعون، وهامان، وقارون، فمع من تريد أن تكون؟ (١).

(١) الزمخشري، ربيع الأبرار، ١ / ٦٣، ٩٤، ٩٦، ٢٥٧، ٢٥٩، ٣٢٤.

فكيف بمن يسفك دماء المسلمين؟

وحكي عن الأوزاعي قال: بعث إليّ المنصور فقال: لم تبطيء عنا؟ قلت: وما تريد منا؟ قال: لآخذ عنكم وأقتبس منكم. فقلت له: مهلاً فإن عروة بن رويم أخبرني أن نبي الله ﷺ قال:﴿**من جاءته موعظة من ربه فقبلها شكر الله له ذلك، ومن جاءته فلم يقبلها كانت حجة عليه يوم القيامة**﴾، مهلاً فإن مثلك لا ينبغي له أن ينام. إنما جُعلت الأنبياء رعاة لعلمهم بالرعية يجبرون الكسير ويسمنون الهزيلة ويردون الضالة فكيف من يسفك دماء المسلمين ويأخذ أموالهم؟! أُعيذك بالله أن تقول إن قرابتك من رسول الله، ﷺ، تدعوك إلى الجنة، إن رسول الله، ﷺ، كانت في يده جريدة يستاك بها فضرب بها قرن أعرابي فنزل عليه جبريل، عليه السلام، فقال: يا محمد إن الله تبارك وتعالى لم يبعثك جباراً مؤيساً مقنطاً تكسر قرون أمتك، ألق الجريدة عن يدك، فدعا الأعرابي إلى القصاص من نفسه فكيف بمن يسفك دماء المسلمين؟ إن الله عز وجل أوحى إلى من هو خير منك إلى داود، عليه السلام: يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق. وأوحى إليه: يا داود إذا أتاك الخصمان فلا يكونن لأحدهما على صاحبه الفضل فأمحوك من ديوان نبوتي.

اعلم أن ثوباً من ثياب أهل النار لو علق بين السماء والأرض لمات أهل الأرض من نتن ريحه، فكيف بمن تقمّصه؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبال الدنيا لذابت كما يذوب الرصاص حتى تنتهي إلى الأرض السابعة، فكيف بمن تقلدها؟ قال: ودخل عمرو بن عبيد على المنصور فقال: يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل يقفك ويسائلك عن مثقال ذرة من الخير والشر، وإن الأمة خصماؤك يوم القيامة، وإن الله جل وعز لا يرضى منك إلا ما ترضاه لنفسك، ألا وإنك لا ترضى لنفسك إلا بأن يعدل عليك وإن الله جل وعز لا يرضى منك إلا بأن تعدل على الرعية، يا أمير المؤمنين، إن وراء بابك نيراناً تتأجج من الجور، والله ما يُحكم وراء

بابك بكتاب ولا بسنة نبيه ﷺ، قال: فبكى المنصور. فقال سليمان بن مجالد وهو واقف على رأس المنصور: يا عمرو قد شققت على أمير المؤمنين! فقال عمرو: يا أمير المؤمنين من هذا؟ قال: أخوك سليمان بن مجالد. قال عمرو: ويلك يا سليمان! إن أمير المؤمنين يموت وإن كل ما تراه ينفد وإنك جيفة غداً بالفناء لا ينفعك إلا عمل صالح قدّمته، ولقرب هذا الجدار أنفع لأمير المؤمنين من قربك إذ كنت تطوي عنه النصيحة وتنهى من ينصحه، يا أمير المؤمنين إن هؤلاء اتخذوك سلماً إلى شهواتهم. قال المنصور: فأصنع ماذا؟ ادع لي أصحابك أولهم! قال: ادعهم أنت بعمل صالح تحدثه ومر بهذا الخناق فليرفع عن أعناق الناس واستعمل في اليوم الواحد عمالاً كلما رابك منهم ريب أو أنكرت على رجل عزلته ووليت غيره، فوالله لئن لم تقبل منهم إلا العدل ليتقربن به إليك من لا نية له فيه (١).

سيئة غطت على حسنتين!

وقال الأوزاعي: يهلك السلطان بالإعجاب والاحتجاب. فأما الإعجاب فقد ذكرناه، وأما الاحتجاب فهو أدخل الخلال في هدم السلطان وأسرعها خراباً للدول، فإنه إذا احتجب السلطان فكأنه قد مات، لأن الحجب موت حكمي فتعبث بطانته بأرواح الخلائق وحريمهم وأموالهم، لأن الظالم قد أمن أن لا يصل المظلوم إلى السلطان. ومعظم ما رأينا في أعمارنا وسمعنا من دخول المفاسد على الملوك في حجبهم عن مباشرة الأمور، ولا تزال الرعية ذا سلطان واحد ما وصلوا إلى سلطانهم، فإذا احتجب فهناك سلاطين كثيرة.

يا أيها المغرور المحتجب، احتجبت عن الرعية بالحجاب والأبواب، وجعلت دونهم جبالاً مشيدة وحظائر بالحجارة والماء والطين مانعة، وباب الله مفتوح للسائلين ليس هناك حاجب ولا بواب. قال الله تعالى:{إِلَّا مَن شَآءَ

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ١ / ١٥٢.

أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا } [الفرقان: ٥٧].

وقال معاوية: ليس بين أن يملك السلطان رعيته أو تملكه إلا الحزم أو التواني، وكماله أمران: شدة في غير إفراط ولين في غير امتهان. وسئل بزرجمهر: أي الملوك أحزم؟ فقال: من ملك جده هزله وقهر لبه هواه، وأعرب عن ضمير فعله، ولم يخدعه رضاه عن سخطه ولا غضبه عن كيده. وقال بعض الحكماء: زوال الدول في اصطناع بعض السفل، ومن طال عدوانه زال سلطانه. وقالوا: من لم يستظهر باليقظة لم تنفعه الحفظة. وقال يحيى بن خالد: أحسن ما وجدت في طراز الحكم من البلاغة: البخل والجهل مع التواضع خير من السخاء والعلم مع الكبر. فيا لها حسنة غطت على سيئتين، ويا لها سيئة غطت على حسنتين! (١).

فقطعه ومات:

قال: حدثنا الأوزاعي قال: كنا بالساحل فجيء بفحل لينزى على أمه، فأبى. فأدخلوها بيتاً، وألقوا على الباب ستراً، وجللوها بكساءٍ. قال: فلما نزا عليها وفرغ شم ريح أمه. قال: فوضع أسنانه في أصل ذكره فقطعه ومات(٢).

وقال الأوزاعي للمنصور في بعض كلامه: يا أمير المؤمنين، أما علمت أنه كان بيد رسول الله ﷺ جريدة يابسة يستاك بها ويردع بها المنافقين، فأتاه جبريل فقال: يا محمد، ما هذه الجريدة بيدك اقذفها لا تملأ قلوبهم رعباً؟ فكيف من سفك دماء المسلمين وشق أبشارهم ونهب أموالهم؟ إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، دعا إلى القصاص من نفسه بخدشة خدشها أعرابياً عن غير عمد، فقال له جبريل عليه السلام: إن الله لم يبعثك جباراً تكسر قلوب رعيتك! يا أمير المؤمنين لو أن ثوباً من النار صب على ما في الأرض لأحرقه، فكيف بمن يتقمصه؟ ولو أن ذنوباً من النار صب على ما في الأرض لأحرقه، فكيف بمن يتجرعه؟ ولو أن حلقة من

(١) الطرطوشي، سراج الملوك، ١ /٤٦.
(٢) ابن الكلبي، أنساب الخيل، ١ / ١.

سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب، فكيف بمن يسلك فيها ويرد فضلها على عاتقه؟ ودخل بعض العقلاء على سلطان فقال له: إن أحق الناس بالإحسان من أحسن الله إليه، وأولاهم بالإنصاف من بسطت يداه بالقدرة، فاستدم ما أوتيت من النعم بتأدية ما عليك من الحق [(١)].

اسم امرأة إبليس:

وسأل الرشيد الأوزاعي عن اسم امرأة إبليس فقال: تلك وليمة لم أحضرها [(٢)].

لأبشرنك يا علي، بها تبشر أمتي من بعدي:

عن الأوزاعي قال: دخلت المدينة مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: فقلت من هاهنا من الفقهاء؟ فقالوا: محمد بن المنكدر، ومحمد ابن المبشر، ومحمد بن علي - يعني ابن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، فقلت في نفسي: ليس من هؤلاء أحق أن يبدأ به من ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأتيته وقلت يا بن رسول الله: أخبرني عن قول الله عز وجل:{يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾} [الرعد: ٣٩] فقال: أخبرني أبي عن جدي عن علي عليه السلام، أنه سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم:﴿**لأبشرنك يا علي، بها تبشر أمتي من بعدي، وهي: الصدقة على وجهها، وبر الوالدين، واصطناع المعروف، وصلة الرحم تحول الشقاء سعادة، وتزيد في العمر، وتقي مصارع السوء**﴾ [(٣)].

(١) الطرطوشي، سراج الملوك، ١ / ٢٤.
(٢) الثعالبي، اللطف واللطائف، ١ / ١٠.
(٣) ابن الشجري، الأمالي الشجرية، ١ / ٣٥٠.

وبمثله يعاقب المجرم:

كان الأوزاعي يكره لبس السواد ويقول: يلبس في المأتم، وبمثله يعاقب المجرم، ولم أره على محرم، ولا جليت به عروس، ولا كفن فيه ميت (١).

إن كانت لهم حلالاً فهي عليكم حرام:

قال حدثنا عبد الرحمن الأوزاعي، قال: بعث إلى عبد الله بن علي وأعظمني ذلك واشتد على فأقدمت وأدخلت عليه والناس قيام سماطين بين يديه في أيديهم المكافر كوبات فأدناني ثم قال لي: يا عبد الرحمن ما تقول في مخرجنا هذا؟ فقلت: أصلح الله الأمير قد كانت بيني وبين أخيك داود مودة فأعفني، قال: لتخبرني، فقلت: لأصدقنه واستبسلت للموت، فقلت: حدثني يحيى بن سعيد الأنصاري عن محمد بن إبراهيم عن علقمة بن وقاص سمع عمر بن الخطاب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول:﴿إِنَّما الأَعْمالُ بِالنِّيَّاتِ وَلِكُلِّ امرِئ ما نَوَى، فَمَنْ كانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىَ الله وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى الله وَرَسُولِهِ وَمَنْ كانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىَ دُنْيا يُصِيبُها أو امْرَأَةٍ يَنْكُحَها فَهِجْرَتُهُ إِلَىَ ما هاجَرَ إِلَيْهِ﴾ قال: وفي يده قضيب ينكث به الأرض، فقال: يا عبد الرحمن ما تقول في قتلنا أهل هذا البيت من بني أمية؟ فقلت: كما قلت قال: لتخبرني فقلت: حدثني محمد بن مروان عن مطرف بن الشِّخِّير عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ :﴿لا يَحِلُّ قَتْلُ الْمُسْلِمِ إلاَّ بِإِحِدْىَ ثَلاثٍ الْبَارِئ لِدِينِه أَوْ رَجُلٌ قَتَلَ نَفْساً فَيُقْتَلُ بِها أَوْ رَجُلٌ زَنَى بَعْدَ إِحْصَانٍ﴾ قال: ثم أطرق هوياً، ثم قال: أخبرني عن الخلافة أهي وصية من رسول الله صلى الله عليه؟ فورد على مثل ما ورد ثم قلت: لأصدقنه. فقلت: لو كانت وصية من النبي صلى الله عليه لكم ما ترك علي عليه السلام أحداً يتقدمه، ثم سكت سكتة وقال: ما تقول في أموال بني أمية؟ فاستعفيت فقال: لتخبرني فقلت: إن كانت لهم حلالاً فهي عليكم حرام، وإن كانت لهم حراماً فهي عليكم حرام، قال: ثم

(١) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١ /٤٧٨.

أمرني فأخرجت [١].

لا تقل ذلك:

وقال الأوزاعي، عن عبدة بن أبي لبابة قال: إذا التقى المسلمان فتصافحا وتبسم كل واحد منهما لصاحبه تحاتت خطاياهما كما يتحات ورق الشجر فقلت: إن هذا ليسير، فقال: لا تقل ذلك فإن الله يقول:{لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ} [الأنفال: ٦٣]، فعلمت أنه أفقه مني [٢].

أنت مستقتل لا يحل لأحد أن يصحبك:

وكان سفيان بمكة فمرض ومعه الأوزاعي، فدخل عليه عبد الصمد بن علي فحول وجهه إلى الحائط، فقال الأوزاعي لعبد الصمد: إن أبا عبد الله سهر البارحة فلعله أن يكون نائماً، فقال سفيان: لست بنائم، لست بنائم، فقام عبد الصمد، فقال الأوزاعي لسفيان: أنت مستقتل لا يحل لأحد أن يصحبك.

إن شئت رددت الجرة وكتبت لك:

أهدى رجل نصراني إلى الأوزاعي جرة عسل وقال له: يا أبا عمرو، تكتب لي إلى والي بعلبك فقال: إن شئت رددت الجرة وكتبت لك، وإلا قبلت الجرة ولم أكتب لك. قال: رد الجرة فردها وكتب له فوضع عنه ثلاثين ديناراً [٣].

واحدة بأخرى والبادي أظلم:

الأوزاعي قال: دخل خريم الناعم على معاوية فنظر إلى ساقيه فقال: أي ساقين لو إنهما على جارية! قال: في مثل عجيزتك يا أمير المؤمنين: قال معاوية: واحدة بأخرى والبادي أظلم [٤].

---

(١) الصولي، أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم، ١ /١٠٣.
(٢) أبو حيان التوحيدي، الصداقة والصديق، ٤٥/١.
(٣) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ٤١/١ - ٤٢.
(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٣ / ١٧٥.

من أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السماء والأرض:

قال الأوزاعي: شكت النواويس إلى الله تعالى ما تجد من نتن ريح الكفار فأوحى الله إليها بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه وقال علي رضي الله عنه من أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السماء والأرض ولصالح اللخمي شعر:

تعلم إذا ما كنت لست بعالم :: فما العلم إلا عند أهل التعلم
تعلم فإن العلم أزين للفتى :: من الحلة الحسناء عند التكلم [١]

بين الأوزاعي والخليفة المنصور:

قال الأوزاعى: دخلت على المنصور فقال لي: ما الذى بطأ بك عنى قلت: يا أمير المؤمنين وما الذى تريد منى؟ فقال: الاقتباس منك قلت: انظر ما تقول فإن مكحولاً حدثنى عن عطية بن بشير أن رسول الله ﷺ قال:﴿من بلغه عن الله نصيحة في دينه فهى رحمة من الله سيقت إليه فإن قبلها من الله بشكر وإلا كانت حجة من الله عليه ليزداد إثمًا وليزداد عليه غضبًا وإن بلغه شيء من الحق فرضى فله الرضا وإن سخط فله السخط ومن كرهه فقد كره الله لأن الله هو الحق المبين فلا تجهلن﴾ قال: وكيف أجهل قال: تسمع ولا تعمل بما تسمع قال الأوزاعى: فسل على الربيع السيف وقال: تقول لأمير المؤمنين هذا فانتهره المنصور وقال: أمسك ثم كلمه الأوزاعى وكان في كلامه أن قال: إنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذى أصبحت به والله سائلك عن صغيرها وكبيرها وفتيلها ونقيرها ولقد حدثنى عروة بن رويم أن رسول الله قال:﴿ما من راع يبيت غاشًا لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة﴾ فحقيق على الوالى أن يكون لرعيته ناظرًا ولما استطاع من عوراتهم ساترًا وبالقسط فيما بينهم قائمًا لا يتخوف محسنهم منه رهقًا ولا مسيئهم عدوانًا

(١) الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ١ / ٥٢.

فقد كانت بيد رسول الله جريدة يستاك بها ويردع عنه المنافقين فأتاه جبريل فقال: يا محمد ما هذه الجريدة بيدك اقذفها لا تملأ قلوبهم رعبًا فكيف من سفك دماءهم وشقق أبشارهم وأنهب أموالهم يا أمير المؤمنين إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه بخدش خدشه أعرابيًا لم يتعمده فهبط جبريل فقال: يا محمد إن الله لم يبعثك جبارًا تكسر قرون أمتك واعلم أن كل ما في يدك لا يعدل شربة من شراب الجنة ولا ثمرة من ثمارها قال رسول الله:﴿**لقاب قوس أحدكم من الجنة أو قذة خير له من الدنيا بأسرها**﴾ إن الدنيا تنقطع ويزول نعيمها ولو بقى الملك لمن قبلك لم يصل إليك يا أمير المؤمنين ولو أن ثوبًا من ثياب أهل النار علق بين السماء والأرض لآذاهم فكيف من يتقمصه ولو أن ذنوبًا من صديد أهل النار صب على ماء الأرض لآجنه فكيف بمن يتجرعه ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب فكيف من سلك فيها ويرد فضلها على عاتقه وقد قال عمر بن الخطاب: لا يقوم أمر الناس إلا حصيف العقدة بعيد الغرة لا يطلع الناس منه على عورة ولا يحنق في الحق على جرة ولا تأخذه في الله لومة لائم.

واعلم أن السلطان أربعة أمير يظلم نفسه وعماله فذلك له أجر المجاهد في سبيل الله وصلاته سبعون ألف صلاة ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف وأمير رتع ورتع عماله فذاك يحمل أثقاله وأثقالاً مع أثقاله وأمير يظلف نفسه ويرتع عماله فذاك الذى باع آخرته بدنيا غيره وأمير يرتع ويظلف عماله فذاك شر الأكياس واعلم يا أمير المؤمنين أنك قد ابتليت بأمر عظيم عرض على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنه وأشفقن منه وقد جاء عن جدك في تفسير قول الله عز وجل:{لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا} [الكهف: ٤٩] أن الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك وقال فما ظنكم بالكلام وما عملته الأيدى فأعيذك بالله أن يخيل إليك أن قرابتك برسول الله تنفع مع المخالفة لأمره فقد قال رسول الله:﴿**يا صفية عمة محمد ويا فاطمة**

بنت محمد استوهبا أنفسكما من الله إني لا أغني عنكما من الله شيئا﴾ وكان جدك الأكبر سأل رسول الله إمارة فقال: أي عم نفس تحييها خير لك من إمارة لا تحصيها نظرًا لعمه وشفقة عليه أن يلي فيجور عن سنته جناح بعوضة فلا يستطيع له نفعًا ولا عنه دفعًا هذه نصيحتى إن قبلتها فلنفسك عملت وإن رددتها فنفسك نحست والله الموفق للخير والمعين عليه قال: بلى، نقبلها ونشكر عليها وبالله نستعين[١].

الطريق للشيخ:

وفي تاريخ ابن خلكان أن سفيان الثوري بلغه مقدم الأوزاعي، فخرج إلى ملتقاه فلقيه بذي طوى، فحل سفيان خطام بعيره من القطار ووضعه على رقبته، فكان إذا مر بجماعة قال: الطريق للشيخ.

مثل الشياطين في كثرتهم:

قال الأوزاعي حدثني حسان قال: " إنما مثل الشياطين في كثرتهم كمثل رجل دخل زرعاً فيه جراد كثير، فكلما وضع رجله تطاير الجراد يميناً وشمالاً ولولا أن الله عز وجل غض البصر عنهم، ما رئي شيء إلا وعليه شيطان ".

رأيت رب العزة في المنام:

قال الأوزاعي رحمه الله تعالى: رأيت رب العزة في المنام، فقال لي: يا عبد الرحمن أنت الذي تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر. قلت: بفضلك يا رب. ثم قلت: يا رب أمتني على الإسلام. فقال عز وجل: وعلى السنة أيضاً. وتوفي رحمه الله، في شهر ربيع الأول سنة سبع وخمسين ومائة، وكان سبب موته أنه دخل حمام بيروت، وكان لصاحب الحمام شغل، فأغلق الباب عليه، وذهب ثم جاء وفتح الباب، فوجده ميتاً قد وضع يده

(١) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية - بيروت، ٣/ ٥١.

اليمنى تحت خده، وهو مستقبل القبلة. وقيل: إن امرأته فعلت ذلك به ولم تكن عامدة لذلك[١].

فأي نعمة من نعم الله عليك تحمده عليها؟!

حدث الأوزاعي عن عبد الله بن محمد قال: خرجت إلى ساحل البحر مرابطاً وكان رباطنا يومئذ عريش مصر، قال: فلما انتهيت إلى الساحل فإذا أنا ببطيحة وفي البطيحة خيمة فيها رجل قد ذهب يداه ورجلاه وثقل سمعه وبصره وما له من جارحة تنفعه إلا لسانه وهو يقول: اللهم أوزعني أن أحمدك حمداً أكافئ به شكر نعمتك التي أنعمت بها علي وفضلتني على كثير ممن خلقت تفضيلاً؛ قال الأوزاعي: قال عبد الله: قلت: والله لآتين هذا الرجل ولأسألنه أنى له هذا الكلام؟! فهمٌ أم علمٌ أم إلهامُ ألهم، فأتيت الرجل فسلمت عليه فقلت: سمعتك وأنت تقول: اللهم أوزعني أن أحمدك حمداً أكافئ به شكر نعمتك التي أنعمت بها علي وفضلتني على كثير ممن خلقت تفضيلاً فأي نعمة من نعم الله عليك تحمده عليها؟! وأي فضيله تفضل بها عليك تشكره عليها؟! قال: وما ترى ما صنع ربي؟! والله لو أرسل السماء علي ناراً فأحرقتني وأمر الجبال فدمرتني وأمر البحار فغرقتني وأمر الأرض فبلعتني ما ازددت لربي إلا شكراً لما أنعم علي من لساني هذا؛ ولكن يا عبد الله إذ أتيتني لي إليك حاجة قد تراني على أي حالة أنا أنا لست أقدر لنفسي على ضر ولا نفع، ولقد كان معي بني لي يتعاهدني في وقت صلاتي فيوضيني وإذا جعت أطعمني وإذا عطشت سقاني ولقد فقدته منذ ثلاثة أيام فتحسسه لي رحمك الله فقلت: والله ما مشى خلق في حاجة خلق كان أعظم عند الله أجراً ممن يمشي في حاجة مثلك فمضيت في طلب الغلام فما مضيت غير بعيد حتى صرت بين كثبان من الرمل فإذا أنا

(١) كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري، حياة الحيوان الكبرى، تحقيق: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة: الثانية١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، ١ / ١٩٨، ٢٧٠.

بالغلام قد افترسه سبع وأكل لحمه فاسترجعت وقلت: أنى لي وجه رقيق آتي به الرجل؟! فبينما أنا مقبل نحوه إذ خطر على قلبي ذكر أيوب النبي ﷺ فلما أتيته سلمت عليه فرد علي السلام، فقال: ألست بصاحبي؟ قلت: بلى؛ قال: ما فعلت في حاجتي؟ فقلت: أنت أكرم على الله أم أيوب النبي؟ قال: بل أيوب النبي؛ قلت: هل علمت ما صنع به ربه؟ أليس قد ابتلاه بماله وآله وولده؟ قال: بلى، قلت: فكيف وجده؟ قال: وجده صابراً شاكراً حامداً؛ قلت: لم يرض منه ذلك حتى أوحش من أقربائه وأحبائه؟ قال: نعم؛ قلت: فكيف وجده ربه؟ قال: وجده صابراً شاكراً حامداً؛ قلت: فلم يرض منه بذلك حتى صيره غرضاً لمار الطريق هل علمت؟ قال: نعم؛ قلت: فكيف وجده ربه؟ قال: صابراً شاكراً حامداً، أوجز رحمك الله؛ قلت له: إن الغلام الذي أرسلتني في طلبه وجدته بين كثبان الرمل وقد افترسه سبع فأكل لحمه فأعظم الله لك الأجر وألهمك الصبر، فقال المبتلى: الحمد لله الذي لم يخلق من ذريتي خلقاً يعصيه فيعذبه بالنار ثم استرجع وشهق شهقة، فمات؛ فقلت: إنا لله وانا إليه راجعون؛ عظمت مصيبتي؛ رجل مثل هذا إن تركته أكلته السباع وإن قعدت لم أقدر على ضر ولا نفع؛ فسجيته بشملة كانت عليه وقعدت عند رأسه باكياً فبينما أنا قاعد إذ تهجم علي أربعة رجال فقالوا: يا عبد الله ما حالك وما قصتك؟ فقصصت عليهم قصتي وقصته، فقالوا لي: اكشف لنا عن وجهه فعسى أن نعرفه فكشفت عن وجهه فانكب القوم عليه يقبلون عينيه مره ويديه أخرى ويقولون: بأبي عين طال ما غضت عن محارم الله وبأبي جسم طال ما كان ساجداً والناس نيام؛ فقلت: من هذا يرحمكم الله؟! فقالوا: هذا أبو قلابة الجرمي صاحب ابن عباس، لقد كان شديد الحب لله وللنبي ﷺ؛ فغسلناه وكفناه بأثواب كانت معنا وصلينا عليه ودفناه فانصرف القوم وانصرفت الى رباطي فلما أن جن علي الليل وضعت رأسي فرأيته فيما يرى النائم في روضة من رياض الجنة وعليه حلتان من حلل الجنة وهو يتلو الوحي:{سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا

صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)} [الرعد: ٢٤]، فقلت: ألست بصاحبي؟ قال: بلى، قلت: أنى لك هذا؟ قال: إن لله درجات لا تنال إلا بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء مع خشية الله عز وجل في السر والعلانية.

كلنا قد هداه الله:

بينما الأوزاعي عند الخليفة المنصور ذات يوم إذ خرجت عليهم جارية فقالت: يا سيدي من هذا الشيخ؟ قال: هذا الأوزاعي: قالت فإن سيدتى تريد أن تسأله عن مسألة قال: فقال لها: فلتسأل عما بدا قال: فقالت: إنها كانت في أرضها إذ هجمت عليهم خيل العرب فالتجاؤوا إلى غار ومعها بنى لها وضعت يدها على فمه مخافة أن يصيح فيدل عليهم فما رفعت يدها عن فيه إلا وهو ميت فهل عليها فيه شيء؟ وهل لها كفارة لما صنعت؟ فقال الأوزاعي: أكان هذا منها قبل الإسلام أو بعده؟ قالت: قبل الإسلام قال: فإن الإسلام قد هدم ما كان قبله وأحب أن تعتق رقبة قال: فسألت عن ولده فأخبرت بأن الأوزاعي: له ثلاث بنات قال فأخرجت إليه ثلاث درات هدية لهن فلما قدم عليهن قال: لهن إن هؤلاء الدرات أهدين لكن ولا يصلحن إلا مع شبههن من الحلى ولكني رأيت رأيا إن أحببتن فعلته قال: قلن وما هو؟ قال: نبيعهن ونتاجر بأثمانهن حتى لعل الله أن ينفعكن وإيانا به قلن: نعم فبعث بهن إلى دمشق فبعن بثمانين ومائتى دينار وكان مدخل الشتاء قال: فأمر الذي باعهن أن يشترى له قطيفًا وانجبانيات وبعث بهن إليه قال أبو الفضل: فأخبرني هذا الرجل أنه حدثه بعض أشياخ المدينة يعنى بيروت أنه صار إليه انبجانيتان منها وفقده أبو جعفر فقال لعبد الوهاب بن إبراهيم الهاشمي عامله على دمشق والمهدى عنده: ألم أوجه إليك كتابي إلى عبد الرحمن قال: بلى يا أمير المؤمنين وأنفذته قال: يقول المهدى قد والله يا أمير المؤمنين جاءني فسلم على وهنأنى بما أسند إلى أمير المؤمنين من الخلافة ودعا لي دعاء وقع برده على قلبي وأخبره بما حدث به أنه استأذننى في الرجوع إلى مكتبة وأعلمنى أن في إذنى له خلقًا من إذنك

فقال أبو جعفر للمهدى: فعلتها يا أبا عبد الله قال: قد كان ذا قال: ارحلوا حدثنا عبد الرحمن نا على بن الحسن الهسنجاني نا أحمد يعنى بن صالح قال: سمعت بن أبى ذئب يحدث سفيان الثوري بدخوله على أبى جعفر وكلامه له فذكر قصة لا أحفظها كما أحب قال بن أبى ذئب: فقلت له: أخبرني أنصح لك من المهدى فقال: بأى شيء حل لك أن تقول المهدى قال بن أبى ذئب: كلنا قد هداه الله (١).

من كلام الأوزاعي:

العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر فإن صرع وجد متكأ ليناً (٢).

المؤمن يقل الكلام ويكثر العمل (٣).

قال عمر بن عبد العزيز: لو جاءت كل أمة بخبيثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم (٤).

قال الأوزاعي عن مكحول: إن كان في الجماعة الفضيلة فإن في العزلة السلامة (٥).

قال الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير أنه قال: ما صلح منطق رجل إلا عرف ذلك في سائر عمله.

حدث عقبة بن علقمة ومبشر بن إسماعيل أنهما سألا الأوزاعي ما إكرام الضيف قال: طلاقة الوجه وطيب الكلام.

عن الأوزاعي قال: أنبئت أنه كان يقال: ويل للمتفقهين لغير العبادة

(١) عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس أبو محمد الرازي التميمي، الجرح والتعديل، ١ / ٢١٠.

(٢) أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تحقيق: د. إحسان عباس و د. عبدالمجيد عابدين، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣، ١ / ٢٤٧.

(٣) أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ١ / ٢٩١.

(٤) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة: الأولى ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، ٢١ / ٢٠٢.

(٥) الجاحظ، البيان والتبيين، ١ / ٤٧٥.

والمستحلين الحرمات بالشبهات.

الأوزاعي يقول: ما بلى أحد في دينه ببلاء أضر عليه من طلاقة لسانه [١].

عن الأوزاعي قال: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رحمه الله برسالة لم يحفظها غيري وغير مكحول: أما بعد فإنه من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير ومن عد كلامه من عمله قل كلامه فيما لا ينفعه.

قال الأوزاعي: نعم وزير العلم الرأي الحسن [٢].

عن الأوزاعي قال: " لا يكون في آخر الزمان شيء أعز من أخ مؤنس، أو كسب درهم من حله، أو سنة معمول بها " [٣].

الأوزاعي: ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً.

الأوزاعي: من عمل بما يعلم كان حقاً على الله أن يعلمه ما لا يعلم ويوفقه فيما يعلم، حتى يستوجب بذلك الجنة.

الأوزاعي: الفار من عياله كالآبق، لا يقبل منه صوم ولا صلاة لا يرجع إليهم.

الأوزاعي: إذا أراد الله بقوم شراً أعطاهم الجدل ومنعهم العمل [٤].

عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير قال: لا يتعلم من استحيا وتكبر.

قال الأوزاعيّ: إذا أراد الله بقوم شراً ألزمهم الجدل، ومنعهم العمل.

حدث محمد بن شعيب بن سابور، قال: سمعت الأوزاعي ينشد هذه الأبيات:

---

(١) محمد بن حبان البستي أبو حاتم، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٣٩٧ - ١٩٧٧، ١ / ٤٦، ٤٧، ٢٦١.
(٢) ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، ٢٩/١.
(٣) ابن الشجري، الأمالي الشجرية، ١ /٤٨٢.
(٤) الزمخشري، ربيع الأبرار، ١ / ٣٠٥، ٣٢٤، ٣٢٦، ٣٦٥.

إذا كـــان الخطـــاء أقـــل ضـــراً ::: وأنجحَ بـــالأمور مـــن الصـــوابِ
وكان النّـــوك مَحْمـــوداً مـــذالاً ::: وكان الـــدهر يرجـــع بـــانقلابِ
وعطّلـــت المكـــارمُ والمعـــالي ::: وأُغلقَ دون ذلـــك كـــلُّ بـــابِ
ويوعد كل ذي حَسَـــب وديـــنٍ ::: وقُرِّب كـــل مهتـــوك الحجـــابِ
فمـــا أحـــدٌ أضـــنَّ بمـــا لديـــه ::: من المتحـــرج المحْـــضِ اللُّبـــاب(١)

قال الأوزاعيّ: الصاحب للصاحب كالرقعة للثوب، إن لم تكن مثله شانته.

قال الأوزاعي: خمسة كان عليها أصحاب محمد ﷺ والتابعون بإحسان: لزوم الجماعة، واتباع السنة، وعمارة المسجد، وتلاوة القرآن، والجهاد في سبيل الله.

روى الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير، قال: إن الملك ليصعد بعمل العبد مستفتحاً به، حتى إذا انتهى إلى ربه قال: اجعلوه في سجين، إني لم أرد بهذا. قال الأوزاعي: فما ظنك بما قد خفي عن الملك (٢).

من مواعظ الأوزاعي:

عن الأوزاعي أنه وعظ فقال في موعظته: أيها الناس تقووا بهذه النعم التي أصبحتم فيها، على الهرب من نار الله عز وجل الموقدة التي تطلع على الأفئدة، فإنكم في دار الثواء فيها قليل، وأنتم فيها تؤجلون، خلائف بعد القرون الذين استقبلوا من الدنيا أنفها وزهرتها، فهم كانوا أطول منكم أعماراً وأمدَّ أجساماً وأعظم آثاراً؛ فخدّوا الجبال وجابوا الصخور ونقبوا البلاد مؤيدين ببطش شديد وأجسام كالعماد، فما لبثت الأيام والليالي أن طوت مدتَهم وعفتْ آثارَهم وأخوتْ منازلَهم وأنستْ ذكرَهم، فما تحس منهم من أحد ولا تسمع لهم ركزاً؛ كانوا بلهو الأمل آمنين لبيات قوم غافلين أو لصباح قوم نادمين؛ ثم إنكم قد علمتم الذي نزل بساحتهم بياتاً من عقوبة الله عز وجل فأصبح كثير منهم في ديارهم جاثمين وأصبح الباقون ينظرون

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٣/١ - ٤، ٩٣، ١٥٧.
(٢) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ١ / ١١٩، ١٥٠، ٢٠١، ٢١٨.

في آثار نقمة الله وزوال نعمه ومساكن خاوية فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم وعبرة لمن يخشى؛ وأصبحتم من بعدهم في أجل منقوص ودنيا مقبوضة، في زمان قد ولى عفوه وذهب رخاؤه فلم يبق منه إلا حمأة شر وصُبابة كدر وأهاويل عبر وعقوبات غبر وأرسال فتن وتتابع زلازل ورذالة خلف بهم ظهر الفساد في البر والبحر، فلا تكونوا أشباهاً لمن خدعه الأمل وغره طول الأجل فتبلَّغ بالأماني؛ نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن وعى نذره فانتهى وعقل سراه فمهد لنفسه.

رسالته إلى المهدى في شفاعة لقوم:

عن الأوزاعي أنه كتب إلى المهدى أما بعد هدى الله الأمير فيما ابتلاه للتى هى أقوم ووقاه تبعته ولقاه حجته فإن من نعمة الله عليه وحسن بلائه عنده أن جعله يعرف بالعفو وخفض الجناح وطلب التجاوز عن أصحاب الجرائم عند خليفتهم وحضور أمور رعيته بما تطلع عليه أنفسها وتنبسط في رجائها فيه قلوبها فبلغ الله الأمير فوائد الزيادة في الخير وحسن المعونة على الشكر ثم إنه كان من رأى أمير المؤمنين في تلك العصابة الذين تسللوا من بعثهم ما قد بلغه من البعثه بهم إليه مشاة على أقدامهم من الشام مقرنين في السلاسل حتى قدموا منذ أعوام ثم وضعوا في ضيق من الحبس وجهد من الضرر وقد كان من رسول الله ﷺ في النفر الثلاثة الذين تخلفوا عنه في غزوة تبوك أن أوقف أمرهم ونهى الناس عن كلامهم حتى نزل فيهم حكم الله بالتوبة عليهم والمعاتبة لهم وأن عمر بن الخطاب أغفل أعقاب بعثه عن الإبان الذي كان يعقبهم فيه فقفلوا بغير إذن فأرسل إليهم أن يجتمعوا له في دار فعرفهم ماصنعوا فأشرف عليهم وتواعدهم وعيدًا شديدًا ثم عفا عنهم والمؤمنين أصلح الله الأمير بعضهم من بعض وولاتهم يقتدي موفق آخرهم بصالح ما مضى عليه أولهم فإن رأى الأمير أذاقه الله عفوه في الآخرة بحبه التبريد عن رعيته وقصد العقوبة فيهم رجاء أن يطلب لهم من أمير المؤمنين أصلحه الله عفوه والتجاوز عنهم فعل فإنه منه

بحيث يعرف قوله وعند تدبر الأمور فضله جمع الله للأمير ألف رعيته ورزقهم رحمته والرأفة بهم وجعل ثوابه منهم مغفرته والخلود في رحمته والسلام عليك ورحمة الله.

رسالة الأوزاعي إلى وزير الخليفة أبى عبيد الله في كتاب من الخليفة بتخليه محبوس:

عن الأوزاعي أنه كتب إلى أبى عبيد الله أما بعد: قسم الله لك ولما أنت فيه عاصمًا من سخطه ونية تعمل عليها وتؤدى بها حق من يلزمك فيما وجدت السبيل إليه طلب الفرج عنه إذا استغاث بك وكنت رجاءه في نفسه بإذن الله وأنه لا يزال من أولئك متوسل بي إليك فلا آلوك فيه نصحًا وعند العقاب ومعاينة الحساب لا تستكثر عملاً ولا تستقل ذنبًا فألهمك الله ذكره وطلب الوسيلة عنده ثم إن يزيد بن يحيى الخشني في حبس أمير المؤمنين أصلحه الله وكان من أعوان بن الأزرق ولم يبلغنى عنه سوء قرف به وقد طالت إقامته فيه فإن رأيت رحمك الله أن يكون من المهدى كتاب إلى أمير المؤمنين أصلحه الله فيه يذكر من أمره ما نرجو تخلصه به مما هو فيه من ضرر الحبس فعلت أعانك الله على الخير وجعله أغلب الأمور عليك وآثرها عندك والسلام عليك ورحمة الله حدثنا عبد الرحمن ثنا العباس بن الوليد بن مزيد أخبرني أبى عن الأوزاعي أنه كتب أما بعد جعل الله الأمير ممن ألهمه الخير واستأنف به عمره وجعل فيه قوته وإلى ثوابه منقلبه فإن الأمير أصلحه الله من المسلمين ومن خليفتهم بالمكان الذي ليس به أحد غيره وأنه غاية عامة من ابتلى فوجد على الشخوص إليه قوة للنظر في أموره والبلاغ منه حتى يفرج الله عنه بليته أو يتخذ منه عند السؤال عذرًا جعل الله الأمير ممن يعضد ضعيف أمته ويهتم بأمر عوامهم ويرق على صاحب البلية منهم بما عسى الله أن يخلصه به منها ويوفيه عند الحاجة إليه أجره وقد كان أصلح الله الأمير إسماعيل بن الأزرق في ولايته على بعلبك فلم يبلغنا عنه إلا عفافًا وقصدًا وقد كان من عقوبة أمير المؤمنين

أصلحه الله إياه في بشره وشعره ووضعه في الحبس قبله ما قد علم الأمير فلم يبلغنا أن ذلك كان عن خيانة ظهرت منه ولا وصف بها إلا أن يكون تعلق عليه لضعف وقد كان الرجل إذا ولى ثم عزل فبلى منه أمانة حمد وخلى سبيله أو حبس فاستعين به فإن رأى الأمير أن يهتم بأمره ويعرف حاله في العذر ومبلغه من السن فيكلم أمير المؤمنين في سراحه وتخلية سبيله فعل فإن الأمير من يعرف أمير المؤمنين نصحه وفضله إذا تدبر رأيه وهو من لا يخاف جبيهته ولا غلطته وما أدى الأمير إليه من حق رعيته فسيجده عند الثواب موفرًا وجزاءه به مضعفًا إن شاء الله أسال الله أن يجزى الأمير بأحسن سعيه ويبلغه في قوله وفعله رضوانه والخلود في رحمته والسلام عليك ورحمة الله.

رسالة الأوزاعي إلى المهدى بن أمير المؤمنين في شفاعة لأهل مكة في تقويتهم:

عن الأوزاعي أنه كتب الى المهدى أما بعد فان الله عز وجل جعل رسوله ﷺ لمن بعده من ولاة المؤمنين إمامًا وقدوة وأسوة حسنة في رحمته بأمته والرأفة عليهم وخفض جناحه لهم في عفوه عنهم قال الله عز وجل في صفة رسوله بالمؤمنين رؤف رحيم فأسأل الله أن يعزم لأمير المؤمنين والأمير على الصبر بالتشبه بنبيه ﷺ والاعتصام بسنته ومنافسة الأخيار أعمال البر ويجعل ثوابهما في يوم البعث الأمن والإفضاء إلى رضوان الله عز وجل وقد أصبح الأمير حفظه الله من خليفة المسلمين بحال الأمين المصدق إن شكا لمن مسه الضر من أمته لم يتهم نصحه ولم يجبه قوله وإن دافع عنهم رهقا أو طلب لهم عفوًا أخذ بقلب الخليفة توفيقه وأحدث له بما ألقى إليه من الفضل سرورًا إن شاء الله فجعل الله الأمير لأمته أمنًا ومألفًا ورضاهم به وأخذ بأفئدتهم إليه ثم إنه أتاني من رجل من مقانع أهل مكة كتاب يذكر الذي هم فيه من غلاء أسعارهم وقلة ما بأيديهم منذ حبس عنهم بحرهم وأجدب برهم وهلكت مواشيهم هزلاً فالحنطة فيهم مدان

بدرهم والذرة مدان ونصف بدرهم والزيت مد بدرهم ثم هو يزداد كل يوم غلاء وإنه إن لم يأتهم الله بفرج عاجلاً لم يصل كتابي حتى يهلك عامتهم أو بعضهم جوعًا وهم رعية أمير المؤمنين أصلحه الله والمسئول عنهم وقد حدثني من سمع الزهرى يقول أن عمر بن الخطاب في عام الرمادة وكانت سنة شديدة ملحة من بعد ما اجتهد في إمداد الأعراب بالإبل والقمح والزيت من الأرياف كلها حتى بلحت مما أجهدها قام يدعو الله عز وجل فقال: اللهم اجعل أرزاقهم على رءوس الظراب فاستجاب الله عز وجل له وللمسلمين فأغاث عباده فقال عمر: والله لو أن الله عز وجل لم يفرجها ما تركت أهل بيت لهم سعة إلا أدخلت عليهم أعدادهم من الفقراء فإنه لم يكن اثنان يهلكان من الطعام على ما يقيم الواحد فبلغنا أنه حمل إلى عمر من مصر وحدها ألف ألف أردب وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال:﴿**هل عسى أحدكم أن تبيت فصاله رواء وجاره طاو إلى جنبه**﴾ فإن رأى الأمير أصلحه الله أن يلح على أمير المؤمنين في إغاثة أهل مكة ومن حولهم من المسلمين في بره وبحره بحمل الطعام والزيت إليهم قبل أن يبتلى بهلاك أحد منهم جوعًا فعل وقد حدثني داود بن على أن عمر بن الخطاب قال لو هلكت شاة على شاطئ الفرات ضياعًا ظننت أن الله عز وجل سيسألنى عنها وإنما الأمر واحد وكل من العدل في الحكم عليه يوم القيامة مشفق إلا أن يعفو الله عز وجل ويرحم وهى أمتكم وأحق من خلفتم فيها بالعفو والرأفه رسول الله ﷺ ألحقكم الله به مصلحين وأوردكم عليه بإحسان والسلام كتب في خمس من شهر ربيع الآخر سنة ثنتين وخمسين ومائة.

رسالة الأوزاعي إلى أمير المؤمنين شفاعة في زيادة أرزاق أهل الساحل:

عن الأوزاعي أنه كتب أما بعد: ولى الله لأمير المؤمنين أموره بما ولى به أمور من هدى واجتبى وجعله بهم مقتديًا فإن أمير المؤمنين أصلحه الله كتب إلى أن ألا أدع أعلامه كلما فيه صلاح عامة وخاصة فإن الله عز

وجل يأجر على من عمل به ويحسن عليه الثواب وأنا أسأل الله عز وجل أن يلهم أمير المؤمنين من أعمال البر ما يبلغه به عفوه ورضوانه في دار الخلود وقد كان أمير المؤمنين حفظه الله قصر بأهل الساحل على عشرة دنانير في كل عام سلفًا من عطياتهم وأمير المؤمنين أصلحه الله إن نظر في ذلك عرف أنه ليس في عشرة دنانير لامرئ ذي عيال عشرة أو أدنى من ذلك أو أكثر كفاف وأن قوت عشرة وقتر على عياله فربما جمع الرجل عشرته في غلاء السعر في شراء طعام لعياله ما يجد منه بدًا ثم يدان بعد ذلك في إدامهم وكسوتهم وما سوى ذلك من النفقه عليهم في عشرة لقابل ولو أجرى عليهم أمير المؤمنين أصلحه الله في أعطياتهم سلفًا في كل عام خمسة عشر دينارًا ما كان فيها عن مصلح ذي عيال فضل ولاقدر كفاف وأهل الساحل بمنزل عظيم غناؤه عن المسلمين فإنه لا يستمر لبعوث أمير المؤمنين فصول إلى ثغوره ولا سياحة في بلاد عدوهم حتى يكون من وراء بيضتهم وأهل ذمتهم بسواحل الشام من يدفع عنهم عدوًا إن هجم عليهم وأنهم إذا كان القيظ تناوبوا الحرس على ساحل البحر رجالاً وركبانًا وإذا كان الشتاء قاسوا طول الليل وقرة ووحشته حرسًا في البروج والناس خلفهم في أجنادهم في البيوت والأدفاء فإن رأى أمير المؤمنين حفظه الله أن يأمر لهم في أعطياتهم قدر الكفاف ويجريه عليهم في كل عام فعل وقد تصرمت السنة التي كانت تأتيهم فيها عشراتهم ودخلوا في غيرها حتى اشتدت حاجتهم وظهر عليهم ضرها وهم رعية أمير المؤمنين والمسئول عنهم فإنه راع وكل راع مسئول عن رعيته وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ قال:﴿إنه لحبيب إلى أن أفارق الدنيا﴾ وليس منكم أحد يطلبني بمظلمة في نفسه ولا ماله أتم الله على الأمير نعمته وأحسن بلاءه في رعيته وقد قدم علينا رسول أمير المؤمنين أصلحه الله بالعطية من النفقة والكسوة التي أمر أمير المؤمنين عافاه الله بقسمها في أهل الساحل فقسمناها فيهم من دينار لكل رجل وديناين وقل المال عن اليتامى والأرامل فلم يقسم فيهم منه شيء

ولليتامى والأرامل وهم من المساكين في الوجوه الثلاثة في كتاب الله عز وجل من الصدقات ومن خمس المغانم وما أفاء الله على رسوله والمؤمنين من أهل القرى فإن رأى أمير المؤمنين أصلحه الله أن يبعث بما يقسم فيهم فعل جعل الله أمير المؤمنين برسوله ﷺ متشبهًا في رأفته ورحمته بالمؤمنين وأتم عليه نعمته ومعافاته والسلام عليك ورحمة الله.

رسالة الأوزاعي إلى عبد الله بن محمد أمير المؤمنين يعظه:

عن الأوزاعي أنه كتب إلى عبد الله بن محمد أمير المؤمنين أما بعد فإن الله عز وجل إنما استرعاه أمر هذه الأمة ليكون فيها بالقسط قائمًا وبنبيه ﷺ في خفض الجناح لهم متشبها وبأعماله التي مع قرابته فإنه من القدوة في أعمال رسول الله ﷺ أسوة حسنة وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال في اليوم الذي قبضه الله عز وجل فيه: **﴿يا فاطمة بنت رسول الله ويا صفية عمة رسول الله اعملا لما عند الله عز وجل فإني لا أملك لكما من الله شيئا﴾** وبلغنا أنه أمر قريشًا أن تجتمع فلما اجتمعت قال لهم: ألا إن أوليائي المتقون فمن اتقى فهو أولى بي منكم وإن كنتم أقرب منه رحمًا نسأل الله أن يسكن دهماء هذه الأمة على أمير المؤمنين ويصلح به أمورها ويرزقه رحمها والرأفه بها فإن سياحة المشركين كانت عام أول في دار الإسلام وموطإ حريمهم واستنزالهم نساء المسلمين وذراريهم من معاقلهم بقاليقلا لا يلقاهم من المسلمين لهم ناصر ولا عنهم مدافع كان بما قدمت أيدى الناس وما يعفو الله عنه أكثر فإن بخطاياهم سبين وبذنوبهم استخرجت العواتق من خدورهن يكشف المشركون عوراتهن ولائد تحت أيدى الكوافر يمتهنونهن حواسر عن سوقهن وأقدامهن ويردون ولدانهن إلى صبغة الكفر بعد الإيمان مقيمات في خشوع الحزن وضرر البكاء فهن بمرأى من الله عز وجل ومسمع وبحيث ينظر الله من الناس إلى أعراضهم عنهن ورفضهم إياهن في أيدى عدوهم والله عز وجل يقول من بعد أخذه الميثاق من بنى إسرائيل أن إخراجهم فريقًا منهم من ديارهم كفر ومفاداتهم أسراهم إيمان

ثم أتبع اختلافهم وعيد منه شديد لا يهتم بأمرهن جماعة ولا يقوم فيهن خاصة فيذكروا بهن جماعتهم فليستعن بالله أمير المؤمنين وليتحنن على ضعفاء أمته وليتخذ إلى الله فيهن سبيلاً وليخرج من حجة الله عليه فيهن بأن أن يكون أعظم همه وآثر أمور أمته عنده مفاداتهن فإن الله عز وجل حض رسول الله ﷺ والمؤمنين على من أسلم من الضعفاء في دار الشرك فقال: {وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَانِ} [النساء: ٧٥] إلى قوله:{نَصِيرًا} هذا ولم يكن على المسلمين لوم فيهن فكيف بالتخليه بين المشركين وبين المؤمنات يظهر منهن لهم ما كان يحرم علينا إلا بنكاح وقد حدثني الزهرى أنه كان في كتاب رسول الله ﷺ الذي كتب به بين المهاجرين والأنصار أن لا يتركوا مفرحًا إلا أن يعينوه في فداء أو عقل ولا نعلم أنه كان لهم يومئذ فيء موقوف ولا أهل ذمة يؤدون إليهم خراجًا إلا خاصة أموالهم ووصية رسول الله ﷺ المسلمين بالنساء في حجة الوداع وقوله:«إنما أوصيكم بالضعيفين المرأة والصبي» ومن رأفة رسول الله ﷺ بهن قوله:«إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهة أن أشق على أمه» فبكاؤها عليه من صبغة الكفر أعظم من بكائه بعض ساعة وهى في الصلاة وليعلم أمير المؤمنين أنه راع وأن الله مستوف منه وموفيه حين يوقف به على موازين القسط يوم القيامة أسأل الله أن يلقى أمير المؤمنين حجته ويحسن به الخلافة لرسوله في أمته ويؤتيه من لدنه أجرًا عظيمًا والسلام عليك.

رسالة الأوزاعي إلى سليمان بن مجالد:

عن الأوزاعي أنه كتب إلى سليمان بن مجالد أما بعد: فإنا وإن لم يكن جمعنا وإياك تلاق ولابدء كتاب كنا على تواصل منه لم يبطئ منا عنك ما يجد المسلم من البشر لإخوانه وإن كانت الآفاق بهم مفترقة فإن الألفة بحمد الله جامعة وروح الله يجرى بين عباده فنسأل الله أن يجعلك وإيانا من نعمته في ذات بيننا على توفيق يدخلنا به برحمته في عباده الصالحين ثم

إنه ينبغي لمن نعشه الله من الجهل وأفضل عليه بمعرفة ما نفع من الأمور وما ضر منها أن يتوقى إهمال نفسه ورفض السعى بالنصيحة لله عز وجل في عباده وإنك من الحق بسبب معرفة به وبنعمة من حجة الله عندك وبمكان ممن إليه جماع أمر أمة محمد ﷺ فلا تدافع ما أنت مسئول عنه إن رأيت أن دونه قرابة أو لطف بطانة إذا كان بموقع من الحجاب عنه موضوع وممن إن قال لم يتهم وإن خولف لم يستغش فإن عذر عليه أمر في موطن أدرك غيره في سواه وقد رأيت أن أكتب إليك في أمر رأيتك له موضعًا وأرجو أن تكون بما عليك فيه من الحق عالمًا إن شاء الله إن ترك لن يؤمن سوء تبعته وتعجيل الغير إلا أن يعفو الله ويلهم المخرج والتوبة إليه وذلك فيما أصاب المشركون من عذارى المسلمين ونسائهم بقاليقلا وترك مفاداتهم فإن بكاءهم إلى الله عز وجل بمرأى وأصواتهم منه بمسمع حين يكشف المشركون عوراتهن وحين ينظرن من أولادهن إلى صبغة الكفر بعد الإيمان فالله الله فيهن فإنك من أمرهن بسقب وبحيث إن قلت فيهن بخير سمع منك أوكان معذرة إلى الله عز وجل فأد رحمك الله حصتك فيهن إلى الله وحصص من لا يستطيع أن يقع موقعك من ولى أمورهم واشتر نفسك بذلك من الله بمالك فإنك تقرض كريمًا شاكرًا عسى الله إن مس عباده بعقاب نجاك منه أو برحمة يخصك بها وقد كتبت إلى أمير المؤمنين فيهن بكتاب بعثت به إليك لتدفعه إليه ولكن بما أحببت من تقديم القول فيهن سببًا أسأل الله أن يجعلك فيما يحب أن يقيم به عباده معاونًا وبالحق فيه قائما وأن يؤتيك عليه من لدنه أجرًا عظيمًا والسلام عليك ورحمة الله.

رسالة الأوزاعي إلى عيسى بن على:

كتب الأوزاعي إلى عيسى بن على أما بعد: فإن سياحتكم في سبيل الله كان أمر هدى وقربة فنسأل الله أن يجعلها غزوة يقطع بها ما كانت فيه هذه الأمة من جهد حدثها ثم لا يعيدها فيه وأن يستقبل به التوبة عليهم والعفو

عنهم وحسن الخلافة لنبيه ﷺ فيهم أنه رءوف رحيم ونسأله أن يتم لك أجرها وتفضيل النفقة فيها وقد بلغني كتابك جواب ما كنت كتبت به إليك في أهل قال يقال تذكر أنه أضر بهم أنك لم تر أحدًا به طرق يقوم بذلك ولا يذكر به وتأمرني بمحادثتك فيهم إن قضا الله لك من غزاتك إيابا وصدقت رحمك الله فيما ذكرت فكم من موسوم يرى أن عنده خيرًا من أهل الآفاق يقدم على خليفة وآخر مقيم عنده وفي صحابته ليس عنده فضل عن مسألته لنفسه فيذكر بحق ضعيف بعيد الشقة أومستحوذ عليه في دار الشرك فإنه قد كان حين تغيرت حال الناس وفيهم بقية يذكرون فيبلغ عنهم ويقولون فيسمع منهم ثم صرت في دولة زمان أمر العامة فيه على جفاء لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا وحال الخاصة على أمور متفرقة، وعصمة رأى كل فرقة في ألفتها معرفة محبتها إلا قليلاً فكن رحمك الله للضعفاء بحقوقهم قائمًا وبأمر سبايا المؤمنات وولدانهن مهتمًا ومن الوجد عليهن من ذل الكفر وتكشف عوراتهن ورد ولدانهن إلى صبغة الكفر بعد الإيمان معنيًا وبالسعي بالنصيحة لمن لا ولي له ولا مذكر به إلا الله عاملاً عسى الله أن يجعلك له في الأرض شاهدًا وله فيما يحب أن يعمل به مواليًا جعلك الله ممن اختصه برحمته فسارع إلى مغفرته وآب إلى رضوانه والسلام عليك.

رسالة الأوزاعي إلى أبي بلج:

كتب الأوزاعي إلى أبي بلج أما بعد: صرف الله عنا وعنك الميل عن الحق من بعد المعرفة والجهل عما نفع واتباع الهوى بغير هدى منه فإن أبا الدرداء كان يقول لن تزالوا بخير ما أحببتم خياركم وما قيل فيكم بالحق فعرفتموه فإن عارف الحق كعامله وقد تقدمك أمران أما أحدهما فالكتاب له مصدق والسنة عليه شاهدة والنصر به مؤيد وأمر الناس عليه جامع وأما الآخر فالتجوز على الألفة إلى غل لامودة فيه وإلى طمع لا أمانة فيه وإلى بيع حكم لا عمل فيه حتى وهنت القوة وظهر في الإسلام فساده وقد رأيت

كتبًا ظهرت فيما عندكم ومقالة سوء بعقوبة فرط وصحبة غليظة للمسلمين وقد أوصى رسول الله ﷺ بخفض الجناح لهم وبالرأفة بهم والمعدلة بينهم يعفى عن مسيئهم فيما يجمل العفو فيه ويعاقب المذنب على قدر ذنبه لا يقتحم بالعقوبة وجهه فإنه بلغنا أن صكة الوجه يوم القيامة لا تغفر فكيف من الموت أجمل من عقوبته لا يثنى إلى حدود الله عطفه ولا يقف في سيرته على أمره يريه جهله إنه في الأمور مخير وإن غيه رشد فهو لحرم الله عند غضبه ملغى وبالعداة في دين الله وعلى عباده يسفه فإنكم جعلتم أمانتكم من أهل ذمتكم مأكلاً وبين أهوائكم حتى هلكت الأموال وعلقت الرجال مع المثلة في اللحى وتقطيع الأبشار ورسول الله ﷺ يقول فيما بلغنا: ﴿**من ظلم معاهدًا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه**﴾ فأعظم بندامة من رسول الله ﷺ عن قليل حجيجه لقد أحدثت تلك الأعمال فيما بلغني من المسلمين ضغائن ولبعض ذوي النهى في جهاده معكم ريًا بما تأتينا بذلك كتبهم يسألون عنه أسأل الله أن يثنى بنا وبكم إلى أمره ويتغمد ما سلف منا ومنكم بعفوه وذكرت أن أكتب إلى صاحبك فإنه يتجمل بالكتاب إليه ويستمع مني ولعل الله عز وجل أن ينفع وقد كتبت إليه بما لم آله نصحًا وقد بلغني أن عمر بن عبد العزيز أتاه أخ له من الأنصار قال له إن شئت كلمتك وأنت عمر بن عبد العزيز فيما تكره اليوم وتحب غدًا وان شئت كلمتك اليوم وأنت أمير المؤمنين فيما تحب اليوم وتكره غدًا فقال عمر: بل كلمني اليوم وأنا عمر بن عبد العزيز فيما أكره اليوم وأحب غدًا جعل الله في طاعته ألفتنا وفيما يحب تقلبنا ومثوانا آمين والسلام.

رسالة الأوزاعي إلى أبي عبيد الله وزير الخليفة:

عن الأوزاعي أنه كتب إلى أبي عبيد الله أما بعد: فإني أسأل الله عز وجل أن لا يسلب منك عقلاً ولا دينًا وأن يجعل الغالب عليك فيما أنت فيه التوقي لما كنت تعرف وتكره قبل أن تبتلى ولا يجهلك عنه فتنة طمع ولا كثرة شغل وأن يمن عليك بذكر قلة المتاع وتقريب حضور فراقه ثم يجعلك

لحظك فيه مؤثرًا وعلى سلبه منك مشفقًا فإنك المرء أحب أن أتعاهده بذكر ما عسى الله أن يحدث به خيرًا فإني أرجو أن يكون الغيب مني على النصح لك وحب العصمة في دينك وصرف السوء عنك فيه إن شاء الله وقد سألني إدريس الكتاب إليك فإن قدرت له رحمك الله على لحق في سكان جبلة طلبت له وأعنته بما عسى الله أن يجعل قضاء حاجته بما يتسبب منه وأعنت عليه ثم يجزيك به خيرًا ويجعله من النوافل المذخورة في الآخرة إن شاء الله فعلت والسلام عليك (١).

* * *

(١) عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس أبو محمد الرازي التميمي، الجرح والتعديل، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٢٧١ - ١٩٥٢، ١/ ١٨٨ - ٢٠٢.

الإمام أحمد بن حنبل

الإمام أحمد بن حنبل

أعـلام الفقهـاء

الإمام أحمد بن حنبل

إمام السنة، وبطل المحنة، وعلم الزهاد، وصاحب الإسناد، أرادوا صرفه عن السنة فما انصرف؛ لأن أحمد ممنوع من الصرف.

فأثبت في مستنقع الهول رجله وقال لها من دون أخمصك الحشرُ.

تردى ثياب الموت حمراً فما أتى لها الليل إلا وهي من سندسٍ خضرُ.

رد الأغلاط فضربوه بالسياط، وأرسل على الجهمية شهباً، وأدخلوه الكير فخرج ذهباً، وأرادوا إسكاته فصاح الجمهور، وحبسوه فطارت دعوته، وقيدوه فانطلق علمه، وحاصروه فانتشرت مناقبه.

الإمامة عند أحمد قولٌ وعمل، سنة وجماعة، مغالبةٌ للهوى، كسرٌ للنفس، اقتداءٌ بمن سلف، احترامٌ للنص، اضطراح للفضول، محافظةٌ على الفرائض، تزودٌ بالنوافل، ترقبٌ للأجل، تقصير للأمل.

الحق حصانه، الحجة سلطانه، الصدق برهانه، السنة عنوانه، أفرح ما يكون إذا انتهى خبزه، أغيظ ما يكون إذا كثر كنزه، الدنيا عنده ثوبٌ وعمامةٌ وحذاءٌ ورغيف، والآخرة سجدةٌ ودمعةٌ وفكرةٌ وعبرة، هدده المعتصم فاعتصم بالله، أوثقه الواثق وقال: وافق، فقال: معاذ الله، ناداه المتوكل إلى المآكل فقال: كلا.

سمن فهمه فهزل جسمه، عظم ثوابه فبليت ثيابه، رث منزله فحسنت منزلته.

أحمد: من المحبرة إلى المقبرة، من المحنة إلى المنحة، من التعذيب إلى التهذيب.

هو علم من أعلام الإسلام، والرجل الإمام (١)

هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المروزي البغدادي،

(١) عائض القرني، سلسلة القمم لأهل الهمم. بتصرف يسير، ٤ / ١٢.

وشيبان حي من بكر القبيلة المشهورة من قبائل العرب.

ولد في ربيع الأول على المشهور سنة ١٦٤ هجرية في بغداد، وكانت أمه قد حملت به في مرو التي كان يقيم فيها أبوه، والمعروف أن أباه مات بعد ولادته عن ثلاثين سنة تقريبًا، وأحمد إذ ذاك صغير لا يدرك شيئًا بدليل أنه نفى رؤيته لأبيه وجده. وكان جده قد انتقل إلى خراسان، وكان واليًا على سرخس في العهد الأموي، ثم انضم إلى صفوف الدعوة العباسية حتى أوذي في هذا السبيل، ويقال: إنه كان قائدًا. نشأ أحمد - رضي الله عنه - يتيمًا، وقامت على تربيته أمه - صفية بنت ميمونة بنت عبد الملك الشيباني - وترك له أبوه بيتًا في بغداد يسكنه وبيتًا آخر يغل غلة ضئيلة. وكان في هذا كشيخه الإمام الشافعي في اليتم والفقر والحاجة وعلو الهمة. تشابهت نشأة التلميذ والأستاذ ولكل منهما أم تدفعه إلى التقدم والعلو والزيادة من الخير. نشأ الإمام أحمد - رضي الله عنه - ببغداد، وتربى فيها تربيته الأولى، وقد كانت بغداد إذ ذاك تموج بالناس الذين اختلفت مشاربهم، وتخالفت مآربهم، وزخرت بأنواع العلوم والمعارف، ففيها القراء والمحدثون والمتصوفة وعلماء اللغة والفلاسفة وغيرهم، فقد كانت حاضرة العالم الإسلامي، وقد توافر فيها ما توافر في حواضر العالم من تنوع المسالك وتعدد السبل وتنازع المشارب ومختلف العلوم حتى إذا أتم حفظ القرآن وعلم اللغة اتجه إلى الديوان ليتمرن على التحرير والكتابة، ولقد قال في ذلك: كنت وأنا غليم أختلف إلى الكتاب، ثم أختلف إلى الديوان وأنا ابن أربع عشرة سنة. وكان وهو صبي محل ثقة الذين يعرفونه من الرجال والنساء حتى إنه ليروى أن الرشيد وهو بالرقة مع جنده وكان أولئك الجند يكتبون إلى نسائهم بأحوالهم فلا يجد النساء غير أحمد يقرأ لهن ما كتب به إليهن، ويكتب لهن الردود ولا يكتب ما يراه منكرًا من القول.

شب أحمد على هذا، واستمر في طلب العلم بعزم صادق وجد، وأمه تشجعه على ذلك، وترشده وتدعوه إلى الرفق بنفسه إذا خشيت عليه

الإرهاق، وحكى ذلك أحمد عنها فقال: كنت ربما أردت البكور في الحديث فتأخذ أمي بثيابي وتقول: اصبر حتى يؤذن الناس أو حتى يصبحوا، وكان اتجاهه إلى الأخذ عن رجال الحديث. ويروى أن أول تلقيه كان على القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة فقد قال: أول من كتبت عنه الحديث أبو يوسف، وفي تاريخ الحافظ الذهبي قال الخلال: كان أحمد قد كتب كتب الرأي، وحفظها ثم لم يلتفت إليها.

اتجه أحمد إلى كتابة الحديث من سنة ١٧٩ هـ حينما كان عمره ست عشرة سنة، واستمر مقيمًا في بغداد يأخذ عن شيوخ الحديث فيها حتى سنة مائة وست وثمانين، وابتدأ في هذه السنة رحلته إلى البصرة، ثم إلى الحجاز واليمن وغيرها، واستمر ملازما لشيخه هشيم بن بشير بن أبي خازم الواسطي حتى سنة وفاته ١٨٣.

قال صالح بن أحمد قال أبي: كتبت عن هشيم سنة ١٧٩، ولزمناه إلى سنة ثمانين وإحدى وثمانين واثنين وثمانين وثلاث. ومات في سنة ثلاث وثمانين. كتبنا عنه كتاب الحج نحوًا من ألف حديث وبعض التفسير وكتاب القضاء وكتبًا صغارًا، فقال صالح: يكون ثلاثة آلاف، قال: أكثر، ثم ارتحل في طلب العلم إلى الحجاز وغيره وقد ذكر ابن كثير تفصيل رحلاته الحجازية في تاريخه البداية والنهاية جزء ١٠ ص ٣٢٦ وكان من أبرز الشخصيات التي التقى بها الإمام أحمد أثناء رحلاته وفي إقامته، الإمام الشافعي - رضي الله عنه - فقد أخذ عنه، واستفاد منه كثيرًا، وكان الشافعي يجله ويقدره ويعول عليه في معرفة صحة الحديث أحيانًا، ورشحه الإمام الشافعي عند الرشيد لقضاء اليمن فأبى أحمد، وقال له: جئت إليك لأقتبس منك العلم تأمرني أن أدخل لهم في القضاء، وكان ذلك في آخر حياة الرشيد، ثم رشحه الشافعي مرة ثانية لقضاء اليمن عند الأمين فأبى أحمد وكان ذلك ١٩٥ هـ.

ودخل الشافعي يومًا على أحمد بن حنبل فقال: يا أبا عبد الله كنت اليوم مع

أهل العراق في مسألة كذا فلو كان معي حديث عن رسول الله ﷺ. فدفع أحمد إليه ثلاثة أحاديث فقال له: جزاك الله خيرًا. وقال الشافعي لأحمد يومًا: أنتم أعلم بالحديث، والرجال، فإذا كان الحديث الصحيح فعلموني إن شاء يكون كوفيًا أو شاميًا حتى أذهب إليه إذا كان صحيحًا، وهذا من كمال دين الشافعي وعقله حيث سلم هذا العلم لأهله؛ وقال عبد الوهاب الوراق: ما رأيت مثل أحمد بن حنبل، قالوا له: وأي شيء بان لك من علمه وفضله على سائر من رأيت؟ قال: رجل سئل عن ستين ألف مسألة فأجاب فيها بأن قال (أخبرنا) و(حدثنا). وقال أبو زرعة الرازي:

حفظ أحمد بن حنبل بالمذاكرة على سبعمائة ألف حديث، وفي لفظ آخر قال أبو زرعة الرازي: كان أحمد يحفظ ألف ألف، فقيل له: وما يدريك؟ قال: ذكراته فأخذت عليه الأبواب.

كان الإمام أحمد يقول: - فاتني مالك فأخلف الله علي بسفيان بن عيينة؛ وفاتني حماد بن زيد فأخلف الله علي إسماعيل ابن علية. وكان ملازمًا لكتابة الحديث فانشغل بذلك عن كل شيء حتى عن الزواج فلم يتزوج إلا بعد الأربعين. وقيل له: يا أبا عبد الله قد بلغت هذا المبلغ وأنت إمام المسلمين فقال: مع المحبرة إلى المقبرة، فأنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر.

وقد روى المزني: أن الشافعي قال: ثلاثة من عجائب الزمان: عربي لا يعرب كلمه وهو أبو ثور، وأعجمي لا يخطئ في كلمة وهو الحسن الزعفراني، وصغير كلما قال شيئًا صدقه الكبار وهو أحمد بن حنبل.

وقال الشافعي: - خرجت من بغداد ما خلفت بها أحدًا أورع ولا أفقه ولا أتقى من أحمد بن حنبل، ولم يزل على ذلك مكبًا على الحديث والإفتاء وما فيه نفع المسلمين، والتف حوله أصحابه يأخذون عنه الحديث والفقه وغيرهما، وألف المسند في مدة ستين سنة تقريبًا، وكان قد ابتدأ بجمعه في سنة ١٨٠ هـ أول ما بدأ بطلب الحديث، وسيأتي الكلام على المسند إن شاء

الله تعالى، وألف في التفسير، وفي الناسخ والمنسوخ، وفي التاريخ، وفي المقدم والمؤخر في القرآن، وفي جوابات القرآن، وألف المناسك الصغير والكبير، وفي حديث شعبة، وألف كتاب الزهد، وكتاب الرد على الجهمية والزنادقة، وكتاب الصلاة، وكتاب السنة وكتاب الورع والإيمان، وكتاب العلل والرجال، وكتاب الأشربة، وجزءًا في أصول السنة، وفضائل الصحابة، وله قصائد متناثرة، وأجزاء في بعض الأصول والمسائل، كما نقل عنه مجموعة من المسائل، منها مسائل الإمام أحمد برواية أبي داود السجستاني صاحب السنن وهي مطبوعة نشرها السيد محمد رشيد رضا بمطبعة المنار وتقع في ٣٢٨ صفحة. وهي أجوبة على بعض المسائل التي سئل عنها الإمام أحمد في الفقه؛ ومنها مسائل ابنه عبد الله بن أحمد، ومسائل إسحق بن إبراهيم رواية ابن منصور المروزي وهي مخطوطة وتوجد في المكتبة الظاهرية بدمشق وغير ذلك من مؤلفاته رضي الله عنه.

كان في بغداد أيام المأمون تيارات ثقافية متضادة: منها ما كان عليه السلف الصالح من أهل السنة والجماعة الممثل في حلقات أهل الحديث والفقهاء وغيرهم ممن يرجعون إلى النصوص الشرعية. ويثبتون لله ما أثبته لنفسه وما صح عن رسوله ﷺ إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تأويل ولا تعطيل ومن أبرز هؤلاء: الإمام أحمد ومحمد بن نوح وأحمد بن نصر الخزاعي وغيرهم. ومنها تيار المعتزلة القائلين بخلق القرآن وتأويل آيات الصفات وغير ذلك مما هو معروف من مذهبهم: كالقول بالعدل والتوحيد والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكان الرشيد يقاوم القول بخلق القرآن فلم يجرؤ أحد عليه مدة حياته كما روي عن محمد بن نوح قال: سمعت هارون الرشيد يقول: بلغني أن بشرًا المريسي زعم أن القرآن مخلوق، علي إن أظفرني الله به لأقتلنه قتلة ما قتلها أحد قط، فلما مات الرشيد وتولى الأمين أراد المعتزلة حمله على ذلك فأبى.

فلما تولى المأمون الخلافة، وكان يميل إلى المعتزلة ويقربهم وكان أستاذه أبو الهذيل العلاف من زعماء المعتزلة وكذلك قاضيه أحمد بن أبي دؤاد فأشار عليه ابن أبي دؤاد بإظهار القول بخلق القرآن، فأظهر القول بذلك عام ٢١٢ هـ. فكان المأمون يناظر من يغشى مجلسه في ذلك ولكنه لم يلزم بذلك أحدًا بل ترك الناس أحرارًا فيما يذهبون إليه، فلما كان ٢١٨ هـ رأى المأمون حمل الناس وخصوصًا العلماء والقضاة والمفتين على القول بخلق القرآن الكريم؛ وكان المأمون آنذاك في الرقة فأرسل إلى واليه على بغداد إسحاق بن إبراهيم وهو صاحب الشرطة ببغداد أن يجمع من بحضرته من القضاة ويمتحنهم فيما يقولون ويعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه، ويعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله بمن لا يقول بهذا القول وكان ذلك في ربيع الأول من عام ٢١٨ هـ.

فثار العلماء حين سمعوا كتاب المأمون إلى نائبه في بغداد وقال واحد منهم: لقيت ثمانمائة شيخ ونيفًا وسبعين فما رأيت أحدًا يقول بهذه المقالة - يعني خلق القرآن - وقد حبس وعذب وقتل في هذه المحنة خلائق لا يحصون كثرة كما يراه القارئ المتتبع لتلك الحقبة من التاريخ، وصارت هذه المحنة هي الشغل الشاغل للدولة والناس خاصتهم وعامتهم وأصبحت حديث مجالسهم وأنديتهم وحاضرتهم وباديتهم في العراق وغيره وقام الجدل فيها بين العلماء، ووقع امتحان الأمراء للعلماء والقضاة والفقهاء والمحدثين في مصر والشام وفارس وغيرها حتى تناول الإمام البخاري وشيوخه الأجلة الأفذاذ: يحيى بن معين وعلي بن المديني ويزيد بن هارون وزهير بن حرب وغيرهم من الأئمة المجمع على جلالتهم وإمامتهم في حفظ السنة المطهرة وعلومها.

وأرسل المأمون لصاحب الشرطة في بغداد بأن يوافيه بجواب من امتحن منهم فوافاه بجوابهم وإذا هو يتضمن إنكار هذه المقالة والتشنيع على من قال بها فلم يقتنع المأمون بذلك، فبعث إليه بكتاب ثان يأمره فيه بإشخاص

سبعة من المحدثين المشهورين في بغداد أو ثمانية وهم -: محمد بن سعد كاتب الواقدي وأبو مسلم ويحيى بن معين وزهير بن حرب وإسماعيل بن داود وإسماعيل بن أبي مسعود وأحمد بن إبراهيم الدورقي. لكي يمتحنهم وفي مقدمتهم أحمد بن حنبل. إلا أن ابن أبي دؤاد حذف اسم الإمام أحمد من القائمة لمعرفته بصلابته وشدته في هذا الأمر.

ثم أمر المأمون بعد ذلك بحمل الإمام أحمد ومحمد بن نوح إليه في طرسوس فحملا إليه بأغلالهما فأما محمد بن نوح فمات في أثناء الطريق قبل أن يصل. وأما الإمام أحمد ومرافقوه فبلغهم وفاة المأمون قبل وصولهم فعادوا إلى بغداد، وألقي الإمام أحمد في الحبس. ويقال: إن أحمد دعا على المأمون وكانت وفاة المأمون في عام ٢١٨.

ثم تولى الخلافة المعتصم، وكان المأمون قد أوصاه بتقريب ابن أبي دؤاد والاستمرار بالقول بخلق القرآن وأخذ الناس بذلك. وكان أحمد في السجن فاستحضره من السجن، وعقد له مجلسًا مع ابن أبي دؤاد وغيره؛ وجعلوا يناقشونه في خلق القرآن، وأحمد يستدل عليه بالنصوص الواردة. ويقول لهم: أعطوني دليلاً من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ، وانفض المجلس ذلك اليوم دون شيء، وأمر المعتصم برده إلى السجن. وفي اليوم التالي أحضر من السجن، وعقد المجلس وكان موقفه رائعًا جليلاً كموقفه في الأمس ورغم المحاولات والمناقشات صمم الإمام أحمد على كلامه، وفشل القوم كفشلهم بالأمس. وانفض الاجتماع، ورد الإمام أحمد إلى السجن، وفي اليوم الثالث أعيد انعقاد المجلس، وأحضر الإمام أحمد من السجن وأعيدت المناقشة. وكان المعتصم عند عقد مجلس المناظرة قد بسط بمجلسه بساطًا، ونصب كرسيًا جلس عليه وازدحم الناس إذ ذاك كازدحامهم أيام الأعياد، وكان مما دار بينهم أن قال للإمام أحمد: ما تقول في القرآن؟ فقال: كلام الله غير مخلوق قال الله تعالى: {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ} [التوبة: ٦].

قال: هل عندك حجة غير هذا؟ قال: نعم قول الله تعالى:{ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١} [الرحمن: ١]،{عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢} [الرحمن: ٢]، ولم يقل خلق القرآن، وقال تعالى:{يسٓ ۝١} [يس: ١]،{ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢} [يس: ٢]، ولم يقل المخلوق، فقال المعتصم: أعيدوه للحبس وتفرقوا، فلما كان من الغد جلس المعتصم مجلسه ذلك. وقال: هاتوا أحمد بن حنبل فاجتمع الناس، وسمعت لهم ضجة ببغداد فلما جيء به، وقف بين يديه والسيوف قد جردت والرماح قد ركزت والأتراس قد نصبت والسياط قد طرحت.

فسأله المعتصم عما يقول بالقرآن. قال: أقول غير مخلوق، وأستدل بقوله تعالى:{وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي} [السجدة: ١٣] الآية، قال: فإن يكن القول من الله تعالى فإن القرآن كلام الله، وأحضر المعتصم له الفقهاء والقضاة فناظروه بحضرته ثلاثة أيام وهو يناظرهم، ويظهر عليهم بالحجج القاطعة ويقول: أعطوني دليلاً من كتاب الله أو كلام رسوله ﷺ، فقال المعتصم قهرنا أحمد وحلف ليضربنه بالسياط، وأمر الجلادين فأحضروا ولما جيء بالسياط نظر إليها المعتصم فقال: ائتوني بغيرها.

قال أبو عبد الله: ثم صيرت بين العقابين [(١)]. فعلق الإمام أحمد بالعقابين، ورفع حتى صار بينه وبين الأرض مقدار قبضة، قال أحمد: وشدت يداي وجيء بكرسي فوضع له - يعني للمعتصم - وابن أبي دؤاد قائم على رأسه والناس أجمعون قيام ممن حضر، فقال لي إنسان ممن شهدني: خذ بنابي الخشبتين بيدك، وشد عليهما فلم أفهم ما قال. قال: فتخلعت يداي لما شددت، ولم أمسك الخشبتين، قال أبو الفضل - يعني ابنه صالحا - ولم يزل أبي - رحمه الله - يتوجع منهما من الرسغ إلى أن توفي، قال أبو عبد الله فقلت: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قال:《**لا يحل دم امرئ مسلم يشهد ألا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث**》 [(٢)]. الحديث. فبم تستحل دمي

(١) والعقابان بضم العين خشبتان يوضع بينهما الرجل ليجلد قاله في تاج العروس.
(٢) صحيح البخاري الديات (٦٤٨٤)، صحيح مسلم القسامة والمحاربين والقصاص والديات

وأنا لم آت شيئًا من هذا. يا أمير المؤمنين اذكر وقوفك بين يدي الله عز وجل كوقوفي بين يديك، يا أمير المؤمنين راقب الله، فلما رأى المعتصم ثبوت أبي عبد الله وتصميمه لان فخشي ابن أبي دؤاد من رأفته عليه فقال: يا أمير المؤمنين إن تركته قيل: إنك تركت مذهب المأمون وسخطت قوله، أو أن يقال: غلب خليفتين فهاجه ذلك، وطلب كرسيًا جلس عليه، وقام ابن أبي دؤاد وأصحابه على رأسه ثم قال للجلادين: تقدموا وجعل أحدهم يتقدم إلى الإمام أحمد فيضربه سوطين ثم يتنحى ثم يتقدم الآخر فيضربه سوطين، والمعتصم يحرضهم على التشديد في الضرب، ثم قام إليه المعتصم وقال له يا أحمد: علام تقتل نفسك إني والله عليك لشفيق فما تقول؟ فيقول أحمد: أعطوني دليلاً من كتاب الله وسنة رسوله حتى أقول به، ثم رجع المعتصم، فجلس فقال للجلاد: تقدم وحرضه على إيجاعه بالضرب ويقول: شدوا قطع الله أيديكم، قال أحمد: فذهب عقلي عند ذلك فلم أفق إلا وقد أفرج عني ثم جيء بي إلى دار إسحاق ابن إبراهيم فحضرت صلاة الظهر فصليت فقالوا صليت والدم يسيل منك فقلت: قد صلى عمر - رضي الله عنه - وجرحه يثعب دمًا وكان ذلك في رمضان سنة ٢١٨. ثم نقل أحمد إلى بيته واستقر فيه حيث لم يقو على السير فلما برئت جراحه، وقوي جسمه خرج إلى المسجد، وصار يدرس في المسجد ويملي الحديث حتى مات المعتصم.

فلما ولى الواثق منع الإمام أحمد من الاجتماع بالناس وقال: لا تساكني في بلد أنا فيه فأقام الإمام ببغداد مختفيًا لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق، وذلك مدة خمس سنوات تقريبًا.

فلما تولى المتوكل الخلافة سنة ٢٣٢ بقيت المحنة قائمة خلال عامين من

(١٦٧٦)، سنن الترمذي الديات (١٤٠٢)، سنن النسائي تحريم الدم (٤٠١٦)، سنن أبو داود الحدود (٤٣٥٢)، سنن ابن ماجه الحدود (٢٥٣٤)، مسند أحمد بن حنبل (٣٨٢/١)، سنن الدارمي الحدود (٢٢٩٨).

حكمه ثم رفعت سنة ٢٣٤ وكانت قد بدأت من السنة الأخيرة من خلافة المأمون وهي سنة ٢١٨ وانتهت في السنة الثانية أو الثالثة من خلافة المتوكل سنة ٢٣٤ حيث أوقف المتوكل أخذ الناس بالمحنة. وأصدر إعلانًا عامًا في كافة أنحاء الدولة نهى فيه عن القول بخلق القرآن، وتهدد من يخوض في ذلك بالقتل فعم الناس الفرح في كل مكان، وأثنوا على سجايا الخليفة ومآثره ونسوا شروره ورذائله، وسمع الدعاء له من كل جانب، وذكر اسمه مع اسمي الخليفتين أبي بكر وعمر وعمر بن عبد العزيز.

وكان المتوكل يكره العلويين، ويسرف في مطاردتهم فجعل المعتزلة يحيكون دسائسهم لدى الخليفة ضد الإمام أحمد، ويتهمونه بالجنوح إلى العلويين، وتتطور المحنة لتأخذ لونا آخر، وتشتد الرقابة على الإمام أحمد وامتدت أعناق أهل الفتنة فاتهموا الإمام أحمد لدى الخليفة أنه يؤوي في بيته أحد العلويين ذوي القدر الخطير ويثور الخليفة فيرسل من فوره إلى بغداد لمفاجأة بيت الإمام أحمد والقبض على العلوي المزعوم، وفي ليلة من الليالي بعد أن نام الناس، وهدأت الحركة وأرخى الليل سدوله على بغداد الهادئة الساكنة سمع أحمد دقًا عنيفًا على باب داره فقام إلى الباب ففتحه فإذا به أمام رجلين وامرأتين أما الرجلان فهما مظفر حاجب عبد الله بن إسحاق نائب بغداد والآخر ابن الكلبي صاحب البريد. وأما المرأتان فمهمتهما هي مهمة البوليس النسوي في أيامنا هذه. قال مظفر: يقول لك الأمير: إن أمير المؤمنين كتب إليه أن عندك طلبته العلوي، وقال ابن الكلبي: نعم إنك تؤوي في بيتك علويًا من أعداء أمير المؤمنين وقد جئنا لأخذه، فقال الإمام أحمد: إني لا أعرف هذا ولا أرى سوى طاعة أمير المؤمنين في العسر واليسر والمنشط والمكره والأثرة. وسكت الإمام قليلاً سكتة ذكر فيها حرمانه من المسجد بدون مسوغ، واستأنف يقول: إني أتأسف عن تأخري عن الصلاة وعن حضور الجمعة ودعوة المسلمين، قال ابن الكلبي: قد أمرني أمير المؤمنين أن أحلفك ما عندك طلبته

أفتحلف؟ قال أحمد: إن استحلفتني حلفت فأحلفه ابن الكلبي بالله، فحلف وبالطلاق فحلف. وكان نساء الدار والصبيان قد حضروا، وحضر ابنه صالح فقال ابن الكلبي: أريد أن أفتش منزلك ومنزل ابنك صالح، وقام مظفر وابن الكلبي ففتشا البيت وفتشت المرأتان النساء فلم يعثروا على شيء وفتشا بيت صالح، فلم يجدا شيئًا وفتشت المرأتان أماكن الحريم وجاءوا بشمعة فأدلوها في البئر، وانصرفوا بعد أن لم يجدوا شيئًا.

وتولى ابن الكلبي وصف حال الإمام أحمد للمتوكل من احتباسه عن الجمعة والجماعة بدون مسوغ ومن صدق لهجته فيما يكن لأمير المؤمنين من السمع والطاعة في المنشط والمكره ومن براءته مما عزاه إليه خصومه، وأذن الله بانكشاف الغمة فجاءه بعد يومين كتاب من علي بن الجهم أن أمير المؤمنين قد صح عنده براءتك مما قذفت به وكان أهل البدع قد مدوا أعناقهم فالحمد لله الذي لم يشمتهم بك.

وأقبلت الخلافة على الإمام تخطب وده وتطلب المؤانسة بقربه والتبرك بدعائه وأخذت الأيام تدبر مولية عن المعتزلة. فمرض ابن أبي دؤاد بالفالج، وجاء بعض أعيان الدولة يتقربون إلى الإمام أحمد بذكر ما نزل بابن أبي دؤاد ويومئون إلى أن كرامة الإمام على الله أوجبت ذلك القصاص فلم يلتفت إليهم الإمام أحمد وصمت ولم يرد، وظهر عليه التبرم بما قالوا.

ومضت الأيام في إدبارها على المعتزلة فغضب الخليفة على ابن أبي دؤاد وقبض على أبنائه وصادر أملاكه وأمواله وجواهره، وأخذ ابن أبي دؤاد إلى بغداد بعد أن أشهد عليه ببيع ضياعه فكان يأتي إلى الإمام أحمد من يحمل إليه تلك الأنباء فيكرم نفسه أن تنزل إلى مستوى الشماتة الرخيص بل كان الخليفة نفسه يرسل إليه كأنه يستفتيه فيما يرى من مصير أموال ابن أبي دؤاود فكان يسكت ولا يجيب بشيء وهو موقف جدير أن يلقي على الناس دروسًا في عظمة النفس وشدة الإقبال على جلائل الأمور

والانصراف عن سفاسفها وتوافهها رحم الله الإمام أحمد لقد كان إمامًا في كل مكرمة.

ثم أرسل إليه الخليفة المتوكل كتابًا يقول فيه: قد صح نقاء ساحتك، وقد أحببت أن آنس بقربك وأتبرك بدعائك وقد وجهت إليك بعشرة آلاف درهم معونة على سفرك وفرح آل أحمد بالعافية تقبل مع السعة والجاه، وحل بالدار نشاط وأنس، ودب فيها بعد الوحشة دبيب الحركة بمن صار يغشاها من رسل الخليفة وكبار رجال الدولة. قال ابنه صالح: لما جاء كتاب المتوكل بالمال ناداني أبي في جوف الليل فقمت إليه فإذا به يبكي فلما رآني قال: ما نمت ليلتي هذه سلمت من هؤلاء حتى إذا كان في آخر عمري بليت بهم.

فلما كان الصباح جاء الحسين البزاز والمشايخ فقال: يا صالح جئني بالميزان وبالدراهم ثم أخذ يزن المال ويقول: وجهوا هذا إلى أبناء المهاجرين وهذا إلى أبناء الأنصار وهذا لفلان ليفرق في ناحيته وهذا لفلان وهكذا حتى فرقها كلها فلما فرقها أحس أنه فرق معها كربته وتنفس الصعداء ونفض الكيس ثم تصدق به.

وكان لا بد لأحمد من تلبية أمر الخليفة لا خضوعًا لقوة السلطان بل وفاء لحق السمع والطاعة الذي فرضه الإسلام لأولي الأمر في غير معصية، فخرج من بغداد إلى سامراء ومعه يعقوب المعروف بقوصرة وهو الرسول الذي حضر إليه من لدن الخليفة بالمال والخطاب وخرج معه بعض بنيه وكان يعقوب شديد السرور بنجاح مهمته فقد قبل أحمد بن حنبل أن يخرج معه، وكان يدرك مبلغ السرور الذى سيدخل قلب أمير المؤمنين بذلك.

نزل الإمام بسامراء ضيفًا على أمير المؤمنين ولم يكن للخليفة من هم بعد أن عرف كل شيء عن أحمد إلا أن يرضيه، وألاَّ يحمله على شيء يكرهه.

عرف الخليفة أن أحمد لا يقبل ماله فلم يكن له بد من النزول على رغبته واحترام إرادته ولكن لا بد من أن يصله في قرابته فليكن المال لأهله وبنيه دون أن يعلم وتسلم صالح ابنه بأمر الخليفة عشرة آلاف على الفور مكان التي فرقها أبوه ببغداد على أبناء المهاجرين والأنصار وسواهم.

وعرف رجال القصر لهفة الخليفة وشدة إقباله على أحمد وإكباره له فأقبلوا عليه بمثل ما أقبل سيدهم كل يخطب وده ويبتغي إليه المنزلة ويحاول أن يسره بما يستطيع.

أمر الخليفة أن تفرش الدار التي هيئت له بالفرش الوثيرة وأن ترتب له ومن معه من بنيه مائدة شهية واسعة وأمر أن يقطع له ملابس فاخرة: طيلسان وقلنسوة وشارات رسمية من السواد الذي اختارته الدولة العباسية شعارًا لها.

ويحضر يحيى بن خالد فيقول: إن الخليفة أمرني أن أصير لك مرتبة في أعلى ويصير ولده المعتز في حجرك تؤدبه بما شئت من أدب القرآن وسنة رسول الله ﷺ.

وجاء يحيى في اليوم التالي يدعوه أن يركب إلى دار المعتز ويقول في لهجة مهذبة: تركب يا أبا عبد الله فيقول الإمام أحمد: ذاك إليكم وكان يومًا مشهودًا في القصر ألبسوه هناك الطيلسان وما أمر له به الخليفة من ألوان الثياب والشارات ويقول بعض الخدم: إن الخليفة كان مع أمه مستترين خلف ستار من ستور القصر يرقب في خفاء ما يكون من أحمد، فلما رآه يدخل أخذته خفة وغشيته هزة من الفرح ولمع السرور في عينيه وقال. يا أمه قد أنارت الدار بدخول أحمد.

يقول ابنه صالح: لما عاد أبي من القصر إلى الدار التي أعدت له نزع عنه الثياب التي أنعم بها عليه. وجعل يبكي ويقول: سلمت من هؤلاء منذ ستين سنة حتى إذا كان في آخر عمري بليت بهم، ما أحسبني سلمت من دخولي

على هذا الغلام فكيف بالخليفة الذي يجب نصحه من وقت أن تقع عيني عليه إلى أن أخرج من عنده؟! ثم التفت إلى الملابس وقال لابنه: وجه بهذه الثياب إلى بغداد لتباع وحذار أن يشتري أحد منكم شيئًا منها.

أما الفرش الوثيرة الطرية فقد نحى نفسه عنها، وألقى بنفسه على مضربة خشنة له، ونظر إلى حجرة في جانب الدار فأمر أن يحول إلى ركن منها وأن لا يسرج فيها سراج قط، وأما المائدة فقد عافها فلم يدخل بطنه شيء منها وكانت شهية حافلة.

وأخيرًا بلغ الضجر بالإمام أحمد كل مبلغ وبرم بكل شيء وزهد في كل شيء ولم يعد أبغض إليه من أن يلقى رجال الخليفة حتى كان يدعهم مع بنيه في الدهليز، ويقبل على صلاته ما شاء الله، وكان المرض ينزل به فيراه عافية سابغة لما فيه من عافية احتجابه عنهم. اشتكت عينه مرة فلما برئت ضاق ببرئها وقال لولده صالح: ألا تعجب كانت عيني تشتكي فتمكث حينًا حتى تبرأ ثم هي في هذه المرة تبرأ في سرعة. والله لقد تمنيت الموت في الأمر الذي كان أيام المعتصم وإني لأتمنى الموت في هذا، إن هذا فتنة الدنيا وكان ذاك فتنة الدين نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وأما مرضه ووفاته فإنه مرض تسعة أيام قال ابنه عبد الله: سمعت أبي يقول: استكملت سبعًا وسبعين سنة فحم من ليلته وهو محموم يتنفس تنفسًا شديدًا، وقال صالح: وكنت قد عرفت علته وكنت أمرضه إذا اعتل.

وجاء الفتح بن سهل إلى الباب ليعوده فحجبه وأتى ابن علي بن الجعد فحجبه، وكثر الناس فقال لي: أي شيء ترى؟ قلت: تأذن لهم فيدعون لك قال: أستخير الله تعالى فأذن لهم فجعلوا يدخلون عليه أفواجًا، ويسلمون عليه ويرد عليهم بيده، ويسألونه عن حاله، ويدعون له حتى تمتلئ الدار، ثم يخرجون ويدخل فوج آخر، وكثر الناس، وامتلأ الشارع، وأغلقنا باب الزقاق، وجاء رجل من جيراننا قد خضب فسر به، وقال: إني لأرى

الرجل يجيء شيئًا من السنة فأفرح به فدخل فجعل يدعو له فيقول أبي: ولجميع المسلمين.

وجاء رجل فقال: تلطف لي بالإذن عليه فإني قد حضرت ضربه يوم الدار، وأريد أن استحله. فقلت له، فأمسك فلم أزل به حتى قال: أدخله فأدخلته فقام بين يديه وجعل يبكي وقال: يا أبا عبد الله أنا كنت ممن حضر ضربك يوم الدار، وقد أتيتك فإن أحببت القصاص فأنا بين يديك وإن رأيت أن تحلني فعلت. قال: على أن لا تعود لمثل ذلك قال: نعم قال: فإني جعلتك في حل فخرج يبكي وبكى من حضر من الناس ثم قال: وجه فاشتر تمرًا وكفر عني كفارة يمين فأخبرته بأني قد فعلت قال: الحمد لله. ثم قال: اقرأ علي الوصية فقرأتها فأقرَّها وكنت أنام إلى جنبه فإذا أراد حاجة حركني فأناوله، وجعل يحرك لسانه ولم يئن إلا في الليلة التي توفي فيها، ولم يزل يصلي قائمًا أمسكه فيركع ويسجد وأرفعه في ركوعه ولم يزل عقله ثابتًا.

وتسامع الناس بمرضه وكثروا وسمع السلطان بكثرة الناس فوكل ببابه وباب الزقاق المرابطة وأصحاب الأخبار، ثم أغلق باب الزقاق حتى تعطل بعض الباعة، وحيل بينهم وبين البيع والشراء، وكان الرجل إذا أراد أن يدخل إليه ربما دخل من بعض الدور وربما تسلق، وجاء أصحاب الأخبار فقعدوا على الأبواب وجاءه صاحب ابن طاهر فقال: إن الأمير يقرئك السلام وهو يشتهي أن يراك فقال: هذا مما أكرهه وأمير المؤمنين قد أعفاني مما أكره، وأصحاب الخير يكتبون بخبره إلى العسكر. والبرد تختلف كل يوم وجاء بنو هاشم فدخلوا عليه وجعلوا يبكون، وجاء قوم من القضاة وغيرهم فلم يؤذن لهم فلما كان قبل وفاته بيوم أو يومين قال: ادعوا لي الصبيان بلسان ثقيل فجعلوا ينضمون إليه وجعل يشمهم ويمسح بيده على رؤوسهم وعينه تدمع فقال له رجل: لا تغتم لهم يا أبا عبد الله فأشار بيده فظننا أن معناه إني لم أرد هذا المعنى. وكان يصلي قاعدًا ويصلي وهو مضطجع لا يكاد يفتر ويرفع يده في إيماء الركوع واشتدت علته يوم

الخميس ووضأته فقال: خلل الأصابع، وثقل ليلة الجمعة فلما كان يوم الجمعة الموافق اثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول عام ٢٤١ توفي صدر النهار لساعتين منه فصاح الناس وعلت الأصوات بالبكاء حتى كأن الدنيا قد ارتجت وامتلأت السكك والشوارع وقال صالح: وجه ابن طاهر يعني نائب بغداد بحاجبه مظفر ومعه غلامين معهما مناديل فيها ثياب وطيب فقلت: أقرئ الأمير السلام وقل له: إن أمير المؤمنين قد كان أعفاه في حياته مما كان يكره، ولا أحب أن أتبعه بعد موته بما كان يكرهه في حياته.

وقد كانت الجارية غزلت له ثوبًا عشاريًا قوم بثمانية وعشرين درهمًا ليقطع منه قميصين فقطعنا له لفافتين وأخذ منه فوران لفافة أخرى فأدرجناه في ثلاث لفائف واشترينا له حنوطًا وفرغ من غسله وكفناه، وحضر نحو مائة من بني هاشم ونحن نكفنه، وجعلوا يقبلون جبهته حتى رفعناه على السرير، وقال صالح: وجه الأمير ابن طاهر فقال: من يصلي عليه؟ قلت: أنا، فلما صرت إلى الصحراء إذا ابن طاهر واقف فخطا إلينا خطوات وعزانا ووضع السرير فلما انتظرت هنيهة تقدمت وجعلت أسوي صفوف الناس فجاءني ابن طاهر فقبض هذا على يدي ومحمد بن نصر على يدي وقالوا: الأمير. فمانعتهم فنحياني وصلى ولم يعلم الناس بذلك فلما كان من الغد علم الناس فجعلوا يجيئون ويصلون على القبر، ومكث الناس ما شاء الله يأتون فيصلون على القبر فكانت الصفوف من الميدان إلى قنطرة باب القطيعة سوى ما كان في الأطراف والحواري والسطوح والمواضع المتفرقة، ومن كان في السفن في الماء وقد حزر من حضر جنازته فكانوا سبعمائة ألف وقيل: ثمانمائة ألف وقيل: بلغوا ألف ألف وثلاثمائة ألف، وقيل غير ذلك مما يدل على أنهم جمع غفير وكان - رضي الله عنه - يقول في

حال صحته: قولوا لأهل البدع: بيننا وبينكم يوم الجنائز.

وقد صنفت في ترجمته مصنفات مستقلة منها: المناقب لأبي الفرج بن الجوزي في مجلد، ومنها لأبي إسماعيل الأنصاري في مجلدين، ومنها لأبي بكر البيهقي في مجلد، ومنها لأبي زهرة مجلد، ومنها لأحمد الدومي في مجلد، وغير ذلك عدا ما في غضون كتب التاريخ والتراجم من ذكر مناقبه وثناء الناس عليه رحمه الله وسائر أئمة المسلمين وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم [(١)].

مواقف من حياة الإمام أحمد:

فانظر هل لهذين من خلف أو عوض؟:

عن عبد الله بن الإمام أحمد قال، قلت لأبي: أي رجل كان الشافعي، فإني أسمعك تكثر الدعاء له؟ فقال: يا بني: كان الشافعي رحمه الله كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس، فانظر هل لهذين من خلف أو عوض؟

إذا أردت أن تتفقه فتعال فخذ بركابه من الجانب الآخر:

وعن صالح بن الإمام أحمد قال: لقيني يحيى بن معين فقال: أما يستحيي أبوك مما يفعل؟ فقلت: وما يفعل؟ قال: رأيته مع الشافعي والشافعي راكب، وهو راجل آخذ بزمام دابته. فقلت لأبي ذلك، فقال: إن لقيته فقل: يقول لك أبي: إذا أردت أن تتفقه فتعال فخذ بركابه من الجانب الآخر.

ففيه يقول الشافعي:

(١) المصادر: - القاضي أبو الحسين بن أبي يعلى: طبقات الحنابلة. - ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب. أبو زهرة: أحمد بن حنبل. الدكتور عبد الله عبد المحسن التركي: أصول مذهب الإمام أحمد. - عبد الحليم الجندي: أحمد بن حنبل إمام أهل السنة. أحمد عبد الجواد الدومي: أحمد بن حنبل بين محنة الدين ومحنة الدنيا - ولتر م. باتون ترجمة عبد العزيز عبد الحق: أحمد بن حنبل والمحنة.
أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي: الفتح الرباني وشرحه بلوغ الأماني، ابن الجوزي: مناقب الإمام أحمد. عبد القادر بن أحمد بن بدران: المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل. عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل، أحمد بن حنبل، مجلة البحوث الإسلامية -.

وعن أبي حميد بن أحمد البصري قال: كنت عند أحمد بن حنبل نتذاكر في مسألة، فقال رجل لأحمد: يا أبا عبد الله لا يصح فيه حديث. فقال: إن لم يصح فيه حديث ففيه يقول الشافعي وحجته أثبت شيء فيه.

(ثم قال: أي أحمد) قلت للشافعي: ما تقول في مسألة كذا وكذا فأجاب فيها، فقلت: من أين قلت؟ هل فيه حديث أو كتاب؟ قال: بلى فنزع في ذلك حديثا للنبي ﷺ، وهو حديث نص.

إمام عالم من قريش:

وكان أحمد رحمه الله يقول: إذا سئلت في مسالة لا أعرف فيها خبرًا قلت فيها: يقول الشافعي، لأنه إمام عالم من قريش.

رجلاً لم تر عيناك مثله:

وعن داود بن علي الأصبهاني قال: سمعت إسحاق بن راهويه يقول: لقيني أحمد بن حنبل بمكة فقال: تعالى حتى أريك رجلاً لم تر عيناك مثله.. فأراني الشافعي.

إذا كان صحيحًا:

كان ذلك رأي أحمد بن حنبل في الشافعي، ولا غرو فأن يكون التلميذ معجبًا بأستاذه معترفًا له بالفضل، ولكن الشافعي نفسه لم يمنع تتلمذ أحمد عليه من أن يعترف به بالفضل والعلم بالسنة فيقول له: أما أنتم فأعلم بالحديث والرجال مني، فإذا كان الحديث صحيحًا فأعلموني إن يكن كوفيًا أو بصريًا أو شاميًا، أذهب إليه إذا كان صحيحًا.

وكان الشافعي حين يحدث عن أحمد لا يسميه تعظيمًا له بل يقول: (حدثنا الثقة من أصحابنا أو أنبأنا الثقة أو أخبرنا الثقة).

ذلك يوضح لنا بعض ما كان عليه أسلافنا من أدب جم، وخل عال لا ينال منه الاختلاف، ولا يؤثر فيه تباين الاجتهادات، وتلك آداب الرجال الذين تخرجوا في المدرسة المحمدية، فما عاد للهوى عليهم من سلطان؛ وكتب

التراجم والطبقات والمناقب والتاريخ حافلة بما لا يحصى من المواقف النبيلة، والمناظرات الطريفة بين كبار الأئمة والتي كان الأدب سداها، والخلق الإسلامي الرفيع لحمتها، وحري بنا ونحن نعيش الشتات في كل أمورنا أن نعود إلى فيء تلك الدوحة المباركة، ونلتقي على الآداب الكريمة التي خلفها لنا سلفنا الصالح إن كنّا جادين في السعي لاستئناف الحياة الإسلامية الفاضلة.

ونحن لا ننكر أن هناك مواقف لم تلتزم فيها هذه الآداب، أو خلت من تلك السمات الخيرة التي ذكرناها، ولكنها كانت مواقف من أولئك المقلدين أو المتأخرين الذين أشربوا روح التعصب، ومردوا على التقليد، ولم يدركوا حقيقة الروح العلمية العالية الكامنة وراء أسباب اختلاف الفقهاء، ولم يلهموا تلك الآداب الرفيعة التي كانت وليدة النية الصادقة في تحري الحق، وإصابة الهدف الذي رمى إليه الشارع الحكيم، ويبدو أنهم كانوا من أولئك الذين قال فيهم الإمام الغزالي:فأصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين، وبعد أن كانوا أعزّة بالإعراض عن السلاطين أذلّة بالإقبال عليهم.

والمطلوب سيد نفسه لا ينزع إلا عن الحق، الطالب باع نفسه فلا يشدوا إلا بما يطيب لشاريه، فحولوا الاختلاف الذي كان نعمة أثرت الفقه الإسلامي وأثبت واقعية هذا الدين ورعايته لمصالح الناس إلى عذاب أليم، وصار عاملاً من أخطر عوامل الفرقة والتناحر بين المسلمين.. بل تحول إلى نقمة بددت الكثير من طاقات الأمة فيما لا جدوى منه، وشغلتها بما لا ينبغي أن تنشغل به.

والاختلاف الذي تعرضنا لبعض جوانبه في الصفحات السابقة وألمحنا إلى ما كان في رجاله من آداب رفيعة هو الاختلاف الذي وضع فيه الكاتبون كتبهم في " أسباب اختلاف الفقهاء " قديمًا وحديثًا، أما الخلاف الذي لا تلا تلك القرون الخيرة فهو خلاف من نوع آخر، كما أن له أسبابًا أخرى مختلفة.

بين أحمد بن حنبل ومالك:

عن أبي زرعة الدمشقي قال: سمعت أحمد بن حنبل يسأل عن سفيان ومالك إذا اختلفا في الرواية، فقال: مالك أكثر في قلبي. قال: قلت فمالك والأوزاعي إذا اختلفا؟ فقال: مالك أحب إليّ، وإن كان الأوزاعي من الأئمة، قيل له: وإبراهيم (أي النخعي) فكأنه كان يرى أن إبراهيم لا ينبغي أن يقرن بمالك لأنه ليس من أهل الحديث، فقال: ضعه مع أهل زمانه. وسئل عن رجل يريد أن يحفظ حديث رجل واحد بعينه قيل له: حديث من ترى له؟ قال: يحفظ حديث مالك[1].

وما ينفعك أن يعذب أخوك المسلم بسببك:

ذكر عبد الغني المقدسي في كتابه محنة الإمام أحمد بسنده إلى أبي علي حنبل قال: حضرت أبا عبد الله - أي أحمد بن حنبل -، وأتاه رجل في مسجدنا، وكان الرجل حسن الهيئة كأنه كان مع السلطان، فجلس حتى انصرف من كان عند أبي عبد الله، ثم دنا منه فرفعه أبو عبد الله لما رأى من هيئته، فقال الرجل: يا أبا عبد الله! اجعلني في حل، قال أحمد: من ماذا؟! قال: كنت حاضراً يوم ضربت، وما أعنت ولا تكلمت، إلا أني حضرت ذلك.

فأطرق أبو عبد الله ثم رفع رأسه إليه فقال: أحدث لله توبةً ولا تعد إلى مثل ذلك الموقف، فقال له: يا أبا عبد الله! أنا تائب إلى الله تعالى من السلطان، قال له أبو عبد الله: فأنت في حل وكل من ذكرني إلا مبتدع، قال أبو عبد الله: وقد جعلت أبا إسحاق - المعتصم - في حل، ورأيت الله عز وجل يقول: {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ} [النور: ٢٢] وأمر النبي ﷺ أبا بكر بالعفو في قضية مسطح.

ثم قال أبو عبد الله: العفو أفضل، وما ينفعك أن يعذب أخوك المسلم بسببك،

(١) طه جابر فياض العلواني، أدب الاختلاف في الإسلام، ١ / ٣٢ - ٣٥.

لكن لتعف وتصفح عنه فيغفر الله لك كما وعدك.

كثر بكاؤك الليلة فما السبب؟!:

ساق المقدسي رحمه الله بسنده إلى أبي علي الحسن بن عبد الله الخرقي قال: بت مع أحمد بن حنبل ليلةً، فلم أره ينام إلا يبكي إلى أن أصبح، فقلت: يا أبا عبد الله كثر بكاؤك الليلة فما السبب؟ قال أحمد: ذكرت ضرب المعتصم إياي ومر بي في الدرس قوله تعالى:{ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ} [الشورى: ٤٠] فسجدت وأحللته من ضربي في السجود.

رجل صالح ابتلي فينا فما نعمل؟!:

ذكر ابن رجب في طبقات الحنابلة عن أبي محمد فوزان قال: جاء رجل إلى الإمام أحمد فقال له: نكتب عن محمد بن منصور الطوسي؟! فقال: إذا لم تكتب عن محمد بن منصور فعمن يكون ذلك؟! قالها مراراً، فقال الرجل: إنه يتكلم فيك، فقال أحمد رحمه الله تعالى: رجل صالح ابتلي فينا فما نعمل؟!.

وما أعجب! مواقف الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، اقرؤوا هذا الكتاب محنة الإمام أحمد بن حنبل، انظروا مواقفه مع من عاداه ومع من ضربه ومع من سبه وشتمه، فرحم الله الإمام أحمد.

يا رب ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك:

كان رضي الله عنه يقول: طوبى لمن أحمل الله تعالى ذكره وكان يقول: رأيت رب العزة في المنام فقلت: يا رب ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك فقال بكلامي يا أحمد، فقلت: بفهم أو بغير فهم قال: بفهم وبغير فهم وكان رضي الله عنه إذا جاءه حديث وحده لم يحدثه حتى يكون معه غيره قلت وكذلك كان يحيى بن معين وعبد الله بن داود والله أعلم.

وكان رضي الله عنه يقول: تزوج يحيى بن زكريا عليهما السلام مخافة النظر، وكان رضي الله عنه يضرب به المثل في اتباع السنة واجتناب

البدعة، وكان لا يدع قيام الليل قط، وله في كل يوم وليلة ختمة وكان يسر ذلك عن الناس وقال أبو عصمة رضي الله عنه: بت ليلة عند أحمد رضي الله عنه فجاءني بماء فوضعه، فلما أصبح نظر إلى الماء كما هو فقال: يا سبحان الله رجل يطلب العلم ولا يكون له ورد من الليل، وكان يلبس الثياب النقية البياض ويتعهد شاربه وشعر رأسه وبدنه، وكان مجلسه خاصاً بالآخرة لا يذكر فيه شيء من أمر الدنيا وكان يأتي العرس والإملاك والختان، ويأكل، وتعرت أمه من الثياب، فجاءته زكاة فردها، وقال: العري لهن خير من أوساخ الناس، وأنها أيام قلائل ثم نرحل من هذه الدار، وكان إذا جاع أخذ الكسرة اليابسة فنفضها من الغبار ثم صب عليها الماء في قصعة حتى تبتل ثم يأكلها بالملح، وكانوا في بعض الأوقات يطبخون له في فخارة عدساً وشحماً، وكان أكثر إدامه الخل، وكان إذا مشى في الطريق لا يمكن أحداً يمشي معه، ولما مرض عرضوا بوله على الطبيب فنظر إليه وقال هذا بول رجل قد فتت الغم والحزن كبده، وكان يحيي الليل كله من منذ كان غلاماً وكان من أصبر الناس على الوحدة لا يراه أحد إلا في المسجد أو جنازة أو عيادة، وكان يكره المشي في الأسواق، وكان ورده كل يوم وليلة ثلاثمائة ركعة فلما ضرب بالسياط ضعف بدنه فكان يصلي مائة وخمسين ركعة كل يوم وليلة، وحج رضي الله عنه خمس حجات ثلاثاً منها ماشياً وكان ينفق في كل حجة نحو عشرين درهماً ولما قدم للسياط أيام المحنة أغاثه الله تعالى برجل يقال له أبو الهيثم العيار فوقف عنده وقال: يا أحمد أنا فلان اللص ضربت ثمانية عشر ألف سوط لأقر فما أقررت، وأنا أعرف أني على الباطل فاحذر أن تتقلق وأنت على الحق من حرارة السوط، فكان أحمد كلما أوجعه الضرب تذكر كلام اللص، وكان بعد ذلك لم يزل يترحم عليه ولما دخل أحمد على المتوكل قال المتوكل لأمه: يا أماه قد نارت الدار بهذا الرجل ثم أتوا بثياب نفيسة فألبسوها له فبكى وقال: سلمت منهم عمري كله حتى إذا دنا أجلي

بليت بهم وبدنياهم ثم نزعها لما خرج، وكان رضي الله عنه يواصل الصوم فيفطر كل ثلاثة أيام على تمر وسويق، وقال الفضيل بن عياض رضي الله عنه: حبس الإمام أحمد رضي الله عنه ثمانية وعشرين شهراً، وكان فيها يضرب كل قليل بالسياط إلى أن يغمى عليه وينخس بالسيف ثم يرمى على الأرض ويداس عليه ولم يزل كذلك إلى أن مات المعتصم، وتولى الخلافة الواثق فاشتد الأمر على أحمد وقال: لا أسكن في بلد ألحد فيه فأقام مختفياً لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق وولي المتوصل فرفع المحنة عن أحمد وأمر بإحضاره وإكرامه وإعزازه وكتب إلى الآفاق برفع المحنة وإظهار السنة وأن القرآن غير مخلوق وخمدت المعتزلة وكانوا أشر الطوائف المبتدعة (١).

ألزم التقوى قلبك.. :

حدث علي بن المديني قال: قال لي أحمد بن حنبل:

إني لأحب أن أصحبك إلى مكة، وما يمنعني من ذاك إلى أني أخاف أن أملك أو تملني. قال: فلما ودعته قلت له: - يا أبا عبد الله توصيني بشيء؟

قال: الزم التقوى قلبك وانصب الآخرة أمامك.

يا أبت ما هذا الكتاب؟:

حدث صالح بن أحمد بن حنبل قال: دخلت على أبي في أيام الواثق - والله يعلم في أي حالة نحن - وقد خرج لصلاة العصر، وقد كان له لبد يجلس عليها، قد أتت عليه سنون كثيرة حتى قد بلي، فإذا تحته كتاب كاغد، وإذا فيه:

(بلغني يا أبا عبد الله ما أنت فيه من الضيق، وما عليك من الدَّين، وقد وجهتُ إليك بأربعة آلاف درهم على يدي فلان لتقضي بها دينك، وتوسع بها على عيالك، وما هي من صدقة ولا زكاة، وإنما هو شيء ورثته

(١) الشعراني، الطبقات الكبرى، ٥٢/١.

من أبي).

فقرأت الكتاب ووضعته. فلما دخل قلت: يا أبت ما هذا الكتاب؟

فاحمر وجهه وقال: رفعته منك. ثم قال: تذهب بجوابه، فكتب إلى الرجل:

(وصل كتابك إليَّ ونحن في عافية، فأما الدَّين: فإنه لرجل لا يرهقنا، وأما عيالنا: فهم في نعمة والحمد لله).

فذهبت بالكتاب إلى الرجل الذي كان أوصل كتاب الرجل، فقال:

ويحك لو أن أبا عبد الله قبل هذا الشيء ورمى به مثلاً في دجلة كان مأجوراً، لأن هذا رجل لا يعرف له معروف.

فلما كان بعد حين ورد كتاب الرجل بمثل ذلك، فردّ عليه الجواب بمثل ما ردّ، فلما مضت سنة أو أقل أو أكثر ذكرناها فقال: لو كنا قبلناها كانت قد ذهبت [(١)].

عليٌ قاسم الجنّة والنار:

سئل أحمد بن حنبل عن قول الناس: عليٌّ قاسم الجنّة والنار، قال: هذا صحيح، لأنّ النبيّ صلّى الله عليه وعلى آله قال لعليّ بن أبي طالب:﴿لا يحبّك إلّا مؤمنٌ ولا يبغضك إلا منافقٌ، فالمؤمن في الجنّة والمنافق في النار﴾.

حتى أنتفع به كما انتفعت:

قال أبو عبد الله بن الجرّاح: قصدني أحمد بن حنبل فسألني أن أخرج إليه شيئاً من العلم، فأخرجت إليه كتاب العقل لداود بن المحبّر، فانتخب منه أحاديث وردّ الكتاب، فسألته عن ذلك فقال: لم أر فيه أحاديث صحاحاً، قال ابن الجرّاح: كلّه صحيح، قال أحمد: ومن أين عرفت؟ قال: لأني استعملته فوجدته كلّه صحيحاً، فقال: ردّ الكتاب إليّ حتى أنتفع به كما

(١) مجلة حضارة الإسلام - السنة ٨ - العدد ٩ - ذو القعدة/٣٨٧ - شباط/ ١٩٦٨.

انتفعت.

أحمد بن حنبل يكتب شعر أبي نواس

ولكن قل علي رقيب:

قال أحمد بن يحيى ثعلب: دخلت على أحمد بن حنبل فرأيت رجلاً تهمه نفسه لا يحب أن يكثر عليه كأن النيران قد سعرت بين يديه، فما زلت أرفق به، وتوسلت بالشيبانية إليه فقلت: أنا من مواليك يا أبا عبد الله، وذكرت له عبد الله بن الفرج، قال أبو العباس: وعبد الله بن الفرج هذا من صالحي أهل البلد فقرم إلى حديثي وانبسط إلي وقال: في أي شيءٍ نظرت؟ فقلت: في علم اللغة والشعر، فقال: مررت بالبصرة وجماعة يكتبون الشعر عن رجل، فقيل لي هذا أبو نواس، فتخللت الناس ورآني، فلما جلست أمل علينا:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل ::: خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعةً ::: ولا أن ما يخفى عليه يغيب
لهونا لعمر الله حتى تتابعت ::: ذنوب على آثارهن ذنوب
فيا ليت أن الله يغفر ما مضى ::: ويأذن في توباتنا فنتوب

ثم أطرق، فعلمت أنه قد مل، فسلمت وانصرفت.

قال محمد بن العباس: فحدث أبي بهذا عبد الله بن المعتز وأنا حاضر أسمع فأنشده الأبيات، فقال لنا عبد الله: هذه الأبيات لأبي نواس من زهدياته [١].

أنت وأبوك في طرفي نقيض:

قرأ عبد الله بن أحمد بن حنبل في الصلاة: اقرأ باسم ربك الذي خلق؛ فقيل له: أنت وأبوك في طرفي نقيض، زعم أبوك أن القرآن ليس بمخلوق، وأنت تزعم أن الرب مخلوق.

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٣٥٩/١.

ولم صارا أحمقين!:

وقد روي عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال لو جاءني رجل فقال إنيّ حلفت بالطلاق أن لا أكلم في هذا اليوم من هو أحمق وكلم رافضيًا أو نصرانيًا لقلت له: حنثت فقال له ابن الديناري: أعزك الله ولم صارا أحمقين؟ قال: لأنهما خالفا الصادقين.

أما الصادق الأول فعيسى عليه السلام قال للنصارى: إني عبد الله وقال أن اعبدوا الله فقالوا لا وعبدوه جهلاً وحمقًا. والصادق الثاني الإمام علي رضي الله عنه فإنه قال عنه ﷺ أنه قال عن أبي بكر وعمر هذان سيدا كهول أهل الجنة والرافضة يسبونهما.

الطعام كان من غيب الله:

قيل: اجتمع أربعة من الأئمة الشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبو ثور، ومحمد بن الحكم رضي الله عنهم عند أحمد بن حنبل يتذاكرون فصلوا صلاة المغرب وقدموا الشافعي ثم ما زالوا يصلون في المسجد إلى أن صلوا العتمة ثم دخلوا بيت أحمد بن حنبل ودخل أحمد على امرأته ثم خرج على أصحابه وهو يضحك فقال الشافعي مم تضحك يا أبا عبد الله؟ قال: خرجت إلى الصلاة ولم يكن في البيت لقمة من طعام والآن فقد وسع الله علينا قال الشافعي: فما سببه قال: أحمد قالت لي أم عبد الله أنكم لما خرجتم إلى الصلاة جاء رجل عليه ثياب بيض حسن الوجه عظيم الهيئة ذكي الرائحة فقال: يا أحمد بن حنبل فقلنا: لبيك فقال: هاكم خذوا هذا فسلم إلينا زنبيلاً أبيض وعليه مندل طيب الرائحة وطبق مغطى منديل آخر وقال: كلوا من رزق ربكم وأشكروا له فقال الشافعي: يا أبا عبد الله فما في الزنبيل والطبق؟ فقال: عشرون رغيفاً قد عجنت باللبن واللوز المقشور أبيض من الثلج وأذكى من المسك ما رأى الراءون مثله وخروف مشوي مزعفر حار وملح في سكرجة وخل في قارورة على الطبق وبقل وحلواء متخذة من سكر طبرزد ثم أخرج الكل ووضعه بين أيديهم فتعجبوا من

شأنه وأكلوا ما شاء الله قال فلم تذهب حلاوة ذلك الطعام والحلواء مدة طويلة وكل من أكل من ذلك الطعام ما أحتاج إلى طعام غيره مدة شهر فلما أن فرغوا من الأكل حمل أحمد ما بقي منه وأدخله إلى أهله فأكلوا وشبعوا وبقي منه شيء فأجمع رأيهم على أن الطعام كان من غيب الله وأن الرسول كان ملكاً من الملائكة قال صالح بن حنبل: ما أصابتنا مجاعة قط ما دام ذلك الزنبيل في بيتنا وكان يأتينا الرزق من حيث لا تحتسب رضي الله عنهم وأعاد علينا من بركاتهم (١).

أفتحله لنا أم تحرمه علينا؟:

وروي أن أخت بشر بن الحارث قصدت أحمد بن حنبل فقالت: إنا قوم نغزل الليل ومعاشنا منها، وربما تمر بنا مشاعل بني طاهر ولاة بغداد ونحن على السطح فنغزل في ضوئها الطاقة والطاقتين، أفتحله لنا أم تحرمه علينا؟فقال لها: من أنت؟قالت: أخت بشر، قال: آه ياآل بشر لا عدمتكم، لا أزال أسمع الورع الصافي من قبلكم (٢).

يؤكل الطعام لثلاث:

وقال ابن مفلح في طبقات الحنابلة في ترجمة علي بن محمد المصري قال: سمعت أحمد بن حنبل يقول: يؤكل الطعام لثلاث: مع الإخوان بالصدور، ومع الفقراء بالإيثار، ومع أبناء الدنيا بالمروءة. انتهى.

هذا الحديث يكفيني:

حكي أن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه سمع شخصًا من وراء النهر يروي أحاديث مثلثة فسار إليه ودخل عليه فوجده يطعم كلبًا وهو مشتغل به قال الإمام أحمد: فأخذت في نفسي وأضمرت أن أرجع إذا لم يلتفت الرجل إلي ثم قال: حدثني أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي

(١) ابن حجة الحموي، ثمرات الأوراق، ١٤٧/١.
(٢) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ٥٠/١.

الله عنه أن رسول الله قال: " من قطع رجاء من ارتجاه قطع الله رجاءه يوم القيامه فلم يلج الجنة وإن أرضنا هذه ليست بأرض كلاب وقد قصدني هذا الكلب فخشيت أن أقطع رجاءه " قال: فقال الإمام أحمد رحمه الله هذا الحديث يكفيني ثم رجع قافلاً إلى أهله.

من غير بيت بشر:

وروى أن امرأة جاءت إلى أحمد بن حنبل تسأله فقالت: إني امرأة أغزل بالليل والنهار وأبيعه ولا أبين غزل الليل من غزل النهار فهل على ذلك شيء فقال: يجب أن تبيني فلما انصرفت قال أحمد، لابنه: اذهب فانظر أين تدخل فرجع فقال دخلت دار بشر فقال: قد عجبت أن تكون هذه السائلة من غير بيت بشر (١).

لا يزيد على قوله اللهم اغفر للمعتصم:

سمعت إسحاق بن أحمد القطان البغدادي بتستر يقول كان لنا جار ببغداد كنا نسميه طبيب القراء وكان يتفقد الصالحين ويتعاهدهم فقال لي: دخلت يومًا على أحمد بن حنبل فإذا هو مغموم مكروب فقلت: ما لك يا أبا عبد الله؟ قال: خير قلت: وما الخير؟ قال: امتحنت بتلك المحنة حتى ضربت ثم عالجوني وبرأت إلا أنه بقى في صلبي موضع يوجعني هو أشد علي من ذلك الضرب قال: قلت اكشف لي عن صلبك قال: فكشف لي فلم أر فيه إلا أثر الضرب فقط فقلت: ليس لي بذي معرفة ولكن سأستخبر عن هذا قال: فخرجت من عنده حتى أتيت صاحب الحبس وكان بيني وبينه فضل معرفة فقلت له: أدخل الحبس في حاجة قال: أدخل فدخلت وجمعت فتيانهم وكان معي دريهمات فرقتها عليهم وجعلت أحدثهم حتى أنسوا بي ثم قلت: من منكم ضرب أكثر قال: فأخذوا يتفاخرون حتى اتفقوا على واحد منهم أنه أكثرهم ضربًا وأشدهم صبرًا قال: فقلت له: أسألك عن شيء

(١) الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ٣١٦/١، ٢١٦/٢.

فقال: هات فقلت: شيخ ضعيف ليس صناعته كصناعتكم ضرب على الجوع للقتل سياطًا يسيرة إلا أنه لم يمت وعالجوه وبرأ إلا أن موضعًا في صلبه يوجعه وجعًا ليس له عليه صبر قال: فضحك فقلت: مالك؟ قال: الذي عالجه كان حائكًا قلت: إيش الخبر؟ قال: ترك في صلبه قطعة لحم ميته لم يقلعها قلت: فما الحيلة؟ قال: يبط صلبه وتؤخذ تلك القطعة ويرمى بها وإن تركت بلغت إلى فؤاده فقتلته قال: فخرجت من الحبس فدخلت على أحمد بن حنبل فوجدته على حالته فقصصت عليه القصة قال: ومن يبطه؟ قلت: أنا، قال: أو تفعل قلت: نعم قال: فقام فدخل البيت ثم خرج وبيده مخدتان وعلى كتفه فوطة فوضع إحداهما لي والأخرى له ثم قعد عليها وقال: استخر الله فكشفت الفوطة عن صلبه وقلت أرني موضع الوجع فقال: ضع إصبعك عليه فإني أخبرك به فوضعت إصبعي وقلت ها هنا موضع الوجع قال: ههنا أحمد الله على العافية فقلت: ها هنا قال: هاهنا أحمد الله على العافيه فقلت: هاهنا قال: هاهنا أسأل الله العافيه قال: فعلمت أنه موضع الوجع قال: فوضعت المبضع عليه فلما أحس بحرارة المبضع وضع يده على رأسه وجعل يقول اللهم اغفر للمعتصم حتى بطته فأخذت القطعه الميتة ورميت بها وشددت العصابة عليه وهو لا يزيد على قوله اللهم اغفر للمعتصم قال: ثم هدأ وسكن ثم قال: كأني كنت معلقًا فأصدرت قلت: يا أبا عبد الله إن الناس إذا امتحنوا محنة دعوا على من ظلمهم ورأيتك تدعو للمعتصم قال: إني أفكرت فيما تقول وهو ابن عم رسول الله ﷺ فكرهت أن آتي يوم القيامة وبيني وبين أحد من قرابته خصومة هو مني في حل [1].

(١) محمد بن حبان البستي أبو حاتم، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٣٩٧ - ١٩٧٧، ص ١٦٦.

هذه مشية الخدام في دار السلام:

سمعنا أبا يحيى زكريا بن يحيى السمسار يقول: رأيت أحمد بن حنبل في المنام وعلى رأسه تاج مرصع بالجوهر وفي رجليه نعلان من ذهب وهو يخطر بهما قال: قلت أبا عبد الله ماذا فعل الله بك قال: غفر لي وأدناني من نفسه وتوجني بيده هذا التاج وقال: هذا بقولك القرآن كلام الله غير مخلوق قال قلت فما هذه الخطرة التي لم أعرفها لك في دار الدنيا قال: هذه مشية الخدام في دار السلام (١).

قال الحسن بن محمد: رأيت أحمد بن حنبل رضي الله عنه في النوم فقال: يا أبا علي لو رأيت صلاتنا على النبي ﷺ في الكتب كيف تزهو بين يدينا؟ ولذا قال سفيان الثوري: لو لم يكن لصاحب الحديث فائدة إلا الصلاة على رسول الله ﷺ فإنه يصلي عليه ما دام اسمه في ذلك الكتاب ﷺ. وقال عبد الله بن عبد الحكم: رأيت الشافعي رضي الله عنه في النوم فقلت ما فعل الله بك؟ فقال رحمني وغفر لي وزفني إلى الجنة كما تزف العروس، ونثر علي كما ينثر على العروس، فقلت: بماذا بلغت هذه الحالة؟ فقال لي قائل: بقولك في (كتاب الرسالة) من الصلاة على النبي ﷺ، قلت فكيف ذلك؟ قال: وصلى الله على محمد عدد ما ذكره الذاكرون وعدد ما غفل عن ذكره الغافلون فلما أصبحت نظرت إلى الرسالة فوجدت الأمر كما رأيت ﷺ. وذكر في جلاء الأفهام من هذا أشياء كثيرة. وفي حديث ابن عباس مرفوعا:﴿**جاءني جبريل عليه السلام فقال: إنه من ذكرت عنده فلم يصل عليك فأبعده الله وأسحقه، فقلت: آمين**﴾(٢). ومن حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه مرفوعا:﴿**أن جبريل عرض لي فقال: بعد من ذكرت عنده فلم يصل عليك**

(١) أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي، معجم السفر، تحقيق: عبدالله عمر البارودي، المكتبة التجارية - مكة المكرمة، ص ٤٨.
(٢) رواه الترمذي وحسنه.

فقلت: آمين﴾[١] عن أبي هريرة مرفوعًا:

﴿رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي﴾. وعن الحسين بن علي رضوان الله عليهما عن النبي ﷺ قال:﴿البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي﴾[٢] وما أحسن قول الإمام الصرصري في ذلك: من لم يصل عليه إن ذكر اسمه فهو البخيل وزده وصف جبان وإذا الفتى في العمر صلى مرة في سائر الأقطار والبلدان صلى عليه الله عشرًا فليزد عبد ولا يجنح إلى نقصان وأخرج النسائي عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :﴿ما اجتمع قوم ثم تفرقوا عن غير ذكر الله عز وجل وصلاة على النبي ﷺ إلا قاموا عن أنتن من جيفة﴾[٣] إلا أنه قال:﴿إلا قاموا عن أنتن جيفة﴾ قال الإمام أبو عبد الله المقدسي: هذا على شرط مسلم [٤].

اللهم يا رب كل شيء بقدرتك على كل شيء:

رؤي الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وألبسني نعلين من ذهب وقال: يا أحمد ادعني بالدعوات التي كنت تدعوني بها في الدنيا فقلت: اللهم يا رب كل شيء بقدرتك على كل شيء اغفر لي كل شيء ولا تسألني عن شيء فقال: يا أحمد قم فادخل الجنة [٥].

---

(١) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد، والترمذي وحسنه.

(٢) رواه النسائي، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وصححه، والترمذي، وزاد في سنده علي بن أبي طالب وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٣) ورواه أبو داود الطيالسي.

(٤) محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة: الثانية، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م، ص١٨.

(٥) عبد الرحمن بن عبد السلام بن عبد الرحمن بن عثمان الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، ١٠٧/١.

إن كنت تعلم أني على صواب فلا تهتك ستري:
قال بعضهم: رأيت النبي ﷺ في المنام فسألته عن أحمد فقال: اسأل عنه موسى فسألته فقال: هو من الصديقين وقال بعضهم: رأيت زبيدة في المنام وكنيتها أم العزيز وشعرها أبيض فسألتها عن ذلك فقالت: لما جردوا الإمام أحمد للضرب زفرت جهنم زفرة فلم يبق أحد في القبور إلا ابيض شعره ولما ضربه الجلاد أول ضربة بالسوط شق خاصرته فقال: اللهم اعم بصره ثم رآه بعد ذلك وهو أعمى فسأله عن ذلك فقال: حتى تخرج الروح قبل أن تقول القرآن مخلوق فقال الإمام أحمد: اللهم إن كان صادقًا فرد عليه بصره فرد الله بصره وفي السوط الأول قال: بسم الله وفي الثاني قال: لا حول ولا قوة إلا بالله وفي الثالث قال: القرآن كلام الله غير مخلوق وفي الرابع لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ثم انقطعت حاشية سراويله فقال: اللهم إني أسألك باسمك الذي ملأت به العرش إن كنت تعلم أني على صواب فلا تهتك ستري فرفعت سراويله.

من أنت؟:
قال معروف الكرخي: رأيت رجلاً في المنام قلت له: من أنت؟ قال: موسى بن عمران قلت: موسى بن عمران الذي كلم الله قال: نعم ثم رأيت ثلاثة نزلوا من سقف البيت فقلت: من هؤلاء؟ قال: عيسى ابن مريم ونبيكم محمد وأحمد بن حنبل وحملة العرش والملائكة يشهدون القرآن كلام الله غير مخلوق.

رأيت النبي ﷺ في المنام:
قال الشافعي رضي الله عنه رأيت النبي ﷺ في المنام فقال: اكتب إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل واقرئه مني السلام وقل له: إنك ستمتحن وتدعى إلى خلق القرآن فلا تجبهم فيرفع الله لك علمًا يوم القيامة (١).

(١) الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، ٢/٤٧٠.

فأفاضه على سائر جسده:

وحكي أن الشافعي رضي الله تعالى عنه، لما كان بمصر، رأى في المنام سيد المرسلين ﷺ، وهو يقول له: بشر أحمد بن حنبل بالجنة، على بلوى تصيبه فإنه يدعى إلى القول بخلق القرآن فلا يجب إلى ذلك، بل يقول هو منزل غير مخلوق. فلما أصبح الشافعي رضي الله تعالى عنه، كتب صورة ما رآه في منامه، وأرسله مع الربيع إلى بغداد إلى أحمد فلما وصل بغداد، قصد منزل أحمد واستأذن عليه فأذن له، فلما دخل عليه قال له: هذا كتاب أخيك الشافعي، فقال له: هل تعلم ما فيه؟ قال: لا ففتحه وقرأه وبكى. وقال ما شاء الله لا قوة إلا بالله. ثم أخبره بما فيه، فقال: الجائزة، وكان عليه قميصان أحدهما على جسده، والآخر فوقه. فنزع الذي على جسده ودفعه إليه. فأخذه ورجع إلى الشافعي. فقال له الشافعي: ما أجازك؟ قال: أعطاني القميص الذي على جسده. فقال: أما أنا فلا أفجعك فيه، ولكن أغسله وائتني بمائه، فغسله وأتاه بالماء، فأفاضه على سائر جسده [(١)].

والله لرفْسَتُهُ لي أحب إليّ من سفرتي:

قال أحمد بن منصور الرمادي: خرجت مع أحمد (يعني ابن حنبل) ويحيى (ابن معين) إلى عبد الرزاق (ابن همام الصنعاني) خادمًا لهما، قال: فلما عدنا إلى الكوفة قال يحيى بن معين: أريد أن اختبر أبا نعيم، فقال أحمد: لا تُردْ فالرجل ثقة، قال يحيى: لا بد لي، فأخذ ورقة فكتب فيها ثلاثين حديثًا وجعل على رأس كل عشرة منها حديثًا ليس من حديثه ثم إنهم جاؤوا إلى أبي نعيم فخرج وجلس على دكان طين (مكان مرتفع) وأخذ أحمد بن حنبل فأجلسه عن يمينه ويحيى عن يساره وجلستُ أسفل الدكان، ثم أخرج يحيى الطبق فقرأ عليه عشرة أحاديث، فلما قرأ الحادي عشر، قال أبو نعيم: ليس هذا من حديثي؛ اضرب عليه، ثم قرأ العشر الثاني وأبو نعيم ساكت فقرأ الحديث الثاني، فقال أبو نعيم: ليس هذا من حديثي فاضرب عليه ثم قرأ

(١) كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري، حياة الحيوان الكبرى، ١١٩/١.

العشر الثالث ثم قرأ الحديث الثالث فتغير أبو نعيم وانقلبت عيناه، ثم أقبل على يحيى فقال: أمّا هذا - وذراع أحمد بيده - فأورع من أن يعمل مثل هذا، وأما هذا - يريدني - فأقل من أن يفعل ذلك، ولكن هذا من فعلك يا فاعل، وأخرج رجله فرفس يحيى فرمى به من الدكان وقام فدخل داره فقال أحمد بن حنبل ليحيى: ألم أمنعك وأقل لك إنه ثَبْتٌ، قال: والله لرفسَتُهُ لي أحب إليّ من سفرتي.

فاتهمه على الإسلام:

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه لما سئل عن رجل تنقص معاوية، وعمرو بن العاص أيقال له رافضي؟ فقال: " إنه لم يجترئ عليهما إلا وله خبيئة سوء، ما انتقص أحدٌ أحداً من الصحابة إلا وله داخلة سوء ". وفي رواية أخرى قال: " إذا رأيت رجلاً يذكر أحداً من الصحابة بسوء فاتهمه على الإسلام " [(١)].

لا حتى أموت:

عن صالح بن أحمد بن حنبل قال: لما حضرت أبي الوفاة فجلست عنده والخرقة بيدي أشد بها لحييه، قال: فجعل يغرق ثم يفيق ويفتح عينيه ويقول: بيده هكذا لا بعد لا بعد لا بعد، ففعل هذا مرة وثانية فلما كان في الثالثة قلت له: يا أبه إيش هذا الذي لهجت به في هذا الوقت؟! فقال: يا بني أما تدري؟! قلت: لا، فقال: إبليس لعنه الله قائم بحذائي عاض على أنامله يقول: يا أحمد فتّني! فأقول: لا حتى أموت.

متى يجد العبد طعم الراحة؟:

عن أبي عبد الله أحمد بن حنبل أنه جاءه رجل من أهل خراسان فقال: يا أبا عبد الله قصدتك من خراسان أسألك عن مسألة! قال له: سل؛ قال: متى يجد العبد طعم الراحة؟ قال: عند أول قدم يضعها في الجنة.

(١) البداية والنهاية، ١٤٢/٨.

إنما تحفة المؤمن حفرته:

قال المروزي: قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل: كأنك بالموت وقد فرق بيننا، ما أعدل بالفقر شيئاً؛ أنا أفرح إذا لم يكن عندي شيء، إني لأتمنى الموت صباحاً ومساءً؛ أخاف أن أفتن في الدنيا؛ قال مسروق: إنما تحفة المؤمن حفرته.

العلم خزائن يقسم الله لمن أحب:

قال أحمد بن حنبل: العلم خزائن يقسم الله لمن أحب، لو كان يخص بالعلم أحداً لكان بيت النبي ﷺ أولى؛ كان عطاء بن أبي رباح حبشياً، وكان يزيد بن أبي حبيب نوبياً أسود، وكان الحسن مولى للأنصار، وكان ابن سيرين مولى للأنصار.

لو أن للذنوب ريحًا ما جلس إلي منكم أحد:

قال المروزي: قلت لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: ما أكثر الداعين لك! فتغرغرت عيناه وقال: أخاف أن يكون هذا استدراجاً، وقال: قال محمد بن واسع: لو أن للذنوب ريحاً ما جلس إلي منكم أحد.

ولعنتي تبلغ السابع من الولد:

قال ابن القيم: ذكر الإمام أحمد عن وهب: أن الرب تبارك وتعالى قال في بعض ما يقول لبني إسرائيل: " إني إذا أطعت رضيت، وإذا رضيت باركت، وليس لبركتي نهاية، وإذا عصيت غضبت وإذا غضبت لعنت ولعنتي تبلغ السابع من الولد ".

من كلام الإمام أحمد:

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سألت أبي عن الغناء فقال: الغناء ينبت النفاق في القلب؛ ثم ذكر قول مالك: إنما يفعله عندنا الفساق.

قال أبو غذاء: سمعت أحمد بن حنبل يقول: يعجبني أن يكون للرجل ركعات من الليل والنهار معلومة فإذا نشط طولها وإذا لم ينشط خففها.

قال أحمد بن حنبل رحمه الله: هب المسيء قد عفي عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين؟

قال أحمد بن حنبل: ما شبهت الشباب إلا بشيء كان في كمي فسقط.

أصول السُّنَّةِ عندنا: التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ، والاقتداء بهم، وترك البدع، وكل بدعة فهي ضلالة، وترك الخصومات، والجلوس مع أصحاب الأهواء، وترك المراء والجدال، والخصومات في الدين.

والسنة عندنا: آثار رسول الله ﷺ.

والسنة تفسر القرآن، وهي دلائل القرآن.

ومن السنة اللازمة التي مَن ترك منها خصلة لم يَقبلها ويؤمن بها، لم يكن من أهلها: الإيمان بالقدر خيره وشره، والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، لا يقال: لم؟ ولا كيف؟ إنما هو التصديق بها والإيمان بها.

ومن لم يعرف تفسير الحديث ويبلغه عقله، فقد كُفي ذلك وأحكم له، فعليه الإيمان به، والتسليم له، مثل حَديث الصادق المصدوق، وما كان مثله في القدر، ومثل أحاديث الرؤية كلها، وإن نَبت عن الأسماع، واستوحش منها المستمع، فإنما عليه الإيمان بها، وألا يردَّ منها حَرفًا واحدًا، وغيرها من الأحاديث المأثورات عن الثقات.

وأن لا يخاصم أحدًا ولا يُناظره، ولا يتعلم الجدل، فإن الكلام في القدر والرؤية والقرآن، وغيرها من السنن، مكروه منهي عنه، ولا يكون صاحبه إن أصاب بكلامه السنة: من أهل السنة حتى يدع الجدل ويسلم، ويؤمن بالآثار.

والقرآن كلام الله، وليسَ بمخلوق، ولا تضعف أن تقول: ليس بمخلوق، فإن كلام الله منه، وليس منه شيء مخلوق، وإياك ومناظرة من أحدث فيه، ومن قال باللفظ وغيره، ومن وقف فيه، فقال: لا أدري مخلوق أو ليس بمخلوق، وإنما هو كلام الله، وليس بمخلوق.

والإيمان بالرؤية يوم القيامة، كما روي عن النبي ﷺ من الأحاديث الصحاح.

والإيمان بالميزان كما جاء، وتوزن أعمال العباد كما جاء في الأثر.

وأنَّ الله تبارك وتعالى يكلم العباد يوم القيامة ليس بينهم وبينه ترجمان.

والإيمان بالحوض، وأن لرسول الله ﷺ حوضًا يوم القيامة ترد عليه أُمته، عرضه مثل طوله مَسيرة شهر، آنيته كعدد نجوم السماء على ما صحت به الأخبار من غير وجه.

والإيمان بعذاب القبر، وأن هذه الأمة تُفتن في قبورها وتُسأل عن الإيمان، والإسلام، ومن ربه، ومن نبيه؟ ويأتيه منكر ونكير كيف شاء الله عز وجل، وكيف أراد.

والإيمان بشفاعة النبي ﷺ، وبقوم يخرجون بعدما احترقوا وصاروا فحمًا، فيؤمر بهم إلى نهر على باب الجنة كما جاء في الأثر، كيف شاء الله، وكما شاء.

والإيمان أن المسيح الدجال خارج، مكتوب بين عَينيه: كافر، والأحاديث التي جاءت فيه، والإيمان بأن ذلك كائن، وأن عيسى ابن مريم ينزل فيقتله بباب لُد.

والإيمان قولٌ وعمل يزيد وينقص، كما جاء في الخبر: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا» (١).

وخيرُ هذه الأمة بعد نبيها، أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، نقدم هؤلاء الثلاثة، كما قدمهم أصحاب رسول الله ﷺ لم

(١) أخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه: (٤٦٨٢)، والترمذي في كتاب الرضاع، باب حق المرأة على زوجها: (١١٦٢)، وأحمد في مسنده: (٢ / ٢٥٠، ٤٧٢)، وصححه ابن حبان في كتاب البر والإحسان، باب حسن الخلق: (٤١٧٦)، والحاكم في كتاب الإيمان: (١ / ٣)، ووافقه الذهبي.

يختلفوا في ذلك.

ثم بعد هؤلاء الثلاثة أصحاب الشورى الخمسة: علي بن أبي طالب، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد، كلهم يصلح للخلافة، وكلهم إمام.

ثم من بعد أصحاب الشورى، أهل بدر من المهاجرين، ثم أهل بدر من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ، على قدر الهجرة والسابقة أولاً فأول.

ثم أفضل الناس بعد هؤلاء، أصحاب رسول الله ﷺ القرن الذي بعث فيهم.

كل من صحبه سنة، أو شهرًا، أو يومًا، أو ساعةً، أو رآه ساعةً فهو من أصحابه، له من الصّحْبَةِ على قدر ما صحبه، وكانت سابقته معه، وسمع منه، ونظر إليه.

فأدناهم صحبة هو أفضل من القرن الذين لم يروه ولو لقوا الله بجميع الأعمال.

كان هؤلاء الذين صحبوا النبي ﷺ ورأوه وسمعوا منه.

ومن رآه بعينه وآمن به ولو ساعة أفضل بصحبته من التابعين ولو عملوا كل أعمال الخير.

والسمع والطاعة للأئمة. وأمير المؤمنين، البَر والفاجر، من ولي الخلافة فاجتمع الناس عليه ورضوا به، ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة وسُمي أمير المؤمنين.

والغزو ماضٍ مع الأمراء إلى يوم القيامة، البَر والفاجر لا يترك.

وقسمة الفَيء، وإقامة الحدود إلى الأئمة ماضٍ ليس لأحد أن يطعن عليهم ولا ينازعهم، ودفع الصدقات إليهم جائزة ونافذة، من دفعها إليهم أجزأت عنه، برًا كان أو فاجرًا.

وصلاة الجُمعة خلفه وخلف من ولي جائزة تامة، ركعتان من أعادهما فهو

مبتدع، تارك للآثار، مخالف للسنة، ليس له من فضل الجمعة شيء إذا لم ير الصلاة خلف الأئمة من كانوا، برهم وفاجرهم، فالسنة أن تصلي معهم ركعتين، من أعادهما فهو مبتدع، وتدين بأنها تامة ولا يكن في صدرك من ذلك شك.

ومن خرج على إمام المسلمين، وقد كان الناس اجتمعوا عليه، وأقروا له بالخلافة، بأي وجه كان، بالرضا أو بالغلبة، فقد شق هذا الخارج عصا المسلمين، وخالف الآثار عن رسول الله ﷺ، فإن مات الخارج عليه، مات ميتة جاهلية.

ولا يَحل قتال السلطان، ولا الخروج عليه لأحدٍ من الناس، فمن فعل ذلك فهو مبتدع على غير السنة والطريق.

ولا يشهد على أهل القبلة بعمل يعمله بجنةٍ ولا نار، يرجو للصالح ويخاف عليه، ويخاف على المسيء المذنب ويرجو له رحمة الله.

ومن لقي الله بذنب تجب له به النار، تائبًا غير مُصِرٍّ عليه، فإن الله عز وجل يتوب عليه، ويقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات.

ومن لقيه وقد أقيم عليه حدّ ذلك الذنب في الدنيا فهو كفارته كما جاء الخبر عن رسول الله ﷺ (١).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار: (١٨)، ومسلم في كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها: (١٧٠٩)، والترمذي في كتاب الحدود، باب ما جاء أن الحدود كفارةٌ لأهلها: (١٤٣٩)، والنسائي في كتاب البيعة، باب البيعة على فراق المشرك: (٤١٧٨)، وأحمد في مسنده: (٥ / ٣١٤، ٣٢٠)، والدارمي في كتاب السير، باب في بيعة النبي ﷺ: (٢٤٥٧)، عن عبادة بن الصامت قال: كنا مع رسول الله ﷺ في مجلس فقال:﴿بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا ثم ستره الله، فهو إلى الله؛ إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه﴾، فبايعناه على ذلك. (واللفظ للبخاري).

ومن لقيه مُصراً غير تائب من الذنوب التي قد استوجبت بها العقوبة، فأمره إلى الله عز وجل إن شاء عذّبه، وإن شاء غفر له، ومن لقيه كافرًا عذّبه ولم يَغفر له.

والرجم حق على من زنى وقد أُحصن إذا اعترف، أو قامت عليه بينة. وقد رجم رسول الله ﷺ، وقد رَجم الأئمة الراشدون.

ومن انتقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ، أو أبغضه لحدثٍ كان منه، أو ذكر مساوئه، كان مبتدعًا حتى يترحم عليهم جميعًا ويكون قلبه لهم سليمًا.

والنفاق هو الكفر، أن يكفر بالله، ويعبد غيره، ويظهر الإسلام في العلانية، مثل المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ.

وهذه الأحاديث التي جاءت نرويها كما جاءت ولا نفسرها.

مثل: ﴿لا تَرجعوا بعدي كفارًا يَضرب بعضكم رقابَ بعض﴾ (١).

ومثل: ﴿إذا التَقى المسلمان بسيفيهما فالقاتِل والمَقتول في النار﴾(٢).

ومثل: ﴿سباب المسلم فُسوق وقِتاله كفر﴾ (٣).

ومثل: ﴿أَيما رجل قال لأخيه: يا كافر فقد باءَ بها أَحَدهما﴾ (٤).

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له، في كتاب الأدب، باب ما جاء في قول الرجل " ويلك " : (٦١٦٦)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان معنى قول النبي ﷺ :﴿لا ترجعوا بعدي كفارًا..﴾ إلخ: (٦٦)، وأبو داود في كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه: (٤٦٨٦)، والنسائي في كتاب تحريم الدم، باب تحريم القتل: (٤١٢٥)، وأحمد في مسنده: (٢ / ٨٥، ٨٧، ١٠٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب:{وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ} [الحجرات: ٩] (٣١)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما: (٢٨٨٨).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن.. إلخ: (٤٨)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ :﴿سباب المسلم..﴾ إلخ: (٦٤)، والترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الشتم: (١٩٨٣)، والنسائي في كتاب تحريم الدم، باب قتال المسلم: (٤١٠٥).

(٤) أخرجه البخاري واللفظ له في كتاب الأدب، باب من أكفر أخاه.. إلخ: (٦١٠٤)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه: يا كافر: (٦٠).

ومثل: ﴿.. كُفْرٌ بالله تَبرؤٌ من نَسَب وإنْ دَقّ﴾ [١].

ونحوه من الأحاديث مما قد صح وحُفظ، فإنا نسلم له، وإن لم يعلم تفسيرها، ولا يتكلم فيه، ولا يجادل فيه، ولا نُفسر هذه الأحاديث إلا مثل ما جاءت ولا نردها إلا بأحقّ منها.

والجنة والنار مخلوقان قد خُلِقتا كما جاء عن رسول الله ﷺ، فمن زعم أنهما لم تخلقا فهو مكذب بالقرآن وأحاديث رسول الله ﷺ، ولا أحسبه يؤمن بالجنة والنار.

ومن مات من أهل القبلة موحدًا يُصلَّى عليه، ويستغفر له، ولا تترك الصلاة عليه لذنب أذنبه صغيرًا كان أو كبيرًا، وأمره إلى الله عز وجل [٢].

رسالة الإمام أحمد إلى الخليفة المتوكل في مسألة القرآن [٣]:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

حدث صالح قال: كتب عبيد الله بن يحيى إلى أبي رحمة الله عليه يخبره: أن أمير المؤمنين أمرني أن أكتب إليك أسألك عن أمر القرآن، لا مسألة امتحان، ولكن مسألة معرفة وبصيرة. فأملى على أبي رحمه الله:

إلى عبيد الله، أحسن الله عاقبتك أبا الحسين في الأمور كلها، ودفع عنك

(١) رواه الدارمي في كتاب الفرائض، باب من ادعى إلى غير أبيه: (٢٨٦٤)، وأبو بكر المروزي في (مسند أبي بكر الصديق) برقم: (٩٠)، وأورده الهيثمي في (مجمع الزوائد)، كتاب الإيمان، باب فيمن ادعى غير نسبه.. إلخ: (١ / ٩٧).

(٢) (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة) للالكائي: (١ / ١٥٦ - ١٦٤).

(٣) هذه الرسالة جواب على مسألة الخليفة العباسي أمير المؤمنين المتوكل، وهو جعفر بن المعتصم (٢٠٦هـ - ٢٤٧هـ)، حيث كتب وزيره عبيد الله بن يحيى بن حاقان (٢٦٣هـ) إلى الإمام أحمد يخبره أن أمير المؤمنين أمره أن يكتب إليه يسأله عن القرآن، لا مسألة امتحان - أي اختبار واستظهار لما في قلبه - لكن مسألة معرفة وتبصر، وبها أملى الإمام أحمد الجواب بهذه الرسالة. ومن ميزات هذه الرسالة أنها جمعت قول الإمام أحمد - بلفظ نفسه - في هذه المسألة العظيمة، وأنها جاءت في خلاص الناس من شرك تلك المحن، وثالثها عناية العلماء بهذه الرسالة بكثرة رواتها ونقلتها.

مكاره الدنيا والآخرة برحمته، قد كتبت إليك رضي الله عنك بالذي سأل عنه أمير المؤمنين بأمر القرآن بما حضرني، وإني أسأل الله أن يديم توفيق أمير المؤمنين فقد كان الناس في خوض من الباطل، واختلاف شديد يغتمسون فيه حتى أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين، فنفى الله بأمير المؤمنين كل بدعة، وانجلى عن الناس ما كانوا فيه من الذل وضيق المحابس، فصرف الله ذلك كله، وذهب به أمير المؤمنين.

ووقع ذلك من المسلمين موقعًا عظيمًا ودعوا الله لأمير المؤمنين، فأسأل الله أن يجيب في أمير المؤمنين صالح الدعاء، وأن يتم ذلك لأمير المؤمنين، ويزيد في نيته ويعينه على ما هو عليه.

وقد ذكر عن عبد الله بن عباس - رحمة الله عليه - أنه قال: لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؛ فإن ذلك يوقع الشك في قلوبكم [١].

وذكر عبد الله بن عمرو: (أن نفرًا كانوا جلوسًا بباب النبي ﷺ فقال بعضهم: ألم يقل الله كذا، وقال بعضهم: ألم يقل الله كذا. قال: فسمع ذلك رسول الله ﷺ فخرج فكأنما فقئ في وجهه حب الرمان. فقال:﴿**أبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، إنما ضلت الأمم قبلكم في مثل هذا، إنكم لستم مما هاهنا في شيء انظروا الذي أمرتم به فاعملوا به، وانظروا الذي نهيتم عنه فانتهوا عنه**﴾ [٢].

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:﴿**لا تماروا في القرآن، فإن مراء فيه كفر**﴾ [٣].

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: قدم على عمر بن الخطاب

(١) هذا الخبر عنه رضي الله عنهما أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه رقم (١٠٢١٧) في كتاب فضائل القرآن من طريق جعفر عن ليث عن عطاء عنه به. وذكره الحافظ ابن حجر في المطالب العالية ٣ / ٢٩٧، من طريق مسدد به وذكر محقق الكتاب الأعظمي أن البوصيري سكت عليه.

(٢) صحيح مسلم العلم (٢٦٦٦)، سنن ابن ماجة المقدمة (٨٥)، مسند أحمد بن حنبل (١٩٦/٢).

(٣) مسند أحمد بن حنبل (٢٠٥/٤).

رضي الله عنه رجل، فجعل عمر يسأله عن الناس، فقال: يا أمير المؤمنين قد قرأ القرآن منهم كذا وكذا.

فقال ابن عباس: فقلت: والله ما أحب أن يتسارعوا يومهم هذا في القرآن هذه المسارعة. قال: فزبرني عمر، ثم قال: مه، فانطلقت إلى منزلي مكتئبًا حزينًا، فبينما أنا كذلك إذ أتاني رجل فقال: أجب أمير المؤمنين، فخرجت فإذا هو بالباب ينتظرني، وأخذ بيدي فخلا بي، وقال: ما الذي كرهت مما قال الرجل؟ فقلت: يا أمير المؤمنين إن كنت أسأت فإني أستغفر الله عز وجل وأتوب إليه، وأنزل حيث أحببت. قال: لتحدثني ما الذي كرهت مما قال الرجل، قال: إنما قلت يا أمير المؤمنين متى يتسارعوا هذه المسارعة يتحققوا، ومتى يتحققوا يختصموا، ومتى يختصموا يختلفوا، ومتى يختلفوا يقتتلوا. قال: لله أبوك، والله إن كنت لأكتمها الناس حتى جئت بها [(١)].

وروي عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: كان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول:﴿**هل من رجل يحملني إلى قومه؛ فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي**﴾ [(٢)].

وروي عن جبير بن نفير قال: قال رسول الله ﷺ :﴿**إنكم لن ترجعوا إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه – يعني القرآن –**﴾ [(٣)].

وروي عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال:﴿**ما تقرب العباد إلى الله بمثل ما خرج منه – يعني القرآن**﴾ [(٤)].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف رقم (٢٠٣٦٨)، وأبو يعقوب البسوي في المعرفة بالتاريخ ١ / ٥١٦ - ٥١٧، كلاهما من طريق معمر عن علي بن بذيمة الجزري عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس به، وهذا إسناد كله ثقات، وذكره ابن الأثير في النهاية ١ / ٤١٤.
(٢) سنن الترمذي فضائل القرآن (٢٩٢٥)، سنن أبو داود السنة (٤٧٣٤)، سنن ابن ماجه المقدمة (٢٠١)، مسند أحمد بن حنبل (٣/٣٩٠)، سنن الدارمي فضائل القرآن (٣٣٥٤).
(٣) سنن الترمذي فضائل القرآن (٢٩١١)، مسند أحمد بن حنبل (٥/٢٦٨).
(٤) سنن الترمذي فضائل القرآن (٢٩١١)، مسند أحمد بن حنبل (٥/٢٦٨).

وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: " جردوا القرآن ولا تكتبوا فيه شيئا إلا كلام الله " (١).

وروي عن عمر بن الخطاب أنه قال: " إن هذا القرآن كلام الله فضعوه على مواضعه " (٢).

وقال رجل للحسن البصري: يا أبا سعيد إذا قرأت كتاب الله وتدبرته ونظرت في عملي كدت أن أيأس وينقطع رجائي. قال: فقال له الحسن: " إن القرآن كلام الله وأعمال بني آدم إلى الضعف والتقصير فاعمل وأبشر ".

وقال فروة بن نوفل الأشجعي: " كنت جارا لخباب وهو من أصحاب النبي

(١) رواه عبد الرزاق في المصنف رقم (٧٩٤٤) عن سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن أبي الزعراء، عن ابن مسعود به. وأخرجه أيضًا ابن أبي شيبة في مصنفه رقم (١٠٣٠١) عن وكيع عن سفيان به. ورواه أيضا برقم (١٠٣٠٢) عن سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، قال عبد الله به. وقال في المجمع ٧ / ١٦١: وعن أبي الزعراء قال: قال عبد الله: " جرّدوا القرآن لا تلبسوا به ما ليس منه ". رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير أبي الزعراء، وقد وثقه ابن حبان، وقال البخاري: " لا يتابع في حديثه ". ا هـ. ووثقه أيضاً العجلي وابن سعد في الطبقات كما في التهذيب ٦ / ٦١. والله أعلم.

(٢) رواه أحمد في الزهد عن يحيى بن غيلان، ثنا رشدين، ثنا يونس، عن ابن شهاب، عن عمر رضي الله عنه به وزاد: " ولا تتبعوا أهواءكم ". وأخرجه عبد الله بن أحمد في السنة من وجهين بمعناه رقم ١١٧ - ١١٨: الأول: قال حدثني أبو معمر، ثنا جرير، عن ليث، عن سلمة بن كهيل، عن أبي الزعراء عن عمر رضي الله عنه بلفظ: " إن هذا القرآن كلام الله عز وجل، فلا أعرفنَّ ما عطفتموه على أهوائكم ". وأخرجه هكذا الدارمي في الرد على الجهمية ص ٩٠، وأبو بكر الآجري في الشريعة ص ٧٦ من طريق أبي إسحاق الفزاري عن الحسين بن عبد الله النخعي عن سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن السلمي عن عمر به. والثاني: قال: حدثني عثمان بن أبي شيبة، ثنا جرير بن عبد الحميد عن ليث بن أبي سليم عن سلمة بن كهيل عن أبي الزعراء عن عبد الله بن هانئ عن عمر ببعضه وهو: " أن القرآن كلام الله عز وجل ". ورواه الدارمي في سننه ١ / ٥٣٣ من طريق إسحاق، ثنا جرير به. والآجري في الشريعة ص ٧٧، من طريق عثمان وأبي شيبة به، وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ١ / ٥٩١ - ٥٩٢ من كلا الطريقين وفي الاعتقاد بنفس الإسناد ص ١٠٤، والحديث حسن بمجموع طرقه وله شواهد كثيرة عن جماعة من الصحابة ذكر بعضها البيهقي في الأسماء والصفات ١ \ ٥٩١ - ٦٠١. والله أعلم.

ﷺ فخرجت معه يومًا من المسجد وهو آخذ بيدي، فقال: يا هناة تقرب إلى الله بما استطعت؛ فإنك لن تقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه ".

وقال رجل للحكم بن عتيبة: ما حمل أهل الأهواء على هذا؟ قال: الخصومات.

وقال معاوية بن قرة، وكان أبوه ممن أتى النبي ﷺ :﴿إياكم وهذه الخصومات فإنها تحبط الأعمال﴾.

وقال أبو قلابة، وكان أدرك غير واحد من أصحاب رسول الله ﷺ :﴿لا تجالسوا أصحاب الأهواء أو قال أصحاب الخصومات فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، ويلبسوا عليكم بعض ما تعرفون﴾.

ودخل رجلان - من أصحاب الأهواء - على محمد بن سيرين فقالا: يا أبا بكر، نحدثك بحديث؟ قال: لا. قالا: فنقرأ عليك آية من كتاب الله؟ قال: لا. لتقومان عني، أو لأقومنه. قال: فقام الرجلان فخرجا. فقال بعض القوم: يا أبا بكر، ما كان عليك أن يقرءا عليك آية من كتاب الله؟ فقال محمد بن سيرين: " إني خشيت أن يقرءا علي آية، فيحرفانها، فيقر ذلك في قلبي " فقال محمد: " لو أعلم أني أكون مثل الساعة لتركتهما ".

وقال رجل من أهل البدع لأيوب السختياني: " يا أبا بكر، أسألك عن كلمة، فولى وهو يقول بيده: ولا نصف كلمة ".

وقال ابن طاووس لابن له - وتكلم رجل من أهل البدع -: أدخل أصبعيك في أذنيك حتى لا تسمع ما يقوله. ثم قال: اشدد، اشدد.

وقال عمر بن عبد العزيز: " من جعل دينه عرضًا للخصومات أكثر التنقل ".

وقال إبراهيم النخعي: " إن القوم لم يدخر عنهم شيء خبئ لكم لفضل عندكم ".

وكان الحسن البصري يقول: " شر داء خالط قلبًا، يعني الهوى ".

وقال حذيفة بن اليمان - وكان من أصحاب النبي ﷺ :﴿اتقوا الله معاشر القراء،

خذوا طريق من كان قبلكم، والله لئن استقمتم لقد سبقتم سبقا بعيدا، ولئن تركتموه يمينًا وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيدًا﴾، أو قال:﴿مبينا﴾ (١).

وإنما تركت ذكر الأسانيد، لما تقدم من اليمين التي حلفت بها مما قد علمه أمير المؤمنين، لولا ذلك ذكرتها بأسانيدها.

وقد قال الله جل ثناؤه:{وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ} [التوبة: ٦] وقال:{أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ} [الأعراف: ٥٤] وأخبر تبارك وتعالى بالخلق، ثم قال: والأمر، فأخبر أن الأمر غير الخلق.

وقال تبارك وتعالى:{ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١} [الرحمن: ١]،{عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢} [الرحمن: ٢]،{خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣} [الرحمن: ٣]،{عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ} [الرحمن: ٤] فأخبر تبارك وتعالى أن القرآن من علمه. وقال:{وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝١٢٠} [البقرة: ١٢٠] وقال:{وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ} [البقرة: ١٤٥] وقال:{وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ۝٣٧} [الرعد: ٣٧] (٢)، فالقرآن علم الله.

(١) أخرج البخاري أكثره في صحيحه في كتاب الاعتصام بالسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ رقم ٦٨٥٣ من طريق الأعمش عن إبراهيم عن همام عن حذيفة. أما بلفظ الإمام أحمد فأخرجه محمد بن نصر المروزي في السنة ص ٢٥ من طريق يحيى بن يحيى ثنا سليم بن أخضر عن عوف بن إبراهيم عن حذيفة رضي الله عنه به. وأخرجه بمثل لفظ البخاري من طريقه أيضًا، وأخرجه ابن وضاح القرطبي في (البدع والنهي عنها) ص ١٠، أخبرنا أسد عن محمد بن حازم عن الأعمش عن إبراهيم عن همام بن الحازمي عن حذيفة به. ومن وجه آخر أيضًا عن ابن المبارك عن عبد الله بن عون عن إبراهيم عن حذيفة به، وكذا رواه ابن عبد البر في (الجامع) ٢ /١١٩ عن ابن مسعود أيضا في ٢ / ٩٧ واللالكائي في (أصول السنة) رقم ١١٩، وأبو نعيم في (الحلية) ١ / ٢٨٠ والبغوي في (شرح السنة) ١ / ٢١٤ وغيرهم، رحمهم الله.

(٢) في هذه الآيات استدل الإمام على أن الذي أوتيه الرسول هو العلم وهو من علم الله وهو القرآن. فكيف يكون ما هو من علم الله مخلوقاً؟! وفي آية الرعد كذلك نص بتنزيله حكمًا

وفي هذه الآيات دليل على أن الذي جاءه ﷺ هو القرآن لقوله:{وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ} [البقرة: ١٢٠].

وقد روي عن غير واحد ممن مضى من سلفنا أنهم كانوا يقولون: " القرآن كلام الله ليس بمخلوق " [١]. وهو الذي أذهب إليه، ولست بصاحب كلام، ولا أرى الكلام في شيء من هذا إلا ما كان من كتاب الله، أو في حديث عن النبي ﷺ وشرعه، أو عن أصحابه - رحمة الله عليهم - أو عن التابعين، فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود.

وإني أسأل الله أن يطيل بقاء الأمير، وأن يثبته ويمده منه بمعونة، إنه على كل شيء قدير [٢].

* * *

عربيًا، وهل يكون بهذا مخلوقًا؟!.

(١) هذه الجملة العظيمة تواتر نقلها عن سلفنا الصالح تواتراً كثيراً حتى أفردت في أجزاء مستقلة وضمن مؤلفات السنة الكبار ففيه من المستقل: رسالة الحربي السابقة، ورسالة جعفر بن إدريس القزويني وغيرهما. أما داخل المؤلفات الجامعة لمقالات أهل السنة في أصول الاعتقاد فهو مما اشتهر وكثر نقله. ومن المؤلفات الكبار الحاوية لتواتر هذه الجملة الرد على الجهمية للأئمة: أحمد بن حنبل، وعثمان الدارمي، والبخاري، وكتاب الشريعة لأبي بكر الآجري ص ٧٢ - ٩٦. وكتاب (السنة) رواية أبي بكر الخلال الجزء السادس والسابع من المخطوط من ورقة (٥٦ - ١٩٢). و(السنة) لعبد الله بن أحمد (١ \ ١٠٦ - ١٧١)، وكتاب (الإبانة الكبرى) لابن بطة العكبري الحنبلي من (ص ٤٩٥ - ٦١٥)، (وشرح أصول اعتقاد أهل السنة) للالكائي الجزء الثاني منه بتمامه، (والأسماء والصفات) للبيهقي (١ \ ٥٨٥)، إلى نهاية المجلد الأول تقريباً، و(ذم الكلام) لأبي إسماعيل الهروي في الباب السادس عشر، باب إنكار أئمة الإسلام ما أحدثه المتكلمون في الدين من الأغاليط وصعاب الكلام والشبهة والمجادلة وزايغ التأويل والمهازلة ورأيهم فيهم على الطبقات من أول الجزء الثاني إلى الورقة ٢٤٧. و (الاعتقاد) للبيهقي ص ٤٣ - ٥٤، في باب القول في القرآن. إلى بقية الحديث والسنن في أثناء أبواب التوحيد، وذم الرأي والخصومة في الدين، وصفات الله، رحم الله مؤلفيها وأجزل مثوبتهم، آمين.

(٢) إبراهيم بن إسحاق الحربي، رسالة في أن القرآن غيرمخلوق، تحقيق: علي بن عبد العزيز بن علي الشبل، دار العاصمة - الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٥، ص ٤٧ - ٦١، مجلة البحوث الإسلامية، ٥١ /١٧٥ - ١٩٤.

الإمام الشافعي

الإمام الشافعي

أعـلام الفقهـاء

الإمام الشافعي

إمام العباقرة، وعبقري الأئمة، له في العلم سبب، وفي البيت نسب، وفي المروءة حسب.

سالت قريحته فتفجرت أنهار الحكمة من على لسانه، وساقت رياح التوفيق سحب علمه فسالت أدوية بقدرها. ذاكرته أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين.

الشافعي أخذ من الأثر روحه، ومن الفقه خلاصته، ومن البيان ناصيتة ومن الشعر حلاوته، ومن المجد ذروته.

قعّد للعلماء القواعد فغضب عليه أعداء الشريعة؛ لأنهم رضوا بأن يكونوا مع القواعد، فخَرَت به قريش، وتبجحت به العراق، وخرجت إليه مصر، حاور محمد بن الحسن فقطع أزراره، ورد على المريسي فأطفأ ناره، وجاور أحمد فشكر جواره.

الشافعي لدنيا العلوم شمس، ولأبدان الأخبار عافية، ولليل المدلهم قمر، في الشرع شعرُه، في الحق بذلُه، للآخرة طلبُه، لله سعيه، لما خرج إلى البلاد لبست بغداد الحداد وأمست في سواد.

الألفاظ سكر، والقصد نضيد، حفر لحدًا للملاحدة، وعزل في زنزانة الإحباط المبتدعة، ورد الأباطيل في جوه أهل التعطيل، إن سألنا عن أهل الكلام فالجريد والنعال. وأهل السنة: رواد الجنة. والفلاسفة: أهل سفه. ومالك: نجم الممالك. وأحمد بن حنبل: زرع سنبل.

أتاه المال ففر منه إلى العلم، وأتته الدنيا فهرب إلى الآخرة تعلم الفراسة في اليمن، فكشف أهل الزيغ والأفن، تدجج بالحجج فألحم الدجاجلة، وصال بالأصول على أعداء الرسول ﷺ.

درس الطب فمرض جسمه، وداوى الناس فزاد غُنمه.

المروءة عنده ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت أشعر من لبيد، التواضع:

أحب الصالحين ولست منهم.

ميزة الشافعي: التفرد، ومنقبته التجرد، تفرد في الفهم، فعصر من زهر الذهن رحيقاً، وتجرد للحق فنسج من بز الشريعة ثوباً سابغاً.

فاح طيب ذكره في الأنوف، فيا فرحة من شم، وهزم الباطل فكأنه شم عطر منشم، الشافعي شهاب ثاقب أُحرقت به شياطين الإنس ولهم عذاب واصب.

يا بن إدريس أيها الشهم الأجلّ أنت سيف الحق في العلياء سُلّ.

مسكين من جادل الشافعي وناظره، مسكين من عارضه وكابره، مسكين من عرفه وما ذاكره.

درس محمد بن إدريس علوم محمد ﷺ فترك علماً لا يغسله الماء، ولا تطفئه الريح ولا يلفه الظلام، ولا ينسيه الدهر، الرسوخ في يسر، العمق في سهولة، الأصالة في إشراق، البراعة في نصوع.

أهل فارس يعرفونه، وأهل الصين يذكرونه، وأهل الأندلس يمدحونه، وأهل الباطل يبغضونه.

إذا مرجت الآراء بزغ رأي الشافعي كالنجم الثاقب، إن تكلم أسكت الخطباء، وإن أنشد صمت الأدباء والبلغاء، أحب الملة فأمهرها روحه، وعشق العلم فأعطاه عمره، وأخلص للرسالة ففاضت لها نفسه، فهو عاشق المُثُل، سامي المقاصد، رجل المروءات، ناشر السنة بين أهلها، وناصرها على أعدائها، وحافظها لمحبيها، وشارحها لناقليها.

وإن تفق الأنام وأنت منهم ::: فإن المسك بعض دم الغزال

ورث أنوار الرسالة، فألف للأمة الرسالة، مات أبوه فكفلته الأم، فقدم للناس كتاب الأم، إذا نطق الشافعي فكأن السيل أقبل، والفجر بزغ، والنور سطع، صحة مخارج، حلاوة لفظ، قوة حجة، براعة دليل، سلامة إنشاء: {ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ} [الجمعة: ٤].

في الفقه إمام، في النقل حجة، في النسك علم، في اللغة أستاذ في الذكاء آية.

سرت به أمة من غزة فسبحان الذي أسرى، وعاش في مكة لينفع أم القرى.

الشافعي لم يستند إلى النسب ولو أنه مُطلبيّ، ولم يتكل على الجاه فهو أبيّ، ولكن أخذ بأسباب الخلود، وهجر أسباب الفناء، فأمات في حياته النفس الأمارة، وأحيا بوفاته النفس المطمئنة، فنوديت:{ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾} [الفجر: ٢٨].

إذا كانت الحياة بالبساط والسياط والسلطة والسطوة فأين أصحابها بعد موتهم:{هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا} [مريم: ٩٨].

عند الشافعي: اتباع الأثر عبادة، الوقوف مع النقل عقل، توقير الصحبة عقيدة، رد الشُبَه جهاد، تعليم الناس ربانية، ترك المعاصي هجرة، أهل الحديث رؤوس، المبتدعة سفلة، علم الكلام غي، المنصب ذُل، الدنيا دنيئة.

بدا إلى البادية فهدّ شعر هذيل، كان رأسًا وسواه ذيلا، احتسى علم مالك، ومص فهم أبي حنيفة، وجمع بين النثر والشعر، والرواية والدراية والعقل والنقل.

الشافعي عروبة حجازية، وفصاحة عراقية، ورقة مصرية، أعجب ما فيه روح التجديد في المذهب القديم، وقدم التأصيل في مذهبه الجديد، سخر الشعر للشريعة، والنحو للوحي، والرأي للرواية، التعليل للتأويل، حملته الهمة فأضناه الطلب، وخلع الدنيا فلبس تاج القبول، خاف الدنيا والدنايا، وجانب الشيطان والشر والشهوة والشبهة.

إن خطب أطنب وأطرب، وأتى بكل أطيب.. وإن أفتى شفى وكفى وأوفى.

فلج خصوم الإسلام، ونكس رايات الأقزام وأبقى ذكره للأيام، دمغ الضلال، واكتسح الجهال،{وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ} [إبراهيم:

٤٦].

انكسر به ظهر الجبرية، وثلم به قدر القدرية، وأخرجت حججه شبه الخوارج، واهتز في يده سنان السنة (١).

هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد ابن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصي، الإمام العلم أبو عبدالله الشافعي المكي المطلبي الفقيه، نسيب رسول الله ﷺ.

... وقد ولد الإمام الشافعي - رضي الله تعالى عنه - بغزة سنة مائة وخمسين من الهجرة، فلم يكد يبلغ سنتين من عمره حتى حمل إلى مكة، فنشأ بها، وأقبل على علوم اللغة واعتنى بالأدب والشعر، فبرع في ذلك، وحُبِّبَ إليه الرمي، حتى فاق الأقران، وصار يصيب من العشرة تسعة.

... والسائب بن عبيد الله المطَّلبي - الذي نسب إليه الشافعي: أحد من أسر يوم " بدر " من المشركين، وكان يشبَّه بالنبي.

... وأمه هي: الشَّفَاء بنت أرقم بن نَضلَة، ونَضلَة هو أخو عبد المطلب، من بني هاشم، ويقال: إنه أسلم بعد أن فدى نفسه. وابنه شافع له رؤيةوهو معدود من صغار الصحابة. وكانت أم الشافعي أزدية.

حِفْظُه للقُرْآنِ وتِلاوتُهُ لَه:

... حفظ الإمام الشافعي - رحمه الله - القرآن، فما من حرف مرَّ به إلا وهو يعلم معناه والمراد منه... وقال ابن عبد الحَكَم: سمعت الشافعي يقول: قرأت على إسماعيل بن قسطنطين، وقال: قرأت على شبل، وقال شبل: قرأت على عبد الله بن كثير، وهو على مجاهد، ومجاهد على ابن عباس.

... وقال الكرابيسيُّ: بتُّ مع الشافعي غير ليلةٍ، وكان يصلّي نحو ثلث الليل، فما رأيته يزيد على خمسين آية، فإذا أكثر فمائة، وكان لا يمرُّ بآية رحمةٍ إلاّ سأل الله، ولا يمرّ بآية عذاب إلاّ تَعوَّذ منها.

(١) عائض بن عبد الله القرني، سلسلة القمم لأهل الهمم، ٤ / ١١.

شيوخ الشافعي:

... تتلمذ الإمام الشافعي لعدد غير قليل من الشيوخ فأخذ عليهم وروى عنهم كثير من علومه، نذكر منهم:

مالك بن أنس:

أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي، ولد سنة ٩٣هـ من الهجرة، وهو شيخ العلماء وأستاذ الأئمة، وكان بيته بيت علم، فجده الأعلى أبو عامر صحابي جليل، وجده الأسفل مالك من كبار علماء التابعين، تبحر في علم الحديث والتفقه في الكتاب والسنة، ويعد الشافعي ممن أخذ عنه العلم. وقد عرض عليه " الموطأ " حفظًا. توفي في الليلة الرابعة عشرة من ربيع الثاني سنة ١٧٩هـ ودفن بالبقيع، وله من العمر ٨٦ سنة.

المَاجِشُون:

عبد العزيز بن عبدالله بن أبي سلمة التيمي، له كتب مصنفة رواها عنه ابن وهب، وكان الماجشون أصبهانياً نزل المدينة وكان من العلماء الربانيين. توفي سنة ١٦٤هـ.

مسلم بن خالد الزنجي:

... أبو خالد المخزومي المشهور بالزنجي فقيه " مكة "، تفقه وأفتى وتصدر للعلم وهو الذي أذن للشافعي في الإفتاء، حدث عنه الشافعي وكان فقيهاً، عابداً، يصوم الدهر. مات سنة ١٨٠هـ. وله ٨٠ سنة.

إبراهيم بن سعد:

إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف، شيخ الشافعي الحافظ الإمام أبو إسحاق الزهري المدني، ولي قضاء المدينة وروى عنه من الكبار شعبة والليث بن سعد وعاش ٧٥سنة. توفي سنة ثلاث أو أربع وثمانين ومائة.

إبراهيم بن أبي يحيى الأسلمي الفقيه:

أبو إسحاق الأسلمي المدني أحد الأعلام، روى عن الزهري وخلق كثير حدث عنه الشافعي وابن جريج وهو من شيوخه قال عنه الشافعي: كان قدرياً، وقال عنه أحمد بن حنبل: قدريٌ جهمي كل بلاء فيه ترك الناس حديثه. توفي سنة ١٨٤هـ.

سفيان بن عيينة:

سفيان بن عيينة بن ميمون العلامة الحافظ أبو محمد الهلالي الكوفي، محدث الحرم. ولد سنة سبع ومائة، وطلب العلم في صغره، حدث عنه الشافعي والزعفراني والرملي، وخلق لايحصون، وكان إمام الحجة حافظاً واسع العلم كبير القدر، وقد حج سبعين سنة. قال الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز.

مات سنة ١٩٨هـ.

إسماعيل بن جعفر:

إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري قارئ أهل المدينة ومؤدب علي بن المهدي ببغداد تولى إمارة الحج غير مرة، وكان أسن من الرشيد بشهور..

تلاميذ الشافعي:

كثر تلاميذ الإمام الشافعي ممن رووا عنه ونهلوا من فيض علمه نذكر منهم:

أبو بكر الحُميدي:

هوأبو بكر عبدالله بن الزبير بن عيسى القرشي المكي المعروف بالحميدي، رحل مع الشافعي من مكة إلى مصر ولزمه حتى مات، ورجع مكة يفتي إلى أن توفي بها سنة ٢١٩هـ. روى عن الشافعي أن الشعرة الواحد يجب فيها ثلث مد، وفي الشعرتين ثلثان في الحج.

أبو عبيد القاسم بن سلام:

له صحبة مع الشافعي وكتب كتبه وكان بغدادي الأصل وله اختيار ولم يُجرَّد للشافعي. توفي بمكة سنة ٢٢٤هـ وهو ابن ٧٣ سنة.

أحمد بن حنبل:

هو أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني إمام أهل السنة يقول فيه الشافعي: " خرجت من العراق، فما تركت رجلاً أفضل، ولا أعلم، ولا أورع، ولا أتقى من أحمد بن حنبل. ولد في مدينة بغداد سنة أربع وستين ومائة، كفلته أمه بعد وفاة والده، وأخذ العلم من يحيى بن معين، وإسحاق ابن راهويه، والشافعي، وغيرهم وقد كان الشافعي يُعَظِمه. توفي سنة ٢٤١هـ، وله من العمر ٧٧ سنة.

من أبرز تلاميذ الشيخ الشافعي:

لقد اشتهرت جلالة الشافعي رحمه الله في العراق وسار ذكره في الآفاق واعترف له العلماء وعظمة مكانته عند الخلفاء وولاة الأمر، وعكف عليه للاستفادة منه الصغار والكبار والأئمة والأخيار، وتمسكوا بطريقته ومنهم:

البُوَيْطِي:

... هو يوسف بن يحيى القرشي البُوَيْطِيُّ المصري الفقيه، صاحب الشافعي، وكنيته أبو يعقوب.

... قال الذهبي - في " السير " : الإمام العَلاَّمة سَيِّدُ الفقهاء، يوسف أبو يعقوب بن يحيى المصري البويطي، صاحب الإمام الشافعي، لازمه مُدَّةً وتخرَّجَ به، وفاق الأقرَانَ.

... روى - رحمه الله - عن: عبد الله بن وهب، ومحمد بن إدريس الشافعي.

ولم تذكر الكتب التي ترجمت له سِوَى ابن وهب، والشافعي من شيوخه.

ذِكْرُ مَنْ وَثَّقَهُ، وأَثْنَى عَلَيْهِ:

... قال ابن أبي حاتم: سُئِلَ عنه أبي؟ فقال: صدوق.

... وقال ابن عبد البر: كان من أهل الدِّين والعِلِمِ والفهم والثقة، صَلِيباً في السُّنَّةِ، يَرُدُّ على أهل البِدَع، وكان حَسَنَ النَّظَر.

وقال الذهبي: مات الإمام البويطي في قيده مسجوناً بـ " العراق " في سنة إحدى وثلاثين ومائتين.

وممن أرَّخَ وفاته في هذه السَّنة أيضاً الخطيب، وقال:هذا القول في وفاته أصح، وقد ذكره هكذا غير واحد.

أبو ثَوْرٍ:

إبراهيم بن خالد الكلبي البغدادي من رواة القديم، قال أحمد بن حنبل:أعرفه بالسُّنة منذ خمسين سنة، قال وهو عندي كسفيان الثوري، مات سنة أربعين ومئتين، وكان أبو ثور على مذهب الحنفية، فلما قدم الشافعي بغداد تبعه وقرأ كتبه ويسر علمه. وله مصنفات كثيرة يَذكر فيها الإختلاف ويحتجُّ لاختياره.

حرملة بن يحيى:

... هو حرملة بن يحيى بن عبدالله بن حرملة المصري التُّجيبي صاحب الشافعي، كان إماماً حافظاً للحديث والفقه، ولد سنة ست وستين ومئة، صنف المبسوط والمختصر المعروف به، توفي ستة ثلاث وأربعين ومائتين....

المزني:

... أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل المزني، المصري. ولد سنة خمس وسبعين ومائة كان إماماً ورعاً وقال الشافعي فيه: لو ناظر الشيطان لغلبه، صنف المبسوط والمختصر والمنثور والترغيب في العلم وغيرها. وصنف كتاباً مفرداً على مذهبه لا على مذهب الشافعي. توفي سنة أربع

وستين ومائتين. ودفن بالقرب من قبر الإمام الشافعي.

الزعفراني:

... أبو علي الحسن بن محمد بن الصبَّاح الزعفراني، كان إماماً في اللغة، وكان يذهب إلى مذهب أهل العراق فتركه وتفقه للشافعي. قرأ على الشافعي الكتاب كله نيفاً على ثلاثين جزءًا. وكتبه عنه، وهو الكتاب المعروف بالبغدادي وبالقديم، ويقال لكتابِهِ المصريِّ الذي كتبه بمصر الجديد. مات سنة ست وستين ومائتين.

الرَّبِيعِ بْن سُلَيْمَان:

... هو: الربيع بن سليمان بن عبد الجَبَّار بن كامل المرادي، مولاهم، المصري المؤذِّن، صاحب الإمام الشافعي، وراوي كتبه... قال الإمام الذَّهبي: صاحب الإمام الشافعي، وناقل علمه، وشيخ المُؤَذِّنين بجامع " الفسطاط "، ومستملي مشايخ وقته.

وقد أجمعت المَصَادِرُ التي ترجمت له على أن كنيته: أبو مُحَمَّدٍ.

وكان مَوْلِدُهُ - كما ذكر الإمام الذهبي رحمه الله في " السير " - في سنة أربع وسبعين ومائة، أو قبلها بعام، وتوفي يوم الاثنين لعشر بقين من شوال سنة سبعين ومائتين.

روى عن عَدَدٍ كبير من الشيوخ. وخلق كثير.

والحسين بن علي الكرابيسي ومحمد بن عبدالله بن عبدالحكم، وقد سبق الحديث عنهما.

مكانته العلمية:

... حاز الإمام الشَّافعي من أَلْوَان الثقافة وفنون العلم والمعرفة، ما لم يظفر به أحد غيره من الأئمة؛ لأمرين:

... أحدهما: أصالة نظره وعمق تفكيره ووفور عقله، الأمر الذي ساعده على الإفادة مما يحيط به، ولقد صدق القاسِم بن سلاَّم، حيث يقول:

" ما رأيت رجلاً قطُّ أعقل من الشَّافعي ".

... وثانيهما: كثرة أسْفَاره إلى " اليمن "، و" العراق "، و" مصر "، واتصاله المستمر بالعلماء، حيث نهل من علومهم ومعارفهم شيئاً عظيماً.

... وكانت نتيجةُ التَّرحال أن نال ثقافةً واسعةً في اللغة، والأدب، والحديث، والفقه على طريقتي أهل الحديث وأهل الرأي؛ كما أنه نال ثقافة اجتماعيةً اكتسبها من مشاهدة حياة البدو في البادية، والحضارة الأوليَّة في " الحجاز "، و" اليمن "، والحضارة العريقة المعقدة المركَّبة في كل من " العراق "و " مصر ".

أصول المذهب الشافعي:

... كان الإمام الشافعي في بداية طلبه للعلم يعد نفسه تلميذاً للإمام مالك بن أنس، وأحد رجال مدرسته، إلى أن قَدِمَ " العراق " للمرة الثانية، فأسس هناك مذهباً مستقلاً.

... وقد دَرَسَ الشافعي مذاهب المتقدِّمين، وبحث بدقة متناهية مسلك المدرسَتَيْن: مدرسة الحديث، ومدرسة الرأي، وأحدث بعد هذا التمحيص طريقة نقدية جديدة جمعت بين مميزات المدْرَستين؛ وبذلك كوّن مركزاً وسطاً بين أهل الرَّأي، وأهل الحديث.

أصول المذهب:

... قال الإمام الشافعي في " الأم ": " الأصل: قرآن أو سنة، فإن لم يكن فقياسٌ عليهما، وإذا اتصل الحديث عن رسولُ الله، وصحَّ الإسناد به - فهو المنتهى، والإجْمَاع أكبر من الخبر الفرد، والحديث على ظاهره، وإذا احْتَمل المعاني فما أشبه ظاهره أوْلاَها به، وإذا تكافأت الأحَادِيث فأصحُّها إسناداً أولاها، وليس المنقطع بشيءٍ ما عدا منقطع ابن المسيِّب، ولا يقاس أصلٌ على أصلٍ، ولا يقال للأصل: لِمَ وكيف؟ وإنما يقال للفرع: لِمَ؟ فإذا صحَّ قياسُه على الأصْل صحَّ وقامت به الحجَّة ".

... ويؤخذ من هذا الكلام أن أصول مذهبه: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس؛ لكن انفرد بِمَسْلَك مُنْفَرِد في طريقة العمل بكل منها، وهذا لا يعني الحَصْر؛ بل قال بِحُجِّية قولِ الصَّحابي، والعُرْف، والاستِصْحَاب، أيضاً.

... وعن أصول مذهب الشافعي يقول الأستاذ الشيخ علي الخفيف:

... وقد امتاز مذهب الشافعي بأصوله التي ذكرها صاحبه، ففصلها، وناضل عنها في كتابه الأم، والرسالة التي وضعها في هذا الغرض، فكانت أصولاً لمذهبه مقطوعاً بها غير مظنونة، مروية عن الشافعي نفسه، غير مستنبطة من النظر في مذهبه.

... وفيما يلي نشير إلى أصول المذهب الشافعي في إيجاز:

١ – **الكتاب**: وقد عَدَّ الشافعي(كغيره من الفقهاء، والقرآن المصدر الأول للتشريع لا يُقدم عليه سواه، فهو المنبع الأول لاستقاء الفقه، والشافعي يحتج بظاهر الكتاب، ما لم يقم دليل على أن المراد بالآية غير ظاهرها

٢ – **السُّنة**: ذهب الإمام الشافعي إلى القول بحجية خبر الواحد ودافع عن العمل به دفاعاً شديداً، ما دام راويه ثقة ضابطاً، وما دام الحديثُ متصلاً برسول الله، وأخذ على الحنفية أنهم قدموا القياس عليه.

... ويرى أن السنة إذا صحَّت يجب اتباعها اتباعَ القرآن، لكن لا يرى العمل بالمرسل إلا بشروطٍ: كأن يكون من مراسيل سَعِيد بن المسيِّب.

٣ – **الإجماع**: ويعني عند الشافعي: عدم العلم بالخلاف على أساس أن العلم بالاتّفاق غير ممكن.

... وقد ردّ الشافعي ما ذهب إليه شيخه الإمام مالك، من اعتباره إجماع أهل " المدينة " حجة، وأصلاً من أصُول الفقه.

٤ – **قول الصَّحابي**: احتج الشافعي - في قوله القديم - بأقوال الصَّحابة، أمَّا في الجديد: فالمعروف عنه - كما يقول كثير من أصحابه - أنه لم يحتج به

على أساس أنه نقل أقوالاً لهم ثم خَالَفها.

... وقد ذهب ابن القيم إلى خلاف ذلك، حيث قال: إن كلامَ الشَّافعي – في الجديد -: " العلمُ طبقات: الأولى: الكتاب والسنة، والثانية: الإجماع فيما ليس كتاباً ولا سنة، الثالثة: أن يقول صحابي، فلا يعلم له مخالفٌ من الصحابة، الرابعة: اختلاف الصحابة، الخامسة: القياس " - يدل على أن قول الصحابي حجة في وقوله الجديد أيضاً.

... قال الإمام في " الأم ": ما كان الكتاب والسنة موجودين، فالعذر عمن سمعهما مقطوع إلا باتباعهما، فإذا لم يكن ذلك، صرنا إلى أقاويل أصحاب رسول الله أو واحدٍ منهم، ثم كان قول الأئمة: أبي بكر، أو عمر، أو عثمان - إذا صرنا فيه إلى التقليد - أحب إلينا؛ وذلك إذا لم نجد دلالة في الاختلاف تدل على أقرب الاختلاف من الكتاب والسنة، فنتبع القول الذي معه الدلالة؛ لأن قول الإمام مشهور بأنه يلزمه الناس، ومن لزم قوله الناسُ كان أشهر ممن يفتي الرجل أو النفر، وقد يأخذ بفتياه أو يدعها، وأكثر المفتين يُفْتُون للخاصة في بيوتهم ومجالسهم، ولا تُعنى العامةُ بما قالوا عنايتهم بما قال الإمام.

٥- **القياس**: كان الشَّافعي أولَ من تكلَّم في القياس، وضبط قواعده، وبَيَّنَهَا؛ فهو وإن لم يعرِّفه بالحد، ولا بالرسم التامَّ - إلا أنه وضحه بالأمثلة، والتَّوضيح بالمثال من قبيل الرسم الناقص.

... وقد وقف الشَّافعي موقفاً وسطاً بين تشدُّد مالك، وتوسُّع أبي حنيفة، واشترط في الأخْذ به: أن تكون علَّتُه منضبطة، ولا يكون في المَسْألة حديثُ صحيحٌ، ولو كان من أخبار الآحاد.

٦- **الاستصحاب**: عَمِل الإمام الشافعي بالاستصحَاب، وعده من مصادر الأحكام.

٧- **العرف**: تأثر فقه الشافعي بالأعْرَاف السائدة في " مصر " في عَهْده؛

فرجع عمَّا بناه من أحكام فقهية على أعراف وعادات العراقيين؛ وهذا يعني أنَّ الشافعي يعتبر العرف مصدراً من مصادر الأحْكَام.

٨- **الاستحسان**: لم يأخذ الشافعي - كما هو المعروف عنه - بالاستِحْسَان، بل نَقِمَ عليه وعلى من يقُولُ به، حتى قال: " من استحسن فقد شَرَّع ".

... غير أن الشافعي بني بعض المَسَائل الفقهيَّة على الاستحسان، منها قوله: استحسن أن تكون المتعة في حق العقيم ثلاثين درهماً، وقوله: أستحسن أن يؤجَّل الشفيع ثلاثاً.

... وفي السارق قال: إذا أخرج يده اليُسرى بدل اليُمْنَى فقطعت، القياس أن تقطع يمناه، والاستِحْسَان ألاَّ تقطع.

... وبناء على ذلك فإن الاستحسان الذي حمل عليه الشَّافعي وأنكره هو ما يستحسنه النَّاس ويشتهونه بغير دليل، وهذا ما لم يقل به أحد من المجتهدين.

كان الشافعي يقضي الساعات الطوال في دروس متصلة، ينتقل من علم إلى علم، يجلس في حلقته إذا صلى الفجر، فيأتيه من يريدون تعلم القرآن، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء طلاب الحديث فيسألونه تفسيره ومعانيه، فإذا انتهوا جاء بعدهم من يريدون تعلم العربية والعروض والنحو والشعر، ويستمر الشافعي في دروسه من بعد صلاة الفجر حتى صلاة الظهر!!

وكما كان الشافعي فقيهًا ومحدثًا كبيرًا، كان أيضًا شاعرًا رقيقًا فاض شعره بالتقرب إلى الله، فها هو ذا يستغفر الله ويدعوه قائلاً:

ولما قَسا قَلْبي وضَاقَتْ مذاهبي ::: جعلتُ رجائي نحو عفوك سُلّمًا
تعاظَمَني ذَنْبي فلمَّا قِرَنْتُهُ ::: بعفْوكَ ربِّي كان عفُوكَ أَعْظَمَا

ويوصي الشافعي من خلال شعره بألا نرد على السفيه قائلاً:

إذا نطق السفيه فلا تجبه ::: فخير من إجابته السكوت
فإن كلمته فرجت عنه ::: وإن خليته كمدًا يموت

ويصور عزة نفسه، وإن كانت ثيابه قديمه بالية، فتحتها نفس أبية عزيزة غالية لا مثيل لها فيقول:

عليَّ ثياب لو يباع جميعها بفلس ::: لكان الفلس منهن أكْثَرا
وفيهن نفسٌ لو يُقاسُ ببعْضِها ::: نفوسٌ الورى كانت أجلَّ وأكْبَرا

ومرض الشافعي، وقربت ساعة وفاته؛ فدخل عليه أحد أصحابه وقال له: كيف أصبحت؟ فأجاب الشافعي: أصبحت من الدنيا راحلاً، ولإخواني مفارقًا، ومن كأس المنية شاربًا، ولسوء عملي ملاقيًا، وعلى الكريم سبحانه واردًا، ولا والله ما أدري روحي تصير إلى الجنة فأهنيها أو إلى النار فأعزيها.

ومات الشافعي ليلة الجمعة من آخر رجب عام ٢٠٤هـ، وبعد صلاة العصر خرجت الجنازة من بيت الشافعي (بمصر) مخترقة شوارع الفسطاط وأسواقها، حتى وصلت إلى درب السباع؛ حيث أمرت السيدة نفيسة - رضي الله عنها - بإدخال النعش إلى بيتها، ثم نزلت إلى فناء الدار وصلت عليه صلاة الجنازة، وقالت: رحم الله الشافعي إنه كان يحسن الوضوء [(١)].

مواقف من حياة الشافعي:

الشافعي ومحمد بن الحسن:

يقول الإمام الشافعي: ذاكرت محمد بن الحسن يومًا، فدار بيني وبينه كلام واختلاف، حتى جعلت أنظر إلى أوداجه تدر، وتتقطع أزراره.

ويقول محمد بن الحسن: إن كان أحد يخالفنا فيثبت خلافه علينا فالشافعي، فقيل له: فلم؟ قال: لبيانه وتثبته في السؤال والجواب والاستماع.

تلك هي بعض نماذج من آداب علماء الأمة، نستنبط منها: أن خلف الأمة في قرون الخير كان يسير حذو السلف، والكل يستقي من أدب النبوة، ولم

(١) النكت في المسائل المختلف فيها بين الشافعي وأبي حنيفة.

يكن أدب السلف الصالح يقتصر على تجنب التجريح والتشنيع، بل كان من الآداب الشائعة في ذلك الجيل من العلماء التثبت في أخذ العلم واجتناب الخوض فيما لا علم لهم به، والحرص على تجنب الفتيا خوفًا من الوقوع في الخطأ. قال صاحب القوت: وروينا عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: أدركت في هذا المسجد (مسجد رسول الله ﷺ) مائة وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ ما منهم أحد يسأل عن حديث أو فتيا إلاّ ودّ ان أخاه كفاه ذلك. وفي لفظ آخر: كانت المسألة تعرض على أحدهم فيردها إلى الآخر، ويردها الآخر حتى ترجع إلى الذي سأل عنها أول مرة.

مالك والشافعي:

يقول الإمام الشافعي: مالك بن أنس معلمي، وعنه أخذت العلم، وإذا ذكر العلماء فمالك النجم، وما أحد آمن علي من مالك بن أنس وكان يقول: إذا جاءك الحديث من مالك فشد به يديك، كان مالك بن أنس إذا شك في الحديث طرحه كله.

هذا أفضل فتيان زمانه. :

كان ابن عيينة هو من هو في مكانته إذا جاءه شيء من التفسير والفتيا التفت إلى الشافعي وقال: سلوا هذا. وكثيرًا ما كان يقول إذا رآه: هذا أفضل فتيان زمانه. وحين بلغه نبأ وفاة الشافعي قال: إن مات محمد بن إدريس فقد مات أفضل أهل زمانه.

أدعو الله للشافعي حتى في صلاتي:

وكان يحيى بن سعيد القطان يقول: أنا أدعو الله للشافعي حتى في صلاتي. وكان عبد الله بن عبد الحكم وولده على مذهب الإمام مالك، ولكن هذا لم يمنع عبد الله بن الحكم من أن يوصي ولده محمدًا بلزوم الإمام الشافعي حيث قال له: الزم هذا الشيخ (يعني الشافعي) فما رأيت أحدًا أبصر بأصول العلم أو قال: أصول الفقه منه. ويبدو أن الولد قد أخذ بنصيحة أبيه حيث يقول: لولا الشافعي ما عرفت كيف أرد على أحد، وبه عرفت ما

عرفت، وهو الذي علمني القياس رحمه الله فقد كان صاحب سنة وأثر، وفضل وخير، مع لسان فصيح، وعقل صحيح رصين.

كالشمس للدنيا:

عن عبد الله بن الإمام أحمد قال، قلت لأبي: أي رجل كان الشافعي، فإني أسمعك تكثر الدعاء له؟ فقال: يا بني: كان الشافعي رحمه الله كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس، فانظر هل لهذين من خلف أو عوض؟

أما يستحيي أبوك مما يفعل!:

وعن صالح بن الإمام أحمد قال: لقيني يحيى بن معين فقال: أما يستحيي أبوك مما يفعل؟ فقلت: وما يفعل؟ قال: رأيته مع الشافعي والشافعي راكب، وهو راجل آخذ بزمام دابته. فقلت لأبي ذلك، فقال: إن لقيته فقل: يقول لك أبي: إذا أردت أن تتفقه فتعال فخذ بركابه من الجانب الآخر.

ففيه يقول الشافعي وحجته أثبت:

وعن أبي حميد بن أحمد البصري قال: كنت عند أحمد بن حنبل نتذاكر في مسألة، فقال رجل لأحمد: يا أبا عبد الله لا يصح فيه حديث. فقال: إن لم يصح فيه حديث ففيه يقول الشافعي وحجته أثبت شيء فيه (ثم قال: أي أحمد) قلت للشافعي: ما تقول في مسألة كذا وكذا فأجاب فيها، فقلت: من أين قلت؟ هل فيه حديث أو كتاب؟ قال: بلى فنزع في ذلك حديثا للنبي ﷺ، وهو حديث نص.

وكان أحمد رحمه الله يقول: إذا سئلت في مسالة لا أعرف فيها خبرًا قلت فيها: يقول الشافعي، لأنه إمام عالم من قريش.

وعن داود بن علي الأصبهاني قال: سمعت إسحاق بن راهويه يقول: لقيني أحمد بن حنبل بمكة فقال: تعالى حتى أريك رجلاً لم تر عيناك مثله.. فأراني الشافعي.

كان ذلك رأي أحمد بن حنبل في الشافعي، ولا غرو فأن يكون التلميذ

معجبًا بأستاذه معترفًا له بالفضل، ولكن الشافعي نفسه لم يمنع تتلمذ أحمد عليه من أن يعترف له بالفضل والعلم بالسنة فيقول له: أما أنتم فأعلم بالحديث والرجال مني، فإذا كان الحديث صحيحًا فأعلموني إن يكن كوفيًا أو بصريًا أو شاميًا، أذهب إليه إذا كان صحيحًا.

وكان الشافعي حين يحدث عن أحمد لا يسميه (تعظيمًا له) بل يقول: (حدثنا الثقة من أصحابنا أو أنبأنا الثقة أو أخبرنا الثقة) [(١)].

ادفع إليه الدنانير التى معك:

كان الشافعي راكبًا على حمار فمر على سوق الحدادين فسقط سوطه من يده فوثب إنسان فمسحه بكفه وناوله إياه فقال لغلامه: ادفع إليه الدنانير التى معك فما أدري أكانت سبعة أو تسعة.

امعك من نفقتنا شيء؟:

قال وكنا يومًا مع الشافعي فانقطع شسع نعله فأصلحه له رجل فقال يا ربيع: أمعك من نفقتنا شيء؟ قلت: نعم، قال: كم؟ قلت: سبعة دنانير قال: ادفعها إليه.

تشهوا ما أحببتم:

وقال أبو سعد: كان الشافعي من أجود الناس وأسخاهم كفًا كان يشتري الجارية الصناع التي تطبخ وتعمل الحلواء ويقول لنا: تشهوا ما أحببتم فقد اشتريت جارية تحسن أن تعمل ما تريدون فيقول بعض أصحابنا: اعملي اليوم كذا وكذا وكنا نحن نأمرها.

وقال الربيع: كان الشافعي إذا سأله إنسان شيئًا يحمر وجهه حياء من السائل ويبادر بإعطائه رحمه الله ورضي عنه.

(١) طه جابر فياض العلواني، أدب الاختلاف في الإسلام، ص ٣٢ - ٣٣.

فلا تطفئه بالمعصية:

قال له شيخه مالك بن أنس رضي الله عنه: إن الله عز وجل قد ألقى على قلبك نورًا فلا تطفئه بالمعصية.

اتق الله واجتنب المعاصي:

وقال الشافعي: لما رحلت إلى مالك فسمع كلامي نظر إلي ساعة وكانت لمالك فراسة فقال: ما اسمك؟ قلت: محمد قال: يا محمد اتق الله واجتنب المعاصي فإنه سيكون لك شأن فقلت: نعم، وكرامة فقال: إذا كان غدًا تجيء ويجيء من يقرأ لك الموطأ فقلت: إني أقرأه ظاهرًا فغدوت إليه وابتدأت فكلما تهيبت مالكًا وأردت أن أقطع أعجبته قراءتي وأغراني بقول زد يا فتى حتى قرأته عليه في أيام يسيرة ثم أقمت بالمدينة إلى أن توفي مالك رضي الله عنه ثم ذكر خروجه إلى اليمن.

يجب أن تكون قاضياً:

وفي رواية فقرأته عليه وربما قال لي في شيء قد مر أعد حديث كذا فأعيده حفظًا وكانه أعجبه فقال أنت يجب أن تكون قاضيا.

قلت من رهطك:

قال الربيع: سمعت الشافعي يقول: رأيت رسول الله ﷺ في المنام قبل حلمي فقال لي: يا غلام فقلت: لبيك يا رسول الله قال: ممن أنت؟ قلت: من رهطك قال: ادن مني فدنوت منه ففتح فمي فأمر من ريقه على لساني وفمي وشفتي وقال: امض بارك الله فيك فما أذكر أني لحنت في حديث بعد ذلك ولا شعر.

يا رسول الله بقول من آخذ:

وعن أبي الحسن علي بن أحمد الدينوري الزاهد قال: رأيت النبي ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله بقول من آخذ فأشار إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: خذ بيد هذا فأت به ابن عمنا الشافعي ليعمل بمذهبه

فيرشد ويبلغ باب الجنة ثم قال الشافعي بين العلماء كالبدر بين الكواكب.

وقال الشافعي: ما ناظرت أحدًا قط على الغلبة وفي رواية ما ناظرت أحدًا قط إلا على النصيحة وقال أبو عثمان محمد بن الشافعي: ما سمعت أبي ناظر أحدا قط فرفع صوته.

فحمل كتبي فبثها في الهواء:

وقال الربيع: رأيت من الشافعي ما لا أحصى وكان إذا انصرف اتشح بردائه ووضعت له منارة قصيرة واتكأ على وسادة وتحته مضريتان ويأخذ القلم فلا يزال يكتب وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: رأيت في المنام كأن آتيا أتاني فحمل كتبي فبثها في الهواء فسألت بعض المعبرين فقال إن صدقت رؤياك لم يبق بلد من بلاد الإسلام إلا ودخل علمك فيه.

ما فعل الله بك؟:

وقال الإمام الحافظ محمد بن مسلم بن داره بالراء لما مات أبو زرعة الرازي رأيته في المنام فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: قال لي الجبار سبحانه وتعالى ألحقوه بأبي عبد الله وأبي عبد الله وأبي عبد الله الأول مالك والثاني الشافعي والثالث.

أحمد بن حنبل وقال أبو عبد الله محمد بن يعقوب الهاشمي: رأيت النبي ﷺ في المنام فقال الشافعي في الجنة أو من أهل الجنة.

ليس ثم أكبر منه:

وقال أبو العباس الأصم رأيت عبد الله بن صالح في المنام وذكرت الشافعي فأشار عبد الله بيده نحو السماء وقال: ليس ثم أكبر منه [١].

إن كان منكم فلم تغلبوا وإن كان عليكم فتأهبوه:

وقال علي الرازي: حج، بشر المريسي فلما قدم قيل له: من لقيت بمكة؟

(١) الإمام النووي، تهذيب الأسماء واللغات، تحقيق مكتب البحوث والدراسات في دار الفكر، دار النشر دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى سنة النشر ١٩٩٦، ١/ ٨٥.

قال: رأيت رجلاً إن كان منكم فلن تغلبوا وإن كان عليكم فتأهبوه وخذوا حذركم وهو محمد بن إدريس الشافعي وقال المريسي مع الشافعي نصف عقل أهل الدنيا.

وقال ما رأيت أعقل من الشافعي وقال ما رأيت أمهر من الشافعي.

وقال رأيت بمكة فتى لئن بقي ليكونن رجل الدنيا (١).

رحلة الشافعي في طلب العلم:

عن زكريا بن يحيى البصري، ويحيى بن زكريا بن جبرية النيسابوري كلاهما عن الربيع بن سليمان، وبعضهم يزيد على بعض في الحكاية. قال الربيع: سمعت الشافعي يقول: كنت أنا في الكتاب أسمع المعلم يلقن الصبي الآية فأحفظها أنا، ولقد كنت - ويكتبون أئمتهم فإلى أن يفرغ المعلم من الإملاء عليهم - قد حفظت جميع ما أملي، فقال لي ذات يوم: ما يحل لي أن آخذ منك شيئاً. قال: ثم لما خرجت من الكتاب كنت أتلقط الخزف والدفوف وكرب النخل أكتاف الجمال، أكتب فيها الحديث وأجئ إلى الدواوين فأستوهب منها الظهور فأكتب فيها حتى كانت لأمي حباب فملأتها أكتافاً وخزفاً وكرباً مملوءة حديثاً، ثم إني خرجت عن مكة فلزمت هذيلاً في البادية أتعلم كلامها وآخذ طبعها وكانت أفصح العرب. قال: فبقيت فيهم سبع عشرة سنة، أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم، فلما رجعت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار وأذكر الآداب والأخبار وأيام العرب، فمر بي رجل من الزبيريين من بني عمي فقال لي: يا أبا عبد الله: عز علي ألا يكون مع هذه اللغة وهذه الفصاحة والذكاء فقه، فتكون قد سدت أهل زمانك، فقلت: فمن بقي نقصد؟ فقال لي: مالك بن أنس سيد المسلمين يومئذ. قال: فوقع في قلبي فعمدت إلى الموطإ فاستعرته من رجل بمكة فحفظته في تسع ليال ظاهراً قال: ثم دخلت إلى والي مكة وأخذت كتابه

(١) الإمام النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ١/ ٧٧ - ٧٨.

إلى والي المدينة، وإلى مالك بن أنس قال: فقدمت المدينة فأبلغت الكتاب إلى الوالي، فلما أن قرأ قال: يا فتى إن مشى من جوف المدينة إلى جوف مكة حافياً راجلاً أهون علي من المشي إلى باب مالك بن أنس، فلست أرى الذل حتى أقف على بابه فقلت: - أصلح الله الأمير - إن رأى الأمير يوجه إليه ليحضر. قال: هيهات، ليت أني إذا ركبت أنا ومن معي وأصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجتنا. قال: فواعدته العصر وركبنا جميعاً، فوالله لكان كما قال: لقد أصابنا من تراب العقيق. قال: فتقدم رجل فقرع الباب فخرجت إلينا جارية سوداء فقال لها الأمير: قولي لمولاك إني بالباب. قال: فدخلت فأبطأت ثم خرجت فقالت: إن مولاي يقرئك السلام ويقول: إن كانت مسألة فارفعها في رقعة يخرج إليك الجواب، وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف، فقال لها: قولي له: إن معي كتاب والي مكة إليه في حاجة مهمة. قال: فدخلت وخرجت وفي يدها كرسي فوضعته، ثم إذا أنا بمالك قد خرج وعليه المهابة والوقار، وهو شيخ طويل مسنون اللحية فجلس وهو متطلس فرفع إليه الوالي الكتاب، فبلغ إلى هذا: إن هذا رجل من أمره وحاله فتحدثه وتفعل وتصنع، رمى بالكتاب من يده ثم قال: سبحان الله! أوصار علم رسول الله ﷺ يؤخذ بالوسائل؟ قال: فرأيت الوالي وقد تهيبه أن يكلمه فتقدمت إليه وقلت: - أصلحك الله - إني رجل مطلبي ومن حالي وقصتي، فلما أن سمع كلامي نظر إلى ساعة وكانت لمالك فراسة فقال لي: ما اسمك؟ قلت: محمد. فقال لي يا محمد. اتق الله واجتنب المعاصي، فإنه سيكون لك شأن من الشأن ثم قال: نعم كرامة، إذا كان غداً تجئ ويجئ من يقرأ لك. قال: فقلت أنا أقوم بالقراءة. قال: فغدوت عليه وابتدأت أن أقرأه ظاهراً والكتاب في يدي، فكلما تهيبت مالكاً وأردت أن أقطع أعجبه حسن قراءتي وإعرابي فيقول: يا فتى زد حتى قرأته في أيام يسيرة، ثم أقمت بالمدينة حتى توفى مالك بن أنس، ثم خرجت إلى اليمن فارتفع لي بها الشأن، وكان بها وال من قبل الرشيد وكان ظلوماً غشوماً،

وكنت ربما آخذ على يديه وأمنعه من الظلم. قال: وكان باليمن تسعة من العلوية قد تحركوا وإني أخاف أن يخرجوا، وإن ههنا رجلاً من ولد شافع المطلب لا أمر لي معه ولا نهي. قال: فكتب إليه هارون: أن احمل هؤلاء واحمل الشافعي معهم فقرنت معهم. قال: فلما قدمنا على هارون الرشيد أدخلنا عليه وعنده محمد بن الحسن. قال: فدعا هارون بالنطع والسيف وضرب رقاب العلوية، ثم التفت محمد بن الحسن فقال: يا أمير المؤمنين، هذا المطلبي، لا يغلبنك بفصاحته فإنه رجل لسن. فقلت: مهلاً يا أمير المؤمنين فإنك الداعي وأنا المدعو، وأنت القادر على ما تريد مني، ولست القادر على ما أريد منك، يا أمير المؤمنين، ما تقول في رجلين: أحدهما يراني أخاه، والآخر يراني عبده أيهما أحب إلي؟ قال: الذي يراك أخاه. قال: قلت فذاك أنت يا أمير المؤمنين. قال فقال لي: كيف ذاك؟ فقلت يا أمير المؤمنين، إنكم ولد العباس وهم ولد علي، ونحن بنو المطلب، فأنتم ولد العباس ترونا إخوتكم وهم يرونا عبيدهم. قال: فسري ما كان به فاستوى جالساً فقال: يا بن إدريس: كيف علمك بالقرآن؟ قلت: عن أي علومه تسألني؟ عن حفظه فقد حفظته ووعيته بين جنبي وعرفت وقفه وابتداءه، وناسخه ومنسوخه وليليه ونهاريه ووحشيه وأنسيه، وما خوطب به العام يراد به الخاص، وما خوطب به الخاص يراد به العام.

فقال لي: والله يا بن إدريس لقد ادعيت علمًا فكيف علمك بالنجوم؟ فقلت: إني لأعرف منها البري من البحري، والسهلي والجبلي والفيلق والمصبح وما تجب معرفته. قال: فكيف علمك بأنساب العرب. قال: فقلت إني لأعرف أنساب اللئام وأنساب الكرام ونسبي ونسب أمير المؤمنين. قال: لقد ادعيت علماً فهل من موعظة تعظ بها أمير المؤمنين؟ قال: فذكرت موعظة لطاوس اليماني فوعظته بها، فبكى وأمر لي بخمسين ألفاً وحملت على فرس وركبت من بين يديه وخرجت، فما وصلت الباب حتى فرقت الخمسين ألفاً على حجاب أمير المؤمنين وبوابيه. قال: فلحقني

هرثمة وكان صاحب هارون فقال: اقبل هذه مني. قال: فقلت له إني لا آخذ العطية ممن هو دوني، وإنما آخذها ممن هو فوقي. قال: فوجد في نفسه. قال: وخرجت كما أنا حتى جئت منزلي فوجهت إلى كاتب محمد بن الحسن بمائة دينار وقلت: اجمع الوراقين الليلة على كتب محمد بن الحسن وانسخها لي ووجه بها إلي. قال: فكتبت لي ووجه بها إلي.

قال: اجتمعنا أنا ومحمد بن الحسن على باب هارون وكان يجلس فيه القضاة والأشراف ووجوه الناس إلى أن يؤذن لهم. قال: واجتمعنا في ذلك المكان. قال وفيه جماعة من بني هاشم وقريش والأنصار والخلق يعظمون محمد بن الحسن لقربه من أمير المؤمنين وتمكنه. قال: فاندفع يعرض بي ويذم أهل المدينة فقال: من أهل المدينة؟ وأي شيء يحسن أهل المدينة؟ والله لقد وضعت كتاباً على أهل المدينة كلها لا يخالفني فيه أحد، ولو علمت أن أحداً يخالفني في كتابي هذا تبلغني إليه آباط الإبل لصرت حتى أرد عليه. قال الشافعي: فقلت إن أنا سكت نكست رؤوس من هاهما من قريش، وإن أنا رددت عليه أسخطت على السلطان، ثم إني استخرت الله في الرد عليه، فتقدمت إليه فقلت: - أصلحك الله - لم طعنك على أهل المدينة وذمك لأهل المدينة؟ إن كنت أردت رجلاً واحداً وهو مالك بن أنس فألا ذكرت ذلك الرجل بعينه ولم تطعن على أهل حرم الله وحرم رسوله وكلهم على خلاف ما ادعيته، وأما كتابك الذي ذكرت أنك وضعته على أهل المدينة، فكتابك من بعد بسم الله الرحمن الرحيم، خطأ إلى آخره، قلت في شهادة القابلة كذا وكذا وهو خطأ، وفي مسألة الحامل كذا وكذا وهو خطأ، وقلت في مسألة كذا، وكذا وكذا وهو خطأ، فاصفرَّ محمد بن الحسن ولم يحر جواباً. وكتب أصحاب الأخبار إلى الرشيد بما كان فضحك وقال: ماذا ننكر لرجل من ولد المطلب أن يقطع مثل محمد بن الحسن. قال: فعارضني رجل من أهل المجلس من أصحابه فقال: ما تقول في رجل دخل منزل رجل فرأى بطة ففقأ عينها، ماذا يجب عليه؟ قال: قلت: ينظر

إلى قيمتها وهي صحيحة وقيمتها وقد ذهبت عينها، فيقوم ما بين القيمتين، ولكن ما تقول أنت وصاحبك في رجل محرم نظر إلى فرج امرأة فأنزل؟ قال: ولم يكن لمحمد حذاقة بالمناسك. قال: فصاح به محمد وقال له: ألم أقل لك لا تسأله؟ قال: ثم أدخلنا على الرشيد فلما أن استوينا بين يديه قال لي: يا أبا عبد الله، تسأل أو أسأل؟ قال: قلت ذاك إليك. قال: فأخبرني عن صلاة الخوف أواجبة هي؟ قلت: نعم، فقال: ولم؟ فقلت: لقول الله عز وجل:{وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ} [النساء: ١٠٢]. فدل أنها واجبة. قال: وما تنكر من قائل قال لك: إنما أمر الله تعالى نبيه ﷺ وهو فيهم، فلما أن زال عنهم النبي ﷺ زالت تلك الصلاة؟ فقلت: وكذلك قال الله عز وجل لنبيه:{خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا} [التوبة: ١٠٣]، فلما أن زال عنهم النبي ﷺ زالت عنهم الصدقة؟ فقال: لا. قلت: وما الفرق بينهما والنبي ﷺ هو المأمور بهما جميعاً؟ قال: فسكت ثم قال: يأهل المدينة ما أجرأكم على كتاب الله؟ فقلت: الأجرأ على كتاب الله من خالفه. قال: فقد قال الله عز وجل:{وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ} [الطلاق: ٢]، فقلتم أنتم: نقضي باليمين مع الشاهد فقلت: لكنا نقول بما قال الله، ونقضي بما قضى به رسول الله ﷺ، ولكنك أنت إذا خالفت كتاب قضاء رسول الله ﷺ فقد خالفت كتاب الله. قال: وأين لكم رد اليمين؟ قال: قلت سنة رسول الله ﷺ. قال: وأين؟ قلت: قصة حويصة ومحيصة وعبد الرحمن حين قال لهم رسول الله ﷺ في قصة القتيل:«تحلفون وتستحقون دم صاحبكم؟» قالوا: لم نشهد ولم نعاين؟ قال:«فيحلف لكم يهود»، فلما أن نكلوا رد اليمين إلى اليهود. قال: فقال لي: إنما كان ذلك استفهاماً من رسول الله ﷺ. قال: فقلت يا أمير المؤمنين، هذا بحضرتك يزعم أن رسول الله ﷺ يستفهم من اليهود. فقال الرشيد: ثكلتك أمك يا بن الحسن، رسول الله ﷺ يستفهم من اليهود؟. نطع وسيف، فلما رأيت الجد من أمير المؤمنين قلت: مهلاً يا أمير المؤمنين، فإن الخصمين إذا اجتمعا تكلم كل واحد منهما بما لا يعتقده

ليقطع به صاحبه، وما أرى أن محمداً يرى نقصاً لرسول الله ﷺ قال: فسريت عنه. قال: ثم ركبنا جميعاً وخرجنا من الدار. قال: فقال لي: يا أبا عبد الله فعلتها؟ قال: فقلت: فكيف رأيتها بعد ذلك؟.

مناظرة إسحاق بن راهويه مع الشافعي رضي الله عنه:

حدث الآبري بإسناده: قال إسحاق بن راهويه: كنا عند سفيان بن عيينة نكتب أحاديث عمرو بن دينار، فجاءني أحمد بن حنبل فقال لي: يا أبا يعقوب: قم حتى أريك رجلاً لم ترعيناك مثله. قال: فقمت فأتى بي فناء زمزم فإذا هناك رجل عليه ثياب بيض تعلو وجهه السمرة، حسن السمت، حسن العقل، وأجلسني إلى جانبه فقال له: يا أبا عبد الله، هذا إسحاق بن راهويه الحنظلي فرحب بي وحياني، فذاكرته وذاكرني فانفجر لي منه علم أعجبني حفظه قال: فلما أن طال مجلسنا قلت له: يا أبا عبد الله قم بنا إلى الرجل، قال: هذا هو الرجل، فقلت: يا سبحان الله، أقمتنا من عند رجل يقول: حدثنا الزهري، فما توهمت إلا أن تأتي بنا إلى رجل مثل الزهري أو قريب منه. فأتيت بنا إلى هذا الشاب أو هذا الحدث، فقال لي: يا أبا يعقوب اقتبس من الرجل، فإنه ما رأت عيناي مثله. قال الآبري: قال إسحاق: فسألته عن سكني بيوت مكة - أراد الكرى - فقال جائز. فقلت: إي يرحمك الله، وجعلت أذكر له الحديث عن عائشة وعبد الرحمن وعمر وأصحاب رسول الله ﷺ، ومن كره كرى بيوت مكة وهو ساكت يسمع وأنا أسرد عليه. فلما فرغت سكت ساعة وقال: يرحمك الله، أما علمت أن النبي ﷺ قال: هل ترك لنا عقيل من رباع أو دار؟ قال: فوالله ما فهمت عنه ما أراد بها ولا أرى أن أحداً فهمه. قال الحاكم: فقال إسحاق: أتأذن لي في الكلام؟ فقال: نعم، فقلت: حدثنا يزيد بن هارون عن هشام عن الحسن أنه لم يكن يرى ذلك، وأخبرنا أبو نعيم وغيره عن سفيان عن منصور عن إبراهيم أنه لم يكن يرى ذلك. قال الحاكم: ولم يكن الشافعي عرف إسحاق، فقال الشافعي لبعض من عرفه: من هذا؟ فقال: هذا إسحاق بن إبراهيم بن

الحنظلي بن راهويه الخراساني. فقال له الشافعي: أنت الذي يزعم أهل خراسان أنك فقيههم؟ قال إسحاق: هكذا يزعمون. قال الشافعي: ما أحوجني أن يكون غيرك في موضعك، فكنت آمر بعرك أذنيه. وقال الحاكم في خبر آخر: قال له الشافعي: لو قلت قولك احتجت إلى أن أسلسل أنا أقول لك: قال رسول الله ﷺ وأنت تقول: عطاء وطاوس ومنصور وإبراهيم والحسن وهؤلاء لا يرون ذلك، هل لأحد مع رسول الله ﷺ حجة؟. قال إسحاق لبعض من معه من المراوزة بلسانهم: مردك لا كما لا نيست، قرية عندهم بمرو يدعون العلم، وليس لهم علم واسع.

وقال الآبري: قال إسحاق لبعض من معه: الرجل مالاني، ومالان: قرية من قرى مرو وأهلها فيهم سلامة. قال الحاكم في خبره: فلما سمع الشافعي تراطنه علم أنه قد نسبه إلى شيء. فقال تناظر؟ وكان إسحاق جريئاً فقال: ما جئت إلا للمناظرة. فقال له الشافعي: قال الله عز وجل:{لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ} [الحشر: ٨] الآية. نسب الدار إلى المالكين أو غير المالكين قال إسحاق: إلى المالكين. قال الشافعي: فقوله عز وجل أصدق الأقاويل، وقد قال رسول الله ﷺ:《من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن》، أنسب رسول الله ﷺ الدار إلى مالك أو إلى غير مالك؟. قال إسحاق: إلى مالك. فقال الشافعي: وقد اشترى عمر بن الخطاب دار الحجامين فأسكنها، وذكر له جماعة من أصحاب ﷺ اشتروا دور مكة وجماعة باعوها. وقال إسحاق له: قال الله عز وجل:{سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ} [الحج: ٢٥]. فقال الشافعي: اقرأ أول الآية. قال:{وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ} [الحج: ٢٥]. قال الآبري: قال الشافعي: والعكوف يكون في المسجد، ألا ترى إلى قوله:{لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ} [البقرة: ١٢٥]، والعاكفون يكونون في المساجد، ألا ترى إلى قوله عز وجل: {وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ} [البقرة: ١٨٧]، فدل ذلك أن قوله عز وجل:{سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ} [الحج: ٢٥]، في المسجد خاص، فأما من

ملك شيئاً فله أن يكرى وأن يبيع. قال الحاكم: وقال الشافعي: ولو كان كما تزعم لكان لا يجوز أن تنشد فيها ضالة ولا ينحر فيها البدن ولا تنثر فيه الأرواث، ولكن هذا في المسجد خاصة. قال فسكت إسحاق ولم يتكلم. وفي خبر الآبري: فلما تدبرت ما قال من قول رسول الله ﷺ :﴿**هل ترك لنا عقيل من رباع أو دار؟**﴾. علمت أنه قد فهم ما ذهب عنا. قال إسحاق: ولو كنت قد أدركني هذا الفهم وأنا بحضرته لعرفته ذاك، ثم نظرنا في كتبه فوجدنا الرجل من علماء هذه الأمة.

كيف أصبحت!:

وحدث المزني وهو إبراهيم إسماعيل بن يحيى قال: دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه فقلت: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت من الدنيا راحلاً، وللإخوان مفارقاً، ولكأس المنية شارباً، وعلى الله جل ذكره وارداً، ولا والله ما أدري روحي تصير إلى الجنة أو إلى النار فأعزيها ثم بكى وأنشأ يقول:

فلما قسا قلبي وضـاقت مـذاهبي ::: جعلت رجائي نحو عفـوك سـلما
تعـاظمني ذنـبي فلمـا قرنتـه ::: بعفوك ربي كان عفـوك أعظمـا
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ::: تجـود وتعفـو منـة وتكرمـا
فلولاك لم يقـدر بـإبليس عابـد ::: فكيف وقد أغوى صفيك آدمـا؟

رضا الناس غاية لا تدرك:

وحدث يونس بن عبد الأعلى الصدفي قال: قال لي الشافعي رضي الله عنه: يا أبا موسى، رضا الناس غاية لا تدرك، ما أقوله لك إلا نصحًا، ليس إلى السلامة من الناس سبيل، فانظر ما فيه صلاح نفسك فالزمه، ودع الناس وما هم فيه.

ليس هذا من كيسكم:

وحدث الحسن بن محمد الزعفراني قال: كنا نحضر مجلس بشر المريسي فكنا لا نقدر على مناظرته، فمشينا إلى أحمد بن حنبل فقلنا له: ائذن لنا في أن نحفظ الجامع الصغير الذي لأبي حنيفة، لنخوض معهم إذا خاضوا. فقال: اصبروا فالآن يقدم عليكم المطلبي الذي رأيته بمكة. قال: فقدم علينا الشافعي فمشوا إليه وسألناه شيئاً من كتبه، فأعطانا كتاب اليمين مع الشاهد فدرسته في ليلتين، ثم غدوت على بشر المريسي وتخطيت إليه فلما رآني قال: ما جاء بك يا صاحب حديث؟ قال: قلت: ذرني من هذا، إيش الدليل على إبطال اليمين مع الشاهد؟، فناظرته فقطعته فقال: ليس هذا من كيسكم هذا من كلام رجل رأيته بمكة، معه نصف عقل أهل الدنيا.

وكان في السفرة دجاجتان:

وحدث الآبري بإسناد إلى المزني عن الشافعي قال: كنا في سفر بأرض اليمن فوضعنا سفرتنا لنتعشى وحضرت صلاة المغرب فقلنا نصلي ثم نتعشى، فتركنا سفرتنا كما هي، وكان في السفرة دجاجتان فجاء ثعلب فأخذ إحدى الدجاجتين فلما قضينا صلاتنا أسفنا عليها وقلنا حرمنا طعامنا، فبينا نحن كذلك إذ جاء الثعلب وفي فيه شيء كأنه الدجاجة فوضعه فبادرنا إليه لنأخذ ونحن نحسبه الدجاجة قد ردها، فلما قمنا لخلاصها فإذا هو قد جاء إلى الأخرى فأخذها من السفرة وأصبنا الذي قمنا إليه لنأخذه ليفة قد هيأها مثل الدجاجة.

على الرأس والعينين:

ومن كتاب الإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي بإسناده إلى الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي وسأله رجل عن مسألة فقال: يروي عن النبي ﷺ أنه قال كذا وكذا. فقال له السائل: يا أبا عبد الله، أتقول بهذا؟ فارتعد الشافعي واصفر لونه وحال وتغير وقال: ويحك، أي أرض تقلني؟ وأي سماء تظلني إذا رويت عن رسول الله ﷺ ولم أقل به، نعم على الرأس

والعينين.

فالقول ما قال رسول الله ﷺ :

قال: وسمعت الشافعي يقول: ما من أحد إلا وتذهب عنه سنة لرسول الله ﷺ وتعزب عنه، فمهما قلت من قول أو أصلت من أصل فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت، فالقول ما قال رسول الله ﷺ وهو قولي وجعل يردد هذا الكلام.

ورأيت الجسد الآخر بالسوق ذاهبًا وراجعًا:

وروي عن الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه أنه قال: دخلت بلدة اليمن فرأيت بها إنسانًا من وسطه إلى أسفله بدن واحد ومن وسطه إلى أعلاه بدنان مفترقان برأسين ووجهين وأربع أيد وهما يأكلان ويشربان ويتقاتلان ويتلاطمان ويصطلحان قال ثم غبت عنهما قليلاً ورجعت فقيل لي: أحسن الله عزاءك في أحد الشقين فقلت وكيف صنع به؟ فقيل ربط في أسفله حبل وثيق وترك حتى ذبل ثم قطع ورأيت الجسد الآخر بالسوق ذاهبًا وراجعًا.

ثلاثة تضني:

حكي عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه كان نازلاً عند الزعفراني ببغداد فكان الزعفراني يكتب في كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويدفعها إلى الجارية فأخذها الشافعي منها يومًا وألحق فيها لونًا آخر فعرف الزعفراني ذلك فأعتق الجارية سرورًا بذلك وكانت سنة السلف رضي الله عنهم أن يقدموا جملة الألوان دفعة ليأكل كل شخص ما يشتهي ومن السنة أن يشيع المضيف الضيف إلى باب الدار وعلى المضيف إذا قدم الطعام إلى أضيافه أن لا ينتظر من يحضر من عشيرته فقد قيل: ثلاثة تضني: سراج لا يضيء ورسول بطيء ومائدة ينتظر لها من يجيء ونزل الإمام الشافعي رضي الله عنه بالإمام مالك رضي الله عنه فصب بنفسه الماء على يديه وقال له:

لا يرعك ما رأيت مني فخذ ::: ماء الضيف على المضيف فرض
أعرض طعامك وابذله لمن أكلا ::: واحلف على من أبى واشكر لمن فعلا
ولا تكن سابري العرض محتشما ::: من القليل فلست الدهر محتفلا [١]

الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها:

قال: الشيخ أبو الوليد حسان بن محمد الفقيه: كنا في مجلس القاضي أبي العباس بن سريج سنة ثلاث وثلاثمائة فقام إليه شيخ من أهل العلم فقال له: أبشر أيها القاضي فإن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها، وإنه بعث على رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز وتوفي سنة ثلاث ومائة، وبعث على رأس المائتين أبا عبد الله بن إدريس الشافعي وتوفي سنة أربع ومائتين، وبعثك على رأس الثلاثمائة. ثم أنشأ يقول:

اثنان مضيا فبورك فيهما ::: عمر الخليفة ثم حلف السودد
الشافعي الألمعي محمد ::: إرث النبوة وابن عم محمد
أبشر أبا العباس إنك ثالث ::: من بعدهم سقياً لنوبة أحمد

قال: فصاح القاضي وبكى وقال: إن هذا الرجل قد نعى إلى نفسي. قال: فمات القاضي أبو العباس في تلك السنة.

رأيت بالمدينة أربع عجائب:

وعن المزني سمعت الشافعي يقول: رأيت بالمدينة أربع عجائب. رأيت جدة لها إحدى وعشرين سنة، ورأيت رجلاً فلسة القاضي في مدين نوى، ورأيت شيخاً قد أتى عليه تسعون سنة يدور نهاره حافياً راجلاً على القيان يعلمهن الغناء فإذا جاءت الصلاة صلى قاعداً، وكان بالمدينة والٍ وكان رجلاً صالحاً فقال: مالي لا أرى الناس يجتمعون على بابي كما يجتمعون على أبواب الولاة؟ فقالوا: إنك لا تضرب أحداً ولا تؤذي الناس. فقال أهكذا؟ علي بالإمام فنصب بين العقابين وجعل يضرب والإمام يقول: -

(١) الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ٣٩٩/١.

أعز الله الأمير - إيش جرمي، وهو يقول: حملنا بنفسك، حتى اجتمع الناس على بابه.

أهون من اعتذار إلى صديق يشوبه الكذب:

وعن خيثمة بن سليمان بن حيدرة قال: جاء رجل إلى الشافعي فقال له: - أصلحك الله - صديقك فلان عليل، فقال الشافعي: والله لقد أحسنت إلي وأيقظني لمكرمة، ودفعت عني اعتذار يشوبه الكذب ثم قال: يا غلام، هات السبتية ثم قال: للمشي على الحفاء، على علة الوجاء في حر الرمضاء من ذي طوى أهون من اعتذار إلى صديق يشوبه الكذب. ثم أنشأ يقول:

أرى راحة للحق عنـــد قضـــائه :: ويثقل يوماً إن تركت على عمـــد
وحسبك حظاً أن ترى غير كاذب : وقولك لم أعلم وذاك من الجهـــد
ومن يقض حق الجار بعد ابن عمه ::: وصاحبه الأدنى على القرب والبعد
يعش سيداً يستعذب الناس ذكـــره ::: وإن نابه حق أتـــوه علـــى قصـــد

هذا جزاء من سب آل رسول الله ﷺ :

يقال: إن الشافعي رضي الله عنه قدم إلى مصر سنة تسع وتسعين ومائة في أول خلافة المأمون، وكان سبب قدومه إلى مصر أن العباس بن عبد الله بن العباس بن موسى بن عبد الله بن العباس استصحبه فصحبه، وكان العباس هذا خليفة لأبيه عبد الله على مصر، ولم يزل الشافعي بمصر إلى أن ولي السري بن الحكم البلخي - من قوم يقال لهم: الزط - مصر واستقامت له، وكان يكرم الشافعي ويقدمه ولا يؤثر أحداً عليه، وكان الشافعي محبباً إلى الخاص والعام لعلمه وفقهه، وحسن كلامه وأدبه وحلمه، وكان بمصر رجل من أصحاب مالك بن أنس يقال له فتيان فيه حدة وطيش، وكان يناظر الشافعي كثيراً ويجتمع الناس عليهما، فتناظرا يوماً في مسألة بيع الحر وهو العبد المرهون إذا أعتقه الراهن ولا مال له غيره، فأجاب الشافعي بجوار بيعه على أحد أقواله، ومنع فتيان منه، لأنه

يمضي عتقه بكل وجه وهو أحد أقوال الشافعي، فظهر عليه الشافعي في الحجاج، فضاق فتيان بذلك ذرعاً فشتم الشافعي شتماً قبيحاً فلم يرد عليه الشافعي حرفاً ومضى في كلامه في المسألة، فرفع ذلك رافع إلى السري، فدعا الشافعي وسأله عن ذلك وعزم عليه فأخبره بما جرى، وشهد الشهود على فتيان بذلك، فقال السري: لو شهد آخر مثل الشافعي. على فتيان لضربت عنقه، وأمر فتيان فضرب بالسياط وطيف به على جمل وبين يديه مناد ينادي: هذا جزاء من سب آل رسول الله ﷺ. ثم إن قوماً تعصبوا لفتيان من سفهاء الناس وقصدوا حلقة الشافعي حتى خلت من أصحابه وبقي وحده، فهجموا عليه وضربوه فحمل إلى منزله، فلم يزل فيه عليلاً حتى مات.

قال ابن يونس: كان للشافعي ابن اسمه محمد، قدم مع أبيه مصر وتوفي بها في شعبان سنة إحدى وثلاثين ومائتين. وقيل: كان له ولد آخر اسمه محمد أيضاً يروي عن سفيان بن عيينة. ولي قضاء الجزيرة وتوفي بها بعد أربعين ومائتين (١).

هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة:

وقف الشافعي - رحمه الله - موقفًا حكيمًا مسددًا مع أهل الكلام، فقال - رحمه الله تعالى -: " حكمي في أهل الكلام: أن يضربوا بالجريد والنعال، ويحملوا على الإبل، ويطاف بهم في الأسواق والعشائر، يُنادى عليهم ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على علم الكلام " (٢).

وقال: " مذهبي في أهل الكلام تقنيع رؤوسهم بالسياط، وتشريدهم في البلاد " (٣).

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٣٣٩/٢ - ٣٥٢.
(٢) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي ١٠ / ٢٩، والبداية والنهاية ١٠ / ٢٥٤، وفتاوى ابن تيمية ١٦ / ٤٧٣.
(٣) انظر: سير أعلام النبلاء ١٠ / ٢٩.

إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء:

قال يونس بن عبد الأعلى الصدفي قلت للشافعي: إن صاحبنا الليث كان يقول: إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة. فقال الشافعي - رحمه الله: قصر الليث - رحمه الله، بل إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب [1].

شيء تحتاج إليه في اليوم خمس مرات تدع علمه وتتكلف علم الخالق!:

وجاء رجل من أهل الكلام إلى الشافعي - وهو في مصر - فسأله عن مسألة من الكلام فقال له الشافعي: أتدري أين أنت؟ قال الرجل: نعم. قال: هذا الموضع الذي أغرق الله فيه فرعون، أبلغك أن رسول الله ﷺ أمر بالسؤال عن ذلك؟ قال: لا. قال: هل تكلم فيه الصحابة؟ قال: لا. قال: هل تدري كم نجمًا في السماء؟ قال: لا. قال: فكوكب منها، تعرف جنسه، طلوعه، أفوله، مم خُلق؟ قال: لا. قال: فشيء تراه بعينك من الخلق لست تعرفه، تتكلم في علم خالقه؟ ثم سأله الشافعي عن مسألة من الوضوء فأخطأ فيها، ففرعها على أربعة أوجه، فلم يصب في شيء من ذلك، فقال له: شيء تحتاج إليه في اليوم خمس مرات تدع علمه، وتتكلف علم الخالق؟ إذا " هجس في ضميرك ذلك فارجع إلى الله، وإلى قوله - تعالى -: {وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [البقرة: ١٦٣ - ١٦٤]، فاسْتَدَلّ بالمخلوق على الخالق، ولا تتكلف علم ما لم يبلغه عقلك.

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٥١٠، وسير أعلام النبلاء ١٠ / ٢٣. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ، ٣٦٤/١ - ٣٦٧.

فتاب الرجل [١] على يد الشافعي من علم الكلام، وأقبل على فقه الكتاب والسنة، وكان يقول بعد التوبة: " أنا خلق من أخلاق الشافعي " [٢].

من كلام الشافعي:
ما تُقُرِّب إلى الله عز وجل بعد أداء الفرائض بأفضل من طلب العلم.

طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

العلم ما نفع ليس ما حفظ.

ليس لأحد أن يقول في شيء حلال ولا حرام إلا من جهة العلم؛

وجهة العلم: ما نص في الكتاب أو في السنة أو في الإجماع أو في القياس على هذه الأصول ما في معناها.

العالم يسأل عما يعلم، وعما لا يعلم، فيثبّت ما يعلم، ويتعلّم ما لا يعلم

والجاهل يغضب من التعلّم، ويأنف من التعليم.

كفى بالعلم فضيلة أن يدعيه من ليس فيه، ويفرح إذا نسب إليه،

وكفى بالجهل شيئًا أن يتبرأ منه من هو فيه، ويغضب إذا نسب إليه.

إذا رأيت رجلاً من أصحاب الحديث، فكأني رأيت رجلاً من أصحاب النبي ﷺ، جزاهم الله خيرًا، هم حفظوا لنا الأصل، فلهم علينا الفضل.

المراء في الدين يقسي القلب، ويورث الضغائن.

إذا أنت خفت على عملك العجب، فانظر:

رضا من تطلب، وفي أي ثواب ترغب، ومن أي عقاب ترهب، وأي عافية تشكر، وأي بلاء تذكر. فإنك إذا تفكرت في واحدة من هذه الخصال، صغر

(١) وهذا الرجل الذي تاب من علم الكلام على يد الشافعي، هو المزني، الإمام العلامة علم الزهاد، أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى بن عمرو بن مسلم المزني المصري، تلميذ الشافعي، ولد سنة ١٧٥ هـ، وله المختصر في الفقه، وقد شرحه عدة من العلماء، توفي - رحمه الله - سنة ٢٦٤ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي ١٢ / ٤٩٢.
(٢) انظر: سير أعلام النبلاء ١٠ / ٢٥، ٢٦، ٣١، ٣٢.

في عينك عملك.

إن الدنيا دحض منزلة، ودار مذلة، عمرانها إلى خرائب صائر، وساكنها إلى القبور زائر، شملها على الفرق موقوف، وغناها إلى الفقر مصروف، الإكثار فيها إعسار، والإعسار فيها يسار.

فافزع إلى الله، وارض برزق الله، لا تتسلف من دار بقائك إلى دار فنائك. فإن عيشك فيء زائل، وجدار مائل، أكثر من عملك، وأقصر من أملك.

لولا المحابر، لخطبت الزنادقة على المنابر.

اللبيب العاقل هو الفطن المتغافل.

رضا الناس غاية لا تدرك، وليس إلى السلامة من ألسنة الناس سبيل، فعليك بما ينفعك فألزمه.

ما رفعت من أحد فوق منزلته، إلا وضع مني بمقدار ما رفعت منه.

من استُغضب فلم يغضب فهو حمار، ومن استرضي فلم يرض فهو شيطان.

أصل العلم التثبت، وثمرته السلامة، وأصل الورع القناعة، وثمرته الراحة، وأصل الصبر الحزم، وثمرته الظفر، وأصل العمل التوفيق، وثمرته النجاح، وغاية كل أمر الصدق.

الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط.

أرفع الناس قدرًا من لا يرى قدره، وأكثرهم فضلاً من لا يرى فضله.

الحسد إنما يكون من لؤم العنصر، وتعادي الطبائع، واختلاف التركيب، وفساد مزاج البنية، وضعف عقد العقل.

ليس من المروءة أن يخبر الرجل بسنه، لأنه إن كان صغيرًا استحقروه، وان كان كبيرًا استهرموه.

ليس بأخيك من احتجت إلى مداراته.
إذا ثبت الأصل في القلب، أخبر اللسان عن الفروع.
طبع ابن آدم على اللؤم، فمن شأنه أن يتقرّب ممن يتباعد عنه، ويتباعد ممن يتقرّب منه.
من واعظ أخاه سرًا، فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية، فقد فضحه وخانه.
ليس العاقل الذي يدفع بين الخير والشر، فيختار الخير، ولكن العاقل الذي يدفع بين الشرّين فيختار أيسرهما.
- من حضر مجلس العلم بلا محبرة وورق كان كمن حضر الطاحون بغير قمح.
لا يعرف الرياء إلا المخلصون.
من نمّ لك نمّ عليك، ومن نقل إليك نقل عنك.
من تزيّن بباطل هتك الله ستره.
من كتم سرّه كانت الخيرة في يده.
قال رحمه الله: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.
وقال: من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم.
وقال: ما تقرب ألى الله تعالى بشيء بعد الفرائض أفصل من طلب العلم.
وقال: ما أفلح في العلم إلا من طلبه في القلة ولقد كنت أطلب القرطاس فيعسر علي.
وقال: لا يطلب أحدًا هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح ولكن من طلبه بذلة النفس وضيق العيش وخدمة العلم وتواضع النفس أفلح.
وقال: تفقه قبل أن ترأس فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقه.

وقال: من طلب علمًا فليدقق لئلا يضيع دقيق العلم.

وقال: من لا يحب العلم لا خير فيه ولا يكون بينك وبينه صداقة ولا معرفة.

وقال: زينة العلماء التوفيق وحليتهم حسن الخلق وجمالهم كرم النفس.

وقال: زينة العلم الورع والحلم.

وقال: لا عيب بالعلماء أقبح من رغبهم فيما زهدهم الله فيه وزهدهم فيما رغبتم فيه.

وقال: ليس العلم ما حفظ العلم ما نفع.

وقال: فقر العلماء فقر اختيار وفقر الجهال فقر اضطرار.

وقال: المراء في العلم يقسي القلب ويورث الضغائن.

وقال: الناس في غفلة عن هذه السورة:{إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾} [العصر: ٢].

وقال: الشافعي الظرف الوقوف مع الحق كما وقف.

وقال: ما كذبت قط ولا حلفت بالله صادقًا ولا كاذبًا.

وقال: ما تركت غسل الجمعة في برد ولا سفر ولا غيره.

وقال: ما شبعت منذ ست عشرة سنة إلا شبعة طرحتها من ساعتي.

وقال: من لم تعزه التقوى فلا عز له.

وقال: ما فزعت من الفقر قط.

وقال: طلب فضول الدنيا عقوبة عاقب الله بها أهل التوحيد.

وقيل للشافعي: ما لك تدمن إمساك العصا ولست بضعيف فقال لأذكر أني مسافر يعني في الدنيا.

وقال: من شهد الضعف من نفسه نال الاستقامة

وقال: من غلبته شدة الشهوة لزمته العبودية لأهلها ومن رضي بالقنوع

زال عنه الخضوع

وقال: خير الدنيا والآخرة في خمس خصال غنى النفس وكف الأذى وكسب الحلال ولبس التقوى والثقة بالله عز وجل على كل حال.

وقال: أنفع الذخائر التقوى وأضرها العدوان.

وقال: من أحب أن يفتح الله قلبه أو ينوره فعليه بترك الكلام فيما لا يعنيه واجتناب المعاصي ويكون له خبئة فيما بينه وبين الله تعالى من عمل.

وفي رواية فعليه بالخلوة وقلة الأكل وترك مخالطة السفهاء وبعض أهل العلم الذين ليس معهم إنصاف ولا أدب.

وقال: يا ربيع لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها

وقال ليونس بن عبد الأعلى: لو اجتهدت كل الجهد على أن ترضي الناس كلهم فلا سبيل فاخلص عملك ونيتك لله عز وجل.

وقال: لو أوصى رجل بشيء لأعقل الناس صرف إلى الزهاد.

وقال: سياسة الناس أشد من سياسة الدواب.

وقال: العاقل من عقله عقله عن كل مذموم.

وقال: لو علمت أن شرب الماء البارد ينقص مروءتي لما شربته ولو كنت اليوم ممن يقول الشعر لرثيت المروءة.

وقال: للمروءة أربعة أركان حسن الخلق والسخاء والتواضع والنسك

وقال: المروءة عفة الجوارح عما لا يعنيها.

وقال: أصحاب المروءات في جهد

وقال: من أحب أن يقضي الله له بالخير فليحسن الظن بالناس.

وقال: لا يكمل الرجل في الدنيا إلا بأربع بالديانة والأمانة والصيانة والرزانة.

وقال: أقمت أربعين سنة أسأل إخواني الذين تزوجوا عن أحوالهم في تزوجهم فما منهم أحد قال إنه رأى خيرًا.

وقال: ليس بأخيك من احتجت إلى مداراته وقال: من صدق في أخوة أخيه قبل علله وسد خلله وغفر الله.

وقال: من علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقًا.

وقال: ليس سرور بعدل صحبة الإخوان ولا غم يعدل فراقهم.

وقال: لا تقصر في حق أخيك اعتمادًا على مودته.

وقال: لا تبذل وجهك إلى من يهون عليه ردك وقال: من برك فقد أوثقك ومن جفاك فقد أطلقك.

وقال: من نم لك نم بك ومن إذا أرضيته قال فيك ما ليس فيك وإذا أغضبته قال فيك ما ليس فيك.

وقال: الكيس العاقل هو الفطن المتغافل.

وقال: من وعظ أخاه سرًا فقد نصحه وزانه ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه.

وقال: من سام بنفسه فوق ما تساوي رده الله تعالى إلى قيمته.

وقال: الفتوة حلي الأحرار.

وقال: من تزين بباطل هتك ستره.

وقال: التواضع من أخلاق الكرام والتكبر من شيم اللئام.

وقال: التواضع يورث المحبة والقناعة تورث الراحة.

وقال: أرفع الناس قدرًا من لا يرى قدره وأكثرهم فضلاً من لا يرى فضله.

وقال: إذا كثرت الحوائج فابدأ بأهمها.

وقال: من كتم سره كانت الخيرة في يده.

وقال: الشفاعات زكاة المروءات.

وقال: ما ضحك من خطأ رجل إلا ثبت الله صوابه في قلبه.

وقال: أبين ما في الإنسان ضعفه فمن شهد الضعف من نفسه نال الاستقامة مع الله تعالى.

وقال: قال رجل لأبي بن كعب رضي الله عنه: عظني فقال: واخ الإخوان على قدر تقواهم ولا تجعل لسانك مذلة لمن لا يرغب فيه ولا تغبط الحي الا بما تغبط به الميت.

وقال: من صدق الله نجا ومن أشفق على دينه سلم من الردى ومن زهد في الدنيا قرت عيناه بما يرى من ثواب الله تعالى غدًا.

وقال: كن في الدنيا زاهدًا وفي الآخرة راغبًا واصدق الله تعالى في جميع أمورك تنج غدًا مع الناجين.

وقال: من كان فيه ثلاث خصال فقد أكمل الإيمان من أمر بالمعروف وائتمر به ونهى عن المنكر وانتهى عنه وحافظ على حدود الله تعالى.

وقال لأخ له في الله تعالى يعظه ويخوفه: يا أخي إن الدنيا دحض منزله ودار مذلة عمرانها إلى الخراب صائر وساكنها للقبور زائر شملها على الفرقة موقوف وغناها إلى الفقر مصروف الإكثار فيها اعسار والإعسار فيها يسار فافزع الى الله وارض بزرق الله تعالى ولا تستلف من دار بقائك في دار فنائك فإن عيشك فيء زائل وجدار مائل أكثر من عملك وقصر من أملك.

وقال: أرجى حديث للمسلمين حديث أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال:﴿**إذا كان يوم القيامة دفع الى كل مسلم يهودي او نصراني وقيل يا مسلم هذا فداؤك من النار**﴾ رواه مسلم في صحيحه.

وقال: الاستنباط إلى الناس مجلبة لقرناء السوء والانقباض عنهم مكسبة للعداوة فكن بين المنقبض والمنبسط.

وقال: ما أكرمت أحدًا فوق مقداره إلا اتضع من قدري عنده بمقدار ما زدت في إكرامه.

وقال: لا وفاء لعبد ولا شكر للئيم ولا صنيعة عند نذل.

وقال: صحبة من لا يخاف العار عار يوم القيامة.

وقال: عاشر كرام الناس تعش كريمًا ولا تعاشر اللئام فتنسب إلى اللؤم.

وقال له رجل: أوصني فقال: إن الله تعالى خلقك حرًا فكن حرًا كما خلقك.

وقال من سمع بأذنه صار حاكيًا ومن أصغى بقلبه كان واعيًا ومن وعظ بفعله كان هاديًا.

وقال: من الذل أشياء حضور مجلس العلماء بلا نسخة وعبور الجسر بلا قطعة ودخول الحمام بلا سطل وتذلل الشريف للدنيء لينال منه شيئًا وتذلل الرجل للمرأة لينال من مالها شيئًا ومداراة الأحمق فإن مداراته غاية لا تدرك

وقال: من ولي القضاء ولم يفتقر فهو لص

وقال: لا بأس على الفقيه أن يكون معه سفيه يسافه به.

وقال: إذا أخطأتك الصنيعة إلى من يتقي الله عز وجل فاصطنعها إلى من يتقي العار [1].

من شعر الحكمة للشافعي:

هذه هي الدنيا:

تموت الأسد في الغابات جوعًا ::: ولحم الضأن تأكله الكلاب
وعبد قد ينام على حرير ::: وذو نسب مفارشه التراب

(١) الإمام النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ١ / ٧٤ - ٧٨، عبد الله بن عبد المحسن التركي، مجمل اعتقاد أئمة السلف، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، ١٤١٧هـ ص ٤١ - ٤٦.

دعوة إلى التنقل والترحال:

ما في المقام لذي عقـــل وذي أدب ::: من راحة فدع الأوطان واغتـــرب
سافر تجد عوضًـــا عمـــن تفارقـــه ::: وانْصَبْ فإن لذيذ العيش في النَّصب
إني رأيت ركـــود المـــاء يفســـده ::: إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطـــب
والأسد لولا فراق الغاب ما افترست ::: والسهم لولا فراق القوس لم يصب
والشمس لو وقفت في الفلك دائمة ::: لملَّها الناس من عجم ومن عـــرب
والتِّبرُ كالتُّرب مُلقـــى في أماكنـــه ::: والعود في أرضه نوع من الحطـــب
فإن تغـــرّب هـــذا عَـــزّ مطلبـــه ::: وإن تغرب ذاك عـــزّ كالـــذهب

الضرب في الأرض:

سأضرب في طول البلاد وعرضها ::: أنال مـــرادي أو أمـــوت غريبـــا
فإن تلفت نفســـي فللـــه درهـــا ::: وإن سلمت كان الرجوع قريبـــا

آداب التعلم:

اصبر على مر الجفـــا مـــن معلـــم ::: فإن رســـوب العلـــم في نفراتـــه
ومن لم يذق مـــر الـــتعلم ســـاعة ::: تجرع ذل الجهـــل طـــول حياتـــه
ومن فاته التعلـــيم وقـــت شـــبابه ::: فكـــبر عليـــه أربعًـــا لوفاتـــه
وذات الفتى والله بالعلم والتقـــى ::: إذا لم يكونـــا لا اعتبـــار لذاتـــه

متى يكون السكوت من ذهب:

إذا نطـــق الســـفيه فـــلا تجبـــه ::: فخـــير مـــن إجابتـــه الســـكوت
فـــإن كلمتـــه فرّجـــت عنـــه ::: وإن خليتـــه كمـــدًا يمـــوت

عدو يتمنى الموت للشافعي:

تمنى رجال أن أموت، وإن أمـــت ::: فتلك سبيل لست فيهـــا بأوحـــد
وما موت من قد مات قبلي بضائر ::: ولا عيش من قد عاش بعدي بمخلد
لعل الذي يرجو فنـــائي ويـــدّعي ::: به قبل موتي أن يكون هو الـــردى

لا تيأسن من لطف ربك:

إن كنت تغدو في الذنوب جليـــدا ::: وتخاف في يـــوم المعـــاد وعيـــدا
فلقد أتاك مـــن المهـــيمن عفـــوه ::: وأفاض من نعـــم عليـــك مزيـــدا
لا تيأسن من لطف ربك في الحشا ::: في بطن أمـــك مضـــغة ووليـــدا
لو شاء أن تصلى جهـــنم خالـــدا ::: ما كان أَلْهـــمَ قلبـــك التوحيـــدا

فوائد الأسفار:

تغرب عن الأوطان في طلب العلا ::: وسافر ففي الأسفار خمس فوائـــد
تَفَرُّجُ هم، واكتســـاب معيشـــة ::: وعلم وآداب، وصـــحبة ماجـــد

الوحدة خير من جليس السوء:

إذا لم أجد خـــلا تقيـــا فوحـــدتي ::: ألذ وأشهى من غـــوى أعاشـــره
وأجلس وحـــدي للعبـــادة آمنـــا ::: أقر لعيني مـــن جلـــيس أحـــاذره

أدب المناظرة:

إذا ما كنـــت ذا فضـــل وعلـــم ::: بما اختلـــف الأوائـــل والأواخـــر
فنـــاظر مـــن تنـــاظر في ســـكون ::: حليمًـــا لا تلـــح ولا تكـــابر
يفيدك ما اســـتفادا بـــلا امتنـــان ::: من النكـــت اللطيفـــة والنـــوادر
وإيـــاك اللجـــوج ومـــن يرائـــي ::: بأني قـــد غلبـــت ومـــن يفـــاخر
فـــإن الشـــر في جنبـــات هـــذا ::: يمـــني بالتقـــاطع والتـــدابر

العلم مغرس كل فخر:

العلم مغرس كل فخـــر فـــافتخر ::: واحذر يفوتك فخر ذاك المغـــرس
واعلم بأن العلـــم لـــيس ينالـــه ::: مـــن همـــه في مطعـــم أو ملـــبس
إلا أخو العلم الـــذي يُعـــنى بـــه ::: في حالتيـــه عاريـــا أو مكتســـي
فاجعل لنفسك منه حظًـــا وافـــرًا ::: واهجر له طيب الرقـــاد وعـــبّسِ
فلعل يومًا إن حضـــرت بمجلـــس ::: كنت أنت الرئيس وفخر ذاك المجلسَ

نور الله لا يهدى لعاص:

شكوت إلى وكيع ســـوء حفظـــي ::: فأرشـــدني إلى تـــرك المعاصـــي

وأخـــبرني بـــأن العلـــم نـــور ::: ونــــور الله لا يهــــدى لعـــاص

لمن نعطي رأينا:

ولا تعطين الرأي مـــن لا يريـــده ::: فلا أنت محمود ولا الرأي نافعـــه

الذل في الطمع:

حســـــبي بعلمـــــي إن نفـــــع ::: مـــــا الــــــذل إلا في الطمـــــع!
مـــــن راقـــــب الله رجـــــع ::: مـــــا طـــــار طـــــير وارتفـــــع
إلا كمـــا طـــار وقـــع!

الحب الصادق:

تعصي الإله وأنـــت تظهـــر حبـــه ::: هـــذا محـــال في القيـــاس بـــديع
لو كان حبـــك صـــادقا لأطعتـــه ::: إن المحـــب لمـــن يحـــب مطيـــع
في كـــل يـــوم يبتـــديك بنعمـــة ::: منه وأنت لشكر ذلـــك مضـــيع

فضل التغرب:

ارحل بنفسك من أرض تضام بهـــا ::: ولا تكن من فراق الأهل في حرق
فـــالعنبر الخـــام روث في موطنـــه ::: وفي التغرب محمول علـــى العنـــق
والكحل نوع من الأحجار تنظـــره ::: في أرضه وهو مرمى على الطـــرق
والكحل نوع من الأحجار تنظـــره ::: فصار يحمل بين الجفـــن والحـــدق

أيهما ألذ؟:

سهري لتنقـــيح العلـــوم ألـــذ لي ::: من وصل غانية وطيـــب عنـــاق
وصرير أقلامي علـــى صـــفحاتها ::: أحلى مـــن الـــدَّوْكاء والعشـــاق
وألذ مـــن نقـــر الفتـــاة لـــدفها ::: نقري لألقي الرمل عـــن أوراقـــي
وتمـــايلي طربـــا لحـــل عويصـــة ::: في الدرس أشهى من مدامة ســـاق
وأبيت ســـهران الـــدجى وتبيتـــه ::: نومًا وتبغـــي بعـــد ذاك لحـــاقي

مشاعر الغريب:

إن الغريـــب لــه مخافـــة ســـارق ::: وخضوع مـــديون وذلـــة موثـــق
فـــإذا تـــذكر أهلـــه وبـــلاده ::: ففـــؤاده كجنـــاح طـــير خـــافق

التوكل على الله:

توكلت في رزقي على الله خـــالقي ::: وأيقنت أن الله لا شـــك رازقـــي
وما يك من رزقي فليس يفـــوتني ::: ولو كان في قاع البحار العوامـــق
سيأتي بـــه الله العظـــيم بفضـــله ::: ولو، لم يكن من اللســـان بنـــاطق
ففي أي شيء تذهب النفس حسرة ::: وقد قسم الـــرحمن رزق الخلائـــق

العلم رفيق نافع:

علمي معي حيثما يممـــت يـــنفعني ::: قلبي وعاء له لا بطـــن صـــندوق
إن كنت في البيت كان العلم فيه معي ::: أو كنت في السوق كان العلم في السوق

تول أمورك بنفسك:

ما حـــك جلـــدك مثـــل ظفـــرك ::: فتـــول أنـــت جميـــع أمـــرك
وإذا قصـــــــدت لحاجـــــــة ::: فاقصـــد لمعتـــرف بفضـــلك

فتنة عظيمة:

فســـاد كـــبير عـــالم متـــهتك ::: وأكـــبر منـــه جاهـــل متنســـك
همـــا فتنـــة في العـــالمين عظيمـــة ::: لمـــن بهمـــا في دينـــه يتمســـك

دعوة إلى التعلم:

تعلم فلـــيس المـــرء يولـــد عالمًـــا ::: وليس أخو علم كمن هو جاهـــل
وإن كبير القوم لا علـــم عنـــده ::: صغير إذا التفت عليـــه الجحافـــل
وإن صغير القوم إن كـــان عالمًـــا ::: كـــبير إذا ردت إليـــه المحافـــل

إدراك الحكمة ونيل العلم:

لا يدرك الحكمـــة مـــن عمـــره ::: يكـــدح في مصـــلحة الأهـــل
ولا ينـــال العلـــم إلا فـــتى ::: خـــال مـــن الأفكـــار والشـــغل

لــو أن لقمـــان الحكـــيم الـــذي ::: سارت بـــه الركبـــان بالفضـــل
بُلـــي بفقـــر وعيـــال لمـــا ::: فـــرق بـــين الـــتبن والبقـــل

أبواب الملوك:

إن الملوك بـــلاء حيثمـــا حلـــوا ::: فلا يكن لـــك في أبـــوابهم ظـــل
ماذا تؤمل من قـــوم إذا غضـــبوا ::: جاروا عليك وإن أرضيتهم ملـــوا
فاستعن بالله عن أبـــوابهم كرمـــا ::: إن الوقـــوف علـــى أبـــوابهم ذل

المهلكات الثلاث:

ثـــلاث هـــن مهلكـــة الأنـــام ::: وداعيـــة الصـــحيح إلى الســـقام
دوام مُدامـــــــــــة ودوام وطء ::: وإدخال الطعـــام علـــى الطعـــام

العلم بين المنح والمنع:

أأنثـــر درًا بـــين ســـارحة البـــهم ::: وأنظـــم منثـــورًا لراعيـــة الغـــنم
لعمري لئن ضُيعت في شر بلـــدة ::: فلست مُضيعًا فيهم غـــرر الكلـــم
لـــئن ســـهل الله العزيـــز بلطفـــه ::: وصادفت أهلاً للعلـــوم والحكـــم
بثثت مفيدًا واســـتفدت ودادهـــم ::: وإلا فمكنـــون لـــدي ومُكْتـــتم
ومن منح الجهال علمًـــا أضـــاعه ::: ومن منع المستوجبين فقـــد ظلـــم

العيب فينا:

نعيـــب زماننـــا والعيـــب فينـــا ::: ومـــا لزماننـــا عيـــب ســـوانا
ونهجو ذا الزمـــان بغـــير ذنـــب ::: ولو نطـــق الزمـــان لنـــا هجانـــا
وليس الذئب يأكل لحـــم ذئـــب ::: ويأكـــل بعضـــنا بعضًـــا عيانـــا

يا واعظ الناس عما أنت فاعله:

يا واعظ الناس عما أنـــت فاعلـــه ::: يا من يعد عليه العمـــر بـــالنفس
احفظ لشيبك من عيـــب يدنســـه ::: إن البياض قليل الحمـــل للـــدنس
كحامل لثياب النـــاس يغســـلها ::: وثوبه غارق في الرجس والـــنجس
تبغي النجاة ولم تســـلك طريقتـــها ::: إن السفينة لا تجري على اليـــبس

ركوبك النعش ينسيك الركوب على ::: ما كنت تركب من بغل ومن فرس
يوم القيامــة لا مــال ولا ولــد ::: وضمة القبر تنسي ليلــة العــرس

الصديق الصدوق:

إذا المــرء لا يرعــاك إلا تكلفــا ::: فدعه ولا تكثــر عليــه التأســفا
ففي الناس أبدال وفي الترك راحــة ::: وفي القلب صبر للحبيب وإن جفا
فما كل من تهواه يهــواك قلبــه ::: ولا كل من صافيته لك قد صــفا
إذا لم يكن صفو الــوداد طبيعــة ::: فــلا خــير في ود يجــيء تكلفــا
ولا خير في خــل يخــون خليلــه ::: ويلقاه من بعــد المــودة بالجفــا
وينكر عيشًا قــد تقــادم عهــده ::: ويظهر سرًا كان بالأمس قد خفــا
سلام على الدنيا إذا لم يكــن بهــا ::: صديق صدوق صادق الوعد منصفا

ومن شعر الشافعي:

ومتعب النفس مرتــاح إلى بلــد ::: والموت يطلبــه في ذلــك البلــد
وضاحك والمنايــا فــوق هامتــه ::: لو كان يعلم غيباً مات من كمــد
من كان لم يؤت علماً في بقاء غــد ::: فلا يفكر لما يجــيء بعــد غــد[(١)]

من شعر الشافعي، وهو:

يا راكباً قف بالمحصب مــن مــنى ::: واهتف بقاعد خيفهــا والنــاهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلى مــنى ::: فيضاً كملتطم الفــرات الفــائض
إن كان رفضاً حــب آل محمــد ::: فليشهد الــثقلان أني رافضــي[(٢)]

من شعر الشافعي:

قــد يعســر المــرء في رزقــه ::: ويــرزق الفــاجر والكــافر
ويسلم الأطمــس مــن حفــرةٍ ::: يســقط فيهــا النــاظر الباصــر
ويحفــظ الجاهــل مــن لفظــةٍ ::: يهلــك فيهــا العــالم المــاهر

---

(١) القفطي، المحمدون من الشعراء، ص ٤١.
(٢) الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، ٣٢/٢.

لا يعجب الإنسان من أمره ::: هذا الذي قدّره القادر[١]

ومن شعر الشافعي:

أمتّ مطامعي فأرحت نفسي ::: فإن النفس ما طمعت تهون
وأحييت القنوع وكان ميتاً ::: ففي إحيائه عرضي مصون
إذا طمع يحل بقلب عبد ::: علته مهانة وعلاه هون[٢]

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

ومن منح الجهال علماً أضاعه ::: ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وقيل: ما كل تربية تحتمل القلائد، ولا كل ضريبة تستحق الفوائد.

روي عن الإمام الشافعي رضي الله عنه:

محن الزمان كثيرةٌ لا تنقضي ::: وسرورها يأتيك كالأعياد

وقال:

تأتي المكاره حين تأتي جملةً ::: ونرى السرور يجيء في الفلتات[٣]

ومن شعره:

إذا لم أجد خلاً تقياً فوحدتي ::: ألذ وأشهى من غويّ أعاشره
وأجلس وحدي للسفاهة آمناً ::: أقر لعيني من جليس أحاذره[٤]

و قول الإمام الشافعي:

وأحق خلق الله بالهم امرؤٌ ::: ذو همة يبلى بعيشٍ ضيقِ

و بعده:

فلا ينحلل في المجد ماله كله ::: فينحل نجدٌ كان بالمل عقدهُ
ودبره تدبير الذي المجد كفه ::: إذا حارب الأعداء والمال زندهُ

---

(١) ابن كنان، يوميات شامية، ١ /٤.
(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ٢ / ١٤٧.
(٣) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١ / ١٥، ٤٨٤.
(٤) الوطواط، غرر الخصائص الواضحة، ١ / ٢٥٦،.

فلا مجد في الدنيا لمـــن قـــل مالـــه ::: ولا مال في الدنيا لمن قـــل مجـــدهُ

وقال الإمام الشافعي:

أرى نفســـي تتـــوق إلى أمـــور ::: يقصـــر دون مبلغهـــا مـــالي
فنفســـي لا تطـــاوعني لبخـــلٍ ::: ومـــالي لا يـــبلغني فعـــالي

وقال أيضاً:

يا لهف نفسي علـــى مـــلٍ أفرقـــه ::: على المقلين من أهـــل المـــروءاتِ
إنَّ اعتذاري إلى من جاء يســـألني ::: ما ليس عندي من إحدى المصيباتِ

وقال الإمام الشافعي:

خذوا بدمي ذلك الغـــزال فإنـــه ::: رماني بسهمي مقلتيه علـــى عمـــد
ولا تقتلـــوه أنـــني أنـــا عبيـــده ::: وفي مذهبي لا يقتل الحر بالعبد![1]

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

بلوت بني الـــدنيا فلـــم أر فـــيهم ::: سوى من غدا والبخل ملء إهابـــه
فجردت من غمد القناعة صـــارمًا ::: قطعـــت رجـــائي منـــهم بذبابـــه
فلا ذا يـــراني واقفـــا في طريقـــه ::: ولا ذا يراني قاعـــدًا عنـــد بابـــه
غني بلا مال عن النـــاس كلـــهم ::: وليس الغنى إلا عن الشيء لا بـــه
إذا ظالمًا يستحسن الظلم مـــذهبًا ::: ولج عتـــوًا في قبـــيح اكتســـابه
فكله إلى صـــرف الليـــالي فإنهـــا ::: ستبدي له ما لم يكـــن في حســـابه
فكم قـــد رأينـــا ظالمًـــا متمـــردًا ::: يرى النجم تيها تحت ظل ركابـــه
فعمـــا قليـــل وهـــو في غفلاتـــه ::: أناخت صروف الحادثـــات ببابـــه
فأصبح لا مال ولا جـــاه يرتجـــى ::: ولا حســـنات تلتقـــي في كتابـــه
وجوزي بالأمر الذي كان فـــاعلاً ::: وصب عليه الله ســـوط عذابـــه[2]

(١) اليوسي، زهر الأكم في الأمثال و الحكم، ٢٥٠/١، ٢٦٠.
(٢) الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ١١٧/٢.

وما أحسن قول الإمام الشافعي رضي الله عنه:

خبرت بني الدنيا فلـــم أر منـــهم ::: سوى خادع والخبث حشو إهابـــه
فجردت عن غمد القناعة صـــارمًا ::: قطعـــت رجـــائي منـــهم بذبابـــه
فـــلا ذا يـــراني واقفـــا بطريقـــه ::: ولا ذا يراني قاعـــدًا عنـــد بابـــه
غني بلا مال عن النـــاس كلـــهم ::: وليس الغنى إلا عن الشيء لا به(١)

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

لو أن بالحيـــل الغـــنى لوجـــدتني ::: بنجوم أفـــلاك الســـماء تعلقـــي
لكن من رزق الحجا حرم الغـــنى ::: ضـــدان مفترقـــان أي تفـــرق
فإذا سمعت بـــأن محرومًـــا أتـــى ::: مـــاء ليشـــربه فغـــاص فصـــدق
أو أن محظوظًـــا غـــدا في كفـــه ::: عود فأورق في يديـــه فحقـــق(٢)

ومن شعر الإمام الشافعي:

دَعِ الأيـــامَ تفعـــلُ مـــا تشـــاءُ ::: ولا تجـــزعْ لحادثـــةِ الليـــالي
وكنْ رجلاً على الأهـــوالِ جَلْـــداً ::: وإن كثُرتْ عُيوبُـــكَ في البَرايـــا
تستّـــرْ بالسَّـــخاء فكـــلُّ عيـــب ::: ولا تُـــرِ للأعـــادي قـــطُّ ذُلاً
ولا تَرْجُ السَّـــماحَةَ مـــن بخيـــلٍ ::: ورزقُكَ لَـــيسَ يُنْقِصُـــهُ التـــأنّي
ولا حُـــزنٌ يـــدومُ ولا سُـــرورٌ ::: إذا ما كُنـــتَ ذا قلـــب قنـــوعٍ
ومـــنْ نزلـــتْ بســـاحَتِهِ المنايـــا ::: وأرضُ اللهِ واســـعةٌ ولكـــنْ
دَعِ الأيـــامَ تَغْـــدِرُ كُـــلَّ حـــين ::: وطِبْ نفساً إذا حكـــمَ القضـــاءُ
فمـــا لحـــوادِثِ الـــدنيا بقـــاءٌ ::: وشـــيمتُكَ السَّـــماحةُ والوفـــاءُ
وسَـــرَّكَ أن يكـــونَ لهـــا غِطـــاءُ ::: يُغطيـــهِ كمـــا قيـــلَ السَّـــخاءُ

(١) محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة الثانية ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢، ٢ /٤٢٦.
(٢) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، ٢ /٤٣٥.

فـــإنّ شماتـــةَ الأعـــداء داء ::: فمـــا في النـــارِ للظمـــآنِ مـــاءَ
وليسَ يزيـــدُ في الـــرزقِ العَنَـــاءُ ::: ولا بـــؤسٌ عليـــكَ ولا رَخـــاءُ
فأنـــتَ ومالِـــكُ الـــدنيا سَـــواءُ ::: فـــلا أرضٌ تَقيـــه ولا سَـــماءُ
إذا نزلَ القَضـــا ضـــاقَ الفضـــاءُ ::: فما يُغـــني عـــنِ المَـــوتِ الـــدّواءُ

ومن شعر الإمام الشافعي:

سأكتم علمي عن ذوي الجهل طاقت ::: ولا أنثر الدر النفيس على الغـــنم
فإن يســـر الله الكـــريم بفضـــله ::: وصادفت أهلاً للعلوم وللحكـــم
بثثت مفيداً واســـتفدت ودادهـــم ::: وإلا فمخـــزون لـــدي ومكتـــتم
فمن منح الجهال علمـــاً أضـــاعه ::: ومن منع المستوجبين فقد ظلـــم[(1)]

* * *

(١) كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري، حياة الحيوان الكبرى، ٢ / ٢٥٥.

الإمام أبو حنيفة

الإمام أبو حنيفة

أعـلام الفقهـاء

الإمام أبو حنيفة

هو الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت الفارسي عرف بالإمام الأعظم.

كان جده من أهل كابل قد أسر عند فتح بلاده ثم من عليه. وأبو حنيفة - وإن كان مولى - لم يجر عليه الرق ولا على أبيه بل كان حر النفس أصيلاً ولم يكن نسبه الفارسي غاضًا من قدره في عصر يقدم شرف التقوى على شرف النسب. وكان العلم في عصره أكثره في الموالي [١] فكانوا الوسط العلمي للدولة الإسلامية بعد الصحابة ردحًا طويلاً من الزمن فصدقت فيه نبوءة رسول الله ﷺ :﴿**لو كان العلم بالثريا لتناوله أناس من أبناء فارس**﴾ [٢].

ولد أبو حنيفة رضي الله عنه في الكوفة سنة ثمانين للهجرة على رواية الأكثرين ونشأ وتربى بها وعاش أكثر حياته فيها متعلمًا ومجادلاً ومعلمًا.

ولد أبوه ثابت على الإسلام ويروى أنه التقى بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه صغيرًا فدعا له بالبركة فيه وفي ذريته.

نشأ أبو حنيفة رضي الله عنه في بيت إسلامي خالص وقد ابتدأ حياته تاجرًا ثم لفته الشعبي فقيه الأثر لما لمح فيه من مخايل الذكاء وقوة الفكر إلى الاختلاف إلى العلماء مع التجارة فانصرف إلى العلم دون أن يهمل التجارة.

تثقف أبو حنيفة رضي الله عنه بالثقافة الإسلامية التي كانت في عصره فقد حفظ القرآن على قراءة عاصم ودرس الحديث وعرف قدرًا من النحو والأدب والشعر كما درس علم الكلام وأصول الدين وجادل الفرق المختلفة في مسائل الاعتقاد وما يتصل به ثم عدل إلى الفقه واستمر عليه واستغرق كل مجهوده الفكري وقد ذكر في اختياره للفقه قوله: " كلما قلبته وأدرته لم يزدد إلا جلالة.. ورأيت أنه لا يستقيم أداء الفرائض وإقامة الدين والتعبد إلا

(١) الموالي: اسم أطلقه المؤرخون على غير العرب من المسلمين.
(٢) مسند الإمام أحمد: ج ٢ / ص ٢٩٧.

بمعرفته وطلب الدنيا والآخرة إلا به ".

وقد اتجه أبو حنيفة رضي الله عنه إلى دراسة الفتيا على المشايخ الكبار الذين كانوا في عصره ولزم شيخه حماد بن أبي سليمان مذ كان في الثانية والعشرين من عمره إلى أن مات شيخه وأبو حنيفة رضي الله عنه في الأربعين من عمره.

ومع ملازمة أبي حنيفة رضي الله عنه لشيخه حماد فقد كان كثير الرحلة إلى بيت الله الحرام حاجًا يلتقي في مكة والمدينة بالفقهاء والمحدثين والعلماء يروي عنهم الأحاديث ويذاكرهم الفقه ويدارسهم ما عندهم من طرائق.

وكان يتتبع التابعين أينما وحيثما ثقفوا وخصوصًا من اتصل منهم بصحابة امتازوا في الفقه والاجتهاد وقد قال في ذلك: " تلقيت فقه عمر وفقه عبد الله بن مسعود وفقه ابن عباس عن أصحابهم ".

وقد جلس الإمام أبو حنيفة في الأربعين من عمره في مجلس شيخه حماد بمسجد الكوفة وأخذ يدارس تلاميذه ما يعرض له من فتاوى وما يبلغه من أقضية ويقيس الأشباه بأشباهها والأمثال بأمثالها بعقل قوي مستقيم ومنطق قويم حتى وضع تلك الطريقة الفقهية التي اشتق منها المذهب الحنفي

وكان أبو حنيفة رضي الله عنه بالغ التدين شديد التنسك عظيم العبادة صائمًا بالنهار قائمًا بالليل تاليًا لكتاب الله خاشعًا دائبًا في طاعة الله قام الليل ثلاثين سنة وكان القرآن الكريم ديدنه وأنيسه

كان كثير البكاء يرحمه جيرانه لكثرة بكائه كثير الحياء جم الأدب وخاصة مع شيوخه بارًا بوالديه يدعو لهما في كل صلاة ويتصدق عنهما.

كان كثير الورع يقول: " لو أن عبدًا عبد الله تعالى حتى صار مثل هذه السارية ثم إنه لا يدري ما يدخل في بطنه حلال أو حرام ما تقبل منه ". ولذا كان شديد الحرج في كل ما تخالطه شبهة الإثم فإن ظن إثمًا أو توهمه

في مال خرج منه وتصدق به على الفقراء والمحتاجين وقد تصدق ببضاعته كلها عندما باع شريكه ثوبًا معيبًا دون أن يظهر عيبه.

كان عظيم الأمانة في معاملاته حتى شبهه كثيرون في تجارته بأبي بكر الصديق رضي الله عنه فكان مثلاً كاملاً للتاجر المستقيم كما هو في الذروة بين العلماء. قال فيه معاصره مليح بن وكيع: " كان أبو حنيفة عظيم الأمانة وكان والله في قلبه جليلاً كبيرًا عظيمًا وكان يؤثر رضا ربه على كل شيء ولو أخذته السيوف في الله لاحتمل ".

ومن أخلاقه السماحة والجود فقد كانت تجارته تدر عليه الدر الوفير رغم ورعه واكتفائه من الربح بالقدر اليسير وكان ينفق أكثره على المشايخ والمحدثين اعترافًا بفضل الله عليه فيهم

قال فيه الفضيل بن عياض: " كان أبو حنيفة رجلاً فقيهًا معروفًا بالفقه واسع المال معروفًا بالأفضال على كل من يطيف به صبورًا على تعلم العلم بالليل والنهار حسن الليل كثير الصمت قليل الكلام حتى ترد مسألة في حلال أو حرام فكان يحسن أن يدل على الحق رهابًا من مال السلطان ".

كان رحمه الله واحد زمانه لو انشقت عنه الأرض لانشقت عن جبل من الجبال في العلم والكرم والمواساة والورع والإيثار لله تعالى.

وكان أبو حنيفة رضي الله عنه حريصًا على أن يكون مظهره كمخبره حسنًا فكان كثير العناية بثيابه كثير التطيب حسن الهيئة يحث من يعرفه على العناية بملبسه وسائر مظهره مذكرًا بحديث رسول الله ﷺ :﴿**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**﴾ (١).

عاش أبو حنيفة رضي الله عنه عصرًا مليئًا بالمشاحنات والتيارات فقد أدرك دولتي بني أمية والعباس وكان موقفه واضحًا من كل ما يجري حوله ولم يعرف عنه يومًا أنه خرج مع الخارجين أو ثار مع الثائرين.. لكن لما

(١) الترمذي: ج ٥ / كتاب الزينة باب ٤١ / ٢٨١٩.

طلب منه عمر بن هبيرة والي الأمويين على الكوفة أن يعمل معه امتنع فسجن وعذب ثم هرب ولجأ إلى مكة واتخذها مقامًا ومستقرًا له من سنة (١٣٠ - ١٣٦) للهجرة فعكف على الفقه والحديث يطلبهما بمكة التي ورثت علم ابن عباس رضي الله عنهما.

ولما استتب الأمر للعباسيين عاد إلى الكوفة وأعلن ولاءه لهم وتابع حلقات درسه في مسجد الكوفة. واستمر على ولائه للدولة العباسية إلا أنه على ما يظهر انتقد موقف الخليفة المنصور من بعض آل البيت من أبناء علي رضي الله عنه وكان حول الخليفة كثيرون يحسدون أبا حنيفة - رضي الله عنه - ويوغرون صدر المنصور عليه فكان أن عرض عليه الخليفة المنصور منصب القضاء امتحانًا لإخلاصه فاعتذر الإمام عن قبول المنصب تحرجًا من الوقوع في الإثم لأنه يرى القضاء منصبًا خطيرًا لا تقوى نفسه على احتماله وتعرض لمحنة قاسية بسبب رفضه إذ وجد الخليفة المنصور الفرصة مواتية للنيل منه فسجن وعذب ثم أخرج من السجن على أن يفتي فكان يرجع المسائل ولا يفتي فيها بشيء فسجن من جديد ثم أخرج ومنع من الفتوى والناس والخروج من المنزل فكانت تلك حاله إلى أن توفي رحمه الله سنة (١٥٠) للهجرة على أصح الأقوال. وقيل إنه مات مقتولاً بالسم في سجنه رحمه الله.

وكان قد أوصى أن يدفن بأرض الخيزران فحمل إليها. وقدر عدد من شيع جنازته وصلى عليها بخمسين ألفا. وقد صلى المنصور نفسه عليها إقرارا منه بعظمة دينه وتقواه وقال: من يعذرني منك حيًا وميتًا؟ رحم الله الإمام.

منزلته العلمية ومصادر علمه:

كان الإمام أبو حنيفة فقيهًا مستقلاً قد سلك في تفكيره مسلكًا استقل به وتعمق فيه. وقد بقيت أصوات الثناء تتجاوب في الأجيال تعطر سيرته قال أحد العلماء: " أقمت على أبي حنيفة خمس سنين فما رأيت أطول منه صمتًا فإذا سئل عن شيء من الفقه تفتح وسال كالوادي وسمعت له دويًا وجهارة

بالكلام ". كما وصفه معاصره الورع التقي عبد الله بن المبارك بأنه مخ العلم فهو قد أصاب من العلم اللباب ووصل فيه إلى أقصى مداه وكان يستبطن المسائل ويستكنه كنهها ويتعرف أصولها ويبني عليها. ولقد شغل عصره بفكره وعلمه ومناظراته فهو بين المتكلمين يناقشهم ويدفع أهواء ذوي الأهواء ويناقش الفرق المختلفة وله رأي في مسائل علم الكلام أثر عنه بل هناك رسائل نسبت إليه وله في الفقه والتخريج وفهم الأحاديث واستنباط علل أحكامها والبناء عليها المقام الأعلى حتى إن بعض معاصريه قال: " إنه لم يعرف أحدا أحسن فهما للحديث منه ".

من أين جاء لأبي حنيفة رضي الله عنه كل هذا العلم؟ ما مصادره؟ ما مهيئاته؟ ما الذي توافر له حتى كان منه ما رواه تاريخ العالم الإسلامي؟

لقد تهيأ لتوجيه أبي حنيفة رضي الله عنه توجيهًا علميًا ولنبوغه في وجهته أمور أربعة أولها: صفاته التي جبل عليها ثانيها: شيوخه الموجهون الذين التقى بهم وأثروا فيه ثالثها: حياته الشخصية وتجاربه ورابعها: العصر الذي أظله والبيئة الفكرية التي عاش فيها.

اتصف أبو حنيفة رضي الله عنه بصفات جعلته في الذروة بين العلماء صفات العالم الحق الثبت الثقة البعيد المدى في تفكيره المتطلع إلى الحقائق الحاضر البديهة الذي تسارع إليه الأفكار

كان رضي الله عنه ضابطًا لنفسه مستوليًا على مشاعره لا تعبث به الكلمات العارضة ولا تبعده عن الحق العبارات النابية كان يقول: " اللهم من ضاق بنا صدره فإن قلوبنا قد اتسعت له ". وقد أوتي استقلالاً في تفكيره جعله لا يخضع في رأيه إلا لنص من كتاب أو سنة أو فتوى صحابي ولم يؤثر فيه الحب والبغض.

كان عميق الفكرة بعيد الغور في المسائل لا يكتفي بالبحث في ظواهر الأمور والنصوص ولا يقف عند ظاهر العبارة بل يسير وراء مراميها

البعيدة أو القريبة ولعل ذلك العقل الفلسفي المتعمق هو الذي دفعه لأن يتجه أول حياته إلى علم الكلام كما دفعه لدراسة الحديث دراسة متعمقة يبحث عن علل ما اشتمل عليه من أحكام مستعينا بإشارات الألفاظ ومرامي العبارات.

كان حاضر البديهة لا تحتبس فكرته ولا يفحم في جدال واسع الحيلة يعرف كيف ينفذ إلى ما يفحم به خصمه من أيسر السبل وله في ذلك غرائب ومدهشات حتى قيل فيه: إنه لو أراد أن يثبت الحكم وعكسه لما أعجزه ذلك.

كان مخلصًا في طلب الحق مما نور قلبه وأضاء بصيرته فكان لا يهمه إلا الحق سواء كان غالبًا أو مغلوبًا. وكان لإخلاصه لا يفرض في رأيه أنه الحق المطلق بل يقول: " قولنا هذا رأي وهو أحسن ما قدرنا عليه فمن جاء بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا ".

هذه جملة الصفات التي جعلت من أبي حنيفة رضي الله عنه فقيهًا انتفع بكل غذاء روحي وصل إليه كما التقى الإمام أبو حنيفة بعدد من الذين عمروا من الصحابة منهم أنس بن مالك وعبد الله بن أبي أوفى وسهل بن سعد رضوان الله عليهم ولكنه لم يرو عنهم إذ كان في سن لقائه بهم صغيرًا ولكن أجمع العلماء على أنه التقى بكبار التابعين وجالسهم ودارسهم وروى عنهم وتلقى فقههم

وقد قال: " كنت في معدن العلم والفقه فجالست أهله ولزمت فقيهًا من فقهائهم ".

وهذا يدل على أنه عاش في وسط علمي وجالس العلماء وعرف مناهج بحثهم ثم اختار من بينهم فقيهًا وجد فيه ما يرضي نزوعه العلمي وهو حماد ابن أبي سليمان الذي انتهت مشيخة الفقه العراقي في عصره فلزمه ثماني عشرة سنة. وكان حماد قد تلقى معظم فقهه على إبراهيم النخعي فقيه الرأي

كما تلقى عن الشعبي فقيه الأثر وهما اللذان انتهى إليهما فقه الصحابيين الجليلين عبد الله بن مسعود وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما وكانا قد أقاما بالكوفة وأورثا أهلها تراثًا فقهيًا عظيمًا.

ومن شيوخه عطاء بن أبي رباح الذي أخذ خلاصة علم ابن عباس رضي الله عنهما عن مولاه عكرمة. وكان أبو حنيفة رضي الله عنه يلازمه ما دام مجاورًا لبيت الله الحرام.

ومنهم نافع مولى ابن عمر رضي الله عنهما وقد أخذ عنه أبو حنيفة رضي الله عنه علم ابن عمر وعلم عمر رضي الله عنهما. وهكذا اجتمع للإمام أبي حنيفة علم عمر وعلي وابن عباس وابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهم عن طريق من تلقى عنهم من تابعيهم رضي الله عنهم أجمعين.

ولم يقتصر الإمام أبو حنيفة على الأخذ عن هؤلاء الفقهاء بل تجاوز ذلك إلى أئمة آل البيت فأخذ عنهم ودارسهم منهم الإمام زيد بن علي زين العابدين ومحمد الباقر وجعفر الصادق وعبد الله بن الحسن بن الحسن.

ولم يكن اتصال أبي حنيفة رضي الله عنه العلمي مقصورًا على رجال الجماعة وأئمة آل البيت بل اتصل بمختلف الفرق وتعرف على آرائهم وأقوالهم فكان يأخذ من كل هذه العناصر ثم يخرج منها بفكر جديد ورأي قويم لم يكن من نوعها وإن كان فيه خيرها

وهكذا نستطيع أن نقول إنه تلقى فقه الجماعة الإسلامية بشتى منازعها وإن كان قد غلب عليه تفكير أهل الرأي بل عد شيخ أهل الرأي.

كما كانت حياة الإمام أبي حنيفة ودراساته وتجاربه تتجه به نحو تكوين فقيه العراق الأول.

فقد زاول التجارة وكان عليمًا بأحوال البيع والعرف التجاري مما جعله يتكلم في معاملات الناس وأحكامها كلام الخبير الفاهم فجعل للعرف مكانًا في تخريجه الفقهي وأحسن التخريج بالاستحسان عندما يكون في القياس

منافاة للمصلحة أو العدالة.

كما كان كثير الرحلة إلى الحج وغيره يلتقي بالعلماء يدارس ويذاكر ويناظر ويروي ويفتي. هذا إلى ما تفيده الرحلات نفسها من فتق للذهن ومعرفة بمواطن الوحي والبلاد المختلفة فيحيط خبرًا بمعاني الآثار ودقائق الأخبار ويحسن التفريع في المسائل الفقهية ويحكم تصورها والإلمام بأحكامها.

وقد كان أبو حنيفة رضي الله عنه مغرمًا بالجدل والمناظرة منذ شب في طلب العلم ومجادلته في العقائد أرهفت تفكيره وعمقت مداركه ومناظراته في الفقه أطلعته على أحاديث وأوجه للقياس وفتاوى للصحابة لم يكن مطلعًا عليها.

وطريقة الإمام أبي حنيفة الخاصة في التدريس جعلت درسه مجالاً لتثقيف المعلم والمتعلم معًا فقد كان يطرح الفكرة ويناقشها مع تلاميذه كل يدلي برأيه مخالفًا أو موافقًا وبعد تقليب النظر يدلي هو بالرأي الذي تنتجه هذه الدراسة فيقر الجميع به. وهذا جعل علمه في نمو متواصل وفكره في تقدم مستمر.

وأدرك الإمام أبو حنيفة العصر الأموي في عنفوانه وقوته ثم في تحدره وانهياره وأدرك الدولة العباسية في نشأتها قوية ظافرة ناهضة مسيطرة.

وعاش أبو حنيفة رضي الله عنه في العصر الأموي اثنتين وخمسين سنة وهي السن التي تربى فيها وبلغ أشده ثم بلغ أوجه العلمي ونضجه الفكري الكامل. ولم يدرك من العصر العباسي إلا ثماني عشرة سنة وكانت عاداته الفكرية ومناهجه العلمية قد استقامت وصار ينتج الكثير ولا يأخذ إلا القليل. وعلى هذا فما أخذه الإمام أبو حنيفة من عصره كان أكثره من الأموي وأقله من العباسي وكان العصر العباسي نموًا لما في العصر الأموي ونتائج لمقدمات بدأت قبله.

وقد أغنت الحياة السياسية الحافلة بالصراعات والاتجاهات والحياة الاجتماعية التي ضمت عناصر مختلفة لكل منها طابع خاص رغم أنها انصهرت جميعها في بوتقة الإسلام والمشاغل الفكرية في أمور العقيدة وما نشأ عنها من فرق ونحل وازدهار حركة الترجمة عن الفكر اليوناني والفارسي والهندي وتفرغ العلماء للخوض في علوم الدين الذي أثمر حركة التدوين للحديث وكثرة المناظرات والرحلات العلمية. أغنت هذه الأجواء السياسية والاجتماعية والفكرية والعلمية مدارك الفقهاء وساعدت في تفتق أذهان العلماء وأوجدت مناخًا ملائمًا ساعد في استخراج المسائل وفي فرض الفروض والتصورات.

وكان أبو حنيفة رضي الله عنه أشهر فقهاء الرأي كما كان مالك أشهر فقهاء الحديث. ويقصد بالرأي: كل ما يفتي فيه الفقيه في الأمور التي لا يجد فيها نصًا ويعتمد في فتواه على ما عرف من الدين بروحه العامة أو ما يتفق مع أحكامه في جملتها في نظر المفتي أو ما يكون مشابهًا لأمر منصوص عليه فيها فيلحق الشبيه بالشبيه. وعلى ذلك يكون الرأي شاملاً للقياس والاستحسان والمصالح المرسلة والعرف.

وأساس الاختلاف بين أهل الرأي وأهل الحديث ليس في الاحتجاج بالسنة بل في أمرين: في الأخذ بالرأي وفي تفريغ المسائل تحت سلطانه. فقد كان أهل الحديث لا يأخذون بالرأي إلا اضطرارًا ولا يفرغون المسائل فلا يستخرجون أحكامًا لمسائل لم تقع بل لا يفتون إلا فيما يقع من الوقائع. أما أهل الرأي فيكثرون في الإفتاء بالرأي ما دام لم يصح لديهم حديث في ذلك الموضوع الذي يجتهدون فيه ولا يكتفون باستخراج أحكام المسائل الواقعة بل يفرضون مسائلاً غير واقعة ويضعون لها أحكامًا بآرائهم. وكان أكثر أهل الحديث بالحجاز لأنه موطن الصحابة الأول ومكان الوحي ولأن التابعين الذين أقاموا فيه تخرجوا على صحابة لم يكثروا من الرأي. وأكثر أهل الرأي كانوا بالعراق لأنهم تخرجوا على ابن مسعود رضي الله عنه

وهو ممن كانوا يتحرجون في الرواية عن رسول الله ﷺ ولا يتحرج في الاجتهاد برأيه ولأن العراق كان موطنًا لفلسفات وعلوم مدارس قديمة كما أن أسباب الرواية لم تتوافر عند أهله.

وقد عرف أبو حنيفة رضي الله عنه باتجاهه إلى الفرض والتقدير فكان يقدر مسائل لم تقع ويبين حكمها ويوضح أدلتها ويقول في ذلك: " إنا نستعد للبلاء قبل نزوله فإذا ما وقع عرفنا الدخول فيه والخروج منه ".

وهكذا زاد أبو حنيفة رضي الله عنه الفقه التقديري نموًا وأكثر فيه وسلك الفقهاء من بعده مسلك الفرض والتقدير واختلفوا في المقدار.

ذكر العلماء مسندًا من الأحاديث والآثار منسوبًا إلى أبي حنيفة رضي الله عنه ولكن أكثر الآراء على أن أبا حنيفة رضي الله عنه لم يدون في الفقه كتابًا مبوبًا فقد كان المعروف أن تلاميذه يدونون آراءه ويقيدونها وربما كان ذلك بإملائه أحيانًا وكان هو يراجع ما دون أحيانًا ليقره أو ليغيره. وكان في جلساته الفقهية مع تلاميذه يلقي مسألة مسألة يقلبها ويسمع ما عندهم ويقول ما عنده ويناظرهم حتى يستقر أحد الأقوال فيها ثم يثبتها أبو يوسف في الأصول حتى أثبت الأصول كلها. وبهذا النحو من التحرير دون مذهب الإمام أبي حنيفة وأصحابه ونشره أصحابه كتبًا مبوبة مرتبة منظمة.

وكانت الأقوال التي نقلها أصحاب الإمام أبي حنيفة خالية من الدليل إلا ما يكون من أثر منقول أو خبر مشهور أو اعتماد على فتوى صحابي أو انتهاء إلى رأي تابعي وقليلاً ما يذكر قياسها أو عماد استحسانها اللهم إلا ما كتب أبي يوسف ولا تحكي إلا القليل. ولا شك أن ذلك يبعد بنا عن معرفة الإمام أبي حنيفة القياس صاحب الاستحسان الذي عد أقوى قائس في عصره فلم يجرؤ أحد على منازعته في القياس إذا قايس أو استحسن.

وإذا كانت الطبقة التي وليت أصحاب أبي حنيفة رضي الله عنه قد عنيت بالاستدلال واستخراج الأقيسة في الأحكام وبيان أوجه الاستحسان وأحكام

العرف فإننا لسنا على ثقة كاملة من أن هذا الاستدلال الذي يسوقونه هو نفس ما كان يفكر فيه الإمام أبو حنيفة وما اهتدى على ضوئه إلى ما قرره من أحكام.

كان لأبي حنيفة رضي الله عنه تلاميذ كثيرون منهم من كان يرحل إليه ويستمع أمدًا ثم يعود إلى بلده بعد أن يأخذ طريقه ومنهاجه ومنهم من لازمه. وقد قال هو في أصحابه الذين لازموه: " هؤلاء ستة وثلاثون رجلاً منهم ثمانية وعشرون يصلحون للقضاء وستة يصلحون للفتوى واثنان أبو يوسف وزفر يصلحان لتأديب القضاة وأرباب الفتوى ".

ولا شك أن هؤلاء الصحاب الذين يقرر أبو حنيفة رضي الله عنه صلاحيتهم للقضاء والإفتاء وتأديب القضاة كانوا في حياته من النضج العلمي بحيث يمكن أن تعهد إليهم هذه الأمور الخطيرة وكانوا في سن تؤهلهم لها. أما محمد بن الحسن فقد كان في الثامنة عشر من عمره حينما توفي أبو حنيفة رحمه الله ولم تكن سنه تؤهله للقضاء مع أننا سنجد فقه أبي حنيفة - رضي الله عنه - خاصة وفقه العراقيين عامة مدين لمحمد بن الحسن بكتبه فهي التي حفظته وأبقته للأخلاف مرجعًا يرجع إليه ومنهلاً يستقى منه.

قد أضفت خدمة تلاميذ الإمام أبي حنيفة لمذهبه وعنايتهم بذلك جلالاً على المذهب وإمامه. وسنخص بالذكر بعض أصحابه ممن كان لهم أثر في نقل فقهه إلى الأجيال اللاحقة.

أبو يوسف (١١٣ – ١٨٢ هـ):

وهو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري نسبًا والكوفي منشأ وتعلمًا ومقامًا. نشأ فقيرًا تضطره الحاجة للعمل ثم أمده الإمام أبو حنيفة بالمال فانصرف إلى طلب العلم. جلس إلى ابن أبي ليلى الفقيه قبل أن يجلس إلى أبي حنيفة رضي الله عنه ثم انقطع إليه مع اتصاله بالمحدثين. وكان فقيهًا

عالمًا حافظًا كثير الحديث عد أحفظ أصحاب الإمام أبي حنيفة للحديث. ولي القضاء لثلاثة من الخلفاء العباسيين: المهدي والهادي ثم الرشيد الذي كانت له عنده مكانة وحظوة.

وقد استفاد الفقه الحنفي من أبي يوسف فوائد جليلة إذ أن اختباره للقضاء جعله يصقل المذهب صقلاً علميًا بسبب اطلاعه على الشؤون العامة ومشاكل الناس فأصبح قياسه واستحسانه مشتقًا من الحياة العملية لا من الفروض النظرية فقط. وقد استمد المذهب الحنفي نفوذًا مكينًا بتولي أبي يوسف القضاء وكونه القاضي الأول للدولة.

ولعل أبا يوسف أول فقهاء الرأي الذين دعموا آراءهم بالحديث وبذلك جمع بين طريقة أهل الرأي وطريقة أهل الحديث

ولأبي يوسف كتب كثيرة دون فيها آراءه وآراء شيخه منها كتاب الآثار وكتاب أبي حنيفة وابن أبي ليلى وكتاب الرد على سير الأوزاعي وغيرها. وفي كتبه جمال في التعبير ووضوح وجزالة ودقة قياس وإحكام فكر إلى جانب بعض الأدلة الفقهية المصورة لاتجاه الإمام أبي حنيفة في تفكيره.

محمد بن الحسن الشيباني (١٣٢ - ١٨٩ هـ):

يكنى أبا عبد الله وينتسب إلى شيبان بالولاء. كانت سنه عند موت الإمام أبي حنيفة ثماني عشرة سنة فلم يتلق عنه أمدًا طويلاً ولكنه أتم دراسته لفقه العراق الذي صقله القضاء على أبي يوسف كما تلقى فقه الحجاز عن مالك رضي الله عنه وروايته للموطأ من أجود الروايات وتلقى فقد الشام عن الأوزاعي.

وكانت له قدرة ومهارة في التفريع والتخريج بالإضافة إلى درايته الواسعة البالغة في الأدب وامتلاكه أعنة البيان. قال فيه الشافعي: " كان محمد بن الحسن يملأ العين والقلب وكان أفصح الناس إذا تكلم خيل إلى سامعه أن القرآن نزل بلغته ". وقد تمرس بالقضاء أيضًا مما أفاده علما وتجربة

وقرب فقهه من الناحية العملية التي لا تقتصر على التصور والنظر المجرد. وكان عنده اتجاه إلى التدوين فهو يعد بحق ناقل فقه العراقيين إلى الأخلاف وتعد كتبه المرجع الأول لفقه أبي حنيفة رضي الله عنه سواء في ذلك ما كان بروايته عن أبي يوسف ومراجعته عليه وما كان قد دونه من فقه أهل العراق وتلقاه عن أبي يوسف وغيره.

وأهم كتبه: المبسوط والزيادات والجامع الصغير والسير الصغير والسير الكبير والجامع الكبير وتسمى الأصول وسميت كتب ظاهر الرواية لأنها رويت عن محمد برواية الثقات فهي ثابتة عنه إما متواترة أو مشهورة. ومن كتبه أيضًا كتاب الآثار الذي جمع فيه الأحاديث والآثار التي رواها أبو حنيفة رضي الله عنه وهو يتلاقى في كثير من مروياته مع كتاب الآثار لأبي يوسف وكلاهما يعد مسندًا لأبي حنيفة رضي الله عنه وقد جمعا بعناوين فقهية مرتبة. وهذه الكتب هي عماد النقل في الفقه الحنفي وتعد الأصل الذي يرجع إليه في فقه الإمام أبي حنيفة وأصحابه.

زفر بن هذيل (١١٠ - ١٥٨ هـ):

وهو أقدم صحبة لأبي حنيفة رضي الله عنه من صاحبيه أبي يوسف ومحمد. كان ذكيًّا قوي الحجة أخذ عن الإمام أبي حنيفة فقه الرأي وكان أحد أصحابه قياسًا. ليس له كتب بل عمل على نشر آراء أبي حنيفة رضي الله عنه بلسانه في مناظراته الفقهية مع علماء البصرة وكان قد تولى قضاءها في حياة شيخه. وقد خلف زفر أبا حنيفة رضي الله عنه في حلقته ثم خلفه من بعده أبو يوسف.

المذهب الحنفي وانتشاره:

المذهب الحنفي الذي تلقته الأجيال وخرج العلماء المسائل على ما استنبط من أصوله هو مدرسة فقهية تجمع آراء الإمام أبي حنيفة واجتهاداته إلى أقوال واجتهادات أصحابه وتلاميذه وبعض معاصريه كما تضم ما أضافه فقهاء آخرون تبنوا المذهب وساروا على نفس أصوله وإن لم يعاصروا شيخه. فكان لاختلاط الرواية عن الإمام أبي حنيفة بالرواية عن غيره ولاتحاد الأصول أثر في مزج الآراء وجعل مجموعها مذهبا واحدا.

وقد نشأ المذهب في موطن الإمام في الكوفة ثم تدارسه العلماء ببغداد بعد وفاة شيخه ثم شاع وانتشر في أكثر البقاع الإسلامية فكان في العراق ثم في مصر والشام وبلاد الروم وما وراء النهر ثم اجتاز الحدود فكان في الهند والصين حيث لا منافس له ولا مزاحم ويكاد يكون المنفرد في تلك الأصقاع النائية إلى الآن إذ المسلمون في الهند والصين يسيرون في عبادتهم وفي تنظيم أسرهم عليه دون سواه.

وقد ابتدأ ينال المنزلة الرسمية التي يسرت له الانتشار منذ أن ولي أبو يوسف منصب القضاء للرشيد ثم صار قاضي القضاة فكان لا يعين قاضيًا في البلاد الإسلامية من أقصى المشرق إلى شمالي إفريقية إلا أن يكون حنفيًا. فكان المذهب الحنفي المذهب الرسمي للدولة وفي عهد العباسيين ثم العثمانيين.

وإذا كان انتشار المذهب الحنفي في أول الأمر بسبب اختيار الخلفاء للقضاة من أئمته فقد اكتسب نفوذًا قويًا بسبب إلف الناس له ونشاط العلماء والمناظرات فيه. كما أن طبيعة المذهب المرنة جعلته قابلاً لكل الأزمنة ملائمًا لكل الظروف والبيئات.

مواقف من حياة الإمام أبي حنيفة:

تزببت قبل أن تحصرم

لما جلس أبو يوسف رحمه الله تعالى للتدريس من غير إعلام أبي حنيفة رحمه الله فأرسل إليه أبو حنيفة رحمه الله رجلاً فسأله عن خمس مسائل: الأولى: قصار جحد الثوب وجاء به مقصورًا هل يستحق الأجرة أم لا؟ فأجاب أبو يوسف رحمه الله: لا يستحق الأجر فقال له الرجل: أخطأت فقال: لا يستحق فقال: أخطأت ثم قال له الرجل: إن كانت القصار قبل الجحود استحق وإلا لا.

الثانية: هل الدخول في الصلاة بالفرض أم بالسنة فقال: بالفرض فقال:

أخطأت. فقال: بالسنة فقال: لا أخطأت. فتحير أبو يوسف رحمه الله. فقال الرجل: بهما لأن التكبير فرض ورفع اليدين سنة.

الثالثة: طير سقط في قدر على النار فيه لحم ومرق: هل يأكلان؟ أم لا؟ فقال: يؤكل. فخطأه فقال: لا يؤكل فخطأه ثم قال: إن كان اللحم مطبوخًا قبل سقوط الطير يغسل ثلاثًا ويؤكل وترمى المرقة وإلا يرمى الكل له.

الرابعة: مسلم له زوجة ذمية ماتت وهي حامل منه تدفن في أي المقابر فقال أبو يوسف رحمه الله: في مقابر المسلمين فخطأه فقال: في مقابر أهل الذمة فخطأه فتحير أبو يوسف.

فقال الرجل: تدفن في مقابر اليهود ولكن يحول وجهها عن القبلة حتى يكون وجه الولد إلى القبلة لأن الولد في البطن يكون وجهه إلى ظهر أمه.

الخامسة: أم ولد لرجل تزوجت بغير إذن مولاها فمات المولى هل تجب العدة من المولى فقال: تجب فخطأه ثم قال: لا تجب فخطأه ثم قال الرجل: إن كان الزوج دخل بها: لا تجب وإلا: وجبت فعلم أبو يوسف تقصيره فعاد إلى أبي حنيفة رحمه الله فقال: تزببت قبل أن تحصرم.

من ظن أنه يستغني عن التعلم فليبك على نفسه:
وفي مناقب الكردري: أن سبب انفراده أنه مرض مرضًا شديدًا فعاده الإمام وقال: لقد كنت آملك بعدي للمسلمين ولئن أصبت ليموتن علم كثير فلما برأ أعجب بنفسه وعقد له مجلس الأمالي وقال له حين جاء: ما جاء بك إلا مسألة القصار سبحان الله من رجل يتكلم في دين الله ويعقد مجلسًا لا يحسن مسألة في الإجارة: ثم قال: من ظن أنه يستغني عن التعلم فليبك على نفسه انتهى.

خدعتني امرأة وفقهتني امرأة وزهدتني امرأة:
وفي مناقب الكردري: قال الإمام الأعظم رحمه الله: خدعتني امرأة وفقهتني امرأة وزهدتني امرأة

أما الأولى: قال: كنت مجتازًا فأشارت إلي امرأة إلى شيء مطروح في الطريق فتوهمت أنها خرساء وأن الشيء لها فلما رفعته إليها قالت: احفظه حتى تسلمه لصاحبه.

الثانية: سألتني امرأة عن مسألة في الحيض فلم أعرفها فقالت قولاً تعلمت الفقه من أجله.

الثالثة: مررت ببعض الطرقات فقالت امرأة: هذا الذي يصل الفجر بوضوء العشاء فتعمدت ذلك حتى صار دأبي.

لا أرجو الجنة ولا أخاف النار:
وسئل الإمام رحمه الله تعالى عمن قال: أرجو الجنة ولا أخاف النار ولا أخاف الله تعالى وآكل الميتة وأصلي بلا قراءة وبلا ركوع وسجود وأشهد بما لم أره وأبغض الحق وأحب الفتنة فقال أصحابه: أمر هذا الرجل مشكل.

فقال الإمام: هذا الرجل يرجو الله لا الجنة ويخاف الله لا النار ولا يخاف الظلم من الله تعالى في عذابه ويأكل السمك والجراد ويصلي على الجنازة ويشهد بالتوحيد ويبغض الموت وهو حق ويحب المال والولد وهما فتنة له.

فقام السائل وقبل رأسه وقال: أشهد أنك للعلم وعاء.

حكاية الإمام مع قتادة: في امرأة المفقود

لا أجيبكم بشيء:

قدم قتادة الكوفة فاجتمع عليه الناس فقال: سلوني عن الفقه فقال الإمام: ما تقول في امرأة المفقود فقال: قول عمر رضي الله تعالى عنه تتربص أربع سنين ثم تعتد عدة الوفاة وتتزوج بما شاءت له قال: فإن جاء زوجها الأول وقال: تزوجت وأنا حي وقال الثاني: تزوجتني ولك زوج أيهما يلاعن؟ فغضب قتادة وقال: لا أجيبكم بشيء.

أول مسألة خالف فيها أستاذه:

قال الإمام: خرجنا مع حماد نشيع لأعمش وأعوز الماء لصلاة المغرب فأفتى حماد بالتيمم لأول الوقت فقلت: يؤخر إلى آخر الوقت فإن وجد الماء وإلا يتيمم ففعلت فوجد في آخر الوقت وهذه أول مسألة خالف فيها أستاذه.

جارة لها غلام:

وكان للإمام جارة لها غلام أصاب منها دون الفرج فحبلت فقال أهلها له: كيف تلد وهي بكر فقال: هل لها أحد تثق به قالوا: عمتها فقال: تهب الغلام منها ثم تزوجها منه فإذا أزال عذرتها ردت الغلام إليها فيبطل النكاح.

حكاية النسوة يغنين:

وخرج الإمام إلى بستان فلما رجع مع أصحابه إذ هو بابن أبي ليلى راكبًا على بغلته فتسايرا فمرا على نسوة يغنين فسكتن فقال الإمام: أحسنتن فنظر ابن أبي ليلى في قمطره فوجد قضية فيها شهادته فدعاه ليشهد في تلك القضية فلما شهد أسقط شهادته وقال: قلت للمغنيات: أحسنتن فقال: متى قلت ذلك حين سكتن أم حين كن يغنين قال: حين سكتن قال: أردت بذلك: أحسنتن بالسكوت فأمضى شهادته.

حكاية الأختين والأخوين وإفتاء الإمام:

و كان أبو حنيفة رحمه الله تعالى في وليمة في الكوفة وفيها العلماء والأشراف وقد زوج صاحبها ابنيه من أختين فغلطت النساء فزفت كل بنت إلى غير زوجها ودخل بها فأفتى سفيان بقضاء علي رضي الله عنه: على كل منهما المهر وترجع كل إلى زوجها فسئل الإمام فقال: علي بالغلامين فأتي بهما فقال: أيحب كل منكما أن يكون المصاب عنده قالا: نعم فقال لكل منهما: طلق التي عند أخيك ففعل ثم أمر بتجديد النكاح فقام سفيان فقبله بين عينيه.

كلب الروم والمسائل الثلاث:

وحكى الخطيب الخوارزمي أن كلب الروم أرسل إلى الخليفة مالاً جزيلاً على يد رسوله وأمره أن يسأل العلماء عن ثلاث مسائل فإن هم أجابوك: أبذل لهم المال وإن لم يجيبوك فاطلب من المسلمين الخراج فسأل العلماء فلم يأت أحد بما فيه مقنع وكان الإمام إذ ذاك صبيًا حاضرًا مع أبيه فاستأذنه في جواب الرومي فلم يأذن له فقام واستأذن من الخليفة فأذن له وكان الرومي على المنبر فقال له: أسائل أنت؟ قال: نعم.

قال: انزل مكانك الأرض ومكاني المنبر فنزل الرومي وصعد أبو حنيفة رحمه الله تعالى فقال: سل فقال: أي شيء كان قبل الله تعالى قال: هل تعرف العدد قال: نعم قال: ما قبل الواحد قال: هو الأول ليس قبله شيء قال: إذا لم يكن قبل الواحد المجازي اللفظ شيء فكيف يكون قبل الواحد الحقيقي فقال الرومي: في أي جهة وجه الله تعالى؟ قال: إذا أوقدت السراج فإلى أي وجه نوره قال: ذاك نور يستوي فيه الجهات الأربع فقال: إذا كان النور المجازي المستفاد الزائل لا وجه له إلى جهة فنور خالق السموات والأرض الباقي الدائم المفيض كيف يكون له جهة؟ قال الرومي: بماذا يشتغل وجه الله تعالى قال: إذا كان على المنبر مشبه مثلك نزله وإذا كان على الأرض موحد مثلي رفعه كل يوم هو في شأن فترك المال وعاد

الروم.

وصية الإمام الأعظم لأبي يوسف رحمه الله:

وصية الإمام الأعظم لأبي يوسف رحمه الله بعد أن ظهر له منه الرشد وحسن السيرة والإقبال على الناس فقال له: يا يعقوب وقر السلطان وعظم منزلته وإياك والكذب بين يديه والدخول عليه في كل وقت ما لم يدعك لحاجة علمية فإنك إذا أكثرت إليه الاختلاف تهاون بك وصغرت منزلتك عنده فكن منه كما أنت من النار تنتفع وتتباعد ولا تدن منها فإن السلطان لا يرى لأحد ما يرى لنفسه وإياك وكثرة الكلام بين يديه فإنه يأخذ عليك ما قلته ليرى من نفسه بين يدي حاشيته أنه أعلم منك وإنه يخطئك فتصغر في أعين قومه ولتكن إذا دخلت عليه تعرف قدرك وقدر غيرك.

ولا تدخل عليه وعنده من أهل العلم من لا تعرفه فإنك إن كنت أدون حالاً منه لعلك تترفع عليه فيضرك وإن كنت أعلم منه لعلك تنحط عنه فتسقط بذلك من عين السلطان وإذا عرض عليك شيئًا من أعماله فلا تقبل منه إلا بعد أن تعلم أنه يرضاك ويرضى مذهبك في العلم والقضايا كيلا تحتاج إلى ارتكاب مذهب غيرك في الحكومات ولا تواصل أولياء السلطان وحاشيته بل تقرب إليه فقط وتباعد عن حاشيته ليكون مجدك وجاهك باقيًا.

ولا تتكلم بين يدي العامة إلا بما تسأل عنه وإياك والكلام في العامة والتجار إلا بما يرجع إلى العلم كيلا يوقف على حبك ورغبتك في المال فإنهم يسيئون الظن بك ويعتقدون ميلك إلى أخذ الرشوة منهم ولا تضحك ولا تتبسم بين يدي العامة

ولا تكثر الخروج إلى الأسواق ولا تكلم المراهقين فإنهم فتنة ولا بأس أن تكلم الأطفال وتمسح رؤوسهم ولا تمش في قارعة الطريق مع المشايخ والعامة فإنك إن قدمتهم ازدرى ذلك بعلمك وإن أخرتهم ازدرى بك من حيث إنه أسن منك فإن النبي ﷺ قال:﴿من لم يرحم صغيرنا ولم يوقر كبيرنا فليس منا﴾ ولا تقعد على قوارع الطريق فإذا دعاك ذلك فاقعد في المسجد

ولا تأكل في الأسواق والمساجد ولا تشرب من السقايات ولا من أيدي السقائين ولا تقعد على الحوانيت ولا تلبس الديباج والحلي وأنواع الإبريسم فإن ذلك يفضي إلى الرعونة.

ولا تكثر الكلام في بيتك مع امرأتك في الفراش إلا وقت حاجتك إليها بقدر ذلك.

ولا تكثر لمسها ومسها ولا تقربها إلا بذكر الله تعالى ولا تتكلم بأمر نساء الغير بين يديها ولا بأمر الجواري فإنها تنبسط إليك في كلامك ولعلك إذا تكلمت عن غيرها تكلمت عن الرجال الأجانب.

ولا تتزوج امرأة كان لها بعل أو أب أو أم أو بنت إن قدرت إلا بشرط ألا يدخل عليها أحد من أقاربها فإن المرأة إذا كانت ذات مال يدعي أبوها أن جميع مالها له وأنه عارية في يدها ولا تدخل بيت أبيها ما قدرت.

و إياك أن ترضى أن تزف في بيت أبويها فإنهم يأخذون أموالك ويطمعون فيها غاية الطمع وإياك وأن تتزوج بذات البنين والبنات فإنها تدخر جميع المال لهم وتسرق من مالك وتنفق عليهم فإن الولد أعز عليها منك.

ولا تجمع بين امرأتين في دار واحدة ولا تتزوج إلا بعد أن تعلم أنك تقدر على القيام بجميع حوائجها.

واطلب العلم أولاً ثم أجمع المال من الحلال ثم تزوج فإنك إن طلبت المال في وقت التعلم عجزت عن طلب العلم ودعاك المال إلى شراء الجواري والغلمان وتشتغل بالدنيا والنساء قبل تحصيل العلم فيضيع وقتك ويجتمع عليك الولد ويكثر عيالك فتحتاج إلى القيام بمصالحهم وتترك العلم واشتغل بالعلم في عنفوان شبابك وقت فراغ قلبك وخاطرك ثم اشتغل بالمال ليجتمع عندك فإن كثرة الولد والعيال يشوش البال فإذا جمعت المال فتزوج.

وعليك بتقوى الله تعالى وأداء الأمانة والنصيحة لجميع الخاصة والعامة ولا تستخف بالناس ووقر نفسك ووقرهم ولا تكثر معاشرتهم إلا بعد أن

يعاشروك وقابل معاشرتهم بذكر المسائل فإنه إن كان من أهله اشتغل بالعلم وإن لم يكن من أهله أحبك.

وإياك وأن تكلم العامة بأمر الدين في الكلام فإنهم قوم يقلدونك فيشتغلون بذلك ومن جاءك يستفتيك في المسائل فلا تجب إلا عن سؤاله ولا تضم إليه غيره فإنه يشوش عليك جواب سؤاله

وإن بقيت عشر سنين بلا كسب ولا قوت فلا تعرض عن العلم فإنك إذا أعرضت عنه كانت معيشتك ضنكا وأقبل على متفقهيك كأنك اتخذت كل واحد منهم ابنا وولدا لتزيدهم رغبة في العلم ومن ناقشك من العامة والسوقة فلا تناقشه فإنه يذهب ماء وجهك ولا تحتشم من أحد عند ذكر الحق وإن كان سلطانًا ولا ترض لنفسك من العبادات إلا بأكثر مما يفعله غيرك ويتعاطاها فالعامة إذا لم يروا منك الإقبال عليها بأكثر مما يفعلون اعتقدوا فيك قلة الرغبة واعتقدوا أن علمك لا ينفعك إلا ما نفعهم الجهل الذي هم فيه.

وإذا دخلت بلدة فيها أهل العلم: فلا تتخذها لنفسك بل كن كواحد من أهلهم ليعلموا أنك لا تقصد جاههم وإلا يخرجون عليك بأجمعهم ويطعنون في مذهبك والعامة يخرجون عليك وينظرون إليك بأعينهم فتصير مطعونًا عندهم بلا فائدة وإن استفتوك في المسائل فلا تناقشهم في المناظرة والمطارحات ولا تذكر لهم شيئًا إلا عن دليل واضح ولا تطعن في أساتذتهم فإنهم يطعنون فيك

وكن من الناس على حذر وكن لله تعالى في سرك كما أنت له في علانيتك ولا يصلح أمر العلم إلا بعد أن تجعل سره كعلانيته وإذا أولاك السلطان عملاً لا يصلح لك فلا تقبل ذلك منه إلا بعد أن تعلم أنه إنما لا يوليك ذلك إلا لعلمك وإياك وأن تتكلم في مجلس النظر على خوف فإن ذلك يورث الخلل في الإحاطة والكلل في اللسان.

وإياك أن تكثر الضحك فإنه يميت القلب ولا تمس إلا على طمأنينة ولا تكن عجولاً في الأمور ومن دعاك من خلفك فلا تجبه فإن البهائم تنادى من خلفها وإذا تكلمت فلا تكثر صياحك ولا ترفع صوتك واتخذ لنفسك السكون وقلة الحركة عادة كي يتحقق عند الناس ثباتك.

وأكثر ذكر الله تعالى فيما بين الناس ليتعلموا ذلك منك واتخذ لنفسك أورادًا خلف الصلاة تقرأ فيها القرآن وتذكر الله تعالى وتشكره على ما أودعك من الصبر وأولاك من النعم واتخذ لنفسك أيامًا معدودة من كل شهر تصوم فيها ليقتدي غيرك بك.

وراقب نفسك وحافظ على الغير لتنتفع من دنياك وآخرتك بعلمك ولا تشتر بنفسك ولا تبع بل اتخذ لك غلامًا مصلحًا يقوم بأشغالك وتعتمد عليه في أمورك ولا تطمئن إلى دنياك وإلى ما أنت فيه فإن الله تعالى سائلك عن جميع ذلك.

ولا تشتر الغلمان المردان ولا تظهر من نفسك التقرب إلى السلطان وإن قربك فإنه ترفع إليك الحوائج فإن قمت أهانك وإن لم تقم أعابك.

ولا تتبع الناس في خطئهم بل اتبع في صوابهم وإذا عرفت إنسانًا بالشر فلا تذكره به بل اطلب منه خيرًا فاذكره به إلا في باب الدين فإنك إن عرفت في دينه ذلك فاذكره للناس كيلا يتبعوه ويحذروه وقال عليه السلام:﴿اذكروا الفاجر بما فيه حتى يحذره الناس وإن كان ذا جاه ومنزلة﴾ والذي ترى منه الخلل في الدين فاذكر ذلك ولا تبال من جاهه فإن الله تعالى معينك وناصرك وناصر الدين فإذا فعلت ذلك مرة هابوك ولم يتجاسر أحد على إظهار البدعة في الدين.

وإذا رأيت من سلطانك ما لا يوافق العلم فاذكر ذلك مع طاعتك إياه فإن يده أقوى من بيدك تقول له: أنا مطيع لك في الشيء أنت فيه سلطان ومسلط علي غير أني أذكر من سيرتك ما لا يوافق العلم فإذا فعلت مع السلطان

مرة كفاك لأنك إذا واظبت عليه ودمت لعلهم يقهرونك فيكون في ذلك قمع للدين فإذا فعل ذلك مرة أو مرتين ليعرف منك الجهد في الدين والحرص في الأمر بالمعروف فإذا فعل ذلك مرة أخرى فادخل عليه وحدك في داره وانصحه في الدين وناظره إن كان مبتدعًا وإن كان سلطانًا فاذكر له ما يحضرك من كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ فإن قبل منك وإلا فاسأل الله تعالى أن يحفظك منه.

واذكر الموت واستغفر للأستاذ ومن أخذت عنهم العلم وداوم على التلاوة وأكثر من زيارة القبور والمشايخ والمواضع المباركة واقبل من العامة ما يعرضون عليك من رؤياهم في النبي ﷺ وفي رؤيا الصالحين في المساجد والمنازل والمقابر ولا تجالس أحدًا من أهل الأهواء إلا على سبيل الدعوة إلى الدين ولا تكثر اللعب والشتم وإذا أذن المؤذن فتأهب لدخول المسجد كيلا تتقدم عليك العامة.

ولا تتخذ دارك في جوار السلطان وما رأيت على جارك فاستره عليه فإنه أمانة ولا تظهر أسرار الناس ومن استشارك في شيء فأشر عليه بما تعلم أنه يقربك إلى الله تعالى.

وأقبل وصيتي هذه فإنك تنتفع بها في أولاك وأخراك إن شاء الله تعالى.

وإياك والبخل فإنه يبغض به المرء ولا تك طماعًا ولا كذابًا ولا صاحب تخليط بل احفظ مروءتك في الأمور كلها.

وألبس من الثياب البيض في الأحوال كلها وأظهر غنى القلب مظهرًا من نفسك قلة الحرص والرغبة في الدنيا وأظهر من نفسك الغناء ولا تظهر الفقر وإن كنت فقيرًا وكن ذا همة فإن من ضعفت همته ضعفت منزلته.

وإذا مشيت في الطريق فلا تلتفت يمينًا ولا شمالاً بل داوم النظر إلى الأرض وإذا دخلت الحمام فلا تساو الناس في أجرة الحمام والمجلس بل ارجح على ما تعطي العامة لتظهر مروءتك بينهم فيعظمونك ولا تسلم

الأمتعة إلى الحائك وسائر الصناع بل اتخذ لنفسك ثقة يفعل ذلك ولا تماكس بالحبات والدوانيق ولا تزن الدراهم بل اعتمد على غيرك.

وحقر الدنيا المحقرة عند أهل العلم فإن ما عند الله خير منها وول أمورك غيرك ليمكنك الإقبال على العلم فإن ذلك أحفظ لحاجتك

وإياك إن تكلم المجانين ومن لا يعرف المناظرة والحجة من أهل العلم والذين يطلبون الجاه ويستغرقون بذكر المسائل فيما بين الناس فإنهم يطلبون تخجيلك ولا يبالون منك وإن عرفوك على الحق.

وإذا دخلت على قوم كبارة فلا ترتفع عليهم ما لم يرفعوك كيلا يلحق بك منهم أذية وإذا كنت في قوم تتقدم عليهم في الصلاة ما لم يقدموك على وجه التعظيم.

ولا تدخل الحمام وقت الظهيرة والغداة ولا تخرج إلى النظارات ولا تحضر مظالم السلاطين إلا إذا عرفت أنك إذا قلت شيئًا ينزلون على قولك بالحق فإنهم إن فعلوا ما لا يحل وأنت عندهم ربما لا تملك منعهم ويظن الناس أن ذلك حق لسكوتك فيما بينهم وقت الإقدام عليه.

وإياك والغضب في مجلس العلم ولا تقص على العامة فإن القاص لا بد له أن يكذب وإذا أردت اتخاذ مجلس لأحد من أهل العلم فإن كان مجلس فقه فاحضر بنفسك واذكر فيه ما تعلمه وإلا فلا كيلا يغتر الناس بحضورك فيظنون أنه على صفة من العلم وليس هو على تلك الصفة وإن كان يصلح للفتوى فاذكر منه ذلك وإلا فلا ولا تقعد ليدرس الآخر بين يديك بل اترك عنده من أصحابك ليخبرك بكيفية كلامه وكمية علمه ولا تحضر مجالس الذكر أو من يتخذ مجلس وعظ بجاهك وتزكيتك له بل وجه أهل محلتك وعامتك الذين تعتمد عليهم مع واحد من أصحابك.

وفوض أمر المناكح إلى خطيب ناحيتك وكذا صلاة الجنازة والعيدين.

ولا تنسني من صالح دعائك واقبل هذه الموعظة مني وإنما أوصيك

لمصلحتك ومصلحة المسلمين [١].

ثانيا: ومن ذلك أيضًا أن أبا حنيفة ترك لحم الغنم لما فقدت شاة في الكوفة إلى أن علم موتها، سبع سنين تورعا منه لاحتمال أن تبقى تلك الشاة الحرام فيصادف أكل شيء منها فيظلم قلبه، إذ هذا شأن أكل الحرام، وإن انتفى الإثم للجهل بعين الحرام.

أبو حنيفة ومالك:

أخرج القاضي عياض في (المدارك) قال: قال الليث بن سعد: لقيت مالكًا في المدينة، فقلت له: إني أراك تمسح العرق عن جبينك. قال: عرقت مع أبي حنيفة، إنه لفقيه يا مصري،. قال الليث: ثم لقيت أبا حنيفة، وقلت له: ما أحسن قول هذا الرجل فيك (يشير إلى مالك) فقال أبو حنيفة: ما رأيت أسرع منه بجواب صادق، ونقد تام.

قال ابن سماعة: قال أبو يوسف: حج ابو حنيفة فوقعت بالكوفة مسألة الدور فسئل ابن شبرمة وابن أبي ليلى والثوري والناس بالكوفة فلم يكن عندهم فيها شيء فسئل أصحاب أبي حنيفة فلم يكن عندهم فيها جواب فقالوا: ليس لها إلا ابو حنيفة فاشرأبت نفوسنا إلى قدومه حتى خفنا عليه وعلى أنفسنا وخفنا أن يعجز عن الجواب فيذهب قدره وقدرنا معه حتى تمنى بعضنا موته فلما قرب أبو حنيفة من الكوفة استقبلته وقلت أخبره بالمسألة لعله أن يعمل فكره فيها قبل أن يسأل عنها فلما لقيته قال يعقوب: فحملني معه ثم جاء الناس وكثروا يستقبلونه فلم أقدر أن أقول له فيها شيئًا ثم دعا بدابة فركب وحملني على دابة معه وحمل سائر الناس حولنا حتى ضاقت الطرقات فلما قدم وأتى المسجد صلى فيه ركعتين واجتمع الناس فكان أول شيء سئل عنه المسألة التي ألقيت من الدور قال: فلما ألقيت عليه نكس رأسه قال: فلما رأيته نكس رأسه علمت أنها ستخرج ثم رفع رأسه فقال

(١) زَيْنُ العَابِدِيْنَ بْن إِبْرَاهِيْم بْن نُجَيْمٍ (٩٢٦ - ٩٧٠هـ)، الأَشْبَاهُ وَالنَّظَائِرُ عَلى مَذْهَبِ أَبِيْ حَنِيْفَةَ النُّعْمَان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٠هـ=١٩٨٠م، ١/٤٢٦ - ٤٣٣.

الجواب فيها كذا وكذا قال فسررنا وسر الناس قال: فلما مات أبو حنيفة كنت يومًا في دار الخيفة إذ مر بنا رجل جل فقالوا هذا الحاسب وجعل أصحاب الخليفة يعظمونه فدعوته وقلت باب من الفقه وكانت المسألة قد اضطرب علي منها شيء مما قاله أبو حنيفة فقلت: إنا قد احتجنا فيه إلى الحساب قال: فأخبرته قال: اعمله من باب كذا وكذا فعملته فلم يخرج فقال: باب كذا فعملته فلم يخرج فلم يزل يلقي علي الأبواب فلم يخرج فقال: لم يبق إلا باب واحد فإن خرج وإلا فليس له باب يخرج منه أصلا فذكر قول أبي حنيفة فعملت به فخرج فقلت: ليست يخرج وخفت أن يذهب فيعمل عليه تلك المسألة قال: فانصرفت فعملت الباب وعملت المسائل عليه وجعلت إذا لقيته فسألني أُعمي عليه الجواب مخافة أن يفطن له وكان مفتنًا حاسبًا.

قال بشر بن الوليد: سمعت أبا يوسف يقول: سمعت داود الطائي يقول: لما نزل أبو العباس الكوفة وجه إلى العلماء فجمعهم فقال: إن هذا الأمر قد أفضى إلى أهل بيت نبيكم وجاءكم الله بالفضل وإقامة الحق وأنتم يا معشر العلماء أحق من أعان عليه ولكم الحباء والكرامة والضيافة من مال الله ما أحببتم فبايعوا بيعة تكون لكم عند إمامكم حجة عليكم وأمانًا في معادكم لا تلقون الله بلا إمام فتكونوا ممن لا حجة له ولا تقولوا أمير المؤمنين نهابه أن نقول الحق فنظر القوم إلى أبي حنيفة فقال: إن أحببتم أن أتكلم عني وعنكم فأمسكوا قالوا: قد أحببنا ذلك فقال: الحمد لله الذي بلغ الحق من قرابة من نبيه ﷺ وأماط عنا جور الظلمة وبسط ألسنتنا بالحق وقد بايعناك على أمر الله والوفاء لك بعهد الله إلى قيام الساعة فلا أخلى الله هذا الأمر ممن قربه من نبيه فأجابه أبوالعباس بجواب جميل.

وقال مثلك من خطب عن العلماء لقد أحسنوا اختيارك وأحسنت في البلاغ فلما خرجوا قالوا له: ما أردت بقولك إلى قيام الساعة وقد انقضت الساعة قال: إن احتلتم علي احتلت لنفسي وأسلمتكم للبلاء فسكت القوم وعلموا أن

الحق ما صنع.

عجزت النساء أن يلدن مثلك:

قال شريك: قال كنا في جنازة ومعنا سفيان الثوري وابن شبرمة وابن أبي ليلى، وأبو حنيفة وأبو الأحوص ومندل وحبان وكانت الجنازة لكهل سيد من كهول بني هاشم توفي ابن له فخرج في جنازته وجوه أهل الكوفة يمشون حتى وقفت الجنازة فسأل الناس عنها فقالوا: خرجت أمه ولهى وألقت ثوبها عليه وبرزت وكشفت رأسها وكانت هاشمية شريفة فصاح أبوه بها فأمرها أن ترجع فأبت فحلف بالطلاق لترجعن وحلفت بعتاق كل مملوك لها ألاَّ ترجع حتى يصلى عليه فمشى الناس بعضهم إلى بعض ووقفوا وسألوا فلم يتكلم فيها أحد وأجاب منهم أحد بجواب فهتف أبوه بأبي حنيفة وقال: يا نعمان أغثنا فجاء أبو حنيفة فقال: كيف حلفت؟ فأعادت عليه وقال للكهل: كيف حلفت؟ فأعاد عليه فقال: ضعوا السرير فوضع فقال للأب: تقدم فصل على ابنك فتقدم فصلى عليه والناس خلفه ونادوا فيمن تقدم حتى لحقوا بالناس ثم قال: احملوه إلى قبره وارجعي إلى منزلك فقد بررت وقال لأبيه: ارجع فقد بررت فقال ابن شبرمة: يومئذ عجزت النساء أن يلدن مثلك سريعًا ما عليك في العلم كلفة.

فكيف أصنع إذا تبين الخطأ:

قال ابن المبارك: سأل رجل أبا حنيفة عن خوخة أراد أن يفتحها في حائط له في داره فقال: افتح ما شئت ولا تطلع على جارك فأتى به جاره إلى ابن أبي ليلى فمنعه منه فشكا إلى أبي حنيفة قال: فافتح فيه بابًا فجاء ليفتح الباب فأتى به إلى ابن أبي ليلى فمنعه فقال: كم قيمة حائطك؟ قال: ثلاثة دنانير قال: هي لك علي واذهب فاهدم الحائط من أوله إلى آخره فجاءه يهدمه فمنعه فأتى به إلى ابن ابي ليلى فقال: يهدم حائطه وتسألني أن أمنعه من ذلك اذهب فاهدمه واصنع ما شئت قال: فلم عنيتني ومنعتني من فتح خوخة وكان ذلك أهون علي قال: إذا كان يذهب إلى من يدله على خطأي فكيف

أصنع إذا تبين الخطأ.

ولو وزن عقله بعقل نصف أهل الأرض في الفقه لرجحهم إن شاء الله:

قال ابن المبارك: سألت أبا حنيفة عن درهم لرجل ودرهمين لآخر اختلطت ثم ضاع درهمان من الثلاثة لا يعلم من أيهما فقال أبو حنيفة: الدرهم الباقي بينهما على ثلاثة قال: فلقيت ابن شبرمة فسألته عنها فقال: سألت عنها أحدًا فقلت: نعم، سألت أبا حنيفة قال: قال لك الدرهم الباقي بينهما أثلاثًا قلت: نعم، قال: أخطأ العبد ولكن درهم من الدرهمين الضائعين يحيط العلم أنه من الدرهمين والدرهم الآخر هو منهما جميعا فالدرهم الذي بقي هو بينهما نصفين قال: فاستحسنت ذلك جدًا فلقيت أبا حنيفة ولو وزن عقله بعقل نصف أهل الارض في الفقه لرجحهم إن شاء الله فقال لي: لقيت ابن شبرمة فقال لك قد أحاط العلم أن أحد الدرهمين الضائعين من الدرهمين وبقي الدرهم الباقي فهو بينهما نصفان قلت: نعم قال: إن الثلاثة حيث اختلطت وجبت الشركة بينهما فصار لصاحب الدرهم ثلث كل درهم ولصاحب الدرهمين ثلثا من كل درهم فأي درهم ذهب ذهب بحصتهما.

تحسن كل شيء:

قال ابن المبارك: رأيت أبا حنيفة في طريق مكة وشوى لهم فصيل سمين فاشتهوا أن يأكلوه بخل فلم يجدوا شيئًا يصبون فيه الخل فتحيروا فرأيت أبا حنيفة وقد حفر في الرمل حفرة وبسط عليها السفرة وسكب الخل على ذلك الموضع فأكلوا الشواء بالخل فقالوا له تحسن كل شيء قال عليكم بالشكر فإن هذا شيء ألهمته لكم فضلاً من الله عليكم.

إن السلطان الأعظم لا يأمر بقتل من لا يستحق القتل:

حدث أبو حنيفة عن حماد أنه كان يقول: إذا سئلت عن معضلة فاقلبها سؤالاً على سائلك عنها حتى تخلص من مسألته لك فدس إلى رجل فقعد لي

على الباب وأنا عند ابن هبيرة وقد أمر بي إلى السجن فسعى الرجل إلى السجن فقال: يا أبا حنيفة يحل للرجل إذا أمره السلطان الأعظم أن يقتل رجلاً أن يقتله قال: قلت له وكان الرجل ممن وجب عليه القتل قال: نعم، قلت: فاقتله قال: فإن لم يكن ممن وجب عليه القتل قال: قلت إن السلطان الأعظم لا يأمر بقتل من لا يستحق القتل.

الله الله لا يسمعوا بهذا فلا آخذ منهم شيئًا:

قال بشر بن الوليد: كان في جوار أبي حنيفة فتى يغشى مجلس أبي حنيفة ويكثر عنده فقال يومًا لأبي حنيفة إني أريد التزويج إلى آل فلان من أهل الكوفة وقد خطبت إليهم وقد طلبوا مني من المهر فوق وسعي وطاقتي وقد تعلقت نفسي بالتزويج فقال أبو حنيفة: فاستخر الله وأعطهم ما يطلبونه منك فلعل زوجتك أن تسمح لك إذا دخلت بها بما يبقى من الصداق عليك فأجابهم إلى ما طلبوه فلما عقدوا النكاح بينهم وبينه جاء إلى أبي حنيفة فقال له: إني قد سألتهم أن يأخذوا مني البعض وليس في وسعي الكل وقد أبوا أن يحملوها إلي إلا بعد وفاء المهر كله فماذا ترى قال: احتل واقترض حتى تدخل بأهلك فإن الأمر يكون أسهل عليك من تشدد هؤلاء القوم ففعل ذلك وأقرضه أبو حنيفة فيمن أقرضه فلما دخل بأهله وحملت إليه قال له أبو حنيفة: ما عليك أن تظهر أنك تريد الخروج من هذا البلد إلى موضع بعيد وأنك تريد أن تسافر بأهلك معك فاكترى الرجل جملين وجاء بهما وأظهر أنه يريد الخروج إلى خراسان في طلب المعاش وأنه يريد حمل أهله معه فاشتد ذلك على أهل المرأة وجاؤوا إلى أبي حنيفة يشكونه ويستفتونه في ذلك فقال لهم أبو حنيفة: فأرضوه بأن تردوا عليه ما أخذتموه منه فأجابوا إلى ذلك فقال أبو حنيفة للفتى: أن القوم قد سمحوا أجابوا أن يردوا عليك ما أخذوه منك من المهر ويبرئوك منه فقال له الفتى فأنا أريد منهم شيئا آخر فوق ذلك فقال له أبو حنيفة أيما أحب إليك أن ترضى بهذا الذي بذلوه لك وإلا أقرت المرأة لرجل بدين فلا يمكنك أن تحملها ولا تسافر بها حتى

تقضي ما عليها من الدين قال: فقال الرجل: الله الله لا يسمعوا بهذا فلا آخذ منهم شيئًا فأجاب إلى الجلوس وأخذ ما بذلوه من المهر.

فأعطوني منها ديناراً واحداً:

عن وكيع قال: كنا عند أبي حنيفة وأتته امرأة فقالت: مات أخي وخلف ستمائة دينار فأعطوني منها دينارًا واحدًا قال: ومن قسم فريضتكم؟ قالت: داود الطائي قال: هو حقك أليس خلف أخوك بنتين قالت: بلى، قال: وأمًا قالت: بلى، قال: وزوجة قالت: بلى قال: واثني عشر أخًا وأختًا واحدة قالت: بلى قال: فإن للبنات الثلثين أربعمائة وللأم السدس مائة وللمرأة خمسة وسبعين ويبقى خمس وعشرون للإخوة أربعة وعشرون لكل أخ ديناران فلك دينار.

قال: لا وانصرف من وقته:

قال الحسن بن أبي مالك دخل أبو حنيفة إلى ابن أبي ليلى ومعه أبو يوسف ليقضي حقه فلما جلس أبو حنيفة عنده قال ابن أبي ليلى لحاجبه: ائذن لمن حضر من الخصوم في التقدم كأنه أراد أن يرى أبو حنيفة إمضاءه في القضاء والحكم فدخل الخصوم وتقدم إليه جماعة فحكم بينهم ثم تقدم إليه رجلان فقال أحدهما: أعزك الله إن هذا الرجل قذف أمي بالزنى وشتمني وقال يا بن الزانية وأنا أسأل القاضي أن يأخذ لي بحقي فقال ابن أبي ليلى للمدعى عليه: ما تقول؟ فقال له أبو حنيفة رضي الله عنه لم تسأله عن دعواه وليس هو له بخصم إنه إنما يذكر أنه رمى بالزنا أمه فهل ثبتت وكالته عن أمه عندك قال: لا قال فأقبل على صاحبك فاسأله أحية أمه أم ميتة؟ فإن كانت حية فلا وجه لدعواه إلا بوكالة منها في المطالبة بحقها وإن كانت ميتة كان قولا آخر.

قال: فرجع ابن أبي ليلى على المدعى فقال له: أمك أحية أم ميتة قال: بل، ميتة قال له: أقم عندي البينة بوفاتها حتى أعلم ذلك قال: فأقام عنده البينة

بوفاتها فذهب ابن أبي ليلى ليسأل المدعى عليه عما يقول المدعي فقال له أبو حنيفة أقبل على صاحبك فسله هل لأمه وارث غيره فإن كان له إخوة كانت المطالبة له ولهم وإن كان هو الوارث وحده كان قولاً آخر فقال ابن ابي ليلى للمدعي: هل لأمك وارث غيرك؟ قال: لا قال: فأقم عندي البينة بذلك فأقام البينة أنه وارث أمه لا وارث لها غيره قال: فذهب ابن أبي ليلى ليسأل المدعى عليه عن دعوى المدعي فقال أبو حنيفة رضي الله عنه: أقبل على صاحبك واسأله عن أمه أحرة هي أم أمة فقال ابن أبي ليلى للرجل أمك حرة أو أمة؟ قال: بل حرة قال فأقم عندي بذلك بينة فأقام البينة بذلك فذهب ليسأل المدعى عليه فقال أبو حنيفة رضي الله عنه: ارجع أيضًا إلى صاحبك واسأله أمسلمة هي أم معاهدة قال: حرة مسلمة من بنات آل فلان قوم سراة بالكوفة قال: فأقم البينة عندي بأنها مسلمة فأقام البينة عنده بأنها مسلمة فقال أبو حنيفة رضي الله عنه شأنك الآن فاسأل الرجل عما ادعاه المدعي فسأله فأنكر فقال للمدعي: ألك بينة؟ قال: نعم جماعة من وجوه أهل الكوفة قال فأحضرهم مع خصمك حتى أسمع شهادتهم عليه قال: فأحضرهم ونهض أبو حنيفة فقال له ابن أبي ليلى تجلس حتى تحضر البينة قال: لا وانصرف من وقته.

رجل فما فوقه يا أبا حنيفة:

قال أسد بن عمرو: دخل قتادة الكوفة فنزل دار أبي بردة فخرج فقال: لا يسألني أحد عن مسألة من الحلال والحرام إلا أجبته فقال له أبو حنيفة: يا أبا الخطاب ما تقول في رجل غاب عن أهله أعوامًا ونعى إليها وظنت امرأته أنه ميت فتزوجت ثم قدم زوجها الأول وقد ولدت ولدًا فنفاه الأول وادعاه الثاني أكل واحد منهما قذفها أم الذي أنكر الولد ما الجواب فيها فقال أبو حنيفة إن قال فيها برأيه ليخطئن وإن قال فيها حدثنا ليكذبن قال قتادة: أوقعت هذه المسألة قالوا: لا، قال: فلم تسألوني عما لم يكن؟ فقال له أبو حنيفة: إن العلماء يستعدون للبلاء ويتحرزون منه قبل نزوله فإذا نزل

عرفوه وعرفوا الدخول فيه والخروج منه، فقال قتادة: دعوا هذا وسلوني عن التفسير، فقال أبو حنيفة: ما نقول في قول الله:{قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ} [النمل: ٤٠] قال: نعم كان هذا آصف بن برخيا كاتب سليمان وكان يعرف اسم الله الأعظم قال: فهل كان سليمان عليه السلام يعرف هذا الاسم قال: لا، قال: أفيجوز أن يكون في زمن نبي من هو أعلم من النبي قال: لا، والله لا أحدثكم بشيء من التفسير سلوني عما اختلف فيه العلماء فقال أبو حنيفة: أمؤمن أنت، قال: أرجو، قال: ولم؟ قال لقوله تعالى:{ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾} [الشعراء: ٨٢] قال أبو حنيفة: فهلا قلت كما قال إبراهيم عليه السلام لما قال له:{أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى} [البقرة: ٢٦٠] قال: فقام قتادة فدخل الدار مغضبًا وحلف أن لا يحدثهم قال أبو حنيفة: ثم قدم الكوفة بعد سنين وكان ضريرًا فناديته يا أبا الخطاب ما تقول في قوله:{وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ} [النور: ٢] قال رجل: فما فوقه يا أبا حنيفة وعرفني بالنغمة وكان يسمع الناس يكنوني.

هذا حسن:

عن إبراهيم الصائغ قال: كنت عند عطاء بن أبي رباح وعنده أبو حنيفة فسئل عن قول الله{وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ} [الأنبياء: ٨٤] فقال عطاء رد الله على أيوب عليه السلام أهله ومثل أهله وولده فقال أبو حنيفة أو يرد الله على نبي ولدًا ليسوا له من صلبه يا أبا محمد فقال: ما سمعت فيها عافاك الله فقال: رد الله على أيوب أهله وولده من صلبه ومثل أجور ولده فقال هذا حسن.

كلنا عنه غافل:

قال أبو يوسف قال رجل لأبي حنيفة إني حلفت أن لا أكلم امرأتي أو تكلمني وحلفت بصدقة ما تملك أن لا تكلمني أو أكلمها قال: سألت عنها أحدًا قال: نعم، سفيان الثوري فقال: من كلم صاحبه حنث فقال: كلمها ولا

حنث عليكما فذهب إلى سفيان وكان قرابة له فأخبره قال: فجاءني سفيان مغضبًا وقال تبيح الفروج قال: وما ذاك ثم قال أعيدوا على أبي عبد الله السؤال فأعادوه فأعاد أبو حنيفة بمثل ما أفتى فقال له: من أين قلت؟ قال: لما شافهته باليمين بعدما حلف كانت مكلمة له وسقطت يمينه فإن كلمها فلا حنث عليه ولا عليها لأنها قد كلمته بعد اليمين فسقطت اليمين عنهما فقال سفيان: إنه ليكشف لك من العلم عن شيء كلنا عنه غافل.

هذا رزين:

عن علي بن مسهر قال: كنا عند أبي حنيفة رضي الله عنه فأتاه عبد الله ابن المبارك فقال له: ما تقول في رجل كان يطبخ قدرًا له فوقع فيها طائر فمات فقال أبو حنيفة لأصحابه: ما ترون فيها؟ فرووا له عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه يهراق المرق ويغسل اللحم ويؤكل فقال أبو حنيفة هكذا نقول إلا أن في ذلك شريطة إن كان وقع في حال غليانها ألقي اللحم وأهريق المرق وإن كان وقع فيها في حال سكونها غسل اللحم وأهريق المرق قال له ابن المبارك: من أين قلت هذا؟ فقال: لأنه إذا وقع فيها في حال غليانها فقد وصل من اللحم إلى حيث يصل منه الخل والتوابل وإذا وقع فيها في حال سكونها فإنما لطخ اللحم ولم يداخله فقال ابن المبارك: هذا رزين يعني المذهب بالفارسية وعقد بيده ثلاثين.

هو والله من أولياء الله حقا:

قال زائدة: قال رجل لأبي حنيفة ما تقول في رجل قال لا أرجو الجنة ولا أخاف النار وآكل الميتة وأشهد بما لم أر ولا أخاف الله وأصلي بلا ركوع ولاسجود وأبغض الحق وأحب الفتنة فقال له أبو حنيفة وكان يعرفه شديد البغض له: يا أبا فلان سألتني عن هذه ولك بها علم فقال له الرجل: لا ولكن لم أجد شيئًا هو أشنع من هذا فسألتك عنه فقال أبو حنيفة لأصحابه ما تقولون في هذا الرجل قالوا: شر رجل متهم هذه صفة كافر فتبسم أبو حنيفة وقال لأصحابه: هو والله من أولياء الله حقا ثم قال للرجل: إن أنا أخبرتك

أنه من أولياء الله تكف عني شر لسانك ولا تملي على الحفظة ما يضرك قال: نعم فقال أبو حنيفة: أما قولك لا يرجو الجنة ولا يخاف النار فإنه يرجو رب الجنة ويخاف رب النار وقولك لا يخاف الله فإنه لا يخاف ظلمه ولا جوره فقال الله تعالى:{وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ } [فصلت: ٤٦] وقولك يأكل الميتة فهو أكل السمك وقوله يصلي بلا ركوع ولا سجود فقد جعل أكثر عمله الصلاة على النبي عليه السلام وقد لزم موضع الجنائز فهو يصلي عليها وقولك يشهد بما لم ير فهذه شهادة الحق يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله وقولك يبغض الحق فهو يحب البقاء حتى يطيع الله أبدًا ويبغض الموت وهو الحق قال تعالى{وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ} [ق: ١٩] وأما الفتنة فالقلوب مجبولة على حب المال والولد وذلك من الفتنة العظيمة على قلوب المؤمنين.

اشكر الله الذي رده عليك:

قال أبو يوسف: قال رجل لأبي حنيفة: إني قد دفنت شيئًا ولا أدري أين دفنته من البيت قال: وأنا أحرى أن لا أدري به قال: فبكى الرجل فقال أبو حنيفة: قوموا بنا فقام ومعه نفر من أصحابه فأتى بهم الرجل إلى منزله فقال: أين يكون من الدار وأين موضع قماشك؟ فأدخلهم إلى بيت في الدار فقال لأصحابه: لو كان هذا البيت لكم ومعكم شيء تريدون أن تدفنوه كيف كنتم تصنعون فقال: هذا كنت أدفنه ها هنا وقال الآخر موضعًا آخر حتى قالوا خمسة أقاويل فحفر منها موضعين ووجده في الثالث وقال له: اشكر الله الذي رده عليك.

فهلا أتممت ليلتك شكراً لله تعالى:

عن الحسن بن زياد قال: دفن رجل ماله في موضع ثم نسي أي موضع دفنه فطلبه فلم يقع عليه فجاء إلى أبي حنيفة فشكا إليه فقال له أبو حنيفة: ليس هذا بفقه فأحتال لك ولكن اذهب فصل الليلة إلى الغد فإنك ستذكر أي

موضع دفنته فيه ففعل الرجل فلم يقم إلا أقل من ربع الليل حتى ذكر أي موضع فجاء إلى أبي حنيفة فأخبره فقال: قد علمت أن الشيطان لا يدعك تصلي ليلتك حتى يذكرك ويحك فهلا أتممت ليلتك شكرًا لله تعالى.

حتى يحضر ما هو أجل من هذا:

قال علي بن أبي علي: كنت عند الحسن بن علي قاضي مرو فذكر أبا حنيفة وفطنته فقال: استودع رجل من الحاج رجلاً بالكوفة وديعة وحج ثم رجع فطلب وديعته فأنكر المستودع الوديعة وجعل يحلف له فانطلق الرجل إلى أبي حنيفة وشاوره فقال: لا تعلم بجحوده أحدًا وكان المستودع يجالس أبا حنيفة فخلا به فقال: إن هؤلاء قد بعثوا يستشيرون في رجل يصلح للقضاء فهل تنشط فتمانع الرجل قليلاً وأقبل أبو حنيفة يرغبه وهو يمتنع ثم جاء صاحب الوديعة فقال له أبو حنيفة: اذهب فقل له أحسبك نسيت أودعتك في وقت كذا والعلامة كذا قال: فذهب الرجل فقال له ذلك فذفع إليه الوديعة فلما رجع المستودع قال له أبو حنيفة إني نظرت في أمرك فرأيت أن أرفع من قدرك ولا أسميك حتى يحضر ما هو أجل من هذا.

قال فأجمعوا كل داعر وكل متهم:

عن محمد بن الحسن قال: دخل اللصوص على رجل فأخذوا متاعه واستحلفوه بالطلاق ثلاثًا أن لا يعلم أحدًا وأصبح الرجل وهو يرى اللصوص يبيعون متاعه وليس يقدر يتكلم من أجل يمينه فجاء الرجل يشاور أبا حنيفة فقال له أبو حنيفة: أحضرني أمام حيك والمؤذن والمستورين منهم فأحضرهم إياه فقال لهم أبو حنيفة: هل تحبون أن يرد الله على هذا متاعه؟ قالوا: نعم قال: فأجمعوا كل داعر وكل متهم فأدخلوهم في دار أو في مسجد ثم أخرجوهم واحدًا واحدًا فقولوا له: هذا لصك فإن كان ليس بلصه قال: لا، وإن كان لصه فليسكت فإذا سكت فاقتصوا عليه ففعلوا ما أمرهم به أبو حنيفة فرد الله عليه جميع ما سرق منه.

ما تقول في عبد بين اثنين؟:

قال يوسف بن خالد سمعت أبا حنيفة قال: قدم علينا ربيعة الرأي ويحيى ابن سعيد قاضي الكوفة فقال يحيى لربيعة: ألا تعجب من أهل هذا المصر أجمعوا على رأي رجل واحد قال أبو حنيفة: فبلغني ذلك فأرسلت إليه يعقوب وزفر وعدة من أصحابنا فقلت: قايسوه وناظروه فقال له يعقوب: ما تقول في عبد بين اثنين اعتقه أحدهما؟ قال: لا يجوز عتقه قال: لم؟ قال: لأن هذا ضرر وقد جاء عن النبي ﷺ لا ضرر ولا ضرار قال: فإن أعتقه الآخر قال: جاز عتقه قال: تركت قولك إن كان الكلام الأول لم يعمل شيئًا ولم يقع به عتق فقد أعتقه الثاني وهو عبد فسكت (١).

ذكر ما روي من أخبار أبي حنيفة مع المنصور:

عن أبي حنيفة قال: دخلت على أبي جعفر أمير المؤمنين فقال: يا أبا حنيفة عمن أخذت العلم قلت: عن حماد عن إبراهيم عن أصحاب عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم قال: بخ بخ استوثقت ما شئت يا أبا حنيفة رضي الله عن الطيبين المباركين صلوات الله عليهم أجمعين.

والله لو ضرب عنقي عن أن أمس منها درهمًا ما مسسته:

قال الربيع بن يونس جمع المنصور مالكًا وابن أبي ذئب وأبا حنيفة فقال لهم: كيف ترون هذا الأمر الذي أعطاني الله من أمر الأمة هل أنا لذلك أهل فسكت القوم فقال لابن أبي ذئب: ما تقول في الذي قلدني الله من أمر هذه الأمة أمة محمد ﷺ فقال: إن ملك الدنيا يؤتيه الله من يشاء وملك الآخرة يؤتيه الله من طلبه من الله ووفقه له وإن التوفيق إذا أطعت الله قرب منك وإن عصيت بعد وإن الخلافة تكون بإجماع أهل التقوى عليها والعون لمن وليها وأنت وأعوانك كنتم خارجين من التوفيق عالين على الخلق فإن سألت

(١) القاضي أبي عبد الله حسين بن علي الصيمري، أخبار أبي حنيفة وأصحابه، عالم الكتب، سنة النشر ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ص ١٨ - ٤١.

الله السلامة وتقربت إليه بالأعمال الزاكية كان ذلك في نجاتك وإلا فأنت المطلوب قال: فكنت أنا ومالك بن أنس نجمع ثيابنا نخاف أن يترشش علينا من دمه ثم قال لأبي حنيفة ما تقول قال المسترشد لدينه يكون بعيد الغضب إذا أنت نصحت لنفسك علمت أنك لم ترد الله باجتماعنا وإنما أردت أن تعلم العامة أنا نقول فيك ما تهواه مخافة سيفك وحبسك ولقد وليت الخلافة وما اجتمع عليك نفسان من أهل التقوى والخلافة تكون عن إجماع المؤمنين ومشورتهم فهذا أبو بكر يمسك عن الحكم ستة أشهر حتى أتته بيعة أهل اليمن فقال لمالك ما تقول قال: لو لم يرك الله أهلا لذلك ما قدرلك ملك أمر الأمة وأزال عنهم من بعد من نبيهم وقرب هذا الأمر إلى أهل بيته أعانك الله على ما ولاك وألهمك الشكر على ما خولك وأعانك على ما استرعاك فأمرهم فانصرفوا ثم قال لي المنصور خذ معك ثلاث بدر واتبع القوم فإن أخذها مالك كلها فادفعها إليه وإن أخذ ابن أبي ذئب أو أبو حنيفة شيئًا فجئني برأسيهما فأتيت ابن أبي ذئب فقلت له فقال: ما أرضى هذا المال له فكيف آخذه لنفسي وقال أبو حنيفة: ما أنفع له إن كان يعطي من يرحم أن يرحم نفسه ممن يظلم والله لو ضرب عنقي عن أن أمس منها درهمًا ما مسسته وأتيت مالكًا فأخذها كلها فأتيت المنصور فأعلمته فقال: بهذه الصيانة حقنوا دماءهم.

انصرف إلى بلادك ولا تفتِ الناس:

قال الربيع بن يونس: سمعت المنصور يقول للفقهاء وفيهم أبو حنيفة: أليس الحديث عن النبي ﷺ :﴿صحيح المؤمنون عند شروطهم؟﴾ فقالوا: بلى، فقال: إن أهل الموصل شرطوا أن لا يخرجوا علي وقد خرجوا فقد أحل الله لي دماءهم وأموالهم فسكت أبوحنيفة رضي الله عنه وجعل الجواب يكون من غيره فقال رجل منهم: يدك المبسوطة عليهم وقولك المقبول فيهم فإن عفوت فأهل العفو أنت وإن عاقبتهم فيما يستحقون فقال المنصور لأبي حنيفة: ما تقول أنت يا شيخ؟ فقال: ألسنا في خلافة نبوة وأمان؟ قال: بلى

قال: إنهم شرطوا لك ما لا يملكون وشرطت عليهم ما ليس لك فإن أخذت ما لا يحل فشرط الله أحق أن يوفى به فقال: قوموا فقاموا فتفرقوا ثم أحضرهم فقال لأبي حنيفة: يا شيخ إني فكرت فيما قلت فإذا القول كما قلت انصرف إلى بلادك ولا تفتي الناس بما يكون فيه شين على إمامك فتبسط على أيدي الخوارج.

أراد الرجل أن يرهقنا فأرهقناه:

قال أبو خازم القاضي: تقلد الكوفة رجل من قبل أبي جعفر المنصور فأراد أذى أبي حنيفة فقال: والله لأسألنه عن مسألة تكون سببًا لقتله ثم أحضره على رؤوس الناس فقال: إن أمير المؤمنين يأمرني بضرب الأعناق وسفك الدماء وأخذ الأموال وانتهاك المحارم أفأطيعه في ذلك أم أعصيه فقال له أبو حنيفة: ما يأمرك به أمير المؤمنين طاعة لله أم معصيته؟ قال: لا بل طاعة لله: فقال له أبو حنيفة: أطع أمير المؤمنين أكرمه الله في كل ما كان طاعة لله ولا تعصه وخرج وأصحابه على الباب فقال لهم: أراد الرجل أن يرهقنا فأرهقناه فإذا أتتكم معضلة فاجعلوا جوابها منها.

لم أدعكم إلا لخير:

عن عبيد بن إسماعيل قال: بعث المنصور إلى أبي حنيفة وسفيان الثوري وشريك فأدخلوا عليه فقال لهم: لم أدعكم إلا لخير وكتب قبل ذلك ثلاث عهود فقال لسفيان: هذا عهدك على قضاء البصرة فخذه والحق بها وقال لشريك: هذا عهدك على قضاء الكوفة فخذه وامض وقال لأبي حنيفة: هذا عهدك على قضاء مدينتي وما يليها فخذه ثم قال لحاجبه: وجه معهم أو كما قال فمن أبى فاضربه مائة سوط فأما شريك فأخذ عهده ومضى وأما سفيان فقال لعون كان وكل به هو ذا أخرج ودخل منزله فوضع الكتاب في طاق بيته وهرب إلى اليمن فيقال أن هشام بن يوسف وعبد الرزاق سمعا منه هناك ويقال إنه كان يحدثهم قائمًا على رجله خشية فحدثهم أربعة آلاف حديث فأما أبو حنيفة فلم يقبل العهد فضرب مائة سوط وحبس ومات في

الحبس.

لقد شح على دينه إذ سخت به أنفس أقوام كثيرة:

وقال محمد بن شجاع: سمعت شيخًا يكنى أبا معشر يحدث بهذا الحديث فسألت الحسن بن أبي مالك عن ذلك فقال لي: هذا مشهور من أمره ما زلنا نتذاكر هذا ونتحدث به قال جيء بأبي حنيفة إلى المنصور فأنزله قال: فجاء الحسن بن عمارة فقال له: يا أبا حنيفة قد احتجت إليك وإلى رأيك اليوم قد أمر لي بجائزة وذكر ألوف دراهم فإن لم أقبلها خشيت أن أقتل فاحتل لي في صرفها عني قال وأمر لأبي حنيفة بعشرة آلاف درهم وكان المتولي لإعطاء ذلك الحسن بن قحطبة فلما أحس أبو حنيفة بأنه يرسل بها إليه أصبح لا يكلم أحدًا كأنه مغمى عليه فأتى في ذلك اليوم بالدراهم فجاء بها رسول الحسن بن قحطبة فدخل بها عليه فقالوا له: ما تكلم اليوم بكلمة فقال: كيف أصنع؟ قالوا: انظر ما ترى فوضعها في مسجدي في ناحية البيت فانصرف فمكثت تلك البدرة في ذلك الموضع فلما مات أبو حنيفة كان ابنه حماد غائبًا فقدم بعد موته فحمل البدرة فأتى بها باب الحسن بن قحطبة فاستأذن فأذن له فدخل فقال إني وجدت في وصية أبي إذا دفنت فخذ هذه البدرة التي في زاوية البيت فأت بها الحسن بن قحطبة فقل هذه وديعتك التي كانت عندنا فأدخلت البدرة فنظر إليها الحسن وقال له: رحم الله أباك لقد شح على دينه إذ سخت به أنفس أقوام كثيرة.

قال عباس الدوري حدثونا عن المنصور أنه لما بنى مدينته ونزلها ونزل المهدي في الجانب الشرقي وبنى مسجد الرصافة أرسل إلى أبي حنيفة فجيء به فعرض عليه قضاء الرصافة فأبى فقال له: إن لم تفعل ضربتك بالسياط قال: أو تفعل قال: نعم فقعد في القضاء يومين فلم يأته أحد فلما كان في اليوم الثالث أتاه رجل صفار ومعه آخر فقال الصفار: لي على هذا درهمان وأربعة دوانيق بقية ثمن تور صفر فقال أبو حنيفة: اتق الله وانظر فيما يقول الصفار قال: ليس له علي شيء فقال أبو حنيفة للصفار: ما تقول؟

قال: استحلفه لي فقال أبو حنيفة للرجل: قل والله الذي لا إله إلا هو فجعل يقول فلما رآه أبو حنيفة معزمًا على أن يحلف قطع عليه وضرب بيده إلى كمه فحل صرة وأخرج درهمين ثقيلين فقال للصفار: هذان الدرهمان عوض من باقي تورك فنظر الصفار إليهما وقال: نعم فأخذ الدرهمين فلما كان بعد يومين اشتكى أبو حنيفة فمرض ستة أيام ثم مات.

أخبار أبي حنيفة مع سفيان الثوري:

إن رخصتنا بالكوفة لا تقبل بالمدينة:

قال بشار بن قيراط وكان شريك أبي حنيفة قال: حججت مع أبي حنيفة وسفيان فكانا إذا نزلا منزلا أو بلدة اجتمع عليهما الناس وقالوا فقيها العراق فكان سفيان يقدم أبا حنيفة ويمشي خلفه وإذا سئل عن مسألة وأبوحنيفة حاضر لم يجب حتى يكون أبو حنيفة هو الذي يجيب فسئل أبو حنيفة عن النبيذ فأراد أن يرخص فيه فوضع سفيان يده على فم أبي حنيفة ثم قال له إن رخصتنا بالكوفة لا تقبل بالمدينة.

فلم يرجع سفيان بعد ذلك:

قال يحيى بن عبد الحميد: بلغ أبا حنيفة أن سفيان يتدثر بثوبه وينام خلف أسطوانته فيتسمع مسائله فقال أبو حنيفة إذا جاء فآذنوني فقيل له: قد جاء سفيان فقال: حدثني سعيد بن مسروق أبو هذا المسجى عن عباية بن رفاعة عن رافع بن خديج أن بعيرًا من إبل الصدقة ند فرماه رجل بسهم فسئل النبي ﷺ عن ذلك فقال: كلوه فإن لهذه الإبل أوابد كأوابد الوحش فما ند عليكم فاصنعوا به هكذا قال: فلم يرجع سفيان بعد ذلك.

قال ابن سماعة: سمعت أبا يوسف قال: كان أبو حنيفة يجلس فكان سفيان يأتي متنكرًا يسمع ما يقول من حيث لا يعلم به فانصرف فإذا رجل نائم ملتف بكسائه فقال أبو حنيفة: حدثني أبو هذا النائم سعيد بن مسروق والذي يعلم ما أقول لوددت أن كل شيء أحسنه في صدره أو صدر صبيان

الكتاب.

وددت أنها كلها عندي مجتمعة أنظر فيها:

قال زائدة: رأيت تحت رأس سفيان كتابًا ينظر فيه فاستأذنته في النظر فيه فدفعه إلي فإذا هو كتاب الرهن لأبي حنيفة فقلت له: تنظر في كتبه فقال: وددت أنها كلها عندي مجتمعة أنظر فيها ما بقي في شرح العلم غاية ولكنا ما ننصفه.

حتى نسخه:

قال سجادة: دخلت أنا وأبو مسلم المستملي على يزيد بن هارون وهو نازل ببغداد على منصور بن مهدي فصعدنا إلى غرفة هو فيها فقال له أبو مسلم: ما تقول يا أبا خالد في أبي حنيفة والنظر في كتبه؟ فقال: انظروا فيها إن كنتم تريدون أن تفقهوا فإني ما رأيت أحدا من الفقهاء يكره النظر في قوله ولقد احتال الثوري في كتاب الرهن حتى نسخه.

قال نصر بن علي: سمعت أبا عاصم النبيل سئل أيهما أفقه سفيان أو أبو حنيفة فقال: إنما يقاس الشيء على شكله أبو حنيفة فقيه تام الفقه وسفيان رجل متفقه.

قال علي ابن مسهر: كنت آتي سفيان فأزفه علم أبي حنيفة فبلغ ذلك أبا حنيفة فقال: ويحك لم تحمل علمك إلى من لا يحمدك عليه.

أرجو أن يغفر الله تعالى لك ذلك:

قال ابن المبارك: قلت لأبي عبد الله سفيان الثوري ما تقول في الدعوة قبل الحرب قال: إن القوم اليوم قد علموا ما يقاتلون عليه فقلت: إن أبا حنيفة يقول فيها ما قد بلغك فنكس رأسه ثم رفعه فأبصر يمينًا وشمالاً فلم ير أحدًا قال: إن كان أبو حنيفة يركب في العلم أحد من سنان الرمح كان والله شديد الأخذ للعلم ذابًا عن المحارم متبعًا لأهل بلده لا يستحل أن يأخذ إلا بما يصح عنده من الآثار عن النبي ﷺ شديد المعرفة بناسخ الحديث ومنسوخه

وكان يطلب أحاديث الثقات والآخر من فعل النبي ﷺ وما أدرك عليه عامة العلماء من أهل الكوفة في اتباع الحق أخذ به وجعله دينه قد شنع عليه قوم فسكتنا عنهم بما نستغفر الله تعالى منه بل قد كانت منا اللفظة بعد اللفظة قال: قلت أرجو أن يغفر الله تعالى لك ذلك.

المسكين قد شيخ بعدي:

قال أبا سليمان الجوزجاني: سمعت سلم بن سالم يقول كنت قاعدًا عند مسعر وسفيان معنا إذ أقبل أبو حنيفة فأوسع له مسعر عن صدر المجلس فسلم عليهم فقال له مسعر: ألا تسلم على أبي عبد الله قال: ومن أبو عبد الله قال: سفيان قال: المسكين قد شيخ بعدي قال سفيان: من لا يشق ثيابه من هذا النبطي قال أبو سليمان: وكان الذي كان بين أبي حنيفة وسفيان من الشر بهذا السبب.

يرحم الله أباك:

قال أبا يوسف: كنا عند مسعر وسفيان جالس إليه يذاكره إذ أقبل أبو حنيفة فأوسع له مسعر وقمت أنا من مجلسي له فقال له مسعر: ألا تسلم على أبي عبد الله فأقبل على سفيان فقال: يرحم الله أباك فلقد كان بعيدًا من حب الرئاسة منصفًا لكل من رآه متبعًا للعلم ولقد أسرع إليك الشيب فقال سفيان: من لا يشق ثيابه من هذا النبطي وقام وخرج.

هو حديث السن والأحداث لهم حدة:

عن أبي يوسف قال: كان أبو حنيفة إذا بلغه عن سفيان ما يقول فيه مبلغ منه يقول هو حديث السن والأحداث لهم حدة فكان إذا أقبل قال هو حديث السن قال سفيان: بكم هو النبطي أكبر سنًا مني حتى يصغرني ولا يستحل أبو حنيفة أن يقول فيه شيئًا غير إنه حدث السن.

أخبار أبي حنيفة مع الشعبي ومحارب بن دثار والأعمش:

قال أبو حنيفة: كنت عند الشعبي فأتاه رجل فسبه فقال الشعبي:

هنيئا مريئا غير داء مخامر ::: لعزة من أعراضنا ما استحلت

نصراني تزوج نصرانية فأسلمت:

عن أبي حنيفة قال: سألت الشعبي عن نصراني تزوج نصرانية فأسلمت فقال ما قال فيها بنو استها يعني الحكم وحمادا قلت لا أدري فقال الشعبي: إن أسلمت هي عرض عليه الإسلام فإن قبل تركت معه وإلا فلها نصف الصداق إن أسلم هو عرض عليها الإسلام فإن أسلمت وإلا فرق بينهما ولا صداق لها.

أقياس أنت:

عن أبي حنيفة عن الشعبي عن مسروق قال: من نذر نذرًا في معصية فلا كفارة فيه قال أبو حنيفة: فقلت للشعبي قد جعل الله تعالى الظهار الكفارة وقد جعله معصية لأنه قال{وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا} [المجادلة: ٢] فقال أقياس أنت.

من هول ما يرى:

قال أبو حنيفة: كنت عند محارب بن دثار فتقدم إليه خصمان فادعى أحدهما على الآخر ثم حضر شاهدان فشهدا فالتفت الخصم إلى محارب فقال في أحد الشاهدين والله إنه لرجل صالح وإنه وإنه فقال له محارب: أتثني عليه وقد شهد عليك قال: إنه والله ما كانت منه هنة قبل هذه فقال محارب بن دثار: حدثني ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: إن الطير لترخي مناقيرها وتخفق بأجنحتها يوم القيامة من هول ما يرى وإن رسول الله ﷺ قال: شاهد الزور لا تزول قدماه حتى يتبوأ مقعده من النار قال: فرجع الشاهدان عن شهادتهما.

والله لا أفتيت بذلك أبدا:

قال أبو معاوية: قيل للأعمش في علته لولا أن أبا حنيفة يأتيك لأتيناك مرتين في اليوم الذي يعودك فيه فلما جاء أبو حنيفة قال له: إن الناس يستثقلوني بما أصنع بهم في الحديث وقد زدتني أنت عندهم ثقلاً قالوا لي كيت وكيت فقال له: لولا العلم الذي يجريه الله تعالى على لسانك ما رأيتني ولا أحدا من أصحابي ببابك وذلك أن فيك خصالاً أنا لها كاره تتسحر عند طلوع الفجر وتقول هو الفجر الأول وقد صح عندي أنه الثاني وترى الماء من الماء وتفتي به وتجامع أهلك فإذا لم تنزل لم تغتسل أنت ولا هي ولولا أنك تتأول من الحديث ما غاب عنك معانيه ما استحللت أن أكلمك ولكنك تتأول شيئًا غيره والله أولى بك فما تسحر الأعمش بعد ذلك إلا بالليل ولا قرب أهله إلا اغتسل وأمرها بالغسل وقال صلاة وصيام تكون باختلاف والله لا أفتيت بذلك أبدا.

لا تعد إلى مثلها:

مر أبو حنيفة على بغلته يتبع جنازة فقال الأعمش: أسمع صوت حافر دابة فقيل له: أبو حنيفة فعض على شفته وقال: يا نعمان نمر في سكتنا بغير خفير فتبسم أبو حنيفة وقال: يا أبا محمد أرأيت أن المرء لا يمر في سكته بغير خفير فقال: لا تعد إلى مثلها [١].

فنور الله قلبك كما نورت قلبي:

وروى أن أبا حنيفة كان يتكلم في مسألة من المسائل القياسية، وشخص من أهل المدينة يتسمع، فقال: ما هذه المُقايسة، دعوها فإن أول من قاس إبليس.

فأقبل عليه أبو حنيفة، فقال: يا هذا، وضعت الكلام في غير موضعه، إبليس رد على الله تعالى أمره، قال الله تعالى:{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟

(١) القاضي أبي عبد الله حسين بن علي الصيمري، أخبار أبي حنيفة وأصحابه، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ٦٨ - ٧٩.

إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ} [الكهف: ٥٠]، وقال تعالى: { فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾} [الحجر: ٣٠، ٣١]، وقال:{إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ} [البقرة: ٣٤]، وقال:{ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا } [الإسراء: ٦١] فاستكبر ورد على الله أمره، وكل من رد على الله تعالى أمره فهو كافر، وهذا القياس الذي نحن فيه نطلب فيه اتباع أمر الله تعالى؛ لأنا نرده إلى أصل أمر الله تعالى في الكتاب، أو السنة، أو إجماع الصحابة والتابعين، فلا نخرج من أمر الله تعالى، ويكون العمل على الكتاب والسنة والإجماع، فاتبعنا في أمرنا إليها أمر الله تعالى، قال الله تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ} [النساء: ٥٩]. إلى قوله:{وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ} [النساء: ٥٩]، فنحن ندور حول الاتباع، فنعمل بأمر الله تعالى، وإبليس خالف أمر الله تعالى، ورده عليه، فكيف يستويان؟ فقال الرجل: غلطت يا أبا حنيفة، وتُبتُ إلى الله تعالى، فنور الله قلبك كما نورت قلبي.

بعض المسائل التي أجاب أبو حنيفة عنها:

مسألة، رجل رد عبداً آبقاً من مسيرة ثلاثة أيام.

قال أبو حنيفة: له الجعل أربعون درهماً. وكان القياس أن لا يجب، فترك الناس وأخذ من ذلك بالخبر الذي روى عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه، في خبر طويل، أن رجلاً قدم بآبق من الفيوم، فقال القوم: لقد أصاب أجراً. فقال ابن مسعود: وأصاب جعلاً.

وقال من خالفه: لا يجب الجعل. فترك الخبر وأخذ بالقياس.

مسألة، ولو أن رجلاً حلق لحية رجلٍ، أو حاجبيه، فلم تنبت ثانياً.

قال أبو حنيفة: يجب على الحالق دية كاملة.

وقال من خالفه: لا يجب الدية على الكمال.

وكان القياس أن لا يجب الدية على الكمال، فترك القياس، وأخذ بالخبر المروي في حديث سعيد بن المُسيب، رحمه الله تعالى.

مسألة، ولو أن رجلاً أوجب على نفسه أن ينحر ولده.
قال أبو حنيفة: يلزمه أن يذبح شاة [(١)].

أبو حنيفة وجار له كان يغني بشعر العرجي:
عن الأصمعي قال: كان لأبي حنيفة جار بالكوفة يغني فكان إذا انصرف وقد سكر يغني في غرفته ويسمع أبو حنيفة غناءه فيعجبه وكان كثيرًا ما يغني

أَضَاعُونِي وأيَّ فتًى أضاعُوا ::: ليومِ كَرِيهةٍ وسِدَادِ ثَغْرِ

فلقيه العسس ليلة فأخذوه وحبس ففقد أبو حنيفة صوته تلك الليلة فسأل عنه من عاد فأخبر فدعا بسواده وطويلته فلبسهما وركب إلى الوالي عيسى بن موسى فقال له: إن لي جارًا أخذه عسسك البارحة فحبس وما علمت منه إلا خيرًا فقال عيسى: سلموا إلى أبي حنيفة كل ما أخذه العسس البارحة فأطلقوا جميعًا فلما خرج الفتى دعا به أبو حنيفة وقال له سرًا ألست كنت تغني يا فتى كل ليلة:

أضَاعُونِي وأيَّ فَتًى أَضَاعُوا

فهل أضعناك قال لا والله أيها القاضي ولكن أحسنت وتكرمت أحسن الله جزاءك قال فعد إلى ما كنت تغنيه فإني كنت آنس به ولم أر به بأسًا قال: أفعل[(٢)].

لا تفعل!:
وكان سليمان الأعمش من الضجر بحيث اشتهر وانتشر؛ قال له الإمام أبو حنيفة النعمان: لولا أني أخاف أن أشق عليك لأكثرت زيارتك. فقال: لا تفعل! فأنت تشق علي والله وأنت في دارك [(٣)].

(١) التقي الغزي، الطبقات السنية في تراجم الحنفية، ص٤٠.
(٢) أبي الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر - بيروت، الطبعة الثانية، ١ /٣٩٩.
(٣) الحُصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر، ص ١٣٦.

حبب إلي من دنياكم ثلاث:

عن النبي ﷺ :﴿حبب إلي من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة﴾ وقال أبو بكر الصديق: وأنا حبب إلي من دنياكم ثلاث الجلوس بين يديك والصلاة عليك وإنفاق مالي عليك وقال في الرياض النضرة قالت عائشة رضي الله عنها: أنفق أبو بكر على النبي ﷺ أربعين ألفاً وقال عمر رضي الله عنه: وأنا حبب إلي من دنياكم ثلاث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود وقال عثمان رضي الله عنه: وأنا حبب إلي من دنياكم ثلاث إطعام الطعام وإفشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام وقال علي رضي الله عنه وأنا حبب إلي من دنياكم ثلاث الضرب بالسيف والصوم في الصيف وإقراء الضيف فنزل جبريل وقال: يا نبي الله وأنا حبب إلي من دنياكم ثلاث النزول على النبيين وتبليغ الرسالة للمرسلين والحمد لله رب العالمين ثم قال: إن الله تعالى يقول: وأنا حبب إلي من دنياكم ثلاث لسان ذاكر وقلب شاكر وجسد على البلاء صابر فالعمل بهذا كله من علامات المحبة لمن أراد الدخول في قوله ﷺ من أحبني كان معي في الجنة وفي أول الحديث إشارة تأتي في أول باب الزهد إن شاء الله تعالى ولما وصل هذا الحديث إلى الأئمة الأربعة قال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه وأنا حبب إلي من دنياكم ثلاث تحصيلي العلم في طول الليل وترك الترفع والتعالي وقلب من حب الدنيا خالٍ وقال الإمام مالك رضي الله عنه: وأنا حبب إلي من دنياكم ثلاث مجاورة روضته ﷺ وملازمة تربته وتعظيم أهل بيته وقال الإمام الشافعي رحمه الله: وأنا حبب إلي من دنياكم ثلاث معاملة الخلق بالتلطف وترك ما يؤدي إلى التكلف والاقتداء بطريق التصوف وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى وأنا حبب إلي من دنياكم ثلاث متابعة النبي ﷺ في أخباره والتبرك بأنواره وسلوك طريق آثاره [1].

---

(١) عبد الرحمن بن عبد السلام بن عبد الرحمن بن عثمان الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، تحقيق: عبد الرحيم مارديني، دار المحبة - دار آية - بيروت - دمشق - ٢٠٠١ / ٢٠٠٢، ١ / ٥٩.

مجنون أنت؟:
اجتمع طائفة من الملاحدة بأبي حنيفة - رحمه الله - فقالوا: ما الدلالة على وجود الصانع؟ فقال: دعوني، فخاطري مشغول بأمر غريب. قالوا ما هو؟ قال: بلغني أن في دجلة سفينة عظيمة مملوءة من أصناف الأمتعة العجيبة، وهي ذاهبة وراجعة من غير أحد يحركها ولا يقوم عليها، فقالوا له: مجنون أنت؟ قال: وما ذاك؟ قالوا: إن هذا لا يصدقه عاقل. فقال لهم: فكيف صدقت عقولكم أن هذا العالم بما فيه من الأنواع والأصناف والحوادث العجيبة، وهذا الفلك الدوَّار السيَّار يجري، وتحدث هذه الحوادث من غير محدث، وتتحرك هذه المتحركات بغير محرك؟ فرجعوا على أنفسهم بالملام (١).

أخطأت في خمسة:
قال وكيع: قال لي أبو حنيفة النعمان بن ثابت: أخطأت في خمسة أبواب من المناسك بمكة فعلمنيها حجام، وذاك أني جئت أريد أن أحلق رأسي فقال لي: أعراقي أنت؟ قلت: نعم، وقد كنت قلت له: بكم تحلق رأسي؟ فقال: النسك لا يشارط فيه، اجلس، فجلست منحرفاً عن القبلة، فأومأ إلي باستقبال القبلة، وأدرت رأسي من الجانب الأيسر فقال: أدر شقك الأيمن من رأسك فأدرته، فجعل يحلق رأسي وأنا ساكت، فقال لي: كبر، فجعلت أكبر حتى قمت لأذهب فقال: أين تريد؟ قلت: رحلي، فقال: صل ركعتين ثم امض، فقلت: ما ينبغي أن يكون ما رأيت من عقل هذا الحجام إلا ومعه علم؛ فقلت له: من أين لك ما رأيتك أمرتني به؟ فقال: رأيت عطاء بن أبي رباح يفعل هذا (٢).

أمؤمن أنت؟
قال أسد بن عمرو: دخل قتادة الكوفة فنزل دار أبي بردة، فخرج عليهم وقال: لا يسألني أحد عن مسألة من الحلال والحرام إلا أجبته، فقام أبو حنيفة فقال: يا أبا الخطاب، ما تقول في رجل غاب عن أهله أعواماً فظنت

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٣ / ١٢٧، والرياض الناضرة للسعدي ص ٢٥٨.
(٢) أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، البصائر والذخائر، ٥ / ١٣١.

امرأته أنه قد مات فتزوجت، ثم رجع زوجها الأول وقد ولدت ولداً، فنفاه الأول وادعاه الثاني، فكل واحد منهما قذفها أو قذفها الذي أنكرها، ما جوابها؟ ونظر أبو حنيفة إلى أصحاب قتادة وقال: إن قال فيها برأيه ليخطئن، وإن روى فيها حديثاً ليكذبن، فقال قتادة: ويحك، أوقعت هذه المسألة؟ قال: لا، قال: ولم تسأل عنها؟ قال أبو حنيفة: إنا نستعد للبلاء قبل نزوله، فإذا وقع عرفنا الدخول فيه والخروج منه، فقال قتادة: والله لا حدثتكم بشيء من الحلال والحرام، فسلوني عن التفسير؛ فقام أبو حنيفة فقال: يا أبا الخطاب، ما تقول في قول الله تعالى:{قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ} [النمل: ٤٠] قال: نعم هذا آصف بن برخيا كاتب سليمان، وكان يعلم اسم الله الأعظم، قال: وهل كان يعرف الاسم سليمان؟ قال: لا، قال: أفيجوز أن يكون في زمان نبي من هو أعلم من النبي؟ قال قتادة: والله لا حدثتكم بشيء من التفسير، سلوني عما اختلف فيه العلماء؛ فقام أبو حنيفة فقال: يا أبا الخطاب، أمؤمن أنت؟ قال: أرجو، قال: ولم؟ قال: لقول الله تعالى:{ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾} [الشعراء: ٨٢] قال أبو حنيفة: فهلا قلت كما قال إبراهيم حين قال الله تعالى:{أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى} [البقرة: ٢٦٠] فقام قتادة مغضباً، وحلف أن لا يحدثهم بشيء البتة. وأنشد:

وبيت خلا من كل خـير فنـاؤه ::: فضاق علينا وهو رحب الأمـاكن
كأنا مـع الجـدران في جنباتـه ::: دمى في انقطاع الرزق لا في المحاسـن[(١)]

أترغب حتى أسميك؟:

قال الحسن بن علي قاضي مرو: كان أبو حنيفة من أفطن الناس، وذلك أن رجلاً كان يتجمل بالستر الظاهر والسمت البين، وكان يلبس على ذلك، فقدم رجل فأودعه مالاً خطيراً وخرج حاجاً، فلما قضى نسكه عاد إلى صاحبه وطلب وديعته فجحده، فألح عليه فتمادى، وكاد يهيم الرجل، واستشار ثقة

(١) أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، البصائر والذخائر، ٦ / ٨٢.

فقال له: كف عنه وصر إلى أبي حنيفة فدواؤك عنده، فانطلق الرجل إليه وخلا به وأعمله شأنه وشرح له قصته، فقال له أبو حنيفة: لا تعلم بها أحداً، وامض راشداً وعد إلي غداً، فلما أمسى أبو حنيفة جلس كعادته واختلف الناس إليه، فجعل يتنفس الصعداء كلما سئل عن شيء، فقيل له في ذلك قال: إن هؤلاء - يعني السلطان - قد احتاجوا إلى رجل يعينونه قاضياً إلى مكان، فقال الناس: اختر من أحببت فما يحضرك إلا نجم، ثم أسبل كمه وخلا بصاحب الوديعة وقال له: أترغب حتى أسميك؟ فذهب يتمنع عليه، فقال له أبو حنيفة: اسكت فإني أبلغ لك ما تريد، فانصرف الرجل مسروراً يظن الظنون بالجاه العريض والحال الحسنة، وصار رب المال إلي أبو حنيفة فقال له: امض إلى صاحبك ولا تخبره بما بيننا ولوح بذكري، وكفاك، فمضى صاحب الوديعة إلى الرجل ذلك فوفاه ماله، فصار الرجل إلى أبي حنيفة وأعلمه رجوع المال إليه، فقال: استر عليه، ولما غدا الرجل إلى أبي حنيفة طامعاً في القضاء، نظر إليه أبو حنيفة وقال: إنه قد نظرت في أمرك فرفعت قدرك عن القضاء [(١)].

لو ناظر الشيطان قطعه:

قال أعرابيّ: سمعت خبراً استكّت منه مسامعي، واستهلّت له مدامعي. قال أبو عبد الرحمن المقرئ: كنّا عند المقام وفينا مالك بن أنس، فطلع علينا أبو حنيفة فقال مالك: لقد جاءكم رجلٌ لو ناظر الشيطان قطعه [(٢)].

قال أبو حنيفة: إذا جاء عن النبي صلى الله عليه وعلى آله شيء أخذناه، وإذا جاء عن الصحابة تخيرنا، وإذا جاء عن التابعين زاحمناهم.

---

(١) أبو حيان التوحيدي. البصائر والذخائر، ٦ / ٩٥.
(٢) أبو حيان التوحيدي. البصائر والذخائر، ٨ / ٢٠٢.

لأي شيء استحللت دخول هذه البلدة وترويع النساء والصبيان؟:

قال أبو معاذ: أهل الكوفة صاروا موالي لأبي حنيفة لأن الضحاك الحروري دخل الكوفة عنوة فجلس في الجامع فحكم بقتل الرجال وسبي الذراري، فخرج أبو حنيفة إليه بقميص ورداء فقال: أريد أن أكلمك بكلمة، قال: هات، قال: لأي شيء استحللت دخول هذه البلدة وترويع النساء والصبيان؟ قال: لأن القوم مرتدون، فقال أبو حنيفة: لم يزل كان هذا دينهم، أو كانوا على غير هذا؟ فقال: كيف قلت؟ أعد علي، فأعاد، فقال الضحاك: أخطأنا، أخطأنا، أغمدوا سيوفكم وارجعوا.

فأن كنت كاذباً فأني لا أصلح:

قال خارجة بن مصعب: دعا أبو جعفر أبا حنيفة إلى القضاء فأبى فحبسه، ثم دعا به فقال له: أترغب عما نحن فيه؟ فقال: أصلح الله أمير المؤمنين، لا أصلح للقضاء، فقال: كذبت، فقال أبو حنيفة: قد حكم علي أمير المؤمنين بأني لا أصلح لأنه نسبني إلى الكذب، فإن كنت كاذباً فإني لا أصلح، وإن كنتُ صادقاً فقد قلت: إني لا أصلح، فرده إلى الحبس.

إن كان ذاك مما ينفعكم فافعلوا:

قال عبد الله بن داود: كتب رجل كتاباً على لسان أبي حنيفة إلى والي جرجان فوصله بأربعة آلاف درهم، فقيل لأبي حنيفة فقال: إن كان ذاك مما ينفعكم فافعلوا. كان أبو حنيفة يقول: ما صليت صلاة إلا وأنا أستغفر الله من تركي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكان أبو حنيفة يقول: ابن أبي ليلى استحل مني ما لا أستحل من سنور.

يا هذا، ليس للقرآن عندك قدر؟:

أسلم أبو حنيفة ابنه حماداً إلى المعلم فعلمه الحمد فوصله بخمسمائة درهم، فقال المعلم: إن هذا عظيم، فقال أبو حنيفة: يا هذا، ليس للقرآن عندك قدر؟ (١).

(١) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ٩ / ٢١٢ - ٢١٥.

أمكنك الهرب فلم تهرب:

قال حدثنا محمد بن يحيى البصري قال: دعا المنصور أبا حنيفة والثوري ومسعراً وشريكا ليوليهم القضاء، فقال أبو حنيفة: أنا أتحامق فيكم فأقال وأتخلص، وأما مسعر فيتجان ويتخلص، وأما سفيان فيهرب، وأما شريك فيقع، فلما دخلوا عليه قال أبو حنيفة رحمه الله: أنا رجل مولى ولست من العرب ولا تكاد العرب ترضى بأن يكون عليهم مولى ومع ذلك فإني لا أصلح لهذا الأمر، فإن كنت صادقاً في قولي فلا أصلح له، وإن كنت كاذباً فلا يجوز لك أن تولي كاذباً دماء المسلمين وفروضهم. وأما سفيان فأدركه المشخص في طريق فذهب لحاجته فانصرف المشخص ينتظر فراغه فبصر سفيان سفينة فقال للملاح إن مكنتني من سفينتك وإلا ذبحت بغير سكين. تأول قول النبي ﷺ من جعل قاضياً فقد ذبح بغير سكين فأخفاه الملاح تحت السارية. وأما مسعر بن كدام فدخل على المنصور فقال له: هات يدك، كيف أنت وأولادك ودوابك؟ فقال: أخرجوه فإنه مجنون. وأما شريك فقال المنصور: تقلد فقال: أنا رجل خفيف الدماغ، فقال: تقلد وعليك بالمعصيد والنبيذ الشديد حتى يرجح عقلك، فتقلد، فهجره الثوري، وقال أمكنك الهرب فلم تهرب [١].

قل لغريمك: إن المال عندي:

ويقال: إن سبب وضع أبي حنيفة الفقه وتدوينه أنه كان في عصره اثنان حضرا إلى الحمام وأودعا صاحبه وداعة لها صورة، ودخلا الحمام. ثم إن أحدهما خرج وطلب الوداعة وأخذها وراح في سبيله. فلما خرج الآخر طلبها من الحمامي فقال له: إن صاحبك خرج وأخذها، فراح إلى الحكام في ذلك الزمان وشكاه إليهم فألزموه بالقيام بها للغريم الحاضر وقالوا له: أنت فرطت، وكان الواجب أن لا تدفع الوداعة إلا إليهما معًا كما أودعاك معًا، فبقي ذلك الرجل في حيرة لا يدري ما يصنع. فلقيه أبو حنيفة فسأله عن

(١) أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري، عقلاء المجانين، ١ / ١١.

حاله لما رآه من الفكرة والحيرة، فأخبره بقضيته، فقال له: قل لغريمك: إن المال عندي، فأحضر لي صاحبك لأدفع الوداعة إليكما، فإذا أتى به حصلت على غريمك. فكان ذلك سبب خلاص الحمامي من تلك الورطة [١].

يا أبا يوسف من كان صاحب راية طالوت؟:

عن المزني، عن الشافعي، قال: مضى أبو يوسف القاضي ليسمع المغازي من أبي إسحاق أو من غيره فأخل مجلس أبي حنيفة أياماً فلما أتاه، قال له أبو حنيفة: يا أبا يوسف من كان صاحب راية طالوت؟ قال له أبو يوسف: إنك إمام وإن لم تمسك عن هذا سألتك والله على رؤوس الملأ أيما كانت أولى بدراً أو أحداً، فإنك لا تدري أيهما كان قبل، فأمسك عنه [٢].

متى ذهب بصرك يا أبا حنيفة؟:

ودخل أبو حنيفة الحمام فرأى فيه قوماً لا مآزر لهم، فأغلق عينيه، وجعل يتهدي بيديه. فقال له أحدهم: متى ذهب بصرك يا أبا حنيفة؟ قال: منذ انكشفت عورتكم [٣].

ما ينبغي لأحد من أهل هذا الزمان أن يرى هذه الرؤيا:

قال أبو حنيفة رحمه الله: رأيت كأني نبشت قبر رسول الله ﷺ فضممت عظامه إلى صدري. فهلني، فسألت ابن سيرين، فقال: ما ينبغي لأحد من أهل هذا الزمان أن يرى هذه الرؤيا. قلت: أنا رأيتها. قال: إن صدقت رؤياك لتحيين سنة نبيك [٤].

قوموا فما لكم هنا من فرج:

وحكى الهيثم بن عدي قال: ماشيت الإمام أبا حنيفة رضي الله تعالى عنه في نفر من أصحابه إلى عيادة مريض من أهل الكوفة وكان المريض بخيلاً

(١) الصفدي، صرة الثائر على المثل السائر، ص ٧٠.
(٢) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ٢٥٣.
(٣) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ١ / ١٩٣.
(٤) الزمخشري، ربيع الأبرار، ١ / ٤٧٧.

وتواصينا على أن نعرض بالغداء فلما دخلنا وقضينا حق العيادة قال بعضنا: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا: قال فتمطى المريض وقال: ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج فغمز أبو حنيفة أصحابه وقال: قوموا فما لكم هنا من فرج (١).

فتوى أبي حنيفة:

ومن المنقول من كتاب الأذكياء أن بعض اللصوص دخل بيتًا ومعه جماعة تحت أمره ونهيه في القتل والسرقة فظفروا بصاحب البيت وأوقفوه للقتل فتدخل عليهم في إبقاء مهجته وأخذ ما في البيت بكماله فقال كبيرهم: حلفوه بالطلاق الثلاث وعلى المصحف أنه لا يعلم بهم أحدًا فأصبح الرجل يرى اللصوص يبيعون متاعه ولا يقدر أن يتكلم لأجل اليمين فجاء إلى أبي حنيفة وأعلمه بحاله فقال له: أحضر أكابر حيك وأدين جيرانك وإمام جماعتك فلما حضروا قال لهم أبو حنيفة: هل تحبون أن يرد الله على هذا الرجل متاعه؟ قالوا: نعم فقال: اجمعوا داعريكم فادخلوهم الجامع ثم أخرجوهم واحدًا واحدًا وكلما خرج منهم واحد قولوا هذا لصك فإن كان ليس بلصه قال: لا وإن كان لصه فليسكت فإذا سكت فاقبضوا عليه ففعلوا ذلك فرد الله عليه ما سرق له (٢).

لا تتعرض لأبي حنيفة:

ومنه أن الربيع صاحب المنصور كان يعادي أبا حنيفة فحضر يومًا عند أمير المؤمنين فقال الربيع: يا أمير المؤمنين إن أبا حنيفة يخالف جدك ابن عباس وكان جدك يقول إذا حلف الرجل على شيء ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو بيومين كان ذلك جائزًا وأبو حنيفة لا يجوز ذلك إلا متصلاً باليمين فقال أبو حنيفة: يا أمير المؤمنين إن الربيع يزعم أن ليس لك في رقاب جندك عهد قال: كيف ذلك؟ قال: يحلفون لك ثم يرجعون إلى منازلهم فيستثنون

(١) ابن حجة الحموي، ثمرات الأوراق، ص ١٤.
(٢) ابن حجة الحموي، ثمرات الأوراق، ص٥٠.

فتبطل أيمانهم فضحك المنصور وقال: يا ربيع لا تتعرض لأبي حنيفة.

بخمسة دراهم:

ومنه أن الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه قال دخلت البادية فاحتجت إلى الماء فجاءني أعرابي ومعه قربة ملآنة فأبى أن يبيعها إلا بخمسة دراهم فدفعتها له ثم أخذت القربة فقلت: ما رأيك يا أعرابي في السويق فقال: هات فأعطيته سويقًا ملتوتًا بزيت فجعل يأكل حتى امتلأ ثم عطش فقال: علّي بشربة فقلت: بخمسة دراهم على قدح من ماء فاستردت الخمسة وبقي الماء.

ومنه أنه كان بجوار أبي حنيفة شاب يغشى مجلسه فقال له يومًا من الأيام: يا إمام أريد التزويج إلى فلانة من أهل الكوفة وقد خطبتها من وليها فطلب مني من المهر فوق وسعي وطاقتي فقال أبو حنيفة: فاستخر الله تعالى وأعطهم ما طلبوه فلما عقدوا النكاح جاء إلى أبي حنيفة فقال: إني سألتهم أن يأخذوا مني البعض ويدعوا البعض عند الدخول فأبوا فما ترى؟ قال: احتل واقترض حتى تدخل بأهلك فإن الأمر يكون أسهل عليك من تعقيدهم ففعل ذلك فلما زفت إليه دخل بها قال له أبو حنيفة ما عليك أن تظهر الخروج بأهلك عن هذا البلد إلى موضع بعيد فاكترى الرجل جملين وأحضر آلة السفر وما يحتاج إليه وأظهر أنه يريد الخروج من البلد في طلب المعاش وأن يصحب أهله معه فاشتد ذلك على أهل المرأة وجاءوا إلى أبي حنيفة يستشيرونه فقال لهم أبو حنيفة: له أن يخرجها إلى حيث شاء فقالوا: لم نصبر على ذلك فقال: أرضوه بأن تردوا عليه ما أخذتم منه فأجابوه إلى ذلك فقال أبو حنيفة للفتى: إن القوم قد سمعوا وأجابوا إلى أن يردوا عليك ما أخذوا منك من المهر ويبروك فقال الفتى: لا بد من زيادة آخذها منهم فقال أبو حنيفة: أيهما أحب إليك أن ترضى بما بذلوا لك وإلا أقرت المرأة لرجل بدين عليها ولا يمكنك حملها ولا السفر بها حتى يقضى ما عليها من الدين قال: فقال الفتى: الله الله يا إمام لا يسمع أحد منهم بذلك

ثم أجاب وأخذ ما بذلوه من المهر [١].

تلذذ العلماء بعلمهم:

كان أبو حنيفة رحمه الله إذا أخذته لذة المسائل يقول: أين الملوك من لذة ما نحن فيه؟ لو فطنوا لقاتلونا عليه [٢].

أفيسرك أن أمك مغنية؟!:

قال ابن أبي ليلى لأبي حنيفة: أيحل النبيذ وبيعه وشراؤه؟ قال: نعم. قال: أفيسرك أن أمك نباذة؟ فقال أبو حنيفة: أيحل الغناء وسماعه. قال: نعم. قال: أفيسرك أن أمك مغنية؟

بتحليل أبي حنيفة؟!:

ووضع رجل بالكوفة على باب المسجد نبيذاً بين يديه وجعل ينادي: من يشتري رطلاً بدرهم بتحليل أبي حنيفة؟ فقال له أبو حنيفة: يا رجل إنك فعلت قبيحاً! فقال: ألست حللته؟ قال: صدقت ومن الحلال أنك تجامع امرأتك، ولو استحضرتها الجامع وجامعتها لاستقبح ذلك [٣].

قص الشعرات البيض:

قال أبو حنيفة رضي الله عنه للحجام: التقط هذه الشعرات البيض، فقال الحجام: لا تلتقطها فإنها تكثر. فقال: فإذاً التقط السود فلعلها تكثر [٤].

ضلت مقاليدك يا أبا حنيفة:

مات رجلٌ وأوصى إلى أبي حنيفة وهو غائب، فقدم أبو حنيفة وارتفع إلى ابن شبرمة، وادعى الوصية وأقام البينة، فقال له ابن شبرمة: يا أبا حنيفة، احلف

(١) ابن حجة الحموي، ثمرات الأوراق، ص ٥١.
(٢) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١ / ٩.
(٣) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١ /٣٠٤.
(٤) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١ / ٤٦١.

أن شهودك شهدوا بحقٍّ، قال: ليس علي يمينٌ، كنت غائباً، قال: ضلت مقاليدك يا أبا حنيفة، قال: ضلت مقاليدي؟ ما تقول في أعمى شج فشهد له شاهدان أن فلاناً شجه، أعلى الأعمى يمينٌ أن شهوده شهدوا بحقٍّ وهو لا يرى؟

قال أعرابيٌّ لعبد الملك: الناقة إذا كانت تمنع الحلب قومتها العصا، قال: إذن تكفأ الإناء وتكسر أنف الحالب (١).

الآن يمد أبو حنيفة رجله!

وزعموا إنَّ الأمام أبا حنيفة، رحمه الله، كان به ذات مرة ألم في رجله، فكان يمدها في المجلس بين يدي أصحابه. ثم إنّه يوماً حضر مجلسه رجل ذو هيئة كث اللحية لا يعرفه، فتوهمه فقيهًا وقبض رجله استحياء وصبر على ذلك مدة، والرجل لا يتكلم بشيء فبان له منه خلاف الظن، فمد رجله وقال ذلك (٢).

من كلام الإمام أبو حنيفة:

" إذا صح الحديث؛ فهو مذهبي ".

" لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا؛ ما لم يعلم من أين أخذناه ".

وفي رواية: " حرام على مَن لم يعرف دليلي أن يُفتي بكلامي ".

زاد في رواية: " فإننا بَشَر؛ نقول القول اليوم، ونرجع عنه غداً ".

وفي أخرى: " ويحك يا يعقوب! - وهو أبو يوسف - لا تكتب كل ما تسمع مني؛ فإني قد أرى الرأي اليوم، وأتركه غداً، وأرى الرأي غداً، وأتركه بعد غد ".

وقال الإمام أبو حنيفة: إن لم يكن العلماء أولياء الله في الأرض فليس لله فيها ولي (٣).

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ٢ / ٣٦١.
(٢) اليوسي، زهر الأكم في الأمثال و الحكم، ص ٥٩.
(٣) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١ / ٨.

وقال أبو حنيفة رحمه الله: ما أعلم أشد حزناً من المؤمن، شارك أهل الدنيا في هم المعاش، وتفرد في هم آخرته (١).

وقال أبو حنيفة: المكثر من النحو كالمكثر من غرس شجر لا يثمر (٢).

وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: إذا بليت بالسلطان فخرق دينك بالملق والروغان، ورقعه بالكفارات والاستغفار (٣).

وقال أبو حنيفة: لا خير فيمن لا يحفظ ماله ليصون به عرضه ويصل به رحمه ويستغنى به عن لئام الناس (٤).

قيل: وجد حماد بن أبي سليمان أستاذ أبي حنيفة زلة كانت منه إليه، فأظهر الإعراض عنه، فكتب إليه أبو حنيفة رقعة يقول فيها: من كان ذنبه إلى الكرام، والعفو عنه في أيدي الصالحين، وتوبته إلى الرحماء، وجنايته إلى الحكماء، كان حرياً بالسلامة، وجديراً بالتخلص من الملامة، وكان ذلك من سعادة جده، ومن التوفيق الذي لا يسلمه إلى أشد عاقبة أمره.

فلما قرأها حماد صفح عن زلته، وأعاده إلى رتبته (٥).

(١) الزمخشري، ربيع الأبرار، ١ / ٣٤٢.
(٢) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١ /١١.
(٣) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١ /٨٣.
(٤) الوطواط، غرر الخصائص الواضحة، ص١٧٠.
(٥) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ١ / ٤٥٨.

شهد أبو حنيفة نكاحاً فقالوا له تكلم، فقال: الحمد لله شكراً لنعمته، وسبحان الله خضوعاً لعظمته، ولا إله إلا الله إقراراً بتوحيده، وصلى الله على سيدنا محمد عند ذكره. إن الله عز وجل خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً، وكان ربك قديراً، على أن أحل النكاح وحرم السفاح وأمرنا بالإصلاح، ثم إن فلاناً خطب إلى فلان، فعلى اسم الله فلتكن الإجابة، وعلى الخيرة تكون منه العقدة، زوجت وأنكحت [١].

وسئل أبو حنيفة عن الغنى والفقر فقال: وهل طغى من طغى من خلق الله إلا بالغنى؟ [٢].

* * *

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ١ / ٢٤٤.
(٢) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ١ / ٤٥٤.

الإمام مالك

أعـلام الفقهـاء

الإمام مالك

مالك بن أنس: دار مع الإمامة، وهجر الدنيا لأنه إمام دار الهجرة، أبدع في الأثر فثار عليه أهل البدع، العقل الغزير علمه أن الوقار ملك، وأن العلم نور، وأن الإمامة مطلب، أسرته يمانية، ونشأته حجازية، وخلافته عراقية، ومدرسته مغربية.

مالك بن أنس في خدمة العلم كأنس بن مالك في خدمة المعلم، تشابهت قلوبهم، لبى نداء الواجب فما أبطأ، ونطق بالحكمة فما أخطأ، ثم قدم للأمة كتاب الموطأ.

خافه أعداء الملة وخصوم الشريعة، فنادوا: (يا مالك! ليقض علينا ربك) سكن الدار، وجاور الأنصار، ونشر الآثار.

أرسل إلى العالم الموطأ، فنشر في التمهيد، ورتب في الاستذكار ونثر في المدونة، وضبط في الموافقات، علومه باسقاتٌ لها طلعٌ نضيد، جادل أبا حنيفة، وعلم الشافعي، وورث علمه أحمد.

أما العقيدة: فالاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

وأما الحديث: فثقة الراوي، وعدالة الشيخ، وشهرة المتن، وأما الفقه: فموافقة الأصل، واطّراح الشواذّ، واتباع المشهور.

وأما الزهد: فإظهار النعمة، واجتناب الحرام، ومخالفة الهوى، واطرّاح الدنايا.

مالك بن أنس: هو الإيجاز في بلاغة، والبساطة في عمق، والتواضع في هيبة، رآه أبو جعفر فكبر، وقال: وطئ لنا العلم فقال له: سهل لنا الحكم.

قال له القضاء:{هَيْتَ لَكَ} [يوسف: ٢٣] ، قال:{مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ} [يوسف: ٢٣] وأتته الدنانير فصاح:{وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ} [الأحزاب: ٣٣] وطلبه

المنصب، فنادى: {فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم} [النمل: ٣٦] [(١)].

بُشِّر أنس بن مالك بن أبي عامر ذات يوم ببشرى سعيدة، فقد رزقه الله بمولود أسماه (مالكًا) كان ذلك الحدث السعيد سنة ثلاث وتسعين من الهجرة على بقعة من أطهر بقاع الأرض وهي المدينة المنورة، البلد الذي هاجر إليه رسول الله ﷺ وأصحابه، فاستنارت بهم وازدانت.

فتح مالك عينيه على الحياة، فوجد التقدير والمهابة يعم المدينة وأهلها، وكيف لا وقد حوى ترابها جثمان رسول الله ﷺ ودفن فيها، وضمت أرجاؤها حلقات العلم التي تنتشر في كل مكان.

نشأ الطفل في أسرة تشتغل بالعلم، فجده (مالك بن أبي عامر) من كبار التابعين فشجعه ذلك على حفظ القرآن الكريم، فأتم حفظه وأتقن تلاوته، لكنه لم يكتفِ بذلك بل إنه أراد حفظ أحاديث رسول الله ﷺ فذهب إلى أمه وقال لها: يا أماه إني أحب رسول الله ﷺ وأريد أن أحفظ أحاديثه، فكيف لي بذلك؟! ابتسمت أمه ابتسامة صافية، وضمته إليها، ثم ألبسته ثيابًا جميلة وعممته وقالت له: اذهب إلى (ربيعة الرأي) - وكان فقيهًا كبيرًا - وتعلم من أدبه قبل علمه.

فجلس الطفل الصغير - مالك بن أنس - يستمع إلى شيخه وينهل من علمه، وبعد انتهاء الدرس يسرع بالجلوس تحت ظلال الأشجار ليحفظ ما سمعه من معلمه؛ حتى لا ينساه، وقد رأته أخته ذات مرة وهو على هذه الحال؛ فذهبت إلى أبيها وقصت عليه ما شاهدته، فقال لها: يا بنيتي إنه يحفظ أحاديث رسول الله ﷺ وكان مالك بن أنس كغيره من الأطفال الصغار يحب اللعب؛ فشغله ذلك عن الدرس والعلم قليلاً إلى أن حدث له موقف كان له أثر كبير في حياته، فقد سأله أبوه يومًا في مسألة هو وأخوه النضر، فأصاب النضر، وأخطأ مالك في الرد على السؤال؛ فغضب منه والده، فكانت هذه الحادثة

(١) عائض بن عبد الله القرني، سلسلة القمم لأهل الهمم، ٤ / ١٠.

سببًا في عزمه على الجد والاجتهاد في العلم، فذهب من فوره إلى (ابن هرمز) وهو عالم كبير، فأخذ يتلقى العلم عليه سبع سنوات، وكان شديد الحرص على الاستفادة منه خلالها.

قال (ابن هرمز) لجاريته في يوم من الأيام: انظري من بالباب، فلم تر إلا (مالكًا) فرجعت إلى الشيخ وقالت له: لا يوجد إلا ذلك الغلام الأشقر (تعني مالكًا) فقال لها: دعيه يدخل فذلك عالم الناس!! وتعلم منه مالك كيف يرد على أصحاب البدع والضلالات، وأراد مالك المزيد، فذهب إلى نافع (مولى عبد الله بن عمر) أحد الرواة العظام الذين رووا عن ابن عمر أحاديث الرسول ﷺ وكان ينتظره في شدة الحر يترقب خروجه من منزله، ثم يصطحبه إلى المسجد، حتى إذا ما انتهى (نافع) من أداء الصلاة ومكث برهة؛ انتهز الصبي الصغير الفرصة وسأله في الحديث والفقه، فنهل من علمه وأخذ عنه ما في رأسه من نور رسول الله ﷺ.

ثم لازم مالك بن أنس المحدث الكبير (ابن شهاب الزهري) ليتعلم على يديه، وحرص على ألا يفوته درس من دروس هذا الشيخ، حتى يوم العيد نفسه وهو اليوم الذي يلهو فيه الصبيان ويمرحون، روي عن مالك أنه قال: شهدت العيد، فقلت: هذا يوم يخلو فيه ابن شهاب، فانصرفت من المصلى حتى جلست على بابه، فسمعته يقول لجاريته: انظري من بالباب، فنظرت، فسمعتها تقول: مولاك الأشقر مالك.. قال: أدخليه، فدخلت، فقال: ما أراك انصرفت بعد إلى منزلك؟ قلت: لا، قال: هل أكلت شيئًا؟ قلت: لا، قال: اطعم، قلت: لا حاجة لي فيه، قال: فما تريد؟ قلت: تحدثني.. قال لي: هات، فأخرجت ألواحي، فحدثني بأربعين حديثًا فقلت: زدني، قال: حسبك، إن كنت رويت هذه الأحاديث (أي يكفيك هذه الأحاديث إن كنت حفظتها) فأنت من الحفاظ، قلت: قد رويتها، فجذب الألواح من يدي، ثم قال: حدث، فحدثته بها، فردها إليَّ.. أي الألواح.

ولم يكن بالمدينة عالم من بعد التابعين يشبه مالكًا في العلم والفقه، والحفظ،

والعزة ولم يجلس للفتوى حتى شهد له سبعون من جلة العلماء أنه أهل لذلك، يقول الإمام مالك: (ما أجبت في الفتوى حتى سألت من هو أعلم مني: هل تراني موضعًا لذلك؟ سألت ربيعة، وسألت يحيى بن سعيد، فأمراني بذلك، فقال له رجل: فلو أنهم نهوك؟ قال مالك: كنت أنتهي، لا ينبغي للرجل أن يبذل نفسه حتى يسأل من هو أعلم منه).

اشتهر الإمام مالك بكتابه (الموطأ) وهو كتاب حديث وفقه معًا، جمع فيه ما قوي عنده من حديث أهل الحجاز وأضاف إليه أقوال الصحابة وفتاوى التابعين، ثم رتبه على أبواب الفقه كالطهارة والصلاة والزكاة، وقد عمل في هذا الكتاب نحو أربعين عامًا، وقد تلقاه الناس بالقبول، وسمى مالك كتابه بهذا الاسم لأنه مهد به للناس ما اشتمل عليه من الحديث والفقه، أو لأن العلماء المعاصرين له بالمدينة واطئوه ووافقوه عليه، وقد طُبِعَ الكتاب كثيرًا في مصر والهند.

يروى في فضله ومناقبه الكثير ولكن أهمها ما روي [عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ :﴿قال ليضربن الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة﴾.

إنه الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة، وصاحب أحد المذاهب الفقهية الأربعة في الإسلام وهو المذهب المالكي، وصاحب كتب الصحاح في السنة النبوية وهو كتاب الموطأ. يقول الإمام الشافعي: إذا ذكر العلماء فمالك النجم.

هو شيخ الإسلام حجة الأمة إمام دار الهجرة أبو عبد الله مالك بن أنس ابن مالك بن أبى عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان بن خثيل بن عمرو بن الحارث وهو ذو أصبح بن عوف بن مالك بن زيد بن شداد بن زرعة وهو حمير الأصغر الحميري ثم الأصبحي المدني حليف بني تيم من قريش فهم حلفاء عثمان أخي طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة.

وأمه هي عالية بنت شريك الأزدية وأعمامه هم أبو سهل نافع وأويس والربيع والنضر أولاد أبي عامر.

ولد مالك على الأصح في سنة ٩٣هـ عام موت أنس خادم رسول الله ﷺ ونشأ في صون ورفاهية وتجمل

طلب الإمام مالك العلم وهو حدث لم يتجاوز بضع عشرة سنة من عمره وتأهل للفتيا وجلس للإفادة وله إحدى وعشرون سنة وقصده طلبة العلم وحدث عنه جماعة وهو بعد شاب طري.

عن ابن عيينة قال مالك عالم أهل الحجاز وهو حجة زمانه.

وقال الشافعي: إذا ذكر العلماء فمالك النجم.

وعن ابن عيينة أيضًا قال: كان مالك لا يبلغ من الحديث إلا صحيحًا ولا يحدث إلا عن ثقة ما أرى المدينة إلا ستخرب بعد موته يعني من العلم.

- روي عن وهيب وكان من أبصر الناس بالحديث والرجال أنه قدم المدينة قال: فلم أرى أحدا إلا تعرف وتنكر إلا مالكًا ويحيى بن سعيد الأنصاري.

روي عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ :﴿يخرج ناس من المشرق والمغرب في طلب العلم فلا يجدون عالمًا أعلم من عالم المدينة﴾ ويروى عن ابن عيينة قال: كنت أقول هو سعيد بن المسيب حتى قلت كان في زمانه سليمان بن يسار وسالم بن عبد الله وغيرهما ثم أصبحت اليوم أقول إنه مالك لم يبق له نظير بالمدينة.

قال القاضي عياض: هذا هو الصحيح عن سفيان رواه عنه ابن مهدي وابن معين وذؤيب بن عمامه وابن المديني والزبير بن بكار وإسحاق بن أبي إسرائيل كلهم سمع سفيان يفسره بمالك أو يقول وأظنه أو أحسبه أو أراه أو كانوا يرونه.

وذكر أبو المغيرة المخزومي أن معناه ما دام المسلمون يطلبون العلم لا يجدون أعلم من عالم بالمدينة فيكون على هذا سعيد بن المسيب ثم بعده من

هو من شيوخ مالك ثم مالك ثم من قام بعده بعلمه وكان أعلم أصحابه.

ولم يكن بالمدينة عالم من بعد التابعين يشبه مالكًا في العلم والفقه والجلالة والحفظ فقد كان بها بعد الصحابة مثل سعيد بن المسيب والفقهاء السبعة والقاسم وسالم وعكرمة ونافع وطبقتهم ثم زيد بن أسلم وابن شهاب وأبي الزناد ويحيى بن سعيد وصفوان بن سليم وربيعة بن أبي عبد الرحمن وطبقتهم فلما تفانوا اشتهر ذكر مالك بها وابن أبي ذئب وعبد العزيز بن الماجشون وسليمان بن بلال وفليح بن سليمان وأقرانهم فكان مالك هو المقدم فيهم على الإطلاق والذي تضرب إليه آباط الإبل من الآفاق رحمه الله تعالى.

قال أبو عبد الله الحاكم: ما ضربت أكباد الإبل من النواحي إلى أحد من علماء المدينة دون مالك واعترفوا له وروت الأئمة عنه ممن كان أقدم منه سنًا كالليث عالم أهل مصر والمغرب والأوزاعي عالم أهل الشام ومفتيهم والثوري وهو المقدم بالكوفة وشعبة عالم أهل البصرة إلى أن قال وحمل عنه قبلهم يحيى ابن سعيد الأنصاري حين ولاه أبو جعفر قضاء القضاة فسأل مالكًا أن يكتب له مائة حديث حين خرج إلى العراق ومن قبل كان ابن جريج حمل عنه.

يروي أبو مصعب فيقول: سمعت مالكًا يقول دخلت على أبي جعفر أمير المؤمنين وقد نزل على فرش له وإذا على بساطه دابتان ما تروثان ولا تبولان وجاء صبي يخرج ثم يرجع فقال لي: أتدري من هذا؟ قلت: لا، قال: هذا ابني وإنما يفزع من هيبتك ثم ساءلني عن أشياء منها حلال ومنها حرام ثم قال لي: أنت والله أعقل الناس وأعلم الناس قلت: لا والله يا أمير المؤمنين قال: بلى ولكنك تكتم ثم قال: والله لئن بقيت لأكتبن قولك كما تكتب المصاحف ولأبعثن به إلى الآفاق فلأحملهنم عليه. فقال مالك: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا في الأمصار وإن تفعل تكن فتنة!!

مواقف من حياة الإمام مالك:

أحمد بن حنبل ومالك:

عن أبي زرعة الدمشقي قال: سمعت أحمد بن حنبل يسأل عن سفيان ومالك إذا اختلفا في الرواية، فقال: مالك أكثر في قلبي. قال: قلت فمالك والأوزاعي إذا اختلفا؟ فقال: مالك أحب إليّ، وإن كان الأوزاعي من الأئمة، قيل له: وإبراهيم (أي النخعي) فكأنه كان يرى أن إبراهيم لا ينبغي أن يقرن بمالك لأنه ليس من أهل الحديث، فقال: ضعه مع أهل زمانه (١).

وأظنك صاحب بدعة:

من أعظم مواقف الحكمة التي وقفها الإمام مالك موقفه مع من سأله عن الاستواء. فقد جاء إليه رجل وقال: يا أبا عبد الله{ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ} [طه: ٥] كيف استوى؟ فما وجد مالك من شيء ما وجد من مسألته، فنظر إلى الأرض، وجعل ينكت بعود في يده حتى علاه الرحضاء (٢)، ثم رفع رأسه ورمى بالعود، وقال: " الكيف منه غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأظنك صاحب بدعة " وأمر به فأُخْرِجَ (٣).

وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر:

ومن مواقف الإمام مالك الحكيمة ما ردّ به على بعض العُبَّاد حينما كتب إليه يعظه ويحضه على الانفراد والعزلة عن الناس، ويحضه على العمل، فكتب إليه مالك: " إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فربّ رجل فُتحَ له في الصلاة ولم يُفتَحْ له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد، فنشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد

(١) الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى - (١ / ٣٦١).
(٢) العرق إثر الحمى، أو عرق يغسل الجلد كثرة. انظر: المعجم الوسيط، مادة (رحض) ١ / ٣٣٤.
(٣) أبو نعيم في الحلية ٦ / ٣٢٥، وانظر: سير أعلام النبلاء ٨ / ١٠٠، ١٠١، ١٠٦، ومجموع فتاوى ابن تيمية ٥ / ٢٦، ٥ / ١٤٤.

رضيت بما فُتحَ لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر " (١).

ما تصنعون بربيعة وهو نائم!:

وروى الترمذي في جامعه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :﴿**يوشك أن يضرب الناس بأكباد الإبل يطلبون العلم فلا يجدون أحدا أعلم من عالم المدينة**﴾ قال: وهذا حديث حسن قال عبد الرزاق وسفيان بن عيينه: أنه مالك بن أنس ولقد حدث يومًا عن ربيعة الرأي بن عبد الرحمن فاستزاد القوم من حديثه فقال: ما تصنعون بربيعة وهو نائم في تلك الطاق؟ فأتى ربيعة فقيل له: أنت ربيعة الذي يحدث عنك مالك قال: نعم، فقيل له: فكيف حظي بك مالك ولم تحظ أنت بنفسك؟ قال: أما علمتم أن مثقالاً من دولت خير من حمل علم.

فتوى لم توافق غرض السلطان:

وسعى به إلى جعفر بن سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما وهو عم أبي جعفر المنصور وقالوا له: إنه لا يرى إيمان بيعتكم هذه بشيء فغضب جعفر ودعا به وجرده وضربه بالسياط ومدت يده حتى انخلعت كتفه وارتكب منه أمرًا عظيمًا فلم يزل بعد ذلك الضرب في علو رفعة وكأنما كانت تلك السياط حليًا حلي به وذكر ابن الجوزي في شذور العقود في سنة سبع وأربعين ومائة وفيها ضرب مالك بن أنس سبعين سوطًا لأجل فتوى لم توافق غرض السلطان والله أعلم (٢).

وليتني لم أفت بالرأي:

وحكى الحافظ أبو عبد الله الحميدي في كتاب جذوة المقتبس قال: حدث القعنبي قال: دخلت على مالك بن أنس في مرضه الذي مات فيه فسلمت

(١) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي ٨ / ١١٤.
(٢) الحطة في ذكر الصحاح الستة، ١ / ٢٣٠.

عليه ثم جلست فرأيته يبكي فقلت: يا أبا عبدالله ماالذي يبكيك فقال لي: يا ابن قعنب ومالي لا أبكي ومن أحق بالبكاء مني والله لوددت أني ضربت بكل مسألة أفتيت فيها برأي بسوط سوط وقد كانت لي السعة فيما قد سبقت إليه وليتني لم أفت بالرأي أو كما قال.

وروي أن أبا جعفر المنصور منعه من رواية الحديث في طلاق المكره ثم دس عليه من يسأله فروى على ملأ من الناس ليس على مستكره طلاق فضربه بالسياط ولم يترك رواية الحديث وقال مالك: ما كان رجل صادقًا في حديثه ولا يكذب إلا متع بعقله ولم تصبه مع الهرم آفة ولا خرف.

نسب المرء داره:

وأما زهده في الدنيا فيدل عليه ما روي أن المهدي أمير المؤمنين سأله فقال له هل لك من دار؟ فقال: لا ولكن أحدثك فيه حديثًا سمعت ربيعة بن عبد الرحمن يقول نسب المرء داره.

فلا أؤثر الدنيا على مدينة الرسول ﷺ:

وسأله الرشيد هل لك دار؟ فقال: لا فأعطاه ثلاثة آلاف دينار وقال: اشتر بها دارًا فأخذها ولم ينفقها فلما أراد الرشيد الشخوص قال لمالك: ينبغي أن تخرج معنا قال: عزمت أن أحمل الناس على الموطأ كما حمل عثمان الناس على القرآن فقال أما حمل الناس على الموطأ فليس إليه سبيل لأن أصحاب رسول الله ﷺ افترقوا بعده في الأمصار فحدثوا فعند كل أهل مصر علم وقد قال رسول الله ﷺ :﴿اختلاف أمتي رحمة﴾ وأما الخروج معك فلا سبيل إليه قال رسول الله ﷺ :﴿المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون﴾ وقال عليه الصلاة والسلام:﴿المدينة تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد﴾ وهذه دنانيركم كما هي إن شئتم فخذوها وإن شئتم فدعوها يعني إنك إنما كلفتني مفارقة المدينة لما اصطنعته إلي فلا أؤثر الدنيا على مدينة الرسول ﷺ فهكذا كان زهد مالك

في الدنيا (١).

إني أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيه نبي الله ﷺ بحافر دابة:
ولما حملت إليه الأموال الكثيرة من أطراف الدنيا لانتشار علمه وأصحابه كان يفرقها في وجوه الخير ودل سخاؤه على زهده وقلة حبه للدنيا وليس الزهد فقد المال وإنما الزهد فراغ القلب عنه ولقد كان سليمان عليه السلام في ملكه من الزهاد ويدل على احتقاره للدنيا ما روي عن الشافعي أنه قال: رأيت على باب مالك كراعًا من أفراس خراسان وبغال مصر ما رأيت أحسن منه فقلت لمالك: ما أحسنه فقال: هو هدية مني إليك يا أبا عبد الله فقلت: دع لنفسك منها دابة تركبها فقال: إني أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيه نبي الله ﷺ بحافر دابة.

والعلم يؤتى ولا يأتي:
وروي عنه أنه قال: دخلت على هارون الرشيد فقال لي: يا أبا عبدالله ينبغي أن تختلف إلينا حتى يسمع صبياننا منك الموطأ قال: فقلت أعز الله مولانا الأمير إن هذا العلم منكم خرج فإن أنتم أعززتموه عز وإن أنتم أذللتموه ذل والعلم يؤتى ولا يأتي فقال: صدقت أخرجوا إلى المسجد حتى تسمعوا مع الناس.

عسى أن يعلموا أي عمل وقع لوجه الله تعالى:
ومن كلامه لا ينبغي للعالم أن يتكلم بالعلم عند من لا يطيقه فإنه ذل وإهانة للعلم ولما صنف كتاب الموطأ في الحديث عمل علماء المدينة الموطآت على منواله فقيل لمالك قد شاركك الناس في مثل هذا التصنيف فلم تكلف هذا القدر نفسك قال: ائتوني بها أنظرها فلما نظر فيها قال عسى أن يعلموا أي عمل وقع لوجه الله تعالى فكان كذلك ولم يبق لموطآت الآخرين اسم ولا رسم إلا ما يذكر من موطأ ابن

(١) الحطة في ذكر الصحاح الستة، ١ / ٢٣٢.

أبـي ذئـب وأمـا موطـأ مالـك فهـو مخـدوم طوائـف الأنـام وبضـاعة الاجتهاد لعلماء الإسلام والقبول بقدر النية.

ما أشكل عليك فاسأله عن مالك بن أنس:

وكان من عباد وقته وأصحاب عبدالله بن المبارك أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام وقلت: يا رسول الله قد مضى عصرك وانقضى فإن وقع لي شك وشبهة في الخاطر في أمر من أمور الدين فممن أتحققه قال: ما أشكل عليك فاسأله عن مالك بن أنس.

ورأيت مالكًا قائمًا بين يديه:

وروي أيضا عن مطرف أن أبا عبدالله من موالي الليثيين قال: تشرفت بزيارة رسول الله ﷺ أي في النوم فرأيته جالسًا في المسجد وحوله رجال كالحلقة ورأيت مالكًا قائمًا بين يديه وعنده ﷺ مسك يعطيه مالكًا قبضة قبضة ومالك ينثره على الناس فعبرت هذه الرؤيا بظهور العلم النبوي أولاً في مالك ثم بواسطته في الآخرين.

مالك وارث سريري:

وروي أيضًا عن محمد بن رمح التجيبي المصري أستاذ مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في النوم وقلت: نحن مختلفون في مالك وليث أيهما أعلم فقال رسول الله ﷺ : مالك وارث سريري ففهمت حينئذ المراد به أنه وارث علمي (١).

اقتلوا هذا الزنديق:

وروي عن يحيى بن خلف بن الربيع الطرطوسي وكان من صلحاء عصره وعباد دهره أنه قال: حضرت يومًا عند مالك فأتى رجل وقال: ما نقول في القرآن أهو مخلوق أم لا؟ فقال الإمام: اقتلوا هذا الزنديق فإنه سيتولد في كلامه فتن كثيرة وقد عمت البلوى بعد مالك في هذه المسألة وقتلت جماعات

(١) الحطة في ذكر الصحاح الستة، ١ / ٢٣٦.

كثيرة من أهل السنة على عدم القول بها.

وكذا روي عن جعفر بن عبدالله أنه قال: كنا عند مالك فسأله رجل عن تفسير قوله تعالى{ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾} [طه: ٥] كيف هذا الاستواء فأظهر مالك الملال الكثير من هذا السؤال وأطرق مليًا وتفكر كثيرًا حتى عرق جبينه ثم قال: الكيف منه معقول والاستواء منه مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ثم أمر بإخراجه.

فافهم:

وروي عن أبي عروبة وهو من أولاد الزبير رضي الله عنه قال: كنا جلوسًا عند مالك يومًا فإذا رجل أتى وذكر نقائص الصحابة ومساوئهم فقال مالك: اسمع ثم تلا هذه الآية{مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ } [الفتح: ٢٩] حتى بلغ إلى{لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ} [الفتح: ٢٩] ثم قال من كان في باطنه سيء الظن بالصحابة ويعيش عدوا لهم فهو داخل في هذا اللفظ فافهم.

أفلا ينبغي لي أن أعزه وأجله؟:

وذكر أن هارون الرشيد لما قدم المدينة المنورة لزيارة النبي ﷺ، وذلك في بعض حجاته، وجه يحيى بن خالد البرمكي إلى الإمام مالك بن أنس - رضي الله تعالى عنه: احمل إليَ كتابك الذي صنعت - يعني الموطأ - أسمعه عليك، فقال مالك ليحيى: أقرئهُ السلام، وقل له؛ العلم يزار، ولا يزور، ويؤتى ولا يأتي، فرجع إلى هارون الرشيد وأخبره، ثم قال يحيى: يا أمير المؤمنين، يبلغ أهل العراق أنك وجهت إلى مالك بأمر فخالفك، اعزم عليه حتى يأتيك، فبينما هم كذلك إذا بمالك قد دخل وليس معه الكتاب، جاء مسلماً على الخليفة، فسلم وجلس، فقال له هارون: يبلغ أهل العراق أني سألتك أمراَ من الأمور سهلاً فأبيت علي، فقال مالك: يا أمير المؤمنين، إن الله قد جعلك في هذا الموضع، فلا تكنْ أول من ضيع العلم؛ فيضيعك الله تعالى، ولقد رأيت من ليس هو في حسبك ونسبك يعز هذا العلم ويجله، فأنت أحرى أن تجله، ولم يزل يعظه ويعدد عليه حتى بكى، ثم قال مالك: أخبرني الزهري، عن

خارجة، عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب الوحي عند رسول الله ﷺ :{لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ} [النساء: ٩٥]، وابن أم مكتوم عند النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أنا رجل ضرير، فهل لي رخصة - يعني في ترك الجهاد - فقال - عليه الصلاة والسلام -:《لا أدري》، قال زيد: وقلمي رطب ما جف، حتى غشي النبي ﷺ الوحي، ثم سرى عنه، فقال: " اكتب يا زيد:{غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ} [النساء: ٩٥]، قال: فحرف واحد يا أمير المؤمنين بعثَ فيه الملك جبريل من مسيرة خمسين ألف عام، حتى نزل على النبي ﷺ أفلا ينبغي لي أن أعزه وأجله؟ قال: بلى، ثم إن هارون أتى إلى منزل الإمام مالك، فسمع منه الكتاب، ووفقه الله للصواب.

ما ظننت أن أهل العلم يتكلمون بمثل هذا:

واجتمع القاضي أبو يوسف بالإمام مالك عند الرشيد، فقال له القاضي أبو يوسف: ما تقول فيمن سها بزيادة في الصلاة؟ فقال الإمام مالك: يسجد للسهو بعد السلام، فقال: فإن سها بهما، فقال: يسجد قبل السلام، فقال أبو يوسف ملتفتاً إلى الرشيد: الشيخ تارة يخطئ وتارة لا يصيب، فظن الإمام مالك أنه يقول: تارة يخطئ، وتارة يصيب، فقال: على هذا أدركنا مشايخنا من السلف الصالح، ثم نبه الإمام مالك لقول أبي يوسف ومراده، فقال: ما ظننت أن أهل العلم يتكلمون بمثل هذا، قلت: رحم الله الإمام مالكاً، ورضي عنه، فما أغفله عن مظان السوء، وما أسلم فطرته، وأخلص نيته، وأصدق طويته حيث لم يخطر بباله ذلك، ولا خطر بباله أن يخطر ببال أهل العلم [1].

خذ بيد سيدك إليك:

قال الشافعي رضي الله عنه فقلت: حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر

(١) العصامي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ٢٠٤/٢ - ٢٠٥.

وأشرت بيدي إلى القبر كإشارته حتى أعدت عليه خمسة وعشرين حديثا حدث بها من حين جلس إلى وقت قطع المجلس وسقط القرص فصلى مالك المغرب وأقبل على عبده وقال: خذ بيد سيدك إليك وسألني النهوض معه.

قال الشافعي رحمه الله: فقمت غير ممتنع إلى ما دعا من كرمه فلما أتيت الدار أدخلني الغلام إلى خلوة في الدار وقال لي: القبلة في البيت هكذا وهذا إناء فيه ماء وهذا بيت الخلاء. قال الشافعي رضي الله عنه: فما لبث مالك رضي الله عنه حتى أقبل هو والغلام حاملاً طبقا فوضعه من يده وسلم الإمام عليَّ ثم قال للعبد: اغسل علينا ثم وثب الغلام إلى الإناء وأراد أن يغسل عليَّ أولاً فصاح عليه مالك قال: الغسل في أول الطعام لرب البيت وفي آخر الطعام للضيف.

قال الشافعي رضي الله عنه: فاستحسنت ذلك من الإمام مالك رضي الله عنه وسألته عن شرحه فقال أنه يدعو الناس إلى كرمه فحكمه أن يبتدىء بالغسل وفي آخر الطعام ينتظر من يدخل فيأكل معه.

قال الشافعي رضي الله عنه: فكشف الإمام رضي الله عنه الطبق فكان فيه صفحتان في إحداهما لبن والأخرى تمر فسمى الله تعالى وسميت فأتيت أنا ومالك على جميع الطعام وعلم مالك أنا لم نأخذ من الطعام الكفاية فقال لي: يا أبا عبد الله هذا جهد من مقل إلى فقير معدم فقلت: لا عذر على من أحسن إنما العذر على من أساء.

قال الشافعي رضي الله عنه: فأقبل مالك يسألني عن أهل مكة حتى دنت العشاء الآخرة ثم قام عني وقال: حكم المسافر أن يقل تعبه بالاضطجاع فنمت ليلتي فلما كان في الثلث الأخير من الليل قرع عليَّ مالك الباب فقال لي: الصلاة يرحمك الله فرأيته حاملاً إناء فيه ماء فتبشع عليَّ ذلك فقال لي: لا يرعك ما رأيته فخدمة الضيف فرض.

قال الشافعي رضي الله عنه: فتجهزت للصلاة وصليت الفجر مع الإمام

مالك في مسجد رسول الله ﷺ والناس لا يعرف بعضهم بعضًا من شدة الغلس وجلس كل واحد منا في مصلاه يسبح الله تعالى إلى أن طلعت الشمس على رؤوس الجبال فجلس مالك في مجلسه بالأمس وناولني الموطأ أمليه وأقرؤه على الناس وهم يكتبونه.

قال الشافعي رضي الله عنه: فأتيت على حفظه من أوله إلى آخره وأقمت ضيف مالك ثمانية أشهر فما علم أحد من الأنس الذي كان بيننا أينا الضيف ثم قدم على مالك المصريون بعد قضاء حجهم للزيارة واستماع الموطأ. قال الشافعي فأمليت عليهم حفظاً منهم عبد الله بن عبد الحكم وأشهب وابن القاسم قال الربيع: وأحسب أنه ذكر الليث بن سعد ثم قدم بعد ذلك أهل العراق لزيارة النبي ﷺ.

قال الشافعي رضي الله عنه: فرأيت بين القبر والمنبر فتى جميل الوجه نظيف الثوب حسن الصلاة فتوسمت فيه خيراً فسألته عن اسمه فأخبرني وسألته عن بلده فقال: العراق فقلت: أي العراق فقال: لي الكوفة فقلت من العالم بها والمتكلم في نص الكتاب والمفتي بأخبار رسول الله ﷺ فقال لي: أبو يوسف ومحمد بن الحسن صاحبا أبي حنيفة رضي الله عنه.

وقال الشافعي رضي الله عنه: فقلت ومتى عزمتم تظعنون؟ فقال لي: في غداة غد وقت الفجر فعدت إلى مالك فقلت له خرجت من مكة في طلب العلم بغير استئذان العجوز أفأعود إليها أو أرحل في طلب العلم فقال لي: العلم فائدة يرجع منها إلى فائدة ألم تعلم أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يطلبه (١).

قال الشافعي رضي الله عنه: فلما أزمعت على السفر زودني الإمام مالك رضي الله عنه فلما كان في السحر سار معي مشيعًا إلى البقيع ثم صاح بعلو صوته من يكري راحلته إلى الكوفة فأقبلت عليه وقلت: بم تكتري وليس

(١) ابن حجة الحموي، ثمرات الأوراق، ١ / ٨٦.

معك ولا معي شيء؟ فقال لي: انصرفت البارحة بعد صلاة العشاء الآخرة إذ قرع عليَّ قارع الباب فخرجت إليه فأصبت ابن القاسم فسألني قبول هديته فقبلتها فدفع لي صرة فيها مائة دينار وقد أتيتك بنصفها وجعلت النصف لعيالي فاكترى لي بأربعة دنانير ودفع إليَّ باقي الدنانير وودعني وانصرف وسرت في جملة الحاج حتى وصلت إلى الكوفة يوم رابع عشرين من المدينة فدخلت المسجد بعد صلاة العصر وصليت فبينما أنا كذلك إذ رأيت غلامًا قد دخل المسجد وصلى العصر فما أحسن الصلاة فقمت إليه ناصحًا فقلت له: أحسن صلاتك لئلا يعذب الله هذا الوجه الجميل بالنار فقال لي: أنا أظن أنك من أهل الحجاز لأن فيكم الغلظة والجفاء وليس فيكم رقة أهل العراق وأنا أصلي هذه الصلاة خمس عشرة سنة بين يدي محمد بن الحسن وأبي يوسف فما عابا عليَّ صلاتي قط وخرج معجبًا ينفض رداءه في وجهي فلقي للتوفيق محمد بن الحسن وأبا يوسف بباب المسجد فقال: أعلمتما في صلاتي من عيب فقالا: اللهم لا قال: ففي مسجدنا هذا من عاب صلاتي فقالا: اذهب إليه فقل له بم تدخل في الصلاة؟

قال الشافعي رضي الله عنه فقال لي يا من عاب صلاتي بم تدخل في الصلاة؟ فقلت: بفرضين وسنة فعاد إليهما وأعلمهما بالجواب فعلما أنه جواب من نظر في العلم فقالا: اذهب إليه فقل له ما الفرضان؟ وما السنة؟ فأتى إليَّ فقال: ما الفرضان وما السنة فقلت له: أما الفرض الأول فالنية والثاني تكبيرة الإحرام والسنة رفع اليدين فعاد إليهما فأعلمهما بذلك فدخلا إلى المسجد فلما نظرا إليَّ أظنهما ازدرياني فجلسا ناحية وقالا: اذهب إليه وقل له أجب الشيخين.

وقال الشافعي رحمه الله تعالى فلما أتاني علمت إني مسؤول عن شيء من العلم فقلت: من حكم العلم أن يؤتى إليه وما علمت لي إليهما حاجة قال الشافعي رضي الله عنه فقاما من مجلسهما إليَّ فلما سلما عليَّ قمت إليهما وأظهرت البشاشة لهما وجلست بين أيديهما فأقبل علي محمد بن الحسن

وقال أحرمي أنت؟ فقلت: نعم، فقال: أعربي أم مولى؟ فقلت: عربي، فقال: من أي العرب؟ فقلت: من ولد المطلب قال: من ولد من قلت من ولد شافع قال: رأيت مالكا قلت من عنده أتيت قال لي: نظرت في الموطأ قلت أتيت على حفظه فعظم ذلك عليه ودعا بداوة وبياض وكتب مسألة في الطهارة ومسألة في الزكاة ومسألة في البيوع والفرائض والرهان والحج والإيلاء ومن كل باب في الفقه مسألة وجعل بين كل مسألتين بياضًا ودفع إليَّ الدرج وقال أجب عن هذه المسائل كلها من الموطأ.

قال الشافعي رضي الله عنه: فأجبت بنص كتاب الله وبسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وإجماع المسلمين في المسائل كلها ثم دفعت إليه الدرج فتأمله ونظر فيه ثم قال لعبده خذ سيدك إليك. قال الشافعي رضي الله تعالى عنه ثم سألني النهوض مع العبد فنهضت غير ممتنع فلما صرت إلى الباب قال لي العبد: إن سيدي أمرني أن لا تسير إلى المنزل إلا راكبًا. قال الشافعي رضي الله تعالى عنه فقلت له: قدم فقدم إلي بغلة بسرج محلى فلما علوت على ظهرها رأيت نفسي بأطمار رثة فطاف بي أزقة الكوفة إلى منزل محمد بن الحسن وما هم فيه فبكيت وقلت أهل العراق ينقشون سقوفهم بالذهب والفضة وأهل الحجاز يأكلون القديد ويمصون النوى ثم أقبل عليَّ محمد بن الحسن وأنا في بكائي فقال: لا يروعك يا عبد الله ما رأيت فما هو إلا من حقيقة حلال ومكتسب وما يطالبني الله فيها بفرض وإني أخرج زكاتها في كل عام فأسرَّ بها الصديق وأكبت بها العدو [1].

أطع أباك ولا تعص أمك:

قال للإمام الليثي بن سعد أن أبي ببلاد السودان وقد كتب إلي أن أذهب إليه فمنعتني أمي قال: أطع أباك ولا تعص أمك فسأل الإمام مالك عن ذلك فقال: أطع أباك ولا تعص أمك قال مؤلفه رحمه الله تعالى الذي فهمته من قول الإمام عنه أن طاعة الأم أمر لازم وأولى لأن قوله أطع أباك مصلحة،

(١) ابن حجة الحموي، ثمرات الأوراق، ١ / ٨٧.

وقوله لا تعص أمك أمر بترك المفسدة وترك المفاسد أولى من جلب المصالح إلا في مسألة: جلب المصلحة أولى من دفع المفسدة وذلك فيما لو ماتت في جوفها ولد يرجى حياته فشق جوفها مفسدة وإخراج الولد مصلحة فإخراج الولد هنا واجب قال في الروضة في باب الهبة يسن للولد أن يعدل في هبته لأبويه كما يسن للوالد أن يعمل في هبته لأولاده أي البارين فإن أراد الولد أن يزيد أحد أبويه على الآخر فالأم أولى.

حضر أبو حنيفة درس الإمام مالك ولم يعرفه فألقى الإمام مالك سؤالاً على أصحابه فأجابه أبو حنيفة فقال: من أين الرجل؟ قال: من أهل العراق، قال: من أهل بلد النفاق والشقاق فقال: تأذن لي أن أقول شيئا من القرآن قال: نعم فقرأ وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق فقال الإمام مالك ما قال الله هكذا فقال أبو حنيفة كيف قال الله قال ومن أهل المدينة فقال الحمد لله الذي حكمت على نفسك ووثب من مجلسه فلما عرفه أكرمه [١].

يا غلام من أين لك هذا؟:

كان الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه جالساً بين يدي الإمام مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه، فجاء رجل فقال لمالك: إني رجل أبيع القماري[٢]، وإني بعت في يومي هذا قمرياً فرده علي المشتري، وقال: قمريك لا يصيح، فحلفت له بالطلاق أنه لا يهدأ من الصياح، فقال له الإمام مالك: طلقت زوجتك ولا سبيل لك عليها وكان الإمام الشافعي يومئذ ابن أربع عشرة سنة، فقال لذلك الرجل: أيما أكثر: صياح قمريك أم سكوته؟ فقال: لا بل صياحه، فقال: لا طلاق عليك. فعلم بذلك الإمام مالك، فقال: يا غلام من أين لك هذا؟ فقال: لأنك حدثتني عن الزهري، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أم سلمة أن فاطمة بنت قيس قالت: يا رسول الله إن أبا جهم ومعاوية

(١) الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، ١ / ٢٢١، ٢ / ٣١٥.
(٢) والقُمْريّ: ضرب من الطير، الذكر قُمْريّ والأنثى قُمْريّة، والجمع القماريّ.

خطباني، فقال ﷺ :﴿أما معاوية فصعلوك لا مال له وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه﴾. وقد علم رسول الله ﷺ أن أبا جهم كان يأكل وينام ويستريح، وقد قال ﷺ :﴿لا يضع عصاه﴾ على المجاز، والعرب تجعل أغلب الفعلين كمداومته، ولما كان صياح قمري هذا أكثر من سكوته، جعلته كصياحه دائماً. فتعجب الإمام رضي الله تعالى عنه من احتجاجه، وقال له: أفت فقد آن لك أن تفتي فأفتى من ذلك السن(١).

من كلام الإمام مالك:

وقال الإمام مالك رضى الله عنه: ما ظهر من هذا الدين فهو حق، وما بطن منه باطل لقوله تعالى:{لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ} [التوبة: ٣٣] فهؤلاء إن اعتقدوا بأن الخلوة بالأحداث والنظر إليهم مباح فقد كفروا، ويجب على ولاةَ الأمور - أيدهم الله - قتلهم، وتطهير الأرض منهم إن لم يتوبوا. وإن اعتقدوا أنه حرام فقد فسقوا وتسقط عدالتهم فيجب على وُلاة الأمور - أيدهم الله تعالى - تعزيزهم التعزيز البالغ، وزجرَهم وردعهم عن ذلك فإن لم يرجعوا عن هذا قاتلوهم. وأما الذي حلفوه أنه لا يعاشر أهل السنة فإنه لا يجب بمعاشرة أهل السنة كفارة عليه فإنه مكره على اليمين انتهى. ثم أجاب بجواب آخر فقال: لاشك أن أهل السنة صفوة هذه الأمة فمن تابعهم، واقتدى بهم فقد سلك طريق الحق، وسبيل الناجحين ومن ضل عن طريقهم فقد ضل عن الهدى، وسلك طريق الهالكين. وهؤلاء قوم ارتكبوا بِدْعاً، ومحرماتٍ وأموراً منكرات لم يردعن أحد من أئمة السلف بجواز ما يفعلونه إن أصروا على ذلك، فهي من الكبائر الموبقات، وإن اعتقدوا إباحة؛ فربما يؤدي إلى الكفر؛ لأنه من القواعد أنه من اعتقد إباحة محرمٍ فقد كفر؛ فيجب عليهم التوبة من ذلك، والرجوع إلى الحق، واتباع الهدى، فإن لم يفعلوا وجب على ولاة الأمور - أيدهم الله تعالى - تعزيرهم التعزير البليغ، وزجرهم عن ذلك ورجوعهم إلى طريق الحق. وأما من أكره الحلف فلا كفارة عليه إذا رجع

(١) كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري، حياة الحيوان الكبرى، ٢ / ٣٥٢.

وتابع أهل السنة [١].

وقال الإمام مالك رحمه الله: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

خرج أهل الدنيا ولم يذوقوا أطيب ما فيها، قالوا: وما هو يا أبا يحيى؟ قال: معرفة الله.

ما تنعم المتنعمون بمثل ذكر الله - عز وجل.

إن الصديقين إذا قرىء عليهم القرآن طربت قلوبهم إلى الآخرة.

ما من أعمال البر شيء إلا دونه عقبه؛ فإن صبر صاحبها أفضت به إلى رَوْح، وإن جزع رجع.

كم من رجل يحب أن يلقى أخاه ويزوره فيمنعه من ذلك الشغل، والأمر يعرض له، عسى الله أن يجمع بينهما في دار لا فرقة فيها.

ثم قال: وأنا أسأل الله أن يجمع بيننا وبينكم في ظل طوبى ومستراح العابدين.

قيل له: ادع لنا ربك، قال: إنكم تستبطئون المطر، وأنا أستبطأ الحجارة.

إن لله - تعالى - عقوبات في القلب، والأبدان: ضنكاً في المعيشة، ووهناً في العبادة، ومسخطة في الرزق.

سمع مالك رجلاً يقول: لو أعطاني الله - تعالى - بيتاً صغيراً لرضيت به.

فقال له مالك: ليتك يا ابن أخي زهدت في الدنيا كما زهدت في الجنة.

الخوف من العمل ألا يتقبل أشد من العمل.

كفى بالمرء شراً ألا يكون صالحاً، ويقع في الصالحين.

وجد في بعض الكتب: سبحوا الله - أيها الصديقون - بأصوات حزينة.

---

(١) المشتولي، سلوة الأحزان للاجتناب عن مجالسة الأحداث والنسوان، ١ / ٦٢.

قال لقمان لابنه: يا بني اتخذ طاعة الله تجارة تأتك الأرباح من غير بضاعة.

ليس بحليم من نفذ غضبه في حمار، أو هرة.

أشد ما على السفيه الإعراض عن جوابه، وإظهار عدم التأثير له.

مثل الدنيا مثل الحية، مسُّها ليِّنٌ، وفي جوفها السم القاتل، يحذرها ذوو العقول، ويهوي إليها الصبيان.

قال موسى - عليه السلام -: يا رب أين أبغيك! قال: أبغني عند المنكسرة قلوبهم.

ما أشد فطام الكبير.

لو استطعت أن لا أنام لم أنم؛ مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم، ولو وجدت أعواناً لفرَّقتُهم في سائر الدنيا كلها: يا أيها الناس! النارَ النارَ.

ما عاقب الله - تعالى - قلباً بأشد من أن يسلب منه الحياء.

لم يبق لي من رَوْح الدنيا إلا ثلاثة: لقاء الإخوان، وتهجد بالقرآن، وبيتٌ خالٍ يُذْكَر الله فيه.

الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، وبعضه أفضل من بعض.

وسئل عن الإيمان فقال: قول وعمل. قيل: أيزيد وينقص؟ قال: قد ذكر الله سبحانه في غير آيٍ من القرآن أن الإيمان يزيد، فقيل: أينقص؟ قال: دع الكلام في نقصانه وكُفّ عنه، فقيل: فبعضه أفضل من بعض؟ قال: نعم.

وكان يقول: القرآن كلام الله، وكلام الله من الله، وليس من الله شيء مخلوق، ومن قال: القرآن مخلوق، فهو كافر، والذي يقف، أشد منه، يُسْتَتاب وإلا ضُربت عنقه.

وسأله أبو السَّمح قال: أيُرى الله يوم القيامة؟ فقال: نعم، يقول الله عز وجل: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)} [القيامة: ٢٢ - ٢٣]، وقال لقوم آخرين: {كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥)} [المطففين: ١٥].

وسأله الوليد بن مسلم عن هذه الأحاديث التي فيها ذكر الرؤية فقال: أمِرّوها كما جاءت بلا كيف (١).

وكان يقول: الله في السماء، وعلمه في كل مكان، لا يخلو منه شيء.

وسُئِل الإمام مالك: مَنْ أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: أبو بكر، فقيل: ثم مَنْ؟ قال: عمر، قيل: ثم مَنْ؟ قال: عثمان، قيل: ثمَّ؟ فقال: هاهنا وقف الناس، رسول الله ﷺ أمَّرَ أبا بكر على الصلاة، واختار أبو بكر عُمرَ، وجَعلها عمرُ إلى ستةٍ فاختاروا، فوقف الناس هاهنا (٢).

وكان يقول: إن أهل السنة، الذين ليس لهم لقب يعرفون به؛ لا جَهْمي ولا قدَري ولا رافضيّ.

- وليس لمن سبَّ أصحاب رسول الله ﷺ في الفيء حقٌّ، قد قسم الله الفيءَ على ثلاثة أصناف، فقال:{لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ } [الحشر: ٨]، وقال:{وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ } [الحشر: ٩]، وقال:{وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ } [الحشر: ١٠] وإنما الفَيْء لهؤلاء الثلاثة الأصناف.

وقال: أهل الأهواء بئس القوم، لا يُسَلَّم عليهم واعتزالهم أحب إلي.

وكان رحمه الله كثيرًا ما يتمثل بقول الشاعر:

وخَيْر أمورِ الدِّين ما كَانَ سُنَّةً ::: وشرُّ الأُمور المُحدَثاتُ البَدائعُ(٣)

رسالة الليث بن سعد إلى الإمام مالك:

ولعل من أفضل وأحسن أمثلة أدب الاختلاف تلك الرسالة العلمية

(١) (ترتيب المدارك): (١ / ١٧٠ - ١٧١)، و(شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة): (١ / ٣٩٨). وانظر بعض أحاديث الرؤية في (حادي الأرواح) لابن القيم: (٢٩٦ - ٣٣٠)، و(شرح العقيدة الطحاوية) لابن أبي العز تحقيق د عبد الله التركي، والشيخ شعيب الأرنؤوط: (١ / ٢١٥ - ٢١٨).
(٢) (ترتيب المدارك): (١ / ١٧٥).
(٣) أدب الاختلاف في الإسلام، ١ / ٢٩.

الرائعة التي بعث بها فقيه مصر وإمامها وعالمها الليث بن سعد إلى الامام مالك، يعرض عليه فيها وجهة نظره في أدب جم رفيع حول كثير مما كان الإمام مالك يذهب إليه ويخالفه فيه الليث بن سعد، ونظرًا لطول الرسالة نقتطف منها ما يشير إلى ذلك الأدب الرفيع الذي اختلف فيه ظله سلف هذه الأمة، وكرام علمائها، يقول الليث بن سعد:

سلامٌ عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلاَّ هو.

أما بعد: عافانا الله وإياك، وأحسن لنا العاقبة في الدنيا والآخرة.

قد بلغني كتابُك تذكر فيه من صلاح حالكم الذي يسرني، فأدام الله ذلك لكم، وأتمَّه بالعون على شكره، والزيادة من إحسانه، وذكرت نظرك في الكتب التي بعثتُ بها إليك، وإقامتك إياها، وختمك عليها بخاتمك وقد أتتنا، فجزاك الله عما قدمت منها خيرًا، فإنها كتب انتهت إلينا عنك، فأحببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها.

وذكرت أنه قد أنشَطك ما كتبتُ إليك فيه من تقويم ما أتاني عنك إلى ابتدائي بالنصيحة، ورجوت أن يكون لها عندي موضع وأنه لم يمنعك من ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيت فينا جميلاً، إلاَّ أني لم أذاكرك مثل هذا، وأنه بلغك أني أفتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم، وإني يحق علي الخوف على نفسي لاعتماد من قبلي على ما أفتيتهم به، وأن الناس تبعٌ لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة، وبها نزل القرآن.

وقد أصبت بالذي كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى، ووقع مني بالموقع الذي تحب، وما أجد أحدًا يُنسب إليه العلم أكره لشَوادِّ الفتيا، ولا أشد تفضيلاً لعلماء أهل المدينة الذين مَضَوْا، ولا آخذ لفُتْياهم فيما اتفقوا عليه مني، والحمد لله رب العالمين لا شريك له.

وأما ما ذكرت من مقام رسول الله ﷺ بالمدينة، ونزول القرآن بها عليه بين ظهراني أصحابه، وما علمهم الله منه، وأن الناس صاروا به تبعًا لهم فيه، فكما ذكرت.

وأما ما ذكرت من قول الله تعالى:{وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾} [التوبة: ١٠٠]. فإن كثيراً من أولئك السابقين الأوَّلين خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله ابتغاءَ مرضاة الله، فجنَّدوا الأجناد، واجتمع إليهم الناس فأظهروا بين ظهرْانَيْهم كتاب الله وسنة نبيه، ولم يكتموهم شيئًا علموه وكان من خلاف ربيعة لبعض ما مضى ما قد عرفت، وحضرت وسمعت قولك فيه، وقول ذوي الرأى من أهل المدينة: يحيى بن سعيد، وعبيد الله بن عمر، وكثير بن فرقد، وغير كثير ممن هو أسَنُّ منه، حتى اضطرك ما كرهت من ذلك إلى فراق مجلسه.

وذاكرتُك أنت وعبد العزيز بن عبدالله بعض ما نعيب على ربيعة من ذلك، فكنتما من الموافقين فيما أنكرت؛ تكرهان منه ما أكرهه، ومع ذلك بحمد الله عند ربيعة خير كثير، وعقل أصيل، ولسان بليغ، وفضل مستبين، وطريقة حَسَنةٌ في الإسلام، ومودة صادقة لإخوانه عامة، ولنا خاصة، رحمه الله، وغفر له، وجزاه بأحسن ما عمله إلى أن قال في ختام رسالته. وأنا أحب توفيق الله إياك وطول بقائك لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة، وما أخاف من الضيعة إذا ذهِبَ مثلك مع استئناسي بمكانك، وإن نَأَتْ الدارُ، فهذه منزلتك عندي، ورأيي فيك فاسْتيقِنْه، ولا تترك الكتابَ إليَّ بخبرك وحالك وحال ولدِك وأهلك، وحاجةٍ إن كانت لك، أو لأحدٍ يُوصَلُ بك، فإنِّي أسرُّ بذلك.

كتبت إليك، ونحن صالحون، معافون، والحمد لله.

نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولينا، وتمام ما أنعم به علينا، والسلام عليك، ورحمة الله [١].

إن الإمام مالكًا عليه رحمة الله يقول: (لا يؤخذ هذا العلم من أربعة، ويؤخذ ممن سواهم: لا يؤخذ من سفيه، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو إلى بدعته، ولا من كذّاب يكذب في أحاديث الناس وإن كان لا يتهم على حديث رسول الله ﷺ، ولا من رجل له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحمل ويحدث به).

وقال أيضا: (إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم، لقد أدركت سبعين ممن يقول: قال رسول الله ﷺ عند هذه الأساطين (وأشار إلى مسجد رسول الله ﷺ) فما أخذت عنهم شيئا، وإن أحدهم لو اؤتمن على بيت مال كان أمينًا، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن، وقدم علينا ابن شهاب فكنا نزدحم على بابه) [٢].

العلم ينقص ولا يزيد ولم يزل العلم ينقص بعد الأنبياء والكتب.

والله ما دخلت على ملك من هؤلاء الملوك حتى أصل إليه إلا نزع الله هيبته من صدري.

اعلم أنه فساد عظيم أن يتكلم الإنسان بكل ما يسمع.

ما تعلمت العلم إلا لنفسي وما تعلمت ليحتاج الناس إلي وكذلك كان الناس.

ليس هذا الجدل من الدين بشيء.

(١) محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين دراسة وتحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، القاهرة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ١٠٣/٣.

(٢) طه جابر فياض العلواني، أدب الاختلاف في الاسلام، ١ / ٢٩.

لا يؤخذ العلم عن أربعة سفيه يعلن السفه وإن كان أروى الناس وصاحب بدعة يدعو إلى هواه ومن يكذب في حديث الناس وإن كنت لا أتهمه في الحديث وصالح عابد فاضل إذا كان لا يحفظ ما يحدث به[1].

* * *

(١) المصدر: جماع العلم للشافعي: (٢٤٢)، تاريخ خليفة بن خياط: ١ / ٤٣٢، ٢ / ٧١٩، طبقات خليفة: ٢٧٥، المعارف لابن قتيبة: ٤٩٨ - ٤٩٩، المنتخب من كتاب ذيل المذيل للطبري: ١٠٦، ١٠٧، مشاهير علماء الامصار: ت (١١١٠)، الحلية: ٦ / ٣١٦، الفهرست لابن النديم مع تراجم أصحابه: ٢٨٠ - ٢٨٤، أنساب العرب لابن حزم: ١ / ٤٣٥ ٤٣٦، الفهرست للطوسي: ت (٧٤٠)، الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء: ٩ - ٦٣، طبقات الشيرازي: ٦٧، ترتيب المدارك: ١ / ١٠٢ - ٢٥٤، المبهمات في الحديث للنووي: ٣٤ / ٢، جزء فيه الأحاديث التي خولف فيها مالك بن أنس: تخريج الدارقطني ٢٥٥ / ١ ٢٦٩ / ٢، تذكرة الحفاظ لابن عبد الهادي: ٤٩ / ٢، صفة الصفوة: ٢ / ١٧٧ - ١٨٠، الكامل لابن الاثير، ٦ / ١٤٧، تهذيب الأسماء واللغات للنووي: ٢ / ٧٥ - ٧٩، وفيات الاعيان ٤ / ١٣٥ - ١٣٩، تهذيب الكمال: ١٢٩٧، تذكرة الحفاظ: ١ / ٢٠٧ - ٢١٣، العبر للذهبي:١ / ٢٧٢، مرآة الجنان لليافعي: ١ / ٣٧٣ - ٣٧٧، البداية والنهاية: ١٠ / ١٧٤ - ١٧٥، الديباج المذهب: ١ / ٥٥ - ١٣٩، تهذيب التهذيب: ١٠ / ٥، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي: ٢ / ٩٦ - ٩٧، شرح البخاري للقسطلاني: ١ / ٦، مفتاح السعادة طاش كبري زاده: ٢ / ١٢، ٨٤ - ٨٨، التاريخ الكبير: ٧ / ٣١٠، التاريخ الصغير ٢ / ٢٢٠، الطبقات الكبرى للشعراني: ٤٥، شذرات الذهب: ٢ / ١٢ - ١٥، تذهيب التهذيب: ٤ / ١٤ / ٢ - ١ / ٢، الكاشف: ٣ / ١١٢، تاريخ ابن معين: ٢ / ٥٤٣ - ٥٤٦، الانساب: ١ / ٢٨٧، اللباب: ١ / ٦٩، الرسالة المستطرفة: ١٣، مروج الذهب: ٣ / ٣٥٠، طبقات الحفاظ: ٨٩، تاريخ الخميس: ٢ / ٣٣٣، طبقات القراء: ٢ / ٣٥. كتاب جامع الأصول - (١ / ١٨٠).

الفقيه القاضي شريك بن عبد الله

شريك بن عبد الله

أعـلام الفقهـاء

الفقيه القاضي شريك بن عبد الله

في مدينة (بُخارى) بجمهورية أوزبكستان الإسلامية الآن، وُلِدَ شريك بن عبد الله النخعي سنة خمس وتسعين للهجرة، ولمَّا بلغ من العمر تسع سنوات أتم حفظ القرآن الكريم، ثم درس الفقه والحديث، وأصبح من حفاظ أحاديث رسول الله ﷺ.

وفي مدينة الكوفة اشتهر بعلمه وفضله، فأخذ يعلم الناس ويفتيهم في أمور دينهم، وكان لا يبخل بعلمه على أحد، ولا يُفَرِقُ في مجلس علمه بين فقير وغني.

وقد عُرِضَ عليه أن يتولى القضاء لكنه امتنع وأراد أن يهرب من هذه المسئولية العظيمة، خوفًا من أن يظلم صاحب حق، فعندما دعاه الخليفة المنصور، وقال له:إني أريد أن أوليك القضاء، قال شريك: اعفني يا أمير المؤمنين، قال: لست أعفيك.. فقبل تولي القضاء، وأخذ شريك ينظر في المظالم ويحكم فيها بالعدل، ولا يخشى في الله لومة لائم.

وقد أثنى عليه العلماء والفقهاء فعَن عباد بْن عمار قالَ: قدم علينا مَعْمَر وشريك فتركنا مَعْمَراً وكتبنا عَن شريك قلت له: لم ؟ قال: كان أرجح عندنا منه.

عَن ابن المبارك قال: بقي بالعراق رجلان: شريك وشعبة؛ فلما بلغ سُفْيَان أن شريكاً استقضى قال: أي رجل أفسدوا.

وخلَّفَ شريكٌ ثلثمائة ألف درهم، وما فيها دينار واحد.

قال معاوية بن صالح الأشعري: سألت أحمد بن حنبل عن شريك، فقال:

كان عاقلاً، صدوقا، محدثًا، وكان شديدًا على أهل الريب والبدع، قديم السماع من أبي إسحاق قبل زهير، وقبل إسرائيل.

فقلت له: إسرائيل أثبت منه؟ قال: نعم. قلت له: يحتج به؟ قال: لا تسألني عن رأيي في هذا. قلت: فإسرائيل يحتج به؟قال: إي لعمري.

مات بالكوفة، في أول شهر ذي القعدة، سنة سبع. وعاش: اثنتين وثمانين سنة.

وقال خليفة بن خياط: مات سنة سبع أو ثمان وسبعين ومائة، رحمه الله تعالى. وكان هارون الرشيد بالحيرة، فقصده ليصلي عليه فوجدهم قد صلوا عليه، فرجع.

[أدرك عمر بن عبد العزيز وسمع أبا أسحاق السبيعي ومنصور بن المعتمر وعبد الملك بن عمير وسماك بن حرب وغيرهم، وروى عند عبد الله بن المبارك وعباد بن العوام ووكيع بن الجراح وغيرهم.

وكان عالماً فهماً كيساً فطناً، وكان عادلاً في قضائه كثير الصواب حاضر الجواب.

مواقف من حياته:

هكذا يطلب العلم:

يحكى أن أحد أبناء الخليفة المهدي دخل عليه، فجلس يستمع إلى دروس العلم التي يلقيها شريك، وأراد أن يسأل سؤالاً؛ فسأله وهو مستند على الحائط، وكأنه لا يحترم مجلس العلم، فلم يلتفت إليه شريك، فأعاد الأميرُ السؤالَ مرة أخرى، لكنه لم يلتفت إليه وأعرض عنه؛ فقال له الحاضرون: كأنك تستخف بأولاد الخليفة، ولا تقدرهم حق قدرهم؟ فقال شريك: لا، ولكن العلم أزين عند أهله من أن تضيِّعوه، فما كان من ابن الخليفة إلا أن جلس على ركبتيه ثم سأله، فقال شريك: هكذا يطلب العلم.

اقض علي وعلى ولدي:

أَخْبَرَنِي مُحَمَّد بْن زكريا بْن دينار، قال:حَدَّثَنَا علي بْن الحَسَن الشبرمي ابن أخت شريك لما دعا المهدي شريكاً ليوليه القضاء قَالَ لَهُ شَرِيْكٌ: لا أصلح لذلك. قال: ولم ؟ قَالَ: إن بي نتناً، قال: عليك بمضغ اللبان قال: إني حديد قالَ:قد فرض لك أمير المؤمنين فالوذجة توفرك، قال: إني أمرؤ أقضي على

الوارد والصادر، قالَ: اقض علي وعلى ولدي؛ قال: فاكفني حاشيتك، قال: قد فعلت.

تشدد شريك بن عبد الله في إحقاق الحق:

عن عمر بن الهيام بن سعيد، قال: أتته امرأة يوماً - يعني شريكاً - من ولد جرير بن عبد الله البجلي صاحب النبي ﷺ وهو في مجلس الحكم، فقالت: أنا بالله ثم بالقاضي، امرأةٌ من ولد جرير بن عبد الله صاحب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ورددت الكلام، فقال: إيهاً عنك، الآن من ظلمك؟ قالت: الأمير عيسى بن موسى، كان لي بستانٌ على شاطئ الفرات، لي فيه نخلٌ، ورثته عن آبائي، وقاسمت إخوتي، وبنيت بيني وبينهم حائطاً، وجعلت فيه رجلاً فارسياً في بيتٍ يحفظ لي النخل ويقوم ببستاني، فاشترى الأمير عيسى من إخوتي جميعاً وسامني فأرغبني فلم أبعه، فلما كان في هذه الليلة بعث خمسمائة فاعلٍ فاقتلعوا الحائط، فأصبحت لا أعرف من نخلي شيئاً واختلط بنخل إخوتي. قال: يا غلام! طينة، فختم لها خاتماً، ثم قال لها: امضي به إلى بابه حتى يحضر معك.

فجاءت المرأة بالطينة فأخذها الحاجب ودخل على عيسى، فقال له: أعدي شريكٌ عليك، قال له: ادع لي صاحب الشرطة، فدعا به، فقال: امض إلى شريك فقل له: يا سبحان الله! ما رأيت أعجب من أمرك، امرأة ادعت دعوى لم تصح، أعديتها علي؟ فقال: إن رأى الأمير أن يعفيني فليفعل، فقال: امض ويلك.

فخرج فأمر غلمانه أن يتقدموا إلى الحبس بفراشٍ وغير ذلك من آلة الحبس، فلما جاء وقف بين يدي شريكٍ القاضي فأدى الرسالة، فقال لصاحبه: خذ بيده فضعه في الحبس، قال: قد - والله يا أبا عبد الله - عرفت أنك تفعل بي هذا، فقدمت ما يصلحني إلى الحبس.

قال: وبلغ عيسى بن موسى ذلك فوجه بحاجبه إليه، فقال: هذا من ذاك، رسول أي شيءٍ أنت؟ فأدى الرسالة، فألحقه بصاحبه فحبس.

فلما صلى الأمير العصر بعث إلى إسحاق بن صباح الأشعثي وإلى جماعة مو وجوه الكوفة من أصدقاء شريك، فقال: امضوا إليه وأبلغوه السلام وأعلموه أنه قد استخف بي، فإني لست كالعامة.

فمضوا وهو جالسٌ في مسجده بعد العصر، فدخلوا إليه فأبلغوه الرسالة، فلما انقضى كلامهم، قال لهم: مالي لا أراكم جئتم في غيره من الناس؟! من هاهنا من فتيان الحي؟ فابتدروه، فقال: يأخذ كل واحد منكم بيد رجلٍ من هؤلاء فيذهب به إلى الحبس، لابتم - والله - إلا فيه، قالوا: أجادٌ أنت؟ قال: حقا، حتى لا تعودوا تحملوا رسالة ظالم، فحبسهم.

فركب عيسى بن موسى في الليل إلى باب الحبس ففتح الباب وأخذهم جميعاً، فلما كان من الغد وجلس شريكٌ للقضاء، جاء السجان وأخبره، فدعا بالقمطر فختمها ووجه بها إلى منزله، وقال لغلامه: الحقني بثقلي إلى بغداد، والله ما طلبنا هذا الأمر منهم، ولكن أكرهونا عليه، ولقد ضمنوا لنا الإعزاز فيه.

ومضى نحو قنطرة الكوفة يريد بغداد، وبلغ عيسى بن موسى الخبر، فركب في موكبه فلحقه وجعل يناشده الله ويقول: يا أبا عبد الله! تثبت، انظر إخوانك تحبسهم؟ دع أعواني، قال: نعم، لأنهم مشوا لك في أمرٍ لم يجب عليهم المشي فيه، ولست ببارح أو يردوا جميعاً إلى الحبس، وإلا مضيت من فوري إلى أمير المؤمنين فاستعفيته فيما قلدني.

فأمر بردهم جميعاً إلى الحبس، وهو - والله - واقفٌ مكانه حتى جاء السجان، فقال: قد رجعوا إلى الحبس، فقال لأعوانه: خذوا بلجامه قودوه بين يدي إلى مجلس الحكم، فمروا به بين يديه حتى دخل المسجد، وجلس مجلس القضاء، ثم قال: الجريرية المتظلمة من هذا؟ فجاءت، فقال: هذا خصمك قد حضر، فلما جلس معها بين يديه قال: يخرج أولئك من الحبس قبل كل شيءٍ، ثم قال: ما تقول فيما تدعيه هذه؟ قال: صدقت، فقال: ترد جميع ما أخذ منها إليها وتبني حائطها في أسرع وقت، كما هدم، قال:

أفعل، أبقي لك شيءٌ؟ قال: تقول المرأة: نعم، وبيت الفارسي ومتاعه، قال: وبيت الفارسي ومتاعه، فقال شريك: أبقي شيءٌ تدعينه عليه؟ قالت: لا، وجزاك الله خيراً، قال: قومي، وزبرها، ثم وثب من مجلسه فأخذ بيد عيسى بن موسى فأجلسه في مجلسه، ثم قال: السلام عليك أيها الأمير، تأمر بشيء؟ قال: بأي شيءٍ آمر؟ وضحك (١).

لا بد للناس من قاضي:

عن زيد بن أبي خداش قال: لقي سفيان شريكاً بعد ما ولي قضاء الكوفة، فقال: يا أبا عبد الله بعد الإسلام والفقه والخير تلي القضاء وصرت قاضياً؟! فقال له شريك: يا أبا عبد الله لا بد للناس من قاضي؛ فقال له سفيان: يا أبا عبد الله لا بد للناس من شرطي (٢).

إذَا شئتَ فَعُدْ:

حَدَّثَنِيْ مُحَمَّد بْن حمزة العلوي، قالَ:حَدَّثَنِيْ أَبُو عُثْمَان المازني، قالَ: حَدَّثَنِيْ إبراهيم بْن عَبْد الرحمن بْن مهدي عَن أبيه، قالَ: حَدَّثَنِيْ شريك بْن عَبْد اللهِ، قالَ: سعى ابْن الربيع إلى المهدي وزعم أني رافضي، قالَ: فأرسل إلي فأُخِذت أخذاً عنيفاً وعلى كُمِّهِ لاطئة وكساء أبيض وخفان، فدخلت عليه فسلمت، فقال:لا سلم الله عليك! قالَ: قلت يا أمير المؤمنين إن الله يقول:{ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ } [النساء: ٨٦]، فو الله ما حييتني بأحسن من تحيتي ولا رددتها علي، قال: ألم أوطئ الرجالَ عقبيك وأنت رافضي ملعون! قالَ: قلت: يا أمير المؤمنين مثلك لا يمن بمعروفه، وأما قولك: إني رافضي، فإن كان الرافضي مَنْ أَحَبَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ وفاطمة وعلياً والحَسَنَ والحسينَ صلوات الله عليهم أجمعين، فأنا أشهد الله وأشهدك أني رافضي أتبعهم يا أمير المؤمنين. قال: معاذ الله، ثم قالَ: ما أحسبنا إلاّ وقد روعناك، هاتوا بدرة، فأتوا ببدرة فدفعت إلي فحملها على

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١ / ١٣٩ - ١٤٠.
(٢) أبو نعيم، الحلية، ٤٧/٧.

عنقي، فلما خرجت قالَ لي الربيع:كيف رأيت ؟ قالَ:قلت: إذا شئتَ فعُدْ.

مثل هَذَا يطأ بساط أمير المؤمنين!:

أَخْبَرَنِي طلحة بْن عَبْد اللهِ بْن مُحَمَّد بْن إسماعيل التيمي قالَ: حَدَّثَنِيْ أَحْمَد ابن إبراهيم بْن إسماعيل بْن داود، قال: تناظر عَبْد اللهِ بْن مصعب وشريك بين يدي المهدي فلم يدرك عَبْد اللهِ شريكاً لتبحره، فقالَ عَبْدُ اللهِ: مثل هَذَا يطأ بساط أمير المؤمنين؟ قالَ شريك: فمن يطأ بساط أمير المؤمنين؟ والله إني لقارئ للقرآن عالم به وبالتعبير، راوية للحديث والفقه، وإني لرجل من العرب متوسط في قوس. فقالَ عَبْدُ اللهِ: إنك تشتم أبا بكر وعُمَر، فقالَ شريك: والله ما استحللت ذلك من الزبير، فكيف أستحله من أبي بكر وعُمَر.

لا بأس به:

قالَ منصور بْن أبي بكر بْن أبي مزاحم: اجتمع عند أبي عَبْد اللهِ الحسين ابْن يزيد، الْحَسَنُ وناس من أهل المدينة فتذاكروا النبيذ فأجمعوا على تحريمه، ودخل شريك فجلس فقالَ أَبُو عبيد الله لشريك: يا أبا عَبْد اللهِ ما تقول في النبيذ؟ فقال: لا بأس به.

أهل الحديث أشد صيانة للحديث من أن يعرضوه للتكذيب:

عَن عَمْرو بْن ميمون قال: قالَ عُمَر: نأكل هَذَا اللحم الغليظ ونشرب عليه النبيذ نقطعه في بطوننا، فقالَ: الْحَسَن بْن زيد: ما سمعنا بهَذَا، فقالَ لَهُ شريك: أجل والله، شغلك الجلوس على الطنافس في صدور المجالس أن تسمع بهَذَا، قالَ: ثم سكت وسكتوا. قالَ أَبُو عَبْد اللهِ لشريك: تحدث يا أبا عبيد الله!قالَ شريك: أهل الحديث أشد صيانة للحديث من أن يعرضوه للتكذيب.

ما ظننت أنني أبقى حتى أرى في الدنيا مثلك:

عَن الحَسَن بْن قحطبة قال: غدوت على المهدي بغلس [(١)] فدخلت عليه فسلمت فرد السلام وما قالَ لي: اقعد، ثم قالَ للخادم: انظر من بالباب؟ قال: شريك، قال: علي بجراب السيوف، قالَ الحَسَن: فاشتملتني رعدة ثم قال: ائذن له فدخل شريك فسلم فلم يرد عليه السلام، ثم قال: قتلني الله إن لم أقتلك، قال: ولم ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت في النوم أني مقبل عليك أكلمك وأنت تجيني من قفاك، فأرسلت إلى المعبر فقال: هَذَا رجل يطأ بساطك مخالفاً لك. فقالَ لهُ شريك: إن رؤياك ليست رؤيا يوسف بْن يعقوب، وإن الدماء لا تستحل بالأحلام، قال: فنكس المهدي ساعة ثم قالَ: بيده هكذا: أي اخرج، ثم أقبل عليَّ المهديُّ فكلمني ثم خرجت، فإذا شريك واقف فقالَ لي: أما رأيت ما أراد أن يصنع هَذَا بنا؟ فقلت: لله درك، ما ظننت أنني أبقى حتى أرى في الدنيا مثلك.

يا غلام اضمن ثمن العود:

حَدَّثَ أبُو العيناء مُحَمَّد بْن القاسم قال: سمعت علي بْن صالح صاحب المصلى يقول: دخل شريك على المهدي فأراد أن يعجزه فقال: يا غلام أعطني عوداً، قال: فجاء بالعود الذي يغني به، فلما رآه المهدي استحيى من شريك، ثم قال: هَذَا أخذه صاحب العسس البارحة فأحببت أن يكون كسره بحضرتك، ثم قال: يا أبا عَبْد اللهِ، ما تقول فيمن أمر بأمر فخالف إلى غيره، فتلف الشيء؟ قال: يضمن، قالَ: فقال: يا غلام اضمن ثمن العود.

(١) الغلسُ:بفتحتين: ظلام آخر الليل، و " غَلَّسَ " القوم " تغْلِيسًا " خرجوا " بغَلس "، و " غَلَّسَ " في الصلاة صلاها " بغَلس "..

ولو أخذوا بـالحزم ما سمنوا الكلبا:

قـالَ سليمان بْن الربيـع بْـن هشـام المهدي، : حَـدَّثَ الحـارث بْـن إدريـس أن شريكاً دخل علـى هـارون فـي أول ولايتـه وعنده أبُو يوسف يتحـاور الكلام، فدخل أبُو يوسف في كلامهما يريد أن ينقص شريكاً، فقالَ شريك: يا يعقوب:

هم سمنوا كلبـاً ليأكـل لحمهـم ::: ولو أخذوا بالحزم ما سمنوا الكلبـا

اذهب فلا حاجة لنا في معونتك:

قالَ أَحْمَد بْن إبراهيم بْن إسماعيل بْن داود: ولي المهدي شريك بْن عَبْد اللهِ القسم بالكوفة وهو يومئذ قاض عليها يقسم فأعطى العربي اثنـي عشر، وأعطى المولى ثمانية، وأعطى من حسن إسلامه أربعة فضج الموالي والعجم من ذلك، فجعل يسأم العجم ويسأمونه ويغيظهم ويتقونه، ثم كلمه الموالي، فقالَ لَهُم: أرأيتم أنتم ما حجتكم علي؟ قالوا: فضلت العرب علينا بأربعة، قال: هذه أربعة أخذتها من النبط فأعطيها العرب ولم أنقصكم أنتم شيئاً.

وكان شريك دعا عيينة القارئ ليقسم معه فقالَ لَهُ: هَذَا ظلم ولست أدخل فيه، قالَ: لتفعلن أو لأؤدبنك، فقال:حَدَّثَنَا شريك بإسناد لم يحفظه أَحْمَد قال: قالَ علي بْن أبي طالب رضي الله عنه: أنه ولي توزيع القسم من أهل هَذَا المصر رجل فغضب بين الموالي والعجم والعرب لغير وشدة، قالَ: اذهب فلا حاجة لنا في معونتك.

زعموا أنك فاطمي:

قال مُحَمَّد بْن عُمَر: كان أبُو سيف وعافية الأودي يحسدان شريكاً ويقعان به ويعيبانه عند الخليفة، وإذا حضر لم يشقا غباره ولم يتكلما معه، فقالا لـه: إنـه فاطمي يرى شق عصا المسلمين والخروج على الأئمة، ودخل شريك على نفيه، ذلك، قالَ له هارون:زعموا أنك فاطمي، فقال، والله إنـي لأحب فاطمة وأبا فاطمة وزوج فاطمة وابني فاطمة أفتبغضهم؟ قالَ: لا،

قال: فما ذكر العزم في مجلسك يا أمير المؤمنين، قالَ هارون: صدق ما ذكركم العزم. فقالَ شريك:ما هَذَان وهَذَا المجلس؟ أما هَذَا فرأينا أباه فلاسًا يعني أبا يوسف، وأما هَذَا فرأيته رائضاً بالأمس، فحدثت علي بْن حكيم بهَذَا الحديث فقال: إنما كان عاملاً على رستاق في حداثته.

ليس لي بأخ:

عَنْ عَبْدِ السلام بْن حارث قال: قلت لشريك: هَلْ لك في أخ لك تعوده؟ قال: من هو؟ قلت: مالك بْن مغول، قال: ليس لي بأخ من أزرى على علي وعمار.

صاحبك الهم:

حَدَّثَ موسى بْن طالب عَن أبيه قالَ: قلت لشريك: يا أبا عَبْد اللهِ إني في ناحية ما يمكنني أن أذكر فضل أبي بكر وعُمَر، قال: صاحبك الهم، ما أدركت أحداً يفضل على أبي بكر وعُمَر علياً إلاَّ أصلبته مفتضحاً، قلت: يا أبا عَبْد اللهِ إني لي قرابة من الرافضة أعطيهم من الزكاة؟ قال: لا.

هم الملوك يعزلون ويخلعون:

قالَ سليمان بْن أبي شيخ: قالَ موسى بْن عيسى لشريك: يا أبا عَبْد اللهِ عزلوك عَن القضاء. فقال: ما رأينا قاضياً عزل قالَ: هم الملوك يعزلون ويخلعون. يعرض أن أباه خلع.

يا عَبْد اللهِ هَذَا ميدان لا نجاريك فيه:

حَدَّثَ إسحاق بْن القصار وكان من أصحاب الحديث وغيره أن القاسم ابْن معن حضر شريك بْن عَبْد اللهِ عند موسى بْن عيسى، فقالَ القاسم لشريك: ما تقول في رجل رمى رجل بسهم فقتله، فقال: يرمى بسهم فيقتل؛ قالَ له القاسم: فإن لم يقتله أيرمى بآخر؟ قال: نعم، قال: أفنتخذه غرضاً؟ فقالَ لَهُ شريك:لم تموق[1] فقالَ القاسم: يا عَبْد اللهِ هَذَا ميدان لا نجاريك فيه، أنت

(١) المُوْقُ: حُمْقٌ في غَبَاوَةٍ.

فِيْهِ سابق يعني البذاء.

وما يضر عالماً إن جهل جاهل:

قالَ أَحْمَد بْن إسحاق الموصلي: حدث شريك يوماً عند أبي عبيد الله بحديث فقالَ عافية القاضي: ما سمعنا هَذَا الحديث، فقالَ شريك: وما يضر عالماً إن جهل جاهل.

لقد صدقت ولكن بئسما ولدوا:

قال الحارث بْن إدريس: كنا عند شريك وعنده عصابة، فجاء غلام عليه صوف فتخطى حتى جلس إلى جانب شريك، فقالَ شريك: ممن أنت؟ فانتهى إلى الأنصار، فقالَ شريك:

لئن فخرت بآباء مضوا سلفاً ::: لقد صدقت ولكن بئسما ولدوا

إني لأظنك زنديقاً!:

حَدَّثْ أَحْمَد بْن إبراهيم بْن إسماعيل بْن داود، قالَ موسى بْن عيسى لشريك: بلغني أنك تورث بني البنات، قالَ: نعم. قالَ: إني لأظنك زنديقاً! قال: الزنديق يشرب الخمر وينكح حرم أبيه ولم أفعل أنا ذاك قط، فكيف أكون زنديقاً؟ قالَ: غضبت يا أبا عَبْدِ اللهِ؟ قال: إنك لم تَعْنِ غيري.

ارجع فلا شهادة لك عندي:

وذكر مسلم بْن جنادة عَن أبي نعيم قال: كان شريك لا يجيز شهادة الرافضة ولا المرجئة، قالَ أَبُو نعيم: ونظر شريك إلى رجل يُقالُ له زكريا ابن يحيى فقالَ لَهُ شريك: ألست الذي يقول: الصلاة ليست من الإيمان في شيء، ارجع فلا شهادة لك عندي.

فقد خون أصحاب مُحَمَّد ﷺ:

عَن حفص بْن غياث، قال: كان شريك يقول من زعم أنه كان في الشورى خير من عُثْمَان فقد خون أصحاب مُحَمَّد ﷺ، قالَ الطلحي: فحدثت به عَبْد اللهِ بْن داود الجرمي فقالَ: رحم الله عُثْمَان ورحم الله شريكاً أنا أقول كما

قال.

ضع قلمنا والحق بأهلك:

قَالَ سليمان بْن أبي شيخ: كان لشريك كاتب يُقَالُ له: أبُو إسرائيل وهو أسن من شريك، فجاء شريك يوماً إلى مجلس القضاء. وقام يركع فدنا رجل من الكاتب فسأله عَن شيء من أمر القاضي، قال: متى يجلس أو نحو ذلك، فانفتل شريك، فقَالَ: ضع قلمنا والحق بأهلك، فغضب أبُو إسرائيل وقال: ما شيء أغيظ إلي من قوله ضع قلمنا، ليت ذلك القلم في عينيه.

إنما كان يغضب مما يرد عليه مما لا يعرف الجواب فيه:

قَالَ إسماعيل بْن حماد بْن القاسم بْن معن كنت أرى شريكاً يغضب على الخصم، فأعجب من غضبه وأقول: أمره نافذ وقوله جائز ففيم الغضب؟ فلما وليت القضاء جعلت أكلم الخصوم فلا أغضب فإذا ورد علي الأمر لا أعرفه غضبت فإذا شريك إنما كان يغضب مما يرد عليه مما لا يعرف الجواب فيه.

فكلمه يحبسني:

عَن سليمان بْن أبي شيخ، قَالَ: دخلت سكة البريد بواسط في حاجة لي فلما خرجت تلقاني شريك على دابة من دواب البريد معه حرسي على دابة أخرى فدخل السكة، فرجعت فسلمت عليه فعرضت عليه الحاجة فقال: إن كان بينك وبين صاحب البريد معرفة فكلمه يحبسني ما قدر عليه، فإن هَذَا الحرسي قد أتعبني، فكلمه فحبسه ثلاثة أيام والحرسي يعجله حتى حمله بعد ثلاث، فمضى به إِلَى الأهواز فأجلسه على القضاء، فجلس فجعل لا يتكلم حتى قام فهرب واختفى، ويُقَالُ: إنه اختفى عند الوالي وهو مُحَمَّد بْن الحَسَن العَبْدي.

أفت بهذَا أهل دار بلال:

قالَ يزيد بْن نوح النخعي وكان من أعوان شريك: قدم ابن إدريس إلى شريك في وصية. فأمر به إلى الحبس والحبس يومئذ في دار بلال، فالتفت إلى شريك وهو يذهب به إلى الحبس يقول: الحكم فيَّ كذا وكذا يفتيه، فقالَ لهُ شريك: أفت بهذَا أهل دار بلال.

ما تقول في التعزية عند القبر:

قالَ رجل لشريك: يا أبا عَبْد اللهِ، ما تقول في التعزية عند القبر وقد عزى الرجل قبل ذلك؟ فضحك شريك وقال: هَذَا ينبغي أن يشهد بالموافاة يعني بمجيئه.

بلغك أني مأوى الضالة!:

قالَ ابن أبي شيخ: جاء رجل إلى شريك وهو على القضاء بكيس فقالَ: إن رجلاً من أهل خراسان خلف عندي هَذَا وأول عبيه وخرج للحج فلم يرجع قالَ:فتريد ماذا؟ قالَ: تصيره عند بعض أصحابك إلى أن يجيء صاحبه، فقالَ لهُ شريك: بلغك أني مأوى الضالة! وأبى أن يقبله.

بأي شيء تستحل رد شهادتنا!:

عَن النميري قالَ: تقدم إلى شريكٍ مُحَمَّدُ بْن الصباح وحماد بْن أبي حنيفة فشهدوا عنده بشهادة، فلما نظر إليهما قد أقبلا قالَ: ها هنا ها هنا إلي يرفعهما في المجلس، فعلم أنه قد رد شهادتهما فانثنى مُحَمَّد منصرفاً وجلس حماد بين يديه فقالَ: بأي شيء تستحل رد شهادتنا؟ قال: بتصدرك وتصدر أبيك في هَذَا المسجد تدعوان إلى البدع وخلاف سنة رسول الله ﷺ.

أراد أن يخطئ فأصاب. :

عَن ابن أبي شيخ، قَالَ: حَدَّثَنِيْ بعض الكوفيين قال: قَالَ رجل لشريك: رجل لا يرى القنوت في الفجر، فأراد ألا يقنت فيها فقنت، فَقَالَ شريك: أراد أن يخطئ فأصاب.

من أعز أمر الله أعزه:

عَن عمير بْن هياج بْن سعيد الهمداني ابن أخي مجالد قال: كنت في صحابة شريك فأتته يوماً وهو في منزله فخرج في فرو ليس تحته قميص عليه كساء فقلت: قد أضحيت عَن مجلس الحكم، فقَالَ: غسلت ثيابي أنتظر جفوفها، فجلسنا نتذاكر باب العَبْد يتزوج بغير إذن سيده، وكانت الخيزران قد وجهت رجلاً من النصارى على الطراز بالكوفة وكتبت إِلى عيسى بْن موسى لا تعص له أمراً، فخرج من زقاق النخع عليه خز وطيلسان على برذون فاره ورجل بين يديه مكتوف وهو يقول: واغوثا بالله ثم بالقاضي، وإذا آثار السياط في ظهره فسلم على القاضي فقَالَ لَهُ: أنا رجل أعمل الوشي وأجرة مثلي مائة في الشهر، أخذني هَذَا منذ أربعة أشهر فأجلسني في طراز يجري علي القوت وعلي عيال قد ضاعوا فأفلت اليوم منه فلحقني ففعل بظهري ما ترى، فقال: يا نصراني اجلس مع خصمك قَالَ: أصلحك الله هَذَا من خدم السيدة فمر به إِلى الحبس، قال:قم ويلك فاجلس معه، فقام فجلس معه، فقال: هذه الآثار التي بظهره من أثرها؟ قَالَ: أصلحك الله إنما ضربته أصواتاً بيدي وهو يستحق أكثر من ذلك، فدخل شريك داره وأخرج سوطه، ثم ضرب بيده إِلى مجامع ثوب النصراني، ثم قَالَ للرجل: انطلق إِلى أهلك، ثم رفع السوط فجعل يقول: يا طبجي قدمن فاجمل والله لا تضرب المسلمين أبداً فهم أعوانه أن يخلصوه من يده، فقَالَ: من هنا من فتيان الحي خلا هؤلاء فاذهبوا بهم إِلى الحبس، فهربوا وجعل النصراني يبكي ويقول: ستعلم من ألقى السوط من يده؟وقال: يا أبا حفص، ما تقول في العَبْد يتزوج بغير إذن مواليه وأخذ فيما كنا فيه، وقام النصراني فقَالَ لَهُ: أخاف

عاقبة هَذَا الأمر، قال: اسكت من أعز أمر الله أعزه، فذهب النصراني إِلَى عيسى بْن موسى فشكا إليه فقال:لا والله ما أتعرض لشريك، ومضى النصراني إِلَى بغداد فلم يعد.

قالَ مُحَمَّد بْن عيسى الوابصي:سمعت شريكاً يقول:ما سألتهم درهماً قط حتى نبذوني.

وليس لنا أن نتقدمك:

قالَ مُحَمَّد بْن إبراهيم مولى بني هاشم: دخل شريك على هارون الرشيد في يوم الشك، والفقهاء عنده، فلم يزالوا جلوساً إِلَى أن زالت الشمس فرفع الخبر إِلَى هارون أن الهلال لم يره أحد وبين يديه تفاح فطرح إِلَى كل رجل منهم تفاحة فأكلوا، وطرح إِلَى شريك فلم يأكل، فقالَ أَبُو يوسف: يا أمير المؤمنين، إنه يخالفك وقد أبى أن يأكل، قال: يا أمير المؤمنين هو والله خالفك وأصحابه، إنما أنت إمام ونحن رعية، وإذا أفطرت أنت أفطرنا، وليس لنا أن نتقدمك، قال: صدق شريك ثم أكل هارون وأكل شريك [1].

تلقى من يحج من النساء!:

كان شريك على قضاء الكوفة، فخرج يتلقى الخيزران، فبلغ شاهي، وأبطأت الخيزران، فأقام ينتظرها ثلاثاً، ويبس خبزه، فجعل يبله بالماء ويأكله، فقال العلاء بن المنهال الغنوي:

فإن كان الذي قد قلت حقا ::: بأن قد أكرهوك على القضاء
فما لك موضعًا في كل يوم ::: تلقى من يحج من النساء؟
مقيمًا في قرى شاهي ثلاثًا ::: بلا زاد سوى كسر وماء

(١) أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ خَلَفِ بْن حَيَّانَ بْن صَدَقَة الضَّبِّيّ البَغْدَادِيّ، المُلَقَّب بـ " وَكِيع " (المتوفى سنة ٣٠٦هـ)، أخبار القضاة، حققه وصححه و علق عليه و خرّج أحاديثه: عبد العزيز مصطفى المراغي، نشر المكتبة التجارية الكبرى، بشارع محمد علي بمصر لصاحبها: مصطفى محمد، الطبعة: الطبعة الأولى عام ١٣٦٦هـ، ١٩٤٧م، ٣ / ١٥٥ - ١٧٥.

هكذا يطلب العلم :

قال محمد بن يزيد الرفاعي: كنت عند شريك، فأتاه بعض ولد المهدي، فاستند، فسأله عن حديث، فلم يلتفت إليه، وأقبل علينا، ثم أعاد، فعاد بمثل ذلك، فقال: كأنك تستخف بأولاد الخليفة. قال: لا، ولكن العلم أزين عند أهله من أن تضيعوه. قال: فجثا على ركبتيه، ثم سأله، فقال شريك: هكذا يطلب العلم.

وكان شريك يشاحن الربيع صاحب شرطة المهدي، فكان يحمل المهدي عليه، فدخل شريك يوماً على المهدي فقال له المهدي: بلغني أنك ولدت في قوصرة، قال: يا أمير المؤمنين، ولدت بخراسان والقواصر هناك عزيزة، قال: إني لأراك فاطمياً خبيثاً، قال: والله إني لأحب فاطمة، وأبا فاطمة ﷺ، قال: وأنا والله أحبهما، ولكني رأيتك في منامي مصروفاً وجهك عني، وما ذاك إلا لبغضك لنا، وما أراني إلا قاتلك لأنك زنديق، قال: يا أمير المؤمنين إن الدماء لا تسفك بالأحلام، وليست رؤياك رؤيا يوسف عليه السلام؛ وأما قولك: إني زنديق فإن للزنادقة علامة يعرفون بها، قال: وما هي قال: شرب الخمور والضرب بالطنبور، قال: صدقت أبا عبد الله، وأنت خير من الذي حملني عليك (١).

ما ينبغي أن تقلد الحكم بين المسلمين:

قال مصعب بن عبد الله الزبيري: حدثني أبي قال: دخل شريك على المهدي فقال له: ما ينبغي أن تقلد الحكم بين المسلمين، قال: ولم؟ قال: لخلافك على الجماعة وقولك بالإمامة، فقال: أما قولك لخلافك على الجماعة، فمن الجماعة أخذت ديني، فكيف أخالفهم وهم أصل ديني، وأما قولك: وقولك بالإمامة، فما أعرف إلا كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله ﷺ؛ وأما قولك: مثلك لا يقلد الحكم بين المسلمين، فهذا شيء أنتم فعلتموه،

---

(١) وفيات الأعيان، ٢ / ٤٦٧.

فإن كان خطأ فلتستغفروا الله منه، وإن كان صواباً فأمسكوا عليه. قال: ما تقول في علي بن أبي طالب رضي الله عنه؟ قال: ما قال فيه جدك العباس وعبد الله، قال: وما قالا فيه؟ قال: أما العباس فمات وعلي عنده أفضل الصحابة، وقد كان يرى كبراء المهاجرين يسألونه عما ينزل من النوازل وما احتاج إلى أحد حتى لحق بالله. وأما عبد الله فإنه كان يضرب بين يديه بسيفين، وكان في حروبه رأساً متبعاً وقائداً مطاعاً، فلو كانت إمامة علي جوراً لكان أول من يقعد عنها أبوك لعلمه بدين الله وفقهه في أحكام الله. فسكت المهدي وأطرق، ولم يمض بعد هذا المجلس إلا قليل حتى عزل شريك.

شرب نبيذاً ثم لا يدري أطلق امرأته أم لا، وحكم ذلك:

قال عبد الرحمن بن معري: جاء رجل إلى أبي حنيفة، فقال: إني شربت البارحة نبيذاً فلا أدري طلقت امرأتي أم لا، قال: المرأة امرأتك حتى تستيقن أنك طلقتها، ثم أتى سفيان الثوري فقال: يا أبا عبد الله! إني شربت البارحة نبيذاً فلا أدري طلقت امرأتي أم لا، قال: اذهب فراجعها فإن كنت قد طلقتها فقد راجعتها وإن لم تك طلقتها لم تضرك المراجعة شيئاً، ثم أتى شريك ابن عبد الله، فقال: يا أبا عبد الله! إني شربت البارحة نبيذاً ولا أدري طلقت امرأتي أم لا، قال: اذهب فطلقها ثم راجعها، ثم أتى زفر بن الهذيل، فقال: يا أبا الهذيل! إني شربت البارحة نبيذاً ولا أدري طلقت امرأتي أم لا، قال: سألت غيري؟ قال: أبا حنيفة، قال: فما قال لك؟ قال: المرأة امرأتك حتى تستيقن أنك قد طلقتها، قال: الصواب قال، قال: فهل سألت غيره؟ قال: سفيان الثوري، قال: فما قال لك؟ قال: اذهب فراجعها فإن كنت قد طلقتها فقد راجعتها وإن لم تك طلقتها لم تضرك المراجعة شيئاً، قال: ما أحسن ما قال! قال: فهل سألت غيره؟ قال: شريك بن عبد الله، قال: فما قال لك؟ قال: اذهب فطلقها ثم راجعها، فضحك زفر وقال: لأضربن لك مثلاً، رجل مر بماء يسيل فأصاب ثوبه، قال لك أبو حنيفة:

ثوبك طاهر وصلاتك تامة حتى تستيقن أمر الماء، وقال لك سفيان: اغسله فإن يك نجساً فقد طهر، وإن يك نظيفاً زاد نظافة، وقال لك شريك: اذهب فبل عليه ثم اغسله (١).

قل إن شاء الله:

قال الحسن بن علي بن راشد: سمعت القاضي شريك بن عبد الله، يقول: كنت ذات ليلة أصلي في السطح وإلى جنب سطحي امرأة تطلق وقد عسر عليها ولادها، فكادت تموت فشغلت قلبي، وزوجها في ناحية السطح يسمع صراخها، فسمعته يقول: والله يا هذه لئن خلصك الله تعالى لا أعود أضاجعك أبداً، فقالت له مسرعة: قل إن شاء الله يا مشوم، فأضحكني قولها، وما ذكرتها وأنا في الصلاة إلا وضحكت من قولها (٢).

وانطرد معهم:

واجتمع أصحاب الحديث عند شريك بن عبد الله، فتبرم بهم وأضجروه فصاح بهم وفرّقهم فلم يبرحوا. فقال بعضهم: أنا أطردهم عنك. قال: نعم، وانطرد معهم (٣).

فعلم شريك أنه قد وجب عليه:

ابتاع شريك بن عبد الله القاضي من رجل مملوكاً عبداً أو أمة، فوجد به عيباً فرده على البائع بالعيب، فقال له البائع: لا ترده، أنا أربح لك فيه دنانير، وقال: أوتفعل؟ قال: نعم، قال: فبعه. فذهب البائع ولم يعرضه، فلما أبطأ على شريك دعا به، فقال له: ألم تقل إنك تربح؟ قال: بلى، قد قلت ذلك؛ قال: فأين الربح؟ قال: ما عرضته؛ قال: فاردد علينا الثمن، قال: ليس إلى ذلك سبيل، قد رضيته بعد العيب أمرتني بعرضه. فعلم شريك أنه قد

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١ / ١٢٠.
(٢) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١ / ٣٥٦.
(٣) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ١ / ٢٤٩.

وجب عليه، فأمسك [١].

من كلامه رحمه الله:

عَن ظفر بْن سهل قالَ: قالَ شريك: الجوع يمص الداء.

قال شريك: أثر فيه بعض الضعف أحب إلي من رأيهم.

وقال: ليس بحليم من سفه الحق وقاتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قال شريك بن عبد الله: إنما الرجل بإخوانه، فإذا ذهب إخوان الرجل ذهب الرجل.

قال شريك بن عبد الله: خمسة من الكبائر، عمياء مكتحلة، وسوداء مختضبة، وخصي له امرأة، ومخنث يؤم قوماً، وأعرابي أشقر. ومن العجائب: منجم أعمى، وأطروش صاحب خبر، وعطار أخشم، ومناد أخرس، ومؤاجر أصلع، وجندي محفوف الشوارب، وكناس متعزز، وفيج منقرس ولحياني ينتف لحية كوسج، وديدبان أعمش، وحجام قليل الفضول، وإمام أمي، وكحال أرمد. وضرب عبد الله بن أبي بكر ملاحاً لم يحسن السباحة وقال: من العجائب ملاح غير سابح![٢].

* * *

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ١ / ١٧٣، ٣ / ١٠.
(٢) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١ / ٢٠٨.

القاضي أبو يوسف
صاحب أبي حنيفة

أعـلام الفقهـاء

القاضي أبـو يوسف صاحب أبـي حنيفة

كان القاضي أبو يوسف المذكور من أهل الكوفة، وهو صـاحب أبـي حنيفـة رضـي الله عنـه، كـان فقيهاً عالمـاً حافظـاً، سكن بغداد وتـولى القضـاء بهـا لثلاثة من الخلفاء: المهدي وابنه الهـادي ثم هـارون الرشيد، وكـان الرشيد يكرمه ويجله، وكان عنده حظياً مكيناً، وهو أول من دعي بقاضي القضـاة، ويقال إنه أول من غير لباس العلماء إلى هذه الهيئة التي هم عليها فـي هذا الزمان، وكان ملبوس الناس قبل ذلك شيئاً واحداً، لا يتميز أحد عن أحد بلباسه. ولم يختلف يحيى بن معين وأحمد بن حنبل وعلـي بن المديني فـي ثقته في النقل.

ولد أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصـاري في مدينـة الكوفة سنة ١١٣هـ، وتطلع إلى العلم والدراسة فلم يجد خيرًا من مجلس الفقيه الكبير أبي حنيفـة فتتلمذ على يديه، ودرس عنده أصول الدين والحديث والفقه.

ولصحبته لأبـي حنيفـة قصـة يرويهـا لنـا أبـو يوسـف فيقـول: كنـت أطلـب الحديث والفقه عنـد أبـي حنيفـة، وأنـا مقل (يعنـي قليـل المـال) رث الحـال والهيئة، فجاءني أبي يومًا فانصرفت معه، فقال لي: يـا بنـي، لا تمد رجلك مع أبي حنيفة (أي لا تذهب إليـه) فـإن أبـا حنيفـة خبزه مشوي (يقصد أنـه غني وقادر علـى أن يعيش عيشـة كريمـة) وأنت تحتـاج إلـى معـاش (عمل حتى تنفق على نفسك ولا تنقطع للعلم)، فقصرت عن كثير من الطلب (أي طلب العلم) وآثرت طاعـة أبـي، فتفقدني أبـو حنيفـة وسـأل عنـي، فلمـا كـان أول يوم أتيته بعد تأخري عنه؛ فقال لـي: ما شغلك عنا؟ قلت: الشغل بالنـاس وطاعـة والـدي، وجلسـت حتـى انصـرف النـاس، ثـم دفـع لـي صـرة وقـال: استمتع بها.

فنظـرت فـإذا فيهـا مائـة درهـم وقـال: الـزم الحلقـة وإذا أفرغـت هـذه (إذا أنفقتهـا) فـأعلمني، فلزمـت الحلقـة، فلمـا قضـيت مـدة يسيرة، دفـع إلـيَّ مائـة أخرى، ثم كان يتعهدني (يرعـاني) ومـا أعلمتـه بقلـة قـط، ولا أخبرتـه بنفـاد

شيء، وكأنه يخبر بنفادها وظل كذلك حتى استغنيت (١).

ولم يكن لأبي حنيفة تلميذ في نجابة أبي يوسف وذكائه، فقد استمر في تلقي العلم حتى حفظ التفسير والحديث والمغازي وأيام العرب، وسار أبو يوسف على نهج أستاذه أبي حنيفة في الفقه، إلا أنه كانت له اجتهادات خاصة به، وألف كتبًا كثيرة أشهرها كتاب الخراج وهو رسالة في إدارة المال العام والقضاء، وقد قربه الخليفة هارون الرشيد إليه، وولاه القضاء، ومنحه لقب قاضي القضاة، وكان يستشيره في أمور الدين والدنيا.

وفي عام (١٨٢هـ) مات أبو يوسف وهو يقول: اللهم إنك تعلم أنني لم أجر في حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك تعمدًا، وقد اجتهدت في الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك ﷺ، وكلما أشكل عليَّ أمر جعلت أبا حنيفة بيني وبينك، ومات الفقيه أبو يوسف، فحزن عليه الناس جميعًا؛ وقال صديقه أبو يعقوب الحريمي: اليوم مات الفقيه.. فرحم الله أبا يوسف وأسكنه فسيح جناته (٢).

وقد أثني عليه من عاصروه من العلماء والفقهاء فقد قال عُمَر بْن حفص ابْن غياث:سمعت أبي يقول: كان الحجاج بْن أرطاة لا يملي علينا، وكان يعقوب أبُو يوسف يسأله؛ فإذا قام الحجاج قام الناس إلى يعقوب فأملى عليهم عَن ظهر قلب قالَ حفص: وكنت أنا لا أكتب إلاَّ ما وقع في ألواحي.

---

(١) تاريخ بغداد، ١٤: ٢٤٤.

(٢) التاريخ لابن معين: ٦٨٠، التاريخ الكبير: ٨ / ٣٩٧، التاريخ الصغير: ٢ / ٢٢٨، ٢٣٠، المعارف: ٤٩٩، المعرفة والتاريخ: ١ / ١٣٣، و ٣ / ٤، الفهرست لابن النديم: ٢٠٣، الاستيعاب: ٥٨٤، الانتقاء: ١٧٢، تاريخ بغداد، ١٤ / ٢٤٢ - ٢٦٢، تاريخ جرجان للسهمي: ٤٤٤، ٤٤٥، طبقات الشيرازي: ١٣٤، وفيات الاعيان: ٦ / ٣٧٨ - ٣٩٠، تذكرة الحفاظ: ١ / ٢٩٢، ميزان الاعتدال: ٤ / ٣٩٧، العبر: ١ / ٢٨٤ - ٢٨٥، مرآة الجنان: ١ / ٣٨٢ - ٣٨٨، ألفية العراقي: ٢ / ١٦٣، النجوم الزاهرة: ٢ / ١٠٧، مفتاح السعادة: ٢ / ١٠٠ - ١٠٧، الجواهر المضية: ٢ / ٢٢٠، شذرات الذهب: ١ / ٢٩٨ - ٣٠١، أخبار القضاة: ٣ / ٢٥٤، طبقات الحنفية: ١٢ / ١، الفوائد البهية: ٢٢٥، هدية العارفين: ٢ / ٥٣٦، تاج التراجم: ٦٠، مناقب الإمام أبي حنيفة: ٢ / ١٤٣.

وذكر أبو عمر بن عبد البر صاحب كتاب " الاستيعاب " في كتابه الذي سماه كتاب " الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء " [1] أن أبا يوسف المذكور كان حافظاً وأنه كان يحضر المحدث ويحفظ خمسين ستين حديثاً، ثم يقوم فيمليها على الناس، وكان كثير الحديث. وقال محمد بن جرير الطبري: وتحامى حديثه قوم من أهل الحديث من أجل غلبة الرأي عليه وتفريعه الفروع والأحكام، مع صحبة السلطان وتقلده القضاء.

وحَدَّثَ مُحَمَّد بْن حماد بْن المبارك المقري قال: سألت يحيى بْن معين عَن أبي يوسف فقال: حسن الحديث وليس له بحث.

وقال طلحة بن محمد بن جعفر: أبو يوسف مشهور الأمر ظاهر الفضل، وهو صاحب أبي حنيفة، وأفقه أهل عصره، ولم يتقدمه أحد في زمانه، وكان النهاية في العلم والحكم والرياسة والقدر، وأول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة، وأملى المسائل ونشرها، وبث على أبي حنيفة في أقطار الأرض.

وقال عمار بن أبي مالك: ما كان في أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف، لولا أبو يوسف ما ذكر أبو حنيفة ولا محمد بن أبي ليلى، ولكنه هو نشر قولهما وبث علمهما.

وقال محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة: مرض أبو يوسف في زمن أبي حنيفة مرضاً خيف عليه منه، فعاده أبو حنيفة ونحن معه، فلما خرج من عنده وضع يده على عتبة بابه وقال: إن يمت هذا الفتى فإنه أعلم من عليها، وأومأ إلى الأرض.

وقال أبو يوسف: سألني الأعمش عن مسألة، فأجبته فيها فقال لي: من أين لك هذا؟ فقلت: من حديثك الذي حدثتنا أنت، ثم ذكرت له الحديث، فقال لي: يا يعقوب إني لأحفظ هذا الحديث قبل أن يجتمع أبواك وما عرفت

(١) الانتقاء: ١٧٢.

تأويله حتى الآن.

وقال هلال بن يحيى: كان أبو يوسف يحفظ التفسير والمغازي وأيام العرب، وكان أقل علومه الفقه، ولم يكن في أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف.

قالَ علي: وما أعلم أحداً بقي اليوم يعلم أن يوسف بْن أبي يوسف كان قاضياً أيام المهدي غيري، فلما استخلف موسى وقدم بغداد كان قاضيه أبُو يوسف في جميع بغداد وعُمَر بْن حبيب في الشرقية ولم يزل يوسف قاضياً حتى مات، وكان أبويوسف يسافر مع الرشيد ويوسف يقضي بمدينة السلام. والرشيد ولى أبا يوسف قضاء القضاة.

وسمع أبو يعقوب الخريمي يوم مات أبُو يوسف رجلاً يقول: اليوم مات الفقه، فقال:

يا ناعي الفقه إلَى أهله :: أن مات يعقوب وما تدري
لم يمت الفقه ولكنه : حول من صدر إلَى صدر
ألقاه يعقوب إلَى يوسف ::: فزال من طيب إلَى طهر
فهو مقيم فإذا ما نوى ::: حل وحل الفقه في قبر[1]

و كان أبُو يوسف شديد الاحترام والتوقير لأستاذه أبي حنيفة ويدعو له يقول في دبر صلواته ويقول: اللهم اغفر لي ولوالدي ولأبي حنيفة.

وقالَ علي بْن الخليل الكوفي، في أبي يوسف قصيدة منها:

دعوت له بشبوط :: يرى بظهره حدبا
فَقَالَ: أما لجارك من : طعام يذهب السغبا
أصب لأخيك يربوعاً ::: وضبا واترك اللعبا
وقام إليه ساقينا ::: بكأس ينظم الحببا

(١) أخبار القضاة، ٣ / ٢٥٨.

معتقـــــــــة مروقـــــــــة ::: تســـلى هــــم مــــن شـــربا
فأمســــــكها براحتـــــــه ::: فلمـــــا شمهـــــا قطبـــــا
وإلا لا تسلســـــــــــلها ::: و قَـــالَ: أصـــب لنـــا حلبـــا
وأمســـــك أنفـــــه عنــــها ::: وقـــــام موليــــاً هربـــــا
يريــــد الشـــيح والقيصــــو ::: م كـــــي يســـتوجب الســـبا
وقــــد أبصــــرته زمنـــــاً ::: يحـــب الظـــرف والأدبـــا
فصـــــار تشــــبهاً بـــــالقو ::: م جلفـــــاً جافيـــــاً خشـــبا
إذا ذكــــر الثريــــد بكـــــا ::: وأبــــدا الشـــوق والطربـــا
ولـــيس ضـــميره في القلـــــ ::: ب إلاّ الـــــتين والعنبـــــا
يـــــروح بنســــبة المــــولى ::: وشـــــيخ تـــــدعى العربـــــا
فـــــلا هَـــــذَا ولا هَـــــذَا ::: ك يدركـــــــه إذَا طلبـــــا
أيرغـــب عَـــن بـــني كســـرى ::: ومــــا عَـــن مثلـــهم رغبــــا
جحـــــدت أبـــــاك نســـــبته ::: وترجــــو أن تفيـــــد أبــــا

:::

وقال محمد بن سماعة: سمعت أبا يوسف في اليوم الذي مات فيه يقول:

اللهم إنك تعلم أني لم أجر في حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك تعمداً، ولقد اجتهدت في الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك ﷺ، وكل ما أشكل علي جعلت أبا حنيفة بيني وبينك، وكان عندي والله ممن يعرف أمرك ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه.

وأخبار أبي يوسف كثيرة، وأكثر الناس من العلماء على تفضيله وتعظيمه.

مواقف من حياته:

لو أن فيك موضع أدب لأوقعتك:

قال بشار بن موسى الخفاف جاء بشر بن الوليد الكندي إلى القاضي أبي يوسف فقال له تنهاني عن الكلام وبشر المريسي وعلي الأحول وفلان يتكلمون قال: وما يقولون قال: يقولون الله في كل مكان فقال أبو يوسف: علي بهم فانتهوا إليهم وقد قام بشر فجيء بعلي الأحول وبالآخر شيخ فقال أبو يوسف: ونظر إلى الشيخ لو أن فيك موضع أدب لأوقعتك فأمر به إلى الحبس وضرب الأحول وطوف به [1].

أبو يوسف القاضي يأكل اللوزينج [2] بالفستق:

وحدثني أبي، قال: بلغني أن أبا يوسف صحب أبا حنيفة، ليتعلم العلم، على فقر وشدة، وكانت أمه تحتال له فيما يتقوته يوماً بيوم، فطلب يوماً ما يأكل، فجاءته بغضارة [3] مغطاة، فكشفها، فإذا فيها دفاتر.

فقال: ما هذا؟.

فقالت: هذا الذي أنت مشتغل به نهارك أجمع، فكل منه.

فبكى، وبات جائعاً، وتأخر عن المجلس من الغد، حتى احتال فيما أكله، ثم مضى إلى أبي حنيفة، فسأله عن سبب تأخره، فصدقه.

فقال له: ألا عرفتني فكنت أمدك؟ ولا يجب أن تغتم، فإنه إن طال عمرك، فستأكل اللوزينج بالفستق.

قال: فلما خدمت الرشيد، واختصصت به، قدم بحضرته يوماً، جام فيه لوزينج بفستق، فدعاني إليه، فحين أكلت منه، ذكرت أبا حنيفة، فبكيت،

(١) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، العلو للعلي الغفار، تحقيق أبو محمد أشرف ابن عبد المقصود، الناشر: مكتبة أضواء السلف - الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٥، ص ٥١ - ٥٢.

(٢) اللوزينج من الحلوى يشبه القطائف يؤدم بدهن اللوز.

(٣) (الغضائر) جمع غضارة وهي القصْعة الكبيرة.

وحمدت الله تعالى، فسألني الرشيد عن قصتي، فأخبرته [١].

فاردد البستان عليه:

عَن يحيى بْن عَبْد الصمد قال: خوصم موسى أميرالمؤمنين إِلى أبي يوسف في بستانه، فكان الحكم في الظاهر لأمير المؤمنين وكان الأمر على خلاف ما يظهر من الحكم. فقالَ أمير المؤمنين:ما صنعتَ في الأمر الذي نتنازع إليك فِيْهِ؟ قال: خصم أمير المؤمنين يسألني أن أحلف أمير المؤمنين أن شهوده شهدوا على حق، فقالَ: موسى. وترى ذاك قال: قد كان ابن أبي ليلى يراه. قال: فاردد البستان عليه. وإنما احتال عليه أبُو يوسف [٢].

يا بني هَذَا الأعور سيد:

قالَ: وكان رجل من الزهاد يأتي مجلس أبي معشر فربما ذكر هَذَا من قول أبي يوسف فعابه وتكلم فيه. فحضر يوماً مجلس أبي معشر يوسف بْن أبي يوسف وتكلم. قالَ الشيخ قبل أن يجلس أبُو معشر للحديث، ثم جلس أبُو معشر فأعاد الشيخ ذكر أبي يوسف قالَ يوسف وكان أعور، وأقبل على الشيخ فقالَ: يا هَذَا أتعرفني؟ قال: لا، فقالَ: فأنا ابن الشيخ الذي عبت منذ اليوم ونقصت فغفر الله لنا ولك، فقالَ لهُ الشيخ: لقد كنت أرى أن قولي هَذَا ديانة والله لا ذكرت أباك بعد يومي هَذَا بسوء أبداً، فأقبل على أبي معشر فقالَ لي: يا بني هَذَا الأعور سيد [٣].

والله لأملأن ظهره وبطنه بالسياط :

وقال مُحَمَّد بْن إشكاب: سمعت أبا يوسف وذكر بشر المريسي فقال: جيئوني بشاهدين يشهدان أنه تكلم في القرآن والله لأملأن ظهره وبطنه بالسياط.

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص ١٦١.
(٢) أخبار القضاة، ٣ / ٢٥٦.
(٣) أخبار القضاة، ٣ / ٢٥٧.

فكنا نأتيه وكان لنا مدرساً:

قالْ الفضل بْن سعيد بْن سلم: قلت لأبي يوسف: أكان أَبُوْحَنِيْفَة يرى رأي جهم؟ قال: نعم، قلت فأين أنت منه؟ قال: لا أين، قلت: وكيف وأنت من أصحابه؟ قال: كان أَبُوْحَنِيْفَة رجلاً قد أوتي فهماً، فكنا نأتيه وكان لنا مدرساً.

إن أفتيته بترك النافلة يفتي الناس بترك الفريضة:

قال حَدَّثَنِيْ مطرف الأصم: قدم هارون المدينة ومعه أَبُو يوسف فبعث إِلى مالك بْن أنس: يأمرك أمير المؤمنين أن تخرج إليه، فكتب إليه مالك: يا أمير المؤمنين إني رجل عليل فإن رأى أمير المؤمنين أن يكتب إلي بما أراد فعل، فأراد أن يكتب إليه، فَقَالَ لَهُ أَبُو يوسف: ابعث إليه حتى يجيء إليك فبعث إليه فجاءه في دار مروان وقد هيئ لكل إنسان مجلس فهيئ لمالك مجلسه الذي له فَقَالَ لَهُ أَبُو يوسف: ما ترى في رجل حلف ألا يصلي نافلة أبداً؟ قَالَ: يضرب ويحبس حتى يصلي، قَالَ: فجاء هارون فَقَالَ لَهُ أَبُو يوسف: يا أمير المؤمنين إني سألت مالكاً عَن كذا وكذا فَقَالَ كذا فَقَالَ لَهُ هارون: وترى ذلك يا أبا عَبْد اللهِ؟ قال: لا، قَالَ أَبُو يوسف: أليس أفتيتني بذلك؟ قال: بلى ولكن أبا يوسف رجل عراقي إن أفتيته بترك النافلة يفتي الناس بترك الفريضة، وأنت لا أخافك على ذلك، فلما خرج مالك خرج معه أَبُو يوسف يتوكأ عليه ومالك يقول له: ارجع حتى بلغه منزله (١).

وواحد فِيْهِ شك فيشاطرانه:

قال أبو مُحَمَّد الزهري: قدم هارون الرشيد المدينة فقعد في المسجد وقعد معه أَبُو يوسف، وبعث إِلى مالك بْن أنس قال: فجعل أولاد أصحاب رَسُوْلِ اللهِ ﷺ يدخلون أربعة أربعة، فيقول هارون: أفيهم هو؟ فيقولون: لم يجئ

(١) أخبار القضاة، ٣ / ٢٦٠.

بعد، حتى دخل مالك متوكئاً على رجل من ولد أبي بكر وآخر من ولد علي، فلما نظر إليه هارون قال: إن الرجل ليعظمه أهل بلده، قالَ: فسلم وجلس فقالَ لهُ هارون: يا أبا عَبْد اللهِ أجب يعقوب فيما يسألك عنه، قال: يا أمير المؤمنين ليس من أهل العلم أنشدك بالله هَلْ لرَسُوْلِ اللهِ ﷺ وقف يأخذ منه فيجعله حَيْثُ أراد الله، قالَ هارون: نعم، قال: فأنشدك الله هَلْ لِعُمَرَ وقف قالَ: اللهم نعم، قالَ: فهَذَا يزعم أن الوقف باطل، فالتفت هارون إلى أبي يوسف مغضباً فقالَ: ما تقول؟ قال: كان صاحبنا لا يراه وأنا أراه، قالَ:فقالَ لهُ مالك: ما تقول في الإمام يجهر بعرفة أو يخافت؟ قالَ: فقالَ أبُو يوسف: يجهر، قالَ: أسأل الله ألا

يهديك والله يا أمير المؤمنين إن السقايات بالمدينة يبينون هَذَا ويلك إنما هي ظهر وعصر فقالَ لهُ يعقوب: ما تقول في رجل بعث مع رجل دينارين ورجل ديناراً فخلطها فلما قدم فتحها فأصاب دينارين فقالَ: مالك أما واحد فهو لصاحب الاثنين لا شك فيه، وواحد فِيْهِ شك فيشاطرانه (١).

فاشتر سفينة فهي جارية:

قال مالك بن أنس:بلغني أن أبا يوسف جاءه إنسان فقالَ: إني حلفت بطلاق امرأتي لأشترين جارية وذلك يشتد علي لمكان زوجتي ومنزلتها عندي فقالَ لهُ أبُو يوسف: فاشتر سفينة فهي جارية.

فأجازه بجائزة عظيمة وكناه بأبي المفرج:

حدثت عَن القاسم بْن مُحَمَّد المروزي عَن اليأس بْن الكامل عَن ابن المبارك قال: لما مات فلان الخليفة خلف جواري فرهة فأراد ابنه وطء جارية منهن فقالت: إني لا أحل لك إن أباك وطئني، فذهب وهو يقول:

أرى ماء وبي عطش شديد ::: ولكن لا سبيل إلَى الورود
أما يكفيك أنك تملكني ::: وأن الناس كلهم عبيدي

(١) أخبار القضاة، ٣ / ٢٦١.

وأنك لو قطعت يـــدي ورجلـــي ::: لقلت من الهوى أحسنت زيـــدي

ثم دعا أبا يوسف فسأله عَن ذلك، فقال: ليس كل ما قالت الجارية يقبل منها فأجازه بجائزة عظيمة وكناه بأبي المفرج [١].

وأَبو يوسف مركوب العرب:

قال إبراهيم بْن الربيع بْن سليمان الكلابي من بني الوحيد: كان عَبْدوس ابْن عبيدة بْن أبي اليمان العقيلي اختصم هو وابن خالته خنيس بْن ساعدة العقيلي إلى أبي يوسف القاضي ببغداد فذهب عَبْدوس فأحضر شهوداً وسماهم على أسماء أئمة المساجد المعدلين فلما شهدوا عند أبي يوسف سأل عنهم فعدلوا، وذلك سراً، وكذلك كانوا يعدلون في السر فجاء خنيس حينئذ إلى أولئك الشهود المشهورين الأئمة فجعل يلقى الرجل فيقول: يا عَبْد اللهِ لم شهدت علي فيقول:لا والله ما شهدت عليك ولا أعرفك ولا أعرف عَبْدوساً. فذهب خنيس إلى أبي يوسف فأخبره فقال: أحضروهم، فتبين أبُو يوسف أنهم ليس بأولئك الذين شهدوا، فأمر بعَبْدوس فحمل ثم ضرب خمسين درة، فقَالَ عَبْدوس في أبي يوسف قصيدة طويلة أحفظ منها:

مركب النـــاس ثنايـــا قســـمت ::: وأَبُو يوســـف مركـــوب العـــرب
وكـــذا المركـــوب مـــن قلتـــه ::: قَالَ: من حالب هَـــذَا لا حلـــب
أشـــبه النـــاس وجهـــاً وقفـــا ::: ورعينـــات بشـــيطان اللعـــب
ويـــرى الخنزيـــر في جفنـــه ::: كـــوز فقـــاع إذَا حـــل وثـــب
فـــإذا أقعـــى علـــى منـــبره ::: خلته القرد إِذَا القَـــرد صـــلب[٢]

كأنك لا تحسن شيئاً إلاَّ هَذَا:

قال أَحْمَد بْن مُحَمَّد القاضي: سمعت أبا يوسف يقول: قَالَ لي يحيى بْن خالد: كل شيء تحسن غير مجالسة الملوك فإنه لا علم لك بأيام الناس،

(١) أخبار القضاة، ٣ / ٢٦٢.
(٢) أخبار القضاة، ٣ / ٢٦٣.

قالَ: فجلست في البيت شهراً ونظرت في أيام الناس فحفظت أمراً عظيماً، ثم أتيت يحيى بن خالد فتذاكرنا فقالَ لي: كأنك لا تحسن شيئاً إلاّ هَذَا أكنت تستره؟(١).

فأن لم تغرب الشمس إلَى نصف الليل!:

قال عَبْدُ اللهِ بْن طاهر بن أَحْمَد الزبيري: كان رجل يجلس إلَى أبي يوسف القاضي فيطيل الصمت فقالَ لَهُ أَبُو يوسف: ألا تسأل ألا تتحدث؟ قال: بلى قالَ: متى يفطر الصائم؟ قال:إذَا غربت الشمس، قال: فإن لم تغرب الشمس إلَى نصف الليل؟ قال: فتبسم أَبُو يوسف وتمثل ببيتي الخطفي جد جرير:

عجبت لإزراء العيي بنفسه ::: وصمت الذي قد كان بالعلم أعلما
وفي الصمت ستر للعيي وإنما ::: صحيفة لب المرء أن يتكلما

لعمري إن العلم لينفع دنيا ودينًا:

ثم قال الخطيب: وحكي أن والد أبي يوسف مات وخلف أبا يوسف طفلاً صغيراً، وأن أمه هي التي أنكرت عليه حضور حلقة أبي حنيفة، ثم روى الخطيب أيضاً بإسناد متصل إلى علي بن الجعد قال: أخبرني أبو يوسف القاضي قال: توفي أبي وخلفني صغيراً في حجر أمي، فأسلمتني إلى قصار أخدمه، فكنت أدع القصار وأمر إلى حلقة أبي حنيفة فأجلس أستمع، فكانت أمي تجيء خلفي فتأخذ بيدي فتذهب بي إلى القصار، وكان أبو حنيفة يعنى بي، لما يرى من حضوري وحرصي على التعلم، فلما كثر ذلك على أمي وطال عليها هربي قالت لأبي حنيفة: ما لهذا الصبي فساد غيرك، هذا صبي يتيم لا شيء له وإنما أطعمه من مغزلي، وآمل أن يكسب دانقاً يعود به على نفسه، فقال لها أبو حنيفة: مري يا رعناء، ها هو ذا يتعلم أكل الفالوذج بدهن الفستق، فانصرفت عنه وقالت له: أنت شيخ قد خرفت وذهب عقلك. ثم لزمته فنفعني الله تعالى بالعلم، ورفعني حتى

(١) أخبار القضاة، ٣ / ٢٦٤.

تقلدت القضاء، وكنت أجالس الرشيد وآكل معه على مائدته، فلما كان في بعض الأيام قدم إلى هارون فالوذجة، فقال لي: يا يعقوب كل منها فليس في كل يوم يعمل لنا مثلها، فقلت: وما هذه يا أمير المؤمنين فقال: هذه فالوذجة بدهن الفستق، فضحكت، فقال لي: مم ضحكك! فقلت: خيراً، أبقى الله أمير المؤمنين، قال: لتخبرني، وألح علي، فأخبرته بالقصة من أولها إلى آخرها، فعجب من ذلك وقال: لعمري إن العلم لينفع دنيا وديناً، وترحم على أبي حنيفة وقال: كان ينظر بعين عقله ما لا يراه بعين رأسه (١).

أبو يوسف وهارون الرشيد:

وحكى علي بن المحسن التنوخي عن أبي عن جده قال: كان سبب اتصال أبي يوسف بالرشيد أنه كان قدم بغداد بعد موت أبي حنيفة رحمه الله تعالى فحنث بعض القواد في يمين، فطلب فقيهاً يستفتيه، فجيء بأبي يوسف فأفتاه أنه لم يحنث، فوهب له دنانير وأخذ له داراً بالقرب منه. ودخل القائد يوماً على الرشيد فوجده مغموماً، فسأله عن سبب غمه فقال: شيء من أمر الدين قد حزنني فاطلب فقيهاً كي أستفتيه، فجاءه بأبي يوسف. قال أبو يوسف: فلما دخلت إلى ممر بين الدور رأيت فتى حسناً عليه أثر الملك، وهو في حجرة محبوس، فأومأ إلي بأصبعه مستغيثاً فلم أفهم منه إرادته، وأدخلت إلى الرشيد، فلما مثلت بين يديه سلمت ووقفت فقال لي: ما اسمك فقلت: يعقوب أصلح الله أمير المؤمنين، قال: ما تقول في إمام شاهد رجلاً يزني هل يحده قلت: لا، فحين قلتها سجد الرشيد، فوقع لي أنه قد رأى بعض أهله على ذلك وأن الذي أشار إلي بالاستغاثة هو الزاني. ثم قال الرشيد: من أين قلت هذا قلت: لأن النبي ﷺ قال:﴿**ادرأوا الحدود بالشبهات**﴾ وهذه شبهة يسقط الحد معها، قال: وأي شبهة في المعاينة قلت: ليس توجب المعاينة لذلك أكثر من العلم بما جرى، والحدود لا تكون إلا بالعلم، وليس لأحد أخذ حقه بعلمه، فسجد مرة أخرى، وأمر لي بمال جزيل وأن ألزم

(١) وفيات الأعيان، ٦ / ٣٨٢.

الدار، فما خرجت حتى جاءتني هدية الفتى وهدية أمه وجماعته، وصار ذلك أصلاً للنعمة، ولزمت الدار، فكان هذا الخادم يستفتيني وهذا يشاورني، ولم يزل حالي يقوى عند الرشيد حتى قلدني القضاء (١).

من كان صاحب راية جالوت؟:

وذكر أبو الفرج المعافى بن زكريا النهرواني في كتاب " الجليس والأنيس " عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: مضى أبو يوسف ليسمع المغازي من محمد بن إسحاق أو من غيره، وأخل بمجلس أبي حنيفة أياماً، فلما أتاه قال له أبو حنيفة: يا أبا يوسف، من كان صاحب راية جالوت؟ فقال له أبو يوسف: إنك إمام وإن لم تمسك عن هذا سألتك والله على رؤوس الملأ أيما كان أولاً وقعة بدر أو أحد؟ فإنك لا تدري أيهما كان قبل الآخر، فأمسك عنه (٢).

هل وقفت على شيء من خطأ؟:

وذكر في الكتاب المذكور أيضاً عن علي بن الجعد أن القاضي أبا يوسف كتب يوماً كتاباً، وعن يمينه إنسان يلاحظ ما يكتبه، ففطن له أبو يوسف، فلما فرغ من الكتابة التفت إليه وقال له: هل وقفت على شيء من خطأ؟ فقال: لا والله ولا حرف واحد، فقال له أبو يوسف: جزيت خيراً حيث كفيتنا مؤونة قراءته، ثم أنشد:

كأنه من سوء تأديبه ::: أسلم في كتاب سوء الأدب

لا تطمع في رياسة ببلدة فيها أبو يوسف:

وقال حماد بن أبي حنيفة: رأيت أبا حنيفة يوماً وعن يمينه أبو يوسف وعن يساره زفر، وهما يتجادلان في مسألة، فلا يقول أبو يوسف قولاً إلا أفسده زفر، ولا يقول زفر قولاً إلا أفسده أبو يوسف، إلى وقت الظهر، فلما أذن

(١) و هذا يخالف ما قيل من قبل من أنه ولي القضاء لثلاثة من الخلفاء. والله أعلم بالصواب.
(٢) وفيات الأعيان، ٦ / ٣٨٣.

المؤذن رفع أبو حنيفة يده فضرب بها فخذ زفر، وقال: لا تطمع في رياسة ببلدة فيها أبو يوسف، وقضى لأبي يوسف على زفر، ولم يكن بعد أبي يوسف في أصحاب أبي حنيفة مثل زفر [١].

لم لا تركبه:

وكان أبو يوسف راكباً وغلامه يعدو وراءه، فقال له رجل: أتستحل أن تعدي غلامك وراءك لم لا تركبه؟ فقال له: أيجوز عندك أن أسلم غلامي مكارياً قال: نعم، قال أبو يوسف: فيعدو معي كما كان يعدو لو كان مكارياً.

أظننا روعناك:

وقال بشر بن الوليد الكندي: قال لي القاضي أبو يوسف: بينا أنا البارحة قد أويت إلى فراشي فإذا داق يدق الباب دقاً شديداً، فأخذت علي إزاري وخرجت، فإذا هرثمة بن أعين، فسلمت عليه، فقال: أجب أمير المؤمنين، فقلت: يا أبا حاتم، لي بك رحمة، وهذا وقت كما ترى، ولست آمن أن يكون أمير المؤمنين قد دعاني لأمر من الأمور، فإن أمكنك أن تدفع بذلك إلى غد فلعله أن يحدث له رأي، فقال: ما لي إلى ذلك سبيل، قلت: كيف كان السبب قال: خرج إلي مسرور فامرني أن آتي بك أمير المؤمنين، فقلت: تأذن لي أن أصب علي ماء وأتحنط فإن كان أمر من الأمور كنت قد أحكمت شأني وإن رزق الله العافية فلن يضرني، فأذن لي، فدخلت فلبست ثياباً جدداً، وتطيبت بما أمكن من الطيب، ثم خرجنا فمضينا حتى أتينا دار أمير المؤمنين هارون الرشيد فإذا مسرور واقف، فقال له هرثمة: قد جئت به، فقلت لمسرور: يا أبا هاشم خدمتي وحرمتي وميلي، وهذا وقت ضيق، فتدري لم طلبني أمير المؤمنين قال: لا، فقلت: فمن عنده قال: عيسى بن جعفر، قلت: ومن؟ قال: ما عندهما ثالث، ثم قال لي: مر، فإذا صرت في الصحن فإنه في الرواق، وهو ذاك جالس فحرك رجلك

(١) وفيات الأعيان، ٦ / ٣٨٤.

بالأرض، فإنه سيسألك فقل: أنا. قال أبو يوسف: فجئت ففعلت ذلك فقال: من هذا؟ فقلت: يعقوب، فقال: ادخل، فدخلت فإذا هو جالس وعن يمينه عيسى بن جعفر، فسلمت فرد السلام علي وقال: أظننا روعناك فقلت: إي والله وكذلك من خلفي، فقال: اجلس، فجلست حتى سكن روعي، ثم التفت إلي وقال: يا يعقوب، تدري لم دعوتك؟ قلت: لا، قال: دعوتك لأشهدك على هذا إن عنده جارية سألته أن يهبها لي فامتنع، وسألته أن يبيعها فأبى، والله لئن لم يفعل لأقتلنه، قال أبو يوسف: فالتفت إلى عيسى فقلت له: وما بلغ الله بجارية تمنعها أمير المؤمنين وتنزل نفسك هذه المنزلة قال: فقال لي: عجلت علي في القول قبل أن تعرف ما عندي، قلت: وما في هذا من الجواب قال: إن علي يميناً بالطلاق والعتاق وصدقة ما أملك أن لا أبيع في هذه الجارية ولا أهبها، فالتفت إلي الرشيد فقال: هل له في ذلك من مخرج قلت: نعم، قال: وما هو قلت: يهب لك نصفها ويبيعك نصفها، فيكون لم يهب ولم يبع، فقال عيسى: ويجوز ذلك قلت: نعم، قال: فأشهدك أني قد وهبت له نصفها وبعته نصفها الباقي بمائة ألف دينار، فقال له الرشيد: قبلت الهبة واشتريت نصفها بمائة ألف دينار، ثم طلب منه الجارية، فأتى بالجارية وبالمال، فقال: خذها يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيها، فقال الرشيد: يا يعقوب بقيت واحدة، فقلت: وما هي فقال: هي مملوكة ولا بد أن تستبرأ، ووالله لئن لم أبت معها ليلتي هذه إني لأظن أن نفسي ستخرج، فقلت: يا أمير المؤمنين تعتقها وتتزوجها، فإن الحرة لا تستبرأ، قال: فإني قد أعتقتها فمن يزوجنيها فقلت: أنا. فدعا بمسرور وحسين، فخطبت وحمدت الله تعالى ثم زوجته إياها على عشرين ألف دينار، ودعا بالمال فدفعه إليها، ثم قال لي: يا يعقوب انصرف، ورفع رأسه إلى مسرور فقال: يا مسرور، فقال: لبيك، فقال: احمل إلى يعقوب مائتي ألف درهم وعشرين تختاً ثياباً، فحمل ذلك معي. قال بشر بن الوليد: فالتفت إلي أبو يوسف وقال: هل رأيت بأساً فيما فعلت؟ فقلت: لا، فقال: خذ حقك منها، قلت: وما

حقي؟ فقال: العشر، قال بشر: فشكرته ودعوت له وذهبت لأقوم، فإذا بعجوز قد دخلت فقالت: يا أبا يوسف إن بنتك تقرئك السلام وتقول لك: والله ما وصل إلي في ليلتي هذه من أمير المؤمنين إلا المهر الذي قد عرفته، وقد حملت إليك النصف منه وخلفت الباق لما أحتاج إليه، فقال: رديه فوالله لا قبلتها؛ أخرجتها من الرق وزوجتها أمير المؤمنين وترضى لي بهذا! قال بشر: فلم نزل نطلب إليه أنا وعمومتي حتى قبلها، وأمر لي منها بألف دينار [١].

ذاك حين كانت الهدايا اللبن والتمر:

وقال أبو عبد الله اليوسفي: إن أم جعفر زبيدة ابنة جعفر زوجة الرشيد كتبت إلى أبي يوسف: ما ترى في كذا، وأحب الأشياء إلي أن يكون الحق فيه كذا، فأفتاها بما أحبت، فبعثت إليه بطبق فضة فيه حقاق فضة مطبقات، في كل واحد لون من الطيب، وفي جام دراهم وسطها جام فيه دنانير، فقال له جليس له: قال رسول الله ﷺ: من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها، فقال أبو يوسف: ذاك حين كانت الهدايا اللبن والتمر.

هذا لا يعزل أبداً:

كان عبد الرحمن بن مسهر أخو علي بن مسهر قاضياً على بلدة المبارك [٢] قال: فبلغ القاضي خروج الرشيد إلى البصرة ومعه أبو يوسف القاضي في الحراقة، فقال عبد الرحمن القاضي لأهل ذلك البلد، فلبس ثيابه وقلنسوة طويلة وطيلساناً أسود، وجاء إلى الشريعة، فلما صدق، ثم مضى إلى شريعة أخرى فقال مثل مقالته الأولى، فالتفت هارون إلى أبي يوسف وقال: يا يعقوب هذا شر قاض في الأرض، قاض في موضع لا يثني عليه إلا رجل واحد! فقال له أبو يوسف: وأعجب من هذا يا أمير المؤمنين هو

---

(١) وفيات الأعيان، ٦ / ٣٨٦.
(٢) وهي بضم الميم وبعدها باء موحدة وبعد الألف راء مفتوحة وبعدها كاف، وهي بليدة بين بغداد وواسط على شاطئ دجلة -.

القاضي يثني على نفسه، قال: فضحك هارون وقال: هذا أظرف الناس، هذا لا يعزل أبداً، وكان الرشيد إذا ذكره يقول: هذا لا يعزل أبداً. وقيل لأبي يوسف: أتولي مثل هذا القضاء فقال: إنه أقام ببابي مدة وشكا إلي الحاجة فوليته.

صح ستره وخلصت أمانته:

قال الرشيد لأبي يوسف: بلغني أنك تقول: إن هؤلاء الذين يشهدون عندك وتقبل أقوالهم متصنعة، فقال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: وكيف ذاك قال: لأن من صح ستره وخلصت أمانته لم يعرفنا ولم نعرفه، ومن ظهر أمره وانكشف خبره لم يأتنا ولم نقبله، وبقيت هذه الطبقة وهم هؤلاء المتصنعة الذين أظهروا الستر وأبطنوا غيره، فتبسم الرشيد وقال: صدقت [١].

تزببت قبل أن تحصرم:

لما جلس أبو يوسف رحمه الله تعالى للتدريس من غير إعلام أبي حنيفة رحمه الله فأرسل إليه أبو حنيفة رحمه الله رجلاً فسأله عن خمس مسائل: الأولى: قصار جحد الثوب وجاء به مقصورًا هل يستحق الأجرة أم لا؟ فأجاب أبو يوسف رحمه الله: لا يستحق الأجر فقال له الرجل: أخطأت فقال: لا يستحق فقال: أخطأت ثم قال له الرجل: إن كانت القصار قبل الجحود استحق وإلا لا، الثانية: هل الدخول في الصلاة بالفرض أم بالسنة فقال: بالفرض فقال: أخطأت فقال: بالسنة فقال: لا أخطأت لا فتحير أبو يوسف رحمه الله فقال الرجل: بهما لأن التكبير فرض ورفع اليدين سنة الثالثة: طير سقط في قدر على النار فيه لحم ومرق: هل يأكلان؟ أم لا؟ فقال: يؤكل فخطأه فقال: لا يؤكل فخطأه ثم قال: إن كان اللحم مطبوخًا قبل سقوط الطير يغسل ثلاثا ويؤكل وترمى المرقة وإلا يرمى الكل له الرابعة: مسلم له زوجة ذمية ماتت وهي حامل منه تدفن في أي المقابر فقال أبو

(١) وفيات الأعيان، ٦ / ٣٨٨.

يوسف رحمه الله: في مقابر المسلمين فخطأه فقال: في مقابر أهل الذمة فخطأه فتحير أبو يوسف فقال الرجل: تدفن في مقابر اليهود ولكن يحول وجهها عن القبلة حتى يكون وجه الولد إلى القبلة لأن الولد في البطن يكون وجهه إلى ظهر أمه، الخامسة: أم ولد لرجل تزوجت بغير إذن مولاها فمات المولى هل تجب العدة من المولى فقال: تجب فخطأه ثم قال: لا تجب فخطأه ثم قال الرجل: إن كان الزوج دخل بها: لا تجب وإلا: وجبت فعلم أبو يوسف تقصيره فعاد إلى أبي حنيفة رحمه الله فقال: تزببت قبل أن تحصرم [(١)].

من ظن أنه يستغني عن التعلم فليبك على نفسه:

وفي مناقب الكردري: أن سبب انفراده أنه مرض مرضًا شديدًا فعاده الإمام وقال: لقد كنت آملك بعدي للمسلمين ولئن أصبت ليموتن علم كثير فلما برأ أعجب بنفسه وعقد له مجلس الأمالي وقال له حين جاء: ما جاء بك إلا مسألة القصار سبحان الله من رجل يتكلم في دين الله ويعقد مجلسًا لا يحسن مسألة في الإجارة: ثم قال: من ظن أنه يستغني عن التعلم فليبك على نفسه.

ستصير قمراً:

قال أبو بكرة بن قتيبة سمعت هلالاً يقول لما قدم علينا أبو يوسف اجتمع على بابه أصحاب الحديث وأصحاب الرأي جميعًا وتولاه كل فريق وزعم أنه أولى به وبالدخول عليه من الفريق الآخر فأشرف على الناس فقال لهم أنا والله من الفريقين جميعًا ولست أقدم فرقة على الأخرى إلا بمعنى يتبين به تقدمها وها أنا ذا أسأل عن مسألة فأي الفريقين أصابها دخل فأخرج خاتمًا كان في يده فقال: رجل أخذ خاتمي فمضغه حتى هشمه فقام أصحاب الحديث من كل ناحية فاختلفوا فمنهم من قال عليه أن يعيده مصوغًا كما كان ومنهم قال عليه ما نقصه فلما رأيت أنا ذلك قمت من بين أصحابي

(١) الأشباه والنظائر، ١ / ٤٥٩.

فقلت أصلحك الله هو لهذا الهاشم وعليه لصاحبه قيمته مصوغًا من الذهب إلا أن يشاء صاحبه أن يمسكه ولا يكون على هاشمه شيء فصوبني أبو يوسف وأدناني وأدخلني وأدخل أصحابي فقال: ما اسمك قلت: هلال قال: ستصير قمرا وأملى علينا مسألة من المكاتب قد تقدم من قوله في كتاب الصرف خلاف ذلك فلما فرغ منها قمت إليه فقلت له: أصلحك الله هذا خلاف قولكم في كتاب الصرف أفنمحو ذلك ونثبت هذا أم نمحو هذا ونثبت ذلك فقال: دعوهما فسيأتي من يميز بينهما قال هلال: وشاهدي على ذلك كله قتيبة البكراوي يعني أبا بكرة وكان حاضرًا ذلك كله (١).

يضرب بأصحابه الأمثال:

قال محمد بن شجاع: قال: سمعت الحسن بن أبي مالك يقول: كان أبو يوسف يضرب بأصحابه الأمثال فيقول في محمد بن الحسن أي سيف هو لولا أن فيه صدأ وأنه يحتاج إلى جلاء ويقول في الحسن اللؤلؤي هو عندي كالصيدلاني إذا طلب رجل ما يمسك بطنه أعطاه ما يسهله فإذا طلب ما يسهل بطنه أعطاه ما يمسكه وكان يقول المريسي هو عندي كإبرة الرفاء طرفها دقيق ومدخلها ضيق وهي سريعة الانكسار وكان يقول لإبراهيم بن الجراح هو عندي كرجل عنده دراهم مكحلة فكلما مسها نقصت وكان يقول للحسن ابن أبي مالك هو عندي كجمل حمل متاعًا ثقيلاً في يوم مطير فتذهب يده مرة هكذا ومرة هكذا ثم يسلم (٢)

يا قاتل المسلم بالكافر:

قال علي بن عمرو: رفع إلى أبي يوسف رجل مسلم قتل ذميًا عمدًا وقامت البينة عليه فأمر بحبسه ليقاد منه فلما كان في يوم مجلس القضاء رفعت إليه رقاع الخصوم فإذا فيها رقعة مكتوب فيها

يا قاتل المسلم بالكافر ::: جرت وما العادل كالجائر

(١) أخبار أبي حنيفة، ١ / ١٠٤.
(٢) أخبار أبي حنيفة، ١ / ١٠٥.

يـــا مـــن ببغـــداد وأقطارهـــا ::: مـــن فقهـــاء النـــاس أو شـــاعر
جار على الـــدين أبـــو يوســـف ::: بقتلـــــه المســــــلم بالكــــــافر
فاسترجعوا وابكـــوا جميعًـــا معـــا ::: واصـــــطبروا فـــالأجر للصــــابر

قال فأخذ أبو يوسف الرقعة ودخل بها على الرشيد فأعلمه فقال له: فاذهب فاحتل فجلس أبو يوسف وحضر ولي الدم والمدعى عليه فقامت البينة فقال أبو يوسف: لولي الدم أقم عندي البينة إن صاحبك كان يؤدي الجزية فلم يقم له البينة فمنع النقود [1].

ولم أسو بينه وبين الخصم في المجلس:

قال أبو زيد حماد بن دليل: قال أبو يوسف: قعد أمير المؤمنين للمظالم فكنت السفير بينه وبين المتظلمين آخذ قصصهم وأوصلها إليه فجاءني رجل كبير من أهل السواد ومعه قصة فيها دعوى بستان محدود يزعم أن ذلك له في يد أمير المؤمنين وأنه غصبه عليه فقلت في يد من هو فقال: في يد أمير المؤمنين قلت: من أكاره قال: هو في يد أمير المؤمنين غصبني عليه فجعلت أديره بكل وجه على أن ينصرف عن مطالبة أمير المؤمنين إلى مطالبة غيره فيأبى أن ينصرف عن دعواه أن المطلوب به أمير المؤمنين فدخلت بالقصص وأمير المؤمنين قاعد على كرسي ويحيى بن خالد قعد معه فجعلت أخرج القصص فخرجت قصته بالقرب مني فلم استجز تأخيرها فقلت: يا أمير المؤمنين حضر شيخ كبير من أهل السواد فادعى بستان كذا فجهدت به أن يطالب بدعواه رجلاً من الرعية فأبى فقال: مطالبتي لأمير المؤمنين فقال: هذا البستان أعرفه وهبه لي أبي وهو لي في ملكي قلت: أفيحضر الرجل؟ قال: نعم فاحضرته قلت: ما تدعي؟ قال: ادعي بستان كذا وحدده على أمير المؤمنين هذا وأشار إليه قلت: من يقوم به وفي يد من هو؟ قال: في يد أمير المؤمنين هذا قلت لأمير المؤمنين: ما تقول في دعوى هذا الرجل قال: ما له في يدي هذا الحق

(١) أخبار أبي حنيفة، ١ / ١٠٦.

الذي يدعيه وما هذا البستان له قلت له: ألك بينة؟ قال: يمينه قلت له يا أمير المؤمنين: عليك اليمين قال: استحلفني فاستحلفته فحلف فوثب الشيخ منصرفًا فسمعته وقد أدبر يقول: استفه كشربة سويق وتربد وجه أمير المؤمنين حين حلف وأطرق يفكر فقلت: هلكت وهلك الرجل فقال يحيى بن خالد: يا يعقوب رأيت مثل أمير المؤمنين في عدله وإنصافه لرجل من رعيته أنصف من نفسه حتى فعل ما رأيت فسرى عن أمير المؤمنين وفرح بذلك وقال: سبحان الله وبد من الإنصاف وقال يحيى بن خالد لو جاءت هذه من الفاروق لكانت حسنة أو كما قال: قال أبو زيد: قال لنا أبو يوسف: فما أذكر ذلك المجلس إلا دخلني منه غم شديد وخفت الله من تركي العدل فيه فقلنا وما يكون أكثر مما فعلت قال: ألم تفهموا ما فيها قلنا لا ما رأينا إلا عدلاً وقيامًا بالحق قال: كيف ولم أسو بينه وبين الخصم في المجلس فأقول: يا أمير المؤمنين أنت على كرسي وهو على الأرض فيدعي له بكرسي فيجلس عليه (١).

فندم أبو يوسف على كلامه:

كان الرشيد يجمع العلماء ويسمع كلامهم، فحضروا ذات يوم وفيهم أبو يوسف صاحب أبي حنيفة، والكسائي يذكر النحو، فقال له: أحذق الناس به يكون معلماً، فقال له الكسائي: أسالك عن مسألة في الفقه، قال: سل، قال: ما تقول في غلام لك قتل فاتهمت به رجلين فسألتهما عن أمره فقال أحدهما: أنا قاتل غلامك، وقال الآخر: أنا قاتل غلامك، أيهما القاتل عندك؟ قال أبو يوسف: جميعاً، قال الكسائي: أخطأت، قال: فأيهما القاتل عندك؟ قال: والذي قال: أنا قاتلٌ غلامك، لأن قوله: أنا قاتل غلامك يريد أنا قتلته، والذي قال: أنا قاتل - بالتنوين - غير قاتل، أراد: سأقتل غلامك، فهو تهدد، قال الله تعالى:{فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا } [الأنعام: ٩٦] المعنى فلق

(١) أخبار أبي حنيفة، ١ / ١٠٧.

الإصباح، فندم أبو يوسف على كلامه [١].

فما نلت منكم طائلاً غــير أنــني ::: تعلمت حال الفقر كيف تكــون

حدث أبو عبد الله الفضل بن الحسن الأهوازي، قال: قدم إلى الأهواز رجلٌ من ولد الحسن بن سهل، حسن الهيئة والأدب، فأخبرنا جماعةٌ من العراقيين أنه كان في نعمةٍ واسعةٍ فزالت عنه، وكان قصده لأحمد بن دينار، فقبله أحمد وقال: الزمني ووعده الإحسان، وأجرى عليه وعلى غلام كان معه نزلاً من خبز ولحمٍ وتوابله مقدار ثلاثة دراهم، وقال له: تمهلني فإني في شغلٍ، فإذا انكشف وجهي بلغت لك ما تحب، فطال مقامه وأخلقت أثوابه، فكتب إليه:

صحبتكم عامين في حال عســرةٍ ::: أرجي نــداكم والظنــون فنــون
فما نلت منكم طائلاً غــير أنــني ::: تعلمت حال الفقر كيف تكــون

فوصلت الرقعة إلى أحمد بن دينار، وكان يعقوب بن إسحاق اليزيدي حاضراً، فقال: لمن هذا؟ فقال: لرجلٍ من ولد الحسن بن سهل، قال له: وهو مقيمٌ عندك نحواً من حولين، قال: قريب من ذلك، فانصرف أبو يوسف ووجه إلى الرجل فأحضره ودفع له بمائة دينار، وقسط له على جماعة من الوجوه أربعة آلاف درهم، وكتب له إلى بزازٍ كان يعامله بكسوةٍ بألف درهم، ووجه من اكترى له زورقاً إلى مدينة السلام، وزوده زاداً كبيراً حسناً، وقال له: اخرج لا تلق من قصدته، فقال: والله لأضربن جودك على نائل يكون منه، ولأفردن الشكر لك دونه، ولأتجهن إلى الله تعالى في صيانتك عن كل دناءةٍ ومعرةٍ كما صنتني عنها، وانصرف. وبلغ الخبر ابن دينار، وكان ذلك سبب وحشةٍ عظيمةٍ صارت بينهما [٢].

(١) البصائر والذخائر، ٥ / ٢٠٣.
(٢) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ١٣٧.

تدري من خلف هذا الستر؟:

أرسل أمير المؤمنين الرشيد إلى قاضي القضاة أبو يوسف، في ساعةٍ لم يكن يرسل إليه في مثلها، قال أبو يوسف: فتحنطت وتكفنت ولبست فوق ذلك ثيابي، ودخلت على أمير المؤمنين، فألفيته جالساً على طرف المصلى، وإذا بين يديه سيف مسلول، فسلمت فرد علي السلام وأدناني، فشم مني رائحة الحنوط، فقال: ما هذه الرائحة فأخبرته الخبر فاسترجع، ثم أمر بذلك فنزع عني، وجاءني بثياب فلبستها، ثم قال لي: تدري من خلف هذا الستر؟ قلت: لا، يا أمير المؤمنين، قال: إن خلفه أعز خلق الله تعالى علي، قال: فظننت أنها الخيزران، ثم قال: إني أودعتها عقوداً لها مقدار، وجوهراً له خطر، وإني فقدت منها عقداً، فحلفت بأيمان البيعة وأكدتها على نفسي أنها تصدقني عن خبره، فإن لم تصدقني ضربتها بسيفي هذا حتى أبضعها قطعاً، قال أبو يوسف: يا أمير المؤمنين! قد أخرجك الله تعالى من يمينك، فمر بالسيف يرد إلى غمده، فأمر به فرد إلى غمده، فقلت: يا أمير المؤمنين! سلها وعرفها يمينك، فسألها وغلظ عليها الأمر، قال: قل لها: لا تجيبك حتى أقول لها، ثم قال لها أبو يوسف: أمسكي، ثم قال: يا أمير المؤمنين! فسلها ثانية، فسألها وغلظ عليها ما حلف به، فقال لها أبو يوسف: قولي إني لم آخذه، فقالت: لم آخذه.

ثم التفت إلى أمير المؤمنين، فقال: قد صدقتك في أحد القولين إن كانت أخذته فقد صدقت، وإن كانت لم تأخذه فقد صدقتك.

فأمر له بعشرة آلاف درهم، وقاما وخرجا من البيت الذي كانا فيه إلى خزانة، فأمر بها ففتحت وأخرج إليه أسفاطٌ فأمر بها فحلت، فإذا فيها جوهر له خطر، فقال أبو يوسف: يا أمير المؤمنين! ما رأيت أحسن من هذا، فإن رأيت أن تهبه لي؟ فقال: لا والله ما نفسي بذلك طيبة، فقال: فهبه لأم جعفر، فقال: لا والله، ولا نفسي به طيبة، قال: يا أمير المؤمنين! فإن لم تفعل لا هذا ولا ذا فتعلم أم جعفرٍ أني سألتك أن تهب لها هذه العقود فأبيت،

قال: أما ذا فنعم، فأعلم أم جعفر بذاك فأنفذت إلى أبي يوسف بمائة ألف درهم [(١)].

هذا نذير الكلاب!:

قال الإمام أبو يوسف القاضي رحمه الله كنت ماراً في طرقات الكوفة وإذا أنا بعليان المجنون فلما بصر بي سلم علي وقال لي: أيها القاضي مسألة قلت: هات، قال: أليس قال الله تعالى في كتابه العزيز:{وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم} [الأنعام: ٣٨]. قلت: بلى، قال: أليس قال الله عز وجل:{وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ} [فاطر: ٢٤]، قلت بلى، قال فما نذير الكلاب، قلت: لا أدري فأخبرني، قال لا والله لا أقول إلا بمن رقاق من شواء ونصف من فالوذج، فأمرت من جاء بها، ودخلت معه مسجداً فأكلها حتى أتى على آخرها، فقلت: هات الجواب فأخرج من كمه حجراً وقال هذا نذير الكلاب! [(٢)].

أبشر يا أمير المؤمنين بالثواب الجزيل:

عن إبراهيم بن المهدي أنه كان يتغدى مع الرشيد في يوم شاتٍ، وإن الرشيد سأل صاحب المطبخ: هل عنده برمة من لحم الجزور؟ فأعلمه أن عنده عدة ألوان منه، فأمر بإحضار ما عنده منه، فقدمت إليه صحفة ومد يده إلى لقمة منها فأدخلها في فيه، فلما حرك لحييه عليها مرتين ضحك جعفر بن يحيى، فسأله الرشيد عن سبب ضحكه، وأمسك عن المضغ، فقال: ذكرت كلاماً دار بيني وبين جاريتي البارحة فضحكت منه، فقال له الرشيد: هذا محال، فأخبرني عن السبب بحقي عليك، فقال له جعفر: إذا ابتلع أمير المؤمنين لقمته حدثته السبب، فأخرج لقمته من فيه وألقاها تحت المائدة، فلما فعل ذلك قال له جعفر: بكم يتوهم أمير المؤمنين أن هذا اللون يقوم عليه؟ فقال له الرشيد: أتوهمه يقوم علي بأربعة آلاف درهم، فقال له

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ٢١٦.
(٢) أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري، عقلاء المجانين، ص ٢٨.

جعفر: والله إن هذا اللون ليقوم عليك بأربع مائة ألف درهم، فقال: وكيف ويحك؟ فقال جعفر: سأل أمير المؤمنين صاحب المطبخ منذ أكثر من أربع سنين عن برمةٍ من لحم الجزور فأخبره أنه لم يتخذها، فأنكر ذلك على أمير المؤمنين وقال: لا يفت مطبخي لون يتخذ من لحم الجزور في كل يوم، فأنا منذ ذلك اليوم أنحر جزوراً في كل يومٍ لأن الخلفاء لا يبتاع لهم لحم الجزور من السوق، ولم يدع أمير المؤمنين بشيءٍ من لحمها إلى يومه هذا. قال إبراهيم: وكان الرشيد في أول طعامه ولم يكن أكل إلا ملهوجة واحدةً، وكان أشد خلق الله تقززاً، فصعق حين قال له جعفر ما قال، وضرب بيده اليمنى وفيها الغمر وجهه ومد بها لحيته ثم قال: هلكت ويلك يا هارون، واندفع يبكي، وأمر برفع المائدة وطفق يبكي حتى أذنه المؤذنون بصلاة الظهر، وأمر أن يفرق ألف ألف درهم وأن يفرق في كل جانب من جانبي بغداد خمسمائة ألف درهم وأن يفرق في كل مدينةٍ من الكوفة والبصرة خمسمائة ألف درهمٍ، وقال: لعل الله تعالى أن يغفر لي هذا الذنب. وقام يصلي الظهر، ثم عاد في مكانه فلم يزل باكياً حتى أذنه المؤذنون بصلاة العصر وقام فصلى: وعاد لمكانه إلى أن قرب ما بين صلاة العصر والمغرب، فأخبره القاسم بن الربيع مولاه أن أباه يوسف القاضي بالباب فأمره بإدخاله، فدخل وسلم فلم يرد عليه وأقبل يقول: يا يعقوب هلك هارون، فسأله يعقوب عن القصة فقال: يخبرك جعفر بها، وعاد لبكائه. وحضر جعفر فسأله أبو يوسف عن القصة فقال: يخبرك جعفر بها، وعاد لبكائه. وحضر جعفر فسأله أبو يوسف عن القصة والسبب المخرج للرشيد إلى ما خرج إليه، فحدثه جعفر عن الجزور التي كانت تنحر في كل يوم طول تلك المدة ومبلغ ما أنفق في أثمانها من الأموال، فقال له أبو يوسف: أخبرني عن هذه الإبل التي كانت تبتاع بهذه الدراهم هل كانت تترك إذا نحرت حتى تفسد، ولا تؤكل لحومها حتى تنتن فيرمى بها؟ قال جعفر: اللهم لا، قال أبو يوسف: فكان يصنع بها ماذا؟ قال:

يأكلها الحشم والموالي وعيال أمير المؤمنين، فقال أبو يوسف: الله أكبر الله أكبر، أبشر يا أمير المؤمنين بالثواب الجزيل من الله عز وجل على نفقتك، وأبشر بثواب الله تعالى على ما فتح لك من الصدقة في يومك هذا، ومن البكاء للتقية من ربك، فإني لأرجو يا أمير المؤمنين أن لا يرضى الله تعالى من ثوابه على ما قد داخلك من الخوف من سخطه عليك إلا الجنة، فإنه يقول تعالى:{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾} [الرحمن: ٤٦] وأنا أشهد بالله تعالى أنك خفت مقام ربك، فسري عن الرشيد وطابت نفسه ووصل أبا يوسف بأربعمائة ألف درهم، ثم صلى المغرب ودعا بطعامه فأكل، فكان غداؤه في اليوم عشاءه (١).

هذا لم يكن في الصلاة إنما كان في الصيد:

استأذن القاضي أبو يوسف على المتوكل فقال لعبادة: اخرج نشاركه على أن يلزم الحائط ساكتاً، وتوعده إن نطق بحرف أن يقبله، فأقبل على القاضي يسأله عن مسائل من الفقه، إلى أن سأله عن رجل يصلي فرمى بطرفه إلى ثوبه فرأى دابة، فقال: يردها إلى سبعين، فإن رأى أخرى؟ قال يفعل بها مثل ذلك، قال: فإن رأى أخرى؟ فابتدر عبادة فقال: هذا لم يكن في الصلاة إنما كان في الصيد (٢).

أنا لا أحكم على غائب:

أبو يوسف القاضي رحمه الله تعالى، تحاكم إليه الرشيد وزبيدة في الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب، فقال أبو يوسف: أنا لا أحكم على غائب. فأمر باتخاذهما وتقديمهما إليه، فجعل يأكل من هذا مرة ومن ذلك أخرى حتى نظف الجانبين ثم قال: يا أمير المؤمنين، ما رأيت أجدل منهما، إن أردت أن أسجل لأحدهما أدلى الآخر بحجة (٣).

---

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ٢٨٣.
(٢) الزمخشري، ربيع الأبرار، ١ / ١٠٩، ١٥٦، ٣١١.
(٣) الثعالبي، اللطف واللطائف، ص ١٠.

وقد كنت في بيتي والدروب مغلقةٌ فحين دعاني فتحت:

دعا الرشيد أبا يوسف ليلاً فسأله عن مسألةٍ فأفتاه، فأمر له بمائة ألف درهم، فقال: إن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بتعجيلها قبل الصبح، فقال: عجلوها له، فقيل إن الخازن في بيته والأبواب مغلقةٌ، فقال أبو يوسف: وقد كنت في بيتي والدروب مغلقةٌ، فحين دعاني فتحت (١).

أنت طالقٌ أن دخلت الدار؟:

دخل أبو يوسف الفقيه على الرشيد وعنده الكسائي يحدثه، فقال: يا أمير المؤمنين، قد سعد هذا الكوفيّ بك وشغلك. فقال الرشيد: النحو أستعين به على القرآن والشعر. فقال الكسائي: إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن له بجوابي عن مسألة من الفقه؟ فضحك الرشيد وقال: أبلغت - يا كسائي - إلى هذا، قل! فقال الكسائي: ما تقول في رجلٍ قال لامرأته: أنتِ طالقٌ أن دخلت الدار؟ قال أبو يوسف: إذا دخلت طلقت. فقال الكسائي: أخطأت! إذا فتحت " أن " فقد وجب الأمر لأن " أن " بالفتح لما قد كان، وإذا كسرت فلم يقع بعد. فنظر أبو يوسف بعد ذلك في النحو (٢).

نعم القاضي قاضي جبل:

حدث عبد الرحمن بن مسهر قال: ولاني القاضي أبو يوسف القضاء بجبل وبلغني أن الرشيد منحدر إلى البصرة فسألت أهل جبل أن يثنوا علي فوعدوني أن يفعلوا ذلك وتفرقوا فلما آيسوني من أنفسهم سرحت لحيتي وخرجت فوقفت له فوافى وأبو يوسف في الحراقة فقلت: يا أمير المؤمنين، نعم القاضي قاضي جبل قد عدل فينا وفعل وصنع وجعلت أثني على نفسي فرآني أبو يوسف فطأطأ رأسه وضحك فقال هارون مم تضحك؟ فقال: إن المثني على نفسه هو القاضي فضحك هارون حتى فحص برجليه وقال:

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ٢ / ٣٥٦.
(٢) المرزباني، نور القبس، ص ١٠٧.

هذا شيخ سخيف سفلة فاعزله، فعزلني [١].

لو باعك لأجزت بيعه ولم أردك إلى ملكي:

وقدم خادم من وجوه خدم المعتضد بالله إلى أبي يوسف بن يعقوب في حكم فارتفع الخادم على خصمه في المجلس فزجره الحاجب عن ذلك فلم يقبل فقال أبو يوسف: قم أتؤمر أن تقف بمساواة خصمك في المجلس فتمتنع يا غلام ائتني بعمرو بن أبي عمرو النحاس فإنه إن قدم على الساعة أمرته ببيع هذا العبد وحمل ثمنه إلى أمير المؤمنين ثم إن الحاجب أخذ بيده حتى أوقفه بمساواة خصمه فلما انقضى الحكم رجع الخادم إلى المعتضد وبكى بين يديه وأخبره بالقصة فقال له: لو باعك لأجزت بيعه ولم أردك إلى ملكي فليست منزلتك عندي تزن رتبة المساواة بين الخصمين في الحكم فإن ذلك عمود السلطان وقوام الأديان والله تعالى أعلم [٢].

لو كنت فقيهاً لما تكلمت في الصلاة:

ومثله قول أبي يوسف بعرفة وقد صلى خلف الرّشيد فلما سّلم في الرّكعتين قال: يا أهل مكة أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر. فقال بعض أهل مكة: من عندنا خرج العلم إليكم. فقال أبو يوسف: لو كنت فقيهاً لما تكلمت في الصلاة [٣].

لله دركم يا أصحاب أبي حنيفة، من ذا يقاومكم!

وحدَّثني الحسن بن محمد الوليدي الفقيه عن مشايخه أنَّ أبا يوسف القاضي كان عند الرشيد ذات يوم وبين يدي الرشيد غلام مختطٌ حسن الوجه من أبناء عمّه قائم على رسم الخدمة، وكان الرشيد يحدّث أبا يوسف وأبو

(١) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، الناشر: المكتب التجاري - بيروت، ص ١٠٢.
(٢) شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق: د. مفيد محمد قميحة، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦، ١ / ٢٢١.
(٣) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص ٦.

يوسف يحدّد النَّظر إلى الغلام، فقال لـه الرشيد: هو ذا أحدّثك وأنت مقبل ببصرك على هذا القائم، فقال أبو يوسف: نعم يا أمير المؤمنين، حدَّثني ابن أبي ذئب عن الزهري عن أنس عن النَّبيّ ﷺ أنَّه قال:﴿ثلاثة تجلو البصر: الاكتحال بالإثمد، والنَّظر إلى الماء الجاري، والنَّظر إلى الوجه الحسن﴾، وأنا شيخ ضعيف البصر أحببت أن أجلو بصري، فتبسَّم الرشيد وأومأ بيده فقامت جارية من وراء الخدر ونقرت العود نقراً أعجب السَّامعين جودة فصبر أبو يوسف حتَّى فرغت، ثمَّ قال: أحسنت، فقال الرشيد: لم تقتصر على حسن السماع حتَّى قلت أحسنتِ، فقال: إنَّما قلتُ أحسنتِ حين أمسكت، فقال الرشيد: لله درّكم يا أصحاب أبي حنيفة، من ذا يقاومكم [(١)].

من كلامه:

عن أبي يوسف رحمه الله أنه قال من طلب الدين بالكلام تزندق ومن طلب المال بالكيمياء أفلس ومن تتبع غريب الحديث كذب.

قال أبو يوسف: ناظرت أبا حنيفة ستة أشهر فاتفق رأينا على أن من قال القرآن مخلوق فهو كافر.

وقال بشار الخفاف: سمعت أبا يوسف يقول: من قال القرآن مخلوق ففرض منابذته[(٢)].

قال أبو يوسف: بخراسان صنفان ما على الأرض شر منهما المقاتلية والجهمية.

قال أبو يوسف: العلم بالكلام جهل.

قالَ علي بْن إشكاب: سمعت أبا يوسف يقول: يا قوم أريدوا بفعلكم الله، فإني لم أجلس مجلساً قط أنوي فِيْهِ أن أتواضع إلاَّ لم أقم حتى أعلوهم ولم

(١) العبدلكاني الزوزني، حماسة الظرفاء، ص ٢٣.
(٢) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، العلو للعلي الغفار، تحقيق أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، الناشر: مكتبة أضواء السلف - الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٥، ص ٥١ - ٥٢.

أجلس مجلساً قط أنوي فِيْهِ أن أعلوهم إلاً لم أقم حتى أفتضح [(١)].

صحبة من لا يخشى العار عار يوم القيامة.

وكان يقول: رؤوس النعم ثلاثة: فأولها نعمة الإسلام التي لا تتم نعمة إلا بها، والثانية: نعمة العافية التي لا تطيب الحياة إلا بها، والثالثة نعمة الغنى التي لا يتم العيش إلا بها.

وقال علي بن الجعد: سمعت أبا يوسف يقول: العلم شيء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كذلك، وأنت إذا أعطيته كذلك من إعطائه البعض كنت على غرر.

عن أبي يوسف قال: ثلاث، صدق باثنتين ولا تصدق بواحدة، إن قيل لك إن رجلاً كان معك فتوارى خلف حائط فمات فصدق، وإن قيل لك إن رجلاً فقيراً خرج إلى بلد فاستفاد مالاً فصدق، وإن قيل لك إن أحمق خرج إلى بلد فاستفاد عقلاً فلا تصدق [(٢)].

قال أبو يوسف القاضي: إثبات الحجّة على الجاهل سهل، ولكن إقراره بها صعب [(٣)].

وقال له بعض الناس يوماً يا مجنون، فقال: مهلاً إنما المجنون من عرفه ثم عصاه [(٤)].

وقال أبو يوسف: الكفء على الحقيقة المساوي في النسب والمال والدين[(٥)].

(١) أخبار القضاة، ٣ / ٢٥٩.
(٢) جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، أخبار الحمقى والمغفلين، ص ٣.
(٣) أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، البصائر والذخائر، ط دار صادر - بيروت / لبنان - ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، ٨ / ٢٣.
(٤) أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري، عقلاء المجانين، ص ٢٨.
(٥) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١/ ٤١٣.

وقال أبو يوسف الناس ثلاثة مجنون ونصف مجنون وعاقل فأما المجنون فأنت منه في راحة لتركك الاختلاط به وأما نصف المجنون فأنت معه في تعب لضرورتك إليه وأما العاقل فقد كفيت مؤنته (١).

وقال أبو يوسف: إثبات الحجة على الجاهل سهل، ولكن إقراره بها صعب.

وقد رضي قوم بالجهل فقالوا: ضعف العقل أمان من الغم؛ وقالوا: ما سر عاقل قط (٢).

وقال أبو يوسف: خوف مالا دفع له من أخلاق من لا عقل له. من حسن خلقه وجب حقه.

من عجل وجل.

صغر القدر يحمل على ادعاء الفخر.

من لم يكن فخره بفعله فلا فخر له (٣).

ما كتب به أبو يوسف رحمه الله إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد

بسم الله الرحمن الرحيم

(هذا ما كتب به أبو يوسف رحمه الله إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد)

أطال الله بقاء أمير المؤمنين، وأدام له العز في تمام من النعمة، ودوام من الكرامة، وجعل ما أنعم به عليه موصولاً بنعيم الآخرة الذي لا ينفذ ولا يزول، ومرافقة النبي ﷺ.

إن أمير المؤمنين أيده الله تعالى سألني أن أضع له كتابًا جامعًا يعمل به في جباية الخراج، والعشور والصدقات والجوالى، وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به، وإنما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته، والصلاح لأمرهم. وفق الله تعالى أمير المؤمنين، وسدده وأعانه على ما تولى من

(١) الوطواط، غرر الخصائص الواضحة، ص٦١.
(٢) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ١ / ٣٥٧.
(٣) أسامة بن منقذ، لباب الآداب، ص ١١٨.

ذلك، وسلمه مما يخاف ويحذر، وطلب أن أبين له ما سألني عنه مما يريد العمل به، وأفسره وأشرحه. وقد فسرت ذلك وشرحته.

يا أمير المؤمنين، إن الله وله الحمد قد قلدك أمراً عظيماً: ثوابه أعظم الثواب، وعقابه أشد العقاب. قلدك أمر هذه الأمة فأصبحت وأمسيت وأنت تبني لخلق كثير قد استرعاكهم الله وائتمنك عليهم، وابتلاك بهم وولاك أمرهم، وليس يلبث البنيان - إذا أسس على غير التقوى - أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه وأعان عليه. فلا تضيعنَّ ما قلدك الله من أمر هذه الأمة والرعية، فإن القوة في العمل بإذن الله.

لا تؤخر عمل اليوم إلى غد، فإنك إذا فعلت ذلك أضعت، إن الأجل دون الأمل، فبادر الأجل بالعمل، فإنه لا عمل بعد الأجل. إن الرعاة مؤدون إلى ربهم ما يؤدي الراعي إلى ربه. فأقم الحق فيما ولاك الله وقلدك ولو ساعة من نهار، فإن أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راع سعدت به رعيته، ولا تزغ فتزيغ رعيتك. وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب. وإذا نظرت إلى أمرين أحدهما للآخرة والآخر للدنيا، فاختر أمر الآخرة على أمر الدنيا، فإن الآخرة تبقى والدنيا تفنى. وكن من خشية الله على حذر، واجعل الناس عندك في أمر الله سواء القريب والبعيد، ولا تخف في الله لومة لائم. واحذر فإن الحذر بالقلب وليس باللسان، واتق الله فإنما التقوى بالتوقي، ومن يتق الله يقه. واعمل لأجل مفضوض، وسبيل مسلوك، وطريق مأخوذ، وعمل محفوظ، ومنهل مورود؛ فإن ذلك المورد الحق والموقف الأعظم الذي تطير فيه القلوب، وتنقطع فيه الحجج لعزة ملك قهرهم جبروته، والخلق له داخرون بين يديه ينتظرون قضاءه، ويخافون عقوبته وكأن ذلك قد كان. فكفى بالحسرة والندامة يومئذ في ذلك الموقف العظيم لمن علم ولم يعمل، يومٌ تزل فيه الأقدام، وتتغير فيه الألوان، ويطول فيه القيام، ويشتد فيه الحساب. يقول الله تبارك وتعالى في كتابه: {وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ} [الحج: ٤٧] وقال تعالى: {هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ

وَٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾} [المرسلات: ٣٨] وقال تعالى: {إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٠﴾} [الدخان: ٤٠] وقال تعالى: {كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارٍ} [الأحقاف: ٣٥] وقال: {كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾} [النازعات: ٤٦]، فيالها من عثرة لا تُقال، ويالها من ندامة لا تنفع، وإنما هو اختلاف الليل والنهار: يبليان كل جديد، ويقربان كل بعيد، ويأتيان بكل موعود، ويجزي الله كل نفس بما كسبت إن الله سريع الحساب. فاللهَ اللهَ فإن البقاء قليل والخطب خطير والدنيا هالكة وهالك من فيها، والآخرة هي دار القرار. فلا تلق الله غداً وأنت سالك سبيل المعتدين، فإن ديان يوم الدين إنما يدين العباد بأعمالهم ولا يدينهم بمنازلهم. وقد حذرك الله فاحذر، فإنك لم تخلق عبثاً، ولن تترك سدى. وإن الله سائلك عما أنت فيه وعما عملت به، فانظر ما الجواب؟! واعلم أنه لن تزول غداً قدما عبد بين يدي الله تبارك وتعالى إلا من بعد المسألة فقد قال ﷺ: **«لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن علمه ما عمل فيه، وعن عمره فيم أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسده فيما أبلاه»**، فأعدد يا أمير المؤمنين للمسألة جوابها، فإن ما عملت فأثبتَّ فهو عليك غدا يقرأ، فاذكر كشف قناعك فيما بينك وبين الله في مجمع الأشهاد. وإني أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله، ورعاية ما استرعاك، وأن لا تنظر في ذلك إلا إليه وله. فإنك إن لا تفعل تتوعر عليك سهولة الهدى، وتعمى في عينك وتتعفى رسومه ويضيق عليك رحبه، وتنكر منه ما تعرف، وتعرف منه ما تنكر، فخاصم نفسك خصومة من يريد الفلج لها لا عليها، فإن الراعي المضيع يضمن ما هلك على يديه مما لو شاء رده عن أماكن الهلكة بإذن الله، وأورده أماكن الحياة والنجاة، فإذا ترك ذلك أضاعه وإن تشاغل بغيره كانت الهلكة عليه أسرع وبه أضر، وإذا أصلح كان أسعد من هنالك بذلك، ووفاه الله أضعاف ما وفى له. فاحذر أن تضيع رعيتك فيستوفي ربها حقها منك ويضيعك بما أضعت أجرك، وإنما يدعم البنيان قبل أن ينهدم. وإنما لك من عملك ما

عملت فيمن ولاك الله أمره، وعليك ما ضيعت منه، فلا تنس القيام بأمر من ولاك الله أمره فلست تُنسى. ولا تغفل عنهم وعما يصلحهم فليس يُغفل عنك. ولا يضيع حظك، من الدنيا في هذه الأيام والليالي، من كثرة تحريك لسانك في نفسك بذكر الله تسبيحاً وتهليلاً وتحميداً، والصلاة على رسوله نبي الرحمة وإمام الهدى ﷺ. وإن الله بمنه ورحمته جعل ولاة الأمر خلفاء في أرضه، وجعل لهم نوراً يضيء للرعية ما أظلم عليهم من الأمور فيما بينهم وبين ما اشتبه من الحقوق عليهم. وإضاءة نور ولاة الأمر إقامة الحدود، ورد الحقوق إلى أهلها بالتثبت والأمر البين. وإحياء السنن التي سنها القوم الصالحون أعظم موقعاً، فإن إحياء السنن من الخير الذي يحيا ولا يموت. وجور الراعي هلاك الرعية، واستعانته بغير أهل الثقة والخير هلاك للعامة. فاستتمَّ ما آتاك الله يا أمير المؤمنين من النعم بحسن مجاورتها، والتمس الزيادة بالشكر عليها، فإن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز:{لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: ٧]. وليس شيء أحب إلى الله من الإصلاح، ولا أبغض إليه من الفساد، والعملُ بالمعاصي كفر النعم. وقلَّ من كفر قوم قط النعمة ثم لم يفزعوا إلى التوبة إلا سلبوا عزهم، وسلط الله عليهم عدوهم. وإني أسأل الله يا أمير المؤمنين الذي منَّ عليك بمعرفته فيما أولاك أن لا يكلك في شيء من أمرك إلى نفسك، وأن يتولى منك ما تولى من أوليائه وأحبائه؛ فإنه وليُّ ذلك والمرغوب إليه فيه.

وقد كتبت لك ما أمرت به وشرحته وبينته، فتفقهْهُ وتدبره وردد قراءته حتى تحفظه، فإني قد اجتهدت لك في ذلك ولم آلك والمسلمين نصحاً ابتغاء وجه الله وثوابه وخوف عقابه. وإني لأرجو - إن عملتَ بما فيه من البيان - أن يوفر الله لك خراجك من غير ظلم مسلم ولا معاهَد، ويصلح لك رعيتك فإن صلاحهم بإقامة الحدود عليهم، ورفع الظلم عنهم والتظالم فيما اشتبه من الحقوق عليهم، وكتبت لك أحاديث حسنة، فيها ترغيب

وتحضيض على ما سألت عنه، مما تريد العمل به إن شاء الله. فوفقك الله لما يرضيه عنك، وأصلح بك، وعلى يديك.

أخبر عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: حدثنا أبي قال: سمعت أبا يوسف القاضي يقول: إن للعيون خبايا بالغدوات ما ليس لها بالعشيات، فقلت له: يا أبت، أليس ذكرت أنك لا تروي عن أبي يوسف؟ فقال: هذه حكمة يأخذها العبد عن كل من وجدها عنده [١].

* * *

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص١١٨، ٣٥٦.

العلامة ابن حزم الأندلسي

ابن حزم الأندلسي

أعـلام الفقهـاء

العلامة ابن حزم الأندلسي

في (مدينة) قرطبة الساحرة، إحدى مدن الأندلس وفي قصر أحد الوزراء، في أواخر شهر رمضان في عام ٣٨٤هـ، كان ميلاد طفل مبارك أصبح له بعد ذلك شأن كبير، فرح به والده فرحًا شديدًا، وشكر الله سبحانه وتعالى على نعمته وعطائه.

نشأ الغلام في قصر أبيه نشأة كريمة، فقد كان أبوه وزيرًا في الدولة العامرية وتعلم القرآن الكريم، والحديث النبوي، والشعر العربي، وفنون الخط والكتابة، وتمر الأيام ويكبر الغلام، فيجعله أبوه في صحبة رجل صالح يشرف عليه، ويشغل وقت فراغه، ويصحبه إلى مجالس العلماء.. إنه: (علي ابن أحمد بن سعيد الأندلسي) الشهير بابن حزم الأندلسي.

كانت أسرته لها مكانة مرموقة وعراقة في النسب، فـ(بنو حزم) كانوا من أهل العلم والأدب، ومن ذوي المجد والحسب، تولى أكثر من واحد منهم الوزارة، ونالوا بقرطبة جاهًا عريضًا.

وكان والد (ابن حزم) من عقلاء الرجال، الذين نالوا حظًّا وافرًا من الثقافة والعلم، ولذلك كان يعجب ممن يلحن في الكلام، ويقول: (إني لأعجب ممن يلحن في مخاطبة أو يجيء بلفظة قلقة في مكاتبة، لأنه ينبغي له إذا شك في شيء أن يتركه، ويطلب غيره، فالكلام أوسع من هذا).

وكانت هذه الثقافة الواسعة، والشخصية المتزنة العاقلة هي التي أهلت والد ابن حزم لتولي منصب الوزارة للحاجب المنصور بن أبي عامر في أواخر خلافة بني أمية في الأندلس، وفي القصر عاش ابن حزم عيشة هادئة رغدة، ونشأ نشأة مترفة، تحوط بها النعمة، وتلازمها الراحة والترف، فلا ضيق في رزق ولا حاجة إلى مال، وحوله الجواري الحسان ورغم هذه المغريات عاش ابن حزم عفيفًا لم يقرب معصية.. يقول في ذلك: (يعلم الله وكفي به عليمًا، أني بريء الساحة، سليم الإدام (أي: آكل حلالاً) صحيح البشرة، نقي الحجزة، وأني أقسم بالله أجل الأقسام، أني ما حللت مئزري

على فرج حرام قط، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنى منذ عقلت إلى يومي هذا).

وتغيرت الأحوال؛ فقد مات الخليفة، وجاء خليفة آخر، فانتقل ابن حزم مع والده إلى غرب قرطبة بعيدًا عن الفتنة، ومن يومها والمحن تلاحق ابن حزم، فالحياة لا تستقرُّ على حال، فقد كشرت له عن أنيابها، وأذاقته من مرارة كأسها، بعدما كانت له نعم الصديق، واضطر (ابن حزم) إلى الخروج من قرطبة إلى (المَرِيَّة) سنة ٤٠٤هـ وبعدها عاش في ترحال مستمر بسبب السياسة واضطهاد الحكام له، وكان ابن حزم واسع الاطلاع، يقرأ الكثير من الكتب في كافة المجالات، ساعده على ذلك ازدهار مكتبات قرطبة بالكتب المتنوعة، واهتمام أهل الأندلس بالعلوم والآداب، واشتهر ابن حزم بعلمه الغزير، وثقافته الواسعة، فكان بحق موسوعة علمية أحاطت بالكثير من المعارف التي كانت في عصره في تمكن وإحاطة.

قال عنه أحد العلماء (أبو عبد الله الحميدي): كان ابن حزم حافظًا للحديث وفقهه، مستنبطًا للأحكام من الكتاب والسنة، متفنّنًا في علوم جمَّة عاملاً بعلمه، ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء، وسرعة الحفظ، وكرم النفس والتدين..

وبعد أن بلغ ابن حزم رتبة الاجتهاد في الأحكام الشرعية، طالب بضرورة الأخذ بظاهر النصوص في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وكان ابن حزم متنوع الكتابات، كتب في علوم القرآن والحديث، والفقه والأديان، والرد على اليهود والنصارى، والمنطق.. وغيرها من العلوم، قال عنه أحد المؤرخين: كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان (أي علوم اللغة) وزيادة حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار.. وقد بلغ ما كتبه ابن حزم أربعمائة مجلد، تشتمل على ثمانين ألف ورقة تقريبًا، كما قال ابنه الفضل..

يقول عنه الإمام (أبو حامد الغزالي): وجدت في أسماء الله تعالى كتابًا ألفه (ابن حزم الأندلسي) يدل على عظيم حفظه وسيلان ذهنه.

شغل ابن حزم منصب الوزارة ثلاث مرات، وكان وفيًّا للبيت الأموي الحاكم في الأندلس، ومواليًا لهم، يعمل على إعادة الخلافة للدولة الأموية، ويرى أحقيتها في الخلافة، وبسبب ذلك كان يعرِّض نفسه للأسر أو السجن أو النفي، وقد دبر له خصومه المكائد، وأوقعوا بينه وبين السلطان حسدًا وحقدًا عليه، حتى أحرقت كتبه في عهد (المعتضد بن عباد) فقال ابن حزم في ذلك:

فإن تحرقوا القِرْطاس لا تَحْرِقُـوا ::: الذي تضمَّنه القرطاسُ بَلْ هُوَ فِي صَدْرِي
يَسِيُر مَعِي حَيْثُ اسْتَقَلتْ رَكَـائبِي ::: وَيَنْزِلُ إِنْ أنزل وُيدْفن فِي قـَبرِي

وقد منح الله ابن حزم ذاكرة قوية وبديهة حاضرة، فكان متواضعًا لله، شاكرًا له، يقول في ذلك: (وإن أعجبت بعلمك فاعلم أنه لا خصلة لك فيه، وأنه موهبة من الله مجردة، وَهَبَكَ إياها ربُّك تعالى، فلا تقابلها بما يسخطه، فلعله ينسيك ذلك بعلة يمتحنك بها، تولد عليك نسيان ما علمتَ وحفظتَ).

وكان عزيز النفس، واثق الكلمة أمام خصومه وأعدائه، لا ينافق الحكام، ويرفض قبول هداياهم حتى لو سبب له ذلك الكثير من المتاعب، وكانت صفة الوفاء ملازمة له، فكان وفيًّا لدينه وإخوانه وشيوخه، ولكل من اتصل به.

وتفرغ ابن حزم للتأليف؛ فأخرج كتبًا كثيرة، مثل: (المحلَّى) في الفقه و(الفصل بين أهل الآراء والنحل) و(الإحكام في أصول الأحكام) و(جمهرة أنسَاب العرب) و(جوامع السير) و(الرد على من قال بالتقليد) و(شرح أحاديث الموطأ) كما يعد كتاب (طوق الحمامة) من أشهر كتبه، وفيه الكثير من الشعر الذي قاله في مختلف المناسبات. وعاش هذا الفقيه في محراب العلم، يتصدى للظلم والجهل، ويجاهد مع ذلك هوى نفسه،

وبعد حياة حافلة بالكفاح والعلم والصبر على الإيذاء، لقي ابن حزم ربه في الثامن والعشرين من شعبان سنة ٤٥٦ هـ عن عمر يقارب إحدى وسبعين سنة، ويقف (أبو يوسف يعقوب المنصور) ثالث خلفاء دولة الموحدين أمام قبره خاشعًا ولم يتمالك نفسه، فيقول: كل الناس عيال على ابن حزم.

وقد أثني عليه كثير من العلماء والأئمة فقد قال عنه أبو حامد الغزالي: وجدت في أسماء الله تعالى كتابا ألفه أبو محمد بن حزم الأندلسي يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه.

وقال الإمام أبو القاسم صاعد بن أحمد:كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان، ووفور حظه من البلاغة والشعر، والمعرفة بالسير والأخبار؛ أخبرني ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه أبي محمد من تواليفه أربع مائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة.

قال أبو عبد الله الحميدي:كان ابن حزم حافظًا للحديث وفقهه، مستنبطًا للأحكام من الكتاب والسنة، متفننًا في علوم جمة، عاملاً بعلمه، ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء، وسرعة الحفظ، وكرم النفس والتدين، وكان له في الأدب والشعر نفس واسع، وباع طويل، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه، وشعره كثير جمعته على حروف المعجم.

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام - وكان أحد المجتهدين -:

ما رأيت في كتب الإسلام في العلم مثل: (المحلى) لابن حزم [١].

وقال الإمام أبو القاسم صاعد بن أحمد:كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان، ووفور حظه من البلاغة والشعر، والمعرفة بالسير والأخبار؛ أخبرني ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه أبي محمد من تواليفه أربع مائة مجلد تشتمل على

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٨ / ١٩٤.

قريب من ثمانين ألف ورقة.

ولابن حزم مصنفات جليلة منها:

أكبرها (الإيصال إلى فهم كتاب الخصال).

و(الخصال الحافظ لجمل شرائع الإسلام).

و(المحلى).

و(المحلى في شرح المجلى بالحجج والآثار).

(حجة الوداع).

(قسمة الخمس في الرد على إسماعيل القاضي).

(الآثار التي ظاهرها التعارض ونفي التناقض عنها).

(الجامع في صحيح الحديث).

(التلخيص والتخليص في المسائل النظرية)

(ما انفرد به مالك وأبو حنيفة والشافعي)

(مختصر الموضح) لأبي الحسن بن المغلس الظاهري.

(اختلاف الفقهاء الخمسة مالك، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد، وداود)

(التصفح في الفقه).

(التبيين في هل علم المصطفى أعيان المنافقين).

(الإملاء في شرح الموطأ).

(الإملاء في قواعد الفقه).

(در القواعد في فقه الظاهرية).

(الإجماع).

(الفرائض).

(الرسالة البلقاء في الرد على عبد الحق بن محمد الصقلي).

(الإحكام لأصول الأحكام).

(الفصل في الملل والنحل).

(الرد على من اعترض على الفصل).

(اليقين في نقض تمويه المعتذرين عن إبليس وسائر المشركين).

(الرد على ابن زكريا الرازي).

(الترشيد في الرد على كتاب الفريد)لابن الراوندي في اعتراضه على النبوات.

(الرد على من كفر المتأولين من المسلمين).

(مختصر في علل الحديث).

(التقريب لحد المنطق بالألفاظ العامية).

(الاستجلاب) مجلد، كتاب(نسب البربر).

(نقط العروس).

(مراقبة أحوال الإمام).

(من ترك الصلاة عمدا).

(رسالة المعارضة).

(قصر الصلاة).

(رسالة التأكيد).

(ما وقع بين الظاهرية وأصحاب القياس).

(فضائل الأندلس).

(العتاب على أبي مروان الخولاني).

(رسالة في معنى الفقه والزهد).

(مراتب العلماء وتواليفهم).
(التلخيص في أعمال العباد).
(الإظهار لما شنع به على الظاهرية).
(زجر الغاوي).
(النبذ الكافية).
(النكت الموجزة في نفي الرأي والقياس والتعليل والتقليد).
(الرسالة اللازمة لأولي الأمر).
(مختصر الملل والنحل).
(الدرة فيما يلزم المسلم) جزآن.
(مسألة في الروح).
(الرد على إسماعيل اليهودي، الذي ألف في تناقض آيات).
(النصائح المنجية).
(الرسالة الصمادحية في الوعد والوعيد).
(مسألة الإيمان).
(مراتب العلوم).
(بيان غلط عثمان بن سعيد الأعور في المسند والمرسل).
(ترتيب سؤالات عثمان الدارمي لابن معين).
(عدد ما لكل صاحب في مسند بقي)، (تسمية شيوخ مالك).
(السير والأخلاق).
(بيان الفصاحة والبلاغة)رسالة في ذلك إلى ابن حفصون
(مسألة هل السواد لون أو لا).

(الحد والرسم).

(تسمية الشعراء الوافدين على ابن أبي عامر).

(شيء في العروض).

(مؤلف في الظاء والضاد).

(التعقب على الأفليلي في شرحه لديوان المتنبي).

(غزوات المنصور بن أبي عامر).

(تأليف في الرد على أناجيل النصارى).

مؤلفاته في الطب:

ولابن حزم:(رسالة في الطب النبوي) وذكر فيها أسماء كتب له في الطب منها:

(مقالة العادة).

و(مقالة في شفاء الضد بالضد).

و(شرح فصول بقراط).

وكتاب(بلغة الحكيم).

وكتاب(حد الطب).

وكتاب(اختصار كلام جالينوس في الأمراض الحادة).

وكتاب في(الأدوية المفردة).

و(مقالة في المحاكمة بين التمر والزبيب).

و(مقالة في النخل).

(تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل).

وأشياء سوى ذلك [١].

وقد امتحن لتطويل لسانه في العلماء، وشرد عن وطنه، فنزل بقرية له، وجرت له أمور، وقام عليه جماعة من المالكية، وجرت بينه وبين أبي الوليد الباجي مناظرات ومنافرات، ونفروا منه ملوك الناحية، فأقصته الدولة، وأحرقت مجلدات من كتبه، وتحول إلى بادية لبلة في قرية.

قال أبو الخطاب ابن دحية:كان ابن حزم قد برص من أكل اللبان، وأصابه زمانة، وعاش ثنتين وسبعين سنة غير شهر.

قال الذهبي:وكذلك كان الشافعي - رحمه الله - يستعمل اللبان لقوة الحفظ، فولد له رمي الدم [٢].

مواقف من حياته:

منابر الذهب والفضة:

ذكر أن ابن حزم اجتمع يومًا مع الفقيه أبي الوليد سليمان بن خلف بن سعيد بن أيوب الباجي صاحب كتابي المنتقى والاستغناء وغيرهما من التواليف وجرت بينهما مناظرة فلما انقضت قال الفقيه أبو الوليد: تعذرني فإن أكثر مطالعتي كانت على سرج الحراس.

قال ابن حزم: وتعذرني أيضًا فإن أكثر مطالعتي كانت على منابر الذهب والفضة.

أراد أن الغنى أضيع لطلب العلم من الفقر [٣].

من كلامه:

لذة العاقل بتمييزه، ولذة العالم بعلمه، ولذة الحكيم بحكمته، ولذة المجتهد لله

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٩٨/١٨، الأخلاق والسير لابن حزم الأندلسي، ١ / ١٣.
(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٩٩/١٨، الأخلاق والسير لابن حزم الأندلسي، ١ / ١٤.
(٣) أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، نشر دار الكتب العلمية، مكان النشر بيروت، ١٤١١ هـ - ١٩٩١م، ٣ / ٥٤٨.

عز وجل باجتهاده، أعظم من لذة الآكل بأكله، والشارب بشربه، والواطيء بوطئه، والكاسب بكسبه، واللاعب بلعبه، والآمر بأمره، وبرهان ذلك، أن الحكيم العاقل والعالم والعامل واجدون لسائر اللذات التي سمينا، كما يجدها المنهمك فيها، ويحسونها كما يحسها المقبل عليها، وقد تركوها وأعرضوا عنها، وآثروا طلب الفضائل عليها، وإنما يحكم في الشيئين من عرفهما لا من عرف أحدهما ولم يعرف الآخر.

ثم قال: إذا تعقبت الأمور كلها فسدت عليك، وانتهيت في آخر فكرتك باضمحلال جميع أحوال الدنيا، إلى أن الحقيقة إنما هي العمل للآخرة فقط، لأن كل أمل ظفرت به فعقباه حزن، إما بذهابه عنك، وإما بذهابك عنه، ولا بد من أحد هذين الشيئين، إلا العمل لله عز وجل؛ فعقباه على كل حال سرور في عاجل وآجل، أما العاجل فقلة الهم بما يهتم به الناس، وإنك به معظم من الصديق والعدو، وأما في الآجل فالجنة.

وقال: لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها، وليس ذلك إلا في ذات الله عز وجل في دعاء إلى حق، وفي حماية الحريم، وفي دفع هوان لم يوجبه عليك خالقك تعالى، وفي نصر مظلوم. وباذل نفسه في عرض دنيا، كبائع الياقوت بالحصى.

لا مروءة لمن لا دين له.

العاقل لا يرى لنفسه ثمناً إلا الجنة.

لإبليس في ذم الرياء حبالة، وذلك أنه رب ممتنع من فعل خير خوف أن يظن به الرياء.

العقل والراحة هو إطراح المبالاة بكلام الناس، واستعمال المبالاة بكلام الخالق عز وجل بل هذا باب العقل، والراحة كلها. من قدر أنه يسلم من طعن الناس وعيبهم فهو مجنون.

من حقق النظر، وراض نفسه على السكون إلى الحقائق وإن آلمتها في أول

صدمة كان اغتباطه بذم الناس إياه أشد وأكثر من اغتباطه بمدحهم إياه، لأن مدحهم إياه، إن كان بحق وبلغه مدحهم له، أسرى ذلك فيه العجب، فأفسد بذلك فضائله، وإن كان بباطل فبلغه فسره، فقد صار مسروراً بالكذب، وهذا نقص شديد. وأما ذم الناس إياه، فإن كان بحق فبلغه، فربما كان ذلك سبباً إلى تجنبه ما يعاب عليه، وهذا حظ عظيم، لا يزهد فيه إلا ناقص، وإن كان بباطل وبلغه فصبر، اكتسب فضلاً زائداً بالحلم والصبر، وكان مع ذلك غانماً، لأنه يأخذ حسنات من ذمه بالباطل، فيحظى بها في دار الجزاء، أحوج ما يكون إلى النجاة بأعمال لم يتعب فيها، ولا تكلفها، وهذا حظ عظيم لا يزهد فيه إلا مجنون. وأما إن لم يبلغه مدح الناس إياه، فكلامهم وسكوتهم سواء، وليس كذلك ذمهم إياه، لأنه غانم للأجر على كل حال، بلغه ذمهم أو لم يبلغه. ولولا قول رسول الله ﷺ في الثناء الحسن ذلك عاجل بشرى المؤمن لوجب أن يرغب العاقل في الذم بالباطل، أكثر من رغبته في المدح بالحق، ولكن إذا جاء هذا القول، فإنما تكون البشرى بالحق لا بالباطل، فإنما تجب البشرى بما في الممدوح لا بنفس المدح.

ليس بين الفضائل والرذائل، ولا بين الطاعات والمعاصي إلا نفار النفس وأنسها فقط. فالسعيد من أنست نفسه بالفضائل والطاعات، ونفرد من الرذائل والمعاصي، والشقي من أنست نفسه بالرذائل والمعاصي، ونفرت من الفضائل والطاعات، وليس هاهنا إلا صنع الله تعالى وحفظه.

طالب الآخرة ليفوز في الآخرة متشبه بالملائكة، وطالب الشر متشبه بالشياطين، وطالب الصوت والغلبة متشبه بالسباع، وطالب اللذات متشبه بالبهائم، وطالب المال لعين المال لا لينفقه في الواجبات والنوافل المحمودة أسقط وأرذل من أن يكون له في شيء من الحيوان شبه!ولكنه يشبه الغدران التي في الكهوف، في المواضع الوعرة، لا ينتفع بها شيء من الحيوان.

فالعاقل لا يغتبط بصفة يفوقه فيها سبع أو بهيمة أو جماد، وإنما يغتبط

بتقدمه في الفضيلة التي أبانه الله تعالى بها عن السباع والبهائم والجمادات، وهي: التمييز الذي يشارك فيه الملائكة.

فمن سر بشجاعته التي يضعها في غير موضعها لله عز وجل فليعلم أن النمر أجرأ منهن وأن الأسد والذئب والفيل أشجع منه، ومن سر بقوة جسمه، فليعلم أن البغل والثور والفيل أقوى منه جسماً، ومن سر بحمله الأثقال، فليعلم أن الحمار أحمل منه، ومن سر بسرعة عدوه، فليعلم أن الكلب والأرنب أسرع عدواً منه، ومن سر بحسن صوته، فليعلم أن كثيراً من الطير أحسن صوتاً منه، وأن أصوات المزامير ألذ وأطرب من صوته، فأي فخر وأي سرور في ما تكون فيه هذه البهائم متقدمة عليه.

رأيت أكثر الناس إلا من عصم الله تعالى - وقليل ما هم - يتعجلون الشقاء والهم والتعب لأنفسهم في الدنيا، ويحتقبون عظيم الإثم الموجب للنار في الآخرة بما لا يحظون معه بنفع أصلاً!:من نيات خبيثة يضبون عليها من تمني الغلاء المهلك للناس وللصغار، ومن لا ذنب له، وتمني أشد البلاء لمن يكرهونه، وقد علموا يقيناً أن تلك النيات الفاسدة لا تعجل لهم شيئاً مما يتمنونه أو يوجب كونه.

وإنهم لو صفوا نياتهم وحسنوها، لتعجلوا الراحة لأنفسهم، وتفرغوا بذلك لمصالح أمورهم، ولا قتنوا بذلك عظيم الأجر في المعاد، من غير أن يؤخر ذلك شيئاً مما يريدونه، أو يمنع كونه. فأي غبن أعظم من هذه الحال التي نبهنا عليها، وأي سعد أعظم من التي دعونا إليها؟

لو لم يكن من فضل العلم إلا أن الجهال يهابونك ويجلونك، وأن العلماء يحبونك ويكرمونك، لكان ذلك سبباً إلى وجوب طلبه، فكيف بسائر فضائله في الدنيا والآخرة!

ولو لم يكن من نقص الجهل، إلا أن صاحبه يحسد العلماء ويغبط نظراءه من الجهال، لكان ذلك سبباً إلى وجوب الفرار عنه، فكيف بسائر رذائله في

الدنيا والآخرة!

لو لم يكن من فائدة العلم والاشتغال به، إلا أنه يقطع المشتغل به عن الوساوس المضنية، ومطارح الآمال التي لا تفيد غير الهم، وكفاية الأفكار المؤلمة للنفس، لكان ذلك أعظم داع إليه، فكيف وله من الفضائل ما يطول ذكره! ومن أقلها ما ذكرنا مما يحصل عليه طالب العلم، وفي مثله أتعب ضعفاء الملوك أنفسهم، فتشاغلوا عما ذكرنا بالشطرنج، والنرد، والخمر، والأغاني، وركض الدواب في طلب الصيد، وسائر الفضول التي تعود بالمضرة في الدنيا والآخرة، وأما فائدة، فلا فائدة.

من شغل نفسه بأدنى العلوم وترك أعلاها وهو قادر عليه، كان كزارع الذرة في الأرض التي يجود فيها البر، وكغارس الشعراء حيث يزكو النخل والزيتون.

نشر العلم عند من ليس من أهله مفسد لهم، كإطعامك العسل والحلواء من به احتراق وحمى، أو كتشميمك المسك والعنبر لمن به صداع من احتدام الصفراء.

الباخل بالعلم، ألأم من الباخل بالمال، لأن الباخل بالمال أشفق من فناء ما بيده، والباخل بالعلم بخل بما لا يفنى على النفقة، ولا يفارقه مع البذل.

من مال بطبعه إلى علم ما وإن كان أدنى من غيره فلا يشغلها بسواه، فيكون كغارس النارجيل بالأندلس، وكغارس الزيتون بالهند، وكل ذلك لا ينجب.

أجل العلوم ما قربك من خالقك تعالى، وما أعانك على الوصول إلى رضاه.

انظر في المال والحال والصحة إلى من دونك، وانظر في الدين والعلم والفضائل إلى من فوقك.

العلوم الغامضة كالدواء القوي، يصلح الأجساد القوية، ويهلك الأجساد

الضعيفة. وكذلك العلوم الغامضة. تزيد العقل القوي جودة وتصفية من كل آفة، وتهلك ذا العقل الضعيف.

لا آفة على العلوم وأهلها أضر من الدخلاء فيها، وهم من غير أهلها، فإنهم يجهلون، ويظنون أنهم يعلمون، ويفسدون، ويقدرون أنهم يصلحون.

من أراد خير الآخرة، وحكمة الدنيا، وعدل السيرة، والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها، واستحقاق الفضائل بأسرها، فليقتد بمحمد رسول الله ﷺ وليستعمل أخلاقه وسيره ما أمكنه، أعاننا الله على الاتساء به، بمنّه آمين.

غاظني أهل الجهل مرتين من عمري: أحدهما: بكلامهم فيما لا يحسنونه أيام جهلي، والثاني: بسكوتهم عن الكلام بحضرتي، فهم أبداً ساكتون عما ينفعهم، ناطقون فيما يضرهم.

وسرني أهل العلم مرتين من عمري:أحدهما: بتعليمي أيام جهلي،

والثاني بمذاكرتي أيام عملي.

من فضل العلم والزهد في الدنيا، أنهما لا يؤتيهما الله عز وجل إلا أهلهما ومستحقهما،

ومن نقص علو أحوال الدنيا من المال والصوت، أن أكثر ما يقعان في غير أهلهما وفيمن لا يستحقهما.

من طلب الفضائل لم يساير إلا أهلها، ولم يرافق في تلك الطريق إلا أكرم صديق من أهل المواساة، والبر، والصدق، وكرم العشيرة، والصبر، والوفاء، والأمانة، والحلم، وصفاء الضمائر، وصحة المودة.

ومن طلب الجاه والمال واللذات، لم يساير إلا أمثال الكلاب الكلبة، والثعالب الخلبة، ولم يرافق في تلك الطريق إلا كل عدو المعتقد، خبيث الطبيعة.

منفعة العلم في استعمال الفضائل عظيمة، وهو أنه يعلم حسن الفضائل

فيأتيها ولو في الندرة، ويعلم قبح الرذائل فيجتنبها ولو في الندرة، ويسمع الثناء الحسن فيرغب في مثله، والثناء الرديء فينفر منه، فعلى هذه المقدمات يجب أن يكون للعلم حصة في كل فضيلة، وللجهل حصة في كل رذيلة، ولا يأتي الفضائل ممن لم يتعلم العلم إلا صافي الطبع جداً، فاضل التركيب، وهذه منزلة خص بها النبيون عليهم الصلاة والسلام لأن الله تعالى علمهم الخير كله، دون أن يتعلموه من الناس.

وقد رأيت من غمار العامة من يجري من الاعتدال، وحميد الأخلاق إلى ما لا يتقدمه فيه حكيم عالم رائض لنفسه، ولكنه قليل جداً.

ورأيت ممن طالع العلوم، وعرف عهود الأنبياء عليهم السلام، ووصايا الحكماء، وهو لا يتقدمه في خبث السيرة، وفساد العلانية والسريرة شرار الخلق، وهذا كثير جداً، فعلمت أنهما مواهب، وحرمان من الله تعالى.

احرص على أن توصف بسلامة الجانب، وتحفظ من أن توصف بالدهاء فيكثر المتحفظون منك، حتى ربما أضر ذلك بك، وربما قتلك.

وطّن نفسك على ما تكره، يقل همك إذا أتاك، ويعظم سرورك، ويتضاعف إذا أتاك ما تحب مما لم تكن قدّرته.

إذا تكاثرت الهموم سقطت كلها.

الغادر يفي للمجدود (المحظوظ)، والوفي يغدر بالمحدود (عديم الحظ)، والسعيد كل السعيد في دنياه من لم يضطره الزمان إلى اختبار الإخوان.

طوبى لمن علم من عيوب نفسه أكثر مما يعلم الناس منها.

الصبر على الجفاء ينقسم ثلاثة أقسام: فصبر عمن يقدر عليك ولا تقدر عليه، وصبر عمن تقدر عليه ولا يقدر عليك، وصبر عمن لا تقدر عليه ولا يقدر عليك. فالأول ذل ومهانة وليس من الفضائل.

والرأي لمن خشي ما هو أشد مما يصبر عليه: المتاركة والمباعدة.

والثاني فضل وبر: وهو الحلم على الحقيقة، وهو الذي يوصف به

الفضلاء.

والثالث ينقسم قسمين: إما أن يكون الجفاء ممن لم يقع منه إلا على سبيل الغلط ويعلم قبح ما أتى به ويندم عليه، فالصبر عليه فضل وفرض، وهو حلم على الحقيقة.

وأما من كان لا يدري مقدار نفسه ويظن أن لها حقاً يستطيل به، فلا يندم على ما سلف منه، فالصبر عليه ذل للصابر، وإفساد للمصبور عليه، لأنه يزيد استشراء، والمقارضة له سخف، والصواب إعلامه بأنه كان ممكناً أن ينتصر منه، وإنه إنما ترك ذلك استرذالاً له فقط، وصيانة عن مراجعته ولا يزاد على ذلك.

وأما جفاء السفلة فليس جزاؤه إلا النكال وحده.

من جالس الناس لم يعدم هماً يؤلم نفسه، وإنما يندم عليه في معاده، وغيظاً ينضج كبده، وذلاً ينكس همته، فما الظن بعد بمن خالطهم وداخلهم؟

والعز والراحة والسرور والسلامة في الانفراد عنهم، ولكن أجعلهم كالنار تدفأ بها، ولا تخالطها.

لو لم يكن في مجالسة الناس إلا عيبان لكفيا، أحدهما الاسترسال عند الأنس، وبالأسرار المهلكة القاتلة، التي لولا المجالسة لم يبح بها البائح، والثاني: مواقعة الغلبة المهلكة في الآخرة، فلا سبيل إلى السلامة من هاتين البليتين إلا بالانفراد عن المجالسة جملة.

لا تحقر شيئاً من عمل غد أن تحققه بأن تعجله اليوم وإن قل، فإن من قليل الأعمال يجتمع كثيرها، وربما أعجز أمرها عند ذلك فيبطل الكل.

لا تحقر شيئاً مما ترجو به تثقيل ميزانك يوم البعث إن تعجله الآن وإن قل، فإنه يحط عنك كثيراً، لو اجتمع لقذف بك في النار.

الوجع والفقر والنكبة والخوف، لا يحسن أذاها إلا من كان فيها، ولا يعلمه من كان خارجاً عنها.

وفساد الرأي، والعار، والإثم لا يعلم قبحها إلا من كان خارجاً عنها، وليس يراه من كان داخلاً فيها.

الأمن والصحة والغنى، لا يعرف حقها إلا من كان خارجاً عنها، وليس يعرف حقها من كان فيها.

وجودة الرأي والفضائل وعمل الآخرة، لا يعرف فضلها إلا من كان من أهلها، ولا يعرفه من لم يكن من أهلها.

أول من يزهد في الغادر، من غدر له الغادر، وأول من يمقت شاهد الزور من شهد له به، وأول من تهون الزانية في عينه، الذي يزني بها.

كثرة المال ترغب، وقلته تقنع.

كثرة وقوع العين على الشخص يسهل أمره ويهونه.

لا يغتر العاقل بصداقة حادثة له أيام دولته؛ فكل أحد صديقه يومئذ.

لا تجب عن كلام نقل إليك عن قائل حتى توقن أنه قاله، فإن من نقل إليك كذباً رجع من عندك بحق.

ثق بالمتدين وإن كان على غير دينك، ولا تثق بالمستخف وإن أظهر أنه على دينك.

من استخف بحرمات الله تعالى فلا تأمنه على شيء مما تشفق عليه.

من قبيح الظلم الإنكار على من أكثر الإساءة إذا أحسن في الندرة.

لم أر لإبليس أصيد، ولا أقبح ولا أحمق من كلمتين ألقاهما على ألسنة دعاته: إحداهما: اعتذار من أساء بأن فلاناً أساء قبله، والثانية، استسهال الإنسان أن يسيء اليوم لأنه قد أساء أمس، أو أن يسيء في وجه ما، لأنه قد أساء في غيره، فقد صارت هاتان الكلمتان عذراً مسهلتين للشر ومدخلتين له.

استعمل سوء الظن حيث تقدر على توفيته حقه في التحفظ والتأهب،

واستعمل حسن الظن حيث لا طاقة بك على التحفظ، فتربح راحة النفس.

حد الجود وغايته أن يبذل الفضل كله في وجوه البر، وأفضل ذلك في الجار المحتاج، وذي الرحم الفقير، وذي النعمة الذاهبة، والأحضر فاقة.

ومنع الفضل من هذه الوجوه داخل في البخل، وعلى قدر التقصير والتوسع في ذلك يكون المدح والذم، وما وضع في غير هذه الوجوه فهو تبذير، وهو مذموم.

وما بذلت من قوتك لمن هو أمس حاجة منك فهو فضل وإيثار، وهو خير من الجود، وما منع من هذا فهو لا حمد ولا ذم، وهو انتصاف.

بذل الواجبات فرض، وبذل ما فضل عن القوت جود، والإيثار على النفس من القوت بما لا تهلك على عدمه فضل، ومنع الواجبات حرام، ومنع ما فضل عن القوت بخل وشح، والمنع من الإيثار ببعض القوت عذر، ومنع النفس أو الأهل القوت أو بعضه نتن ورذالة ومعصية.

والسخاء بما ظلمت فيه، أو أخذته بغير حقه ظلم مكرر، والذم جزاء ذلك لا الحمد، لأنك إنما تبذل مال غيرك على الحقيقة لا مالك.

حد الشجاعة بذل النفس للموت عن الدين، والحريم، وعن الجار المضطهد، وعن المستجير المظلوم، وعن الهضيمة ظلماً في المال والعرض، وفي سائر سبل الحق، سواء قل من يعارض أو أكثر.

والتقصير عما ذكرنا جبن وخور، وبذلها في عرض الدنيا تهور وحمق.

حد العفة أن تغض بصرك، وجميع جوارحك عن الأجسام التي لا تحل لك، فما عدا هذا فهو عهر.

حد العدل أن تعطي من نفسك الواجب وتأخذه. وحد الجور أن تأخذه ولا تعطيه.

وحد الكرم أن تعطي من نفسك الحق طائعاً، وتتجافى عن حقك لغيرك قادراً، وهو فضل أيضاً، وكل جود كرم، وفضل وليس كل كرم، وفضل

جوداً. فالفضل أعم، والجود أخص، إذ الحلم فضل وليس جوداً، والفضل فرض زدت عليه نافلة.

كانت في عيوب، فلم أزال بالرياضة، وإطلاعي على ما قالت الأنبياء صلوات الله عليهم والأفاضل من الحكماء المتأخرين، والمتقدمين في الأخلاق، وفي آداب النفس، أعاني مداواتها، حتى أعان الله عز وجل على أكثر ذلك بتوفيقه ومنه، وتمام العدل ورياضة النفس والتصرف بأزمة الحقائق، هو الإقرار بها ليتعظ بذلك متعظ يوماً، إن شاء الله.

فمنها: كلف في الرضاء، وإفراط في الغضب، فلم أزل أداوي ذلك حتى وقفت عند ترك إظهار الغضب جملة، بالكلام والفعل والتخبط، وامتنعت مما لا يحل من الانتصار، وتحملت من ذلك ثقلاً شديداً، وصبرت على مضض مؤلم، كان ربما أمرضني وأعجزني ذلك في الرضا، وكأني سامحت نفسي في ذلك لأنها تمثلت أن ترك ذلك لؤم.

ومنها دعابة غالية، فالذي قدرت عليه فيها إمساكي عما يغضب الممازح، وسامحت نفسي فيها، إذ رأيت تركها من الانغلاق ومضاهياً للكبر.

ومنها عجب شديد، فناظر عقلي نفسي بما يعرفه من عيوبها، حتى ذهب كله، ولم يبق له والحمد لله أثر، بل كلفت نفسي احتقار قدرها جملة، واستعمال التواضع.

ومنها محبة في بعد الصيت والغلبة، فالذي وقفت عليه من معاناة هذا الداء الإمساك فيه عما لا يحل في الديانة، والله المستعان على الباقي.

ومنها إفراط في الأنفة بغضت إلي إنكاح الحرم جملة بكل وجه، وصعبت ذلك في طبيعتي، وكأني توقفت عن مغالبة هذا الإفراط الذي أعرف قبحه لعوارض اعترضت علي، والله المستعان.

ومنها حقد مفرط، قدرت بعون الله تعالى على طيه وستره، وغلبته على إظهار جميع نتائجه، وأما قطعه ألبتة فلم أقدر عليه، وأعجزني معه أن

أصادق من عاداني عداوة صحيحة أبداً.

وأما سوء الظن فيعده قوم عيباً على الإطلاق وليس كذلك، إلا إذا أدى صاحبه إلى ما لا يحل في الديانة، أو إلى ما يقبح في المعاملة، وإلا فهو حزم، والحزم فضيلة.

النائل مني لا يخلو من أحد وجهين لا ثالث لهما، إما أن يكون كاذباً، وإما أن يكون صادقاً. فإن كان كاذباً فلقد عجل الله لي الانتصار منه على لسان نفسه، بأن حصل في جملة أهل الكذب، وبأن نبه على فضلي بأن نسب إلي ما أنا منه بريء العرض، وما يعلم أكثر السامعين له كذبه، إما في وقته ذلك، وإما بعد بحثهم عما قال.

وإن كان صادقاً فإنه لا يخلو من أحد ثلاثة أوجه:

إما أن أكون شاركته في أمر استرحت إليه استراحة المرء إلى من يقدر فيه ثقة، وأمانة، فهذا أسوأ الناس حالة، وكفى به سقوطاً وضعة.

وإما أن يكون عابني بما يظن أنه عيب وليس عيباً، فقد كفاني جهله شأنه، وهو المعيب لا من عاب، وأما أن يكون عابني بعيب هو فيّ على الحقيقة وعلم مني نقصاً أطلق به لسانه، فإن كان صادقاً: فنفسي أحق بأن ألوم منه، وأنا حينئذ أجدر بالغضب على نفسي مني على من عابني بالحق.

وأما أمر إخواني (من نال منهم بحضرته) فإني لست أمسك عن الامتعاض لهم، لكني أمتعض امتعاضا رقيقاً لا أزيد فيه أن أندم القائل منهم بحضرتي، وأجعله يتذمم ويعتذر ويخجل ويتنصل، وذلك بأن أسلك به طريق ذم من نال من الناس، وأن نظر المرء في أمر نفسه والتهمم بإصلاحها أولى به من تتبع عثرات الناس، وبأن أذكر فضل صديقي فأبكته على اقتصاره على ذكر العيب دون ذكر الفضيلة، وأن أقول: إنه لا يرضى بذلك فيك، فهو أولى بالكرم منك، فلا ترض لنفسك بهذا، أو نحو هذا من القول.

وأما أن أهارش القائل فأحميه وأهيج طباعه وأستثير غضبه، فينبعث منه في صديقي أضعاف ما أكره، فأنا الجاني حينئذ على صديقي، والمعرض له بقبيح السب، وتكراره فيه، وإسماعه من لم يسمعه، والإغراء به، وربما كنت أيضاً في ذلك جانياً على نفسي ما لا ينبغي لصديقي أن يرضاه لي، من إسماعي الجفاء والمكروه، وأنا لا أريد من صديقي أن يذب عني بأكثر من الوجه الذي حددت، فإن تعدى ذلك إلى أن يساب النائل مني حتى يولد بذلك أن يتضاعف النيل، وأن يتعدى أيضاً إليه بقبيح المواجهة وربما إلى أبويّ وأبويه على قدر سفه النائل، ومنزلته من البذاءة وربما كانت منازعة بالأيدي، فأنا مستنقص لفعله في ذلك زارٍ عليه، متظلم منه، غير شاكر له.

لكني ألومه على ذلك أشد اللوم وبالله تعالى التوفيق.

وجدت أفضل نعم الله تعالى على المرء، أن يطبعه على العدل وحبه، وعلى الحق وإيثاره.

وأما من طبع على الجور واستسهاله، وعلى الظلم واستخفافه، فلييأس من أن يصلح نفسه أو يُقوِّم طباعه أبداً، وليعلم أنه لا يفلح في دين، ولا في خلق محمود.

وأما الزهو، والحسد، والكذب، والخيانة، فلم أعرفها بطبعي قط، وكأنني لا حمد لي في تركها، لمنافرة جبلتي إياها، والحمد لله رب العالمين.

من عَيْبِ حبِ الذكر، أنه يحبط الأعمال إذا أحب عاملها أن يذكر بها، فكاد يكون شركاً، لأنه يعمل لغير الله تعالى، وهو يطمس الفضائل، لأن صاحبه لا يكاد يفعل الخير حباً للخير، لكن ليذكر به.

أبلغ في ذمك من مدحك بما ليس فيك، لأنه نبه على نقصك، وأبلغ في مدحك من ذمك بما ليس فيك، لأنه نبه على فضلك، ولقد انتصر لك من نفسه بذلك، وباستهدافه إلى الإنكار واللائمة.

لو علم الناقص نقصه لكان كاملاً.

لا يخلو مخلوق من عيب، فالسعيد من قلت عيوبه ودقت.

الإخوان والنصيحة والصداقة

إستبقاك من عاتبك، وزهد فيك من استهان بسيئاتك.

العتاب للصديق كالسبك للسبيكة، فأما تصفو وإما تطير.

من طوى من إخوانك سره الذي يعنيك دونك، أخون لك ممن أفشى سرك، لأن من أفشى سرك فإنما خانك فقط، ومن طوى سره دونك منهم، فقد خانك واستخونك.

لا ترغب فيمن يزهد فيك، فتحصل على الخيبة والخزي.

لا تزهد فيمن يرغب فيك، فإنه باب من أبواب الظلم، وترك مقارضة الإحسان، وهذا قبيح.

أكتم سر كل من وثق بك، ولا تفشي إلى أحد من إخوانك ولا من غيرهم، من سرك ما يمكنك طيه بوجه ما من الوجوه، وإن كان أخص الناس بك.

وابذل فضل مالك وجاهك لمن سألك أو لم يسألك، ولكل من احتاج إليك وأمكنك نفعه، وإن لم يعتمدك بالرغبة، ولا تشعر نفسك انتظار مقارضة على ذلك من غير ربك عز وجل، ولا تبن إلا على أن من أحسنت إليه أول مضر بك، وساع عليك، فإن ذوي التراكيب الخبيثة، يبغضون لشدة الحسد كل من أحسن إليهم إذا رأوه في أعلى من أحوالهم.

لا تنصح على شرط القبول، ولا تشفع على شرط الإجابة، ولا تهب على شرط الإثابة، لكن على سبيل استعمال الفضل، وتأدية ما عليك من النصيحة والشفاعة، وبذل المعروف.

حد الصداقة الذي يدور على طرفي محدوده هو: أن يكون المرء يسوءه ما يسوء الآخر، ويسره ما يسره، فما سفل عن هذا فليس صديقاً، ومن حمل هذه الصفة فهو صديق، وقد يكون المرء صديقاً لمن ليس صديقه.

وليس كل صديق ناصحاً، لكن كل ناصح صديق فيما نصح فيه.

وحد النصيحة هو أن يسوء المرء ما ضر الآخر، ساء ذلك الآخر أو لم يسؤه، وإن يسره ما نفعه، سر الآخر أو ساءه، فهذا شرط في النصيحة زائد على شروط الصداقة.

وأقصى غايات الصداقة التي لا مزيد عليها من شاركك بنفسه، وبماله لغير علة توجب ذلك، وآثرك على من سواك.

ليس شيء من الفضائل أشبه بالرذائل من الاستكثار من الإخوان والأصدقاء، فإن ذلك فضيلة تامة متركبة، لأنهم لا يكتسبون إلا بالحلم، والجود، والصبر، والوفاء.. والعفة.. وتعليم العلم، وبكل حالة محمودة.

ولسنا نعني الشاكرية والأتباع أيام الحرمة، فأولئك لصوص الإخوان وخبث الأصدقاء، والذين يظن أنهم أولياء وليسوا كذلك. ودليل ذلك انحرافهم عند انحراف الدنيا. ولا نعني أيضاً المصادقين لبعض الأطماع.. والمتآلفين على النيل من أعراض الناس، والأخذ في الفضول، وما لا فائدة فيه، فليس هؤلاء أصدقاء. ودليل ذلك أن بعضهم ينال من بعض، وينحرف عنه عند فقد تلك الرذائل التي جمعتهم، وإنما نعني إخوان الصفاء لغير معنى إلا لله عز وجل، إما للتناصر على بعض الفضائل الجدية، وإما لنفس المحبة المجردة فقط.

ولكن إذا أحصيت عيوب الاستكثار منهم، وصعوبة الحال في إرضائهم، والغرر في مشاركتهم، وما يلزمك من الحق لهم عند نكبة تعرض لهم، فإن غدرت بهم أو أسلمتهم، لؤمت وذممت، وإن وفيت، أضررت بنفسك، وربما هلكت، وهذا لا يرضى الفاضل بسواه، إذا تنشب في الصداقة، وإذا تفكرت في الهم بما يعرض لهم وفيهم من موت أو فراق أو غدر من يغدر منهم، كاد السرور بهم لا يفي بالحزن الممض من أجلهم.

وليس في الرذائل أشبه بالفضائل من محبة المدح، ودليل ذلك أنه في الوجه

سخف ممن يرضى به، وقد جاء في الأثر في المداحين ما جاء، إلا أنه قد ينتفع به في الإقصار عن الشر والتزيد من الخير، وفي أن يرغب في ذلك الخلق الممدوح من سمعه.

بعض أنواع النصيحة يشكل تمييزه من النميمة، لأن من سمع إنساناً يذم آخر ظالماً له، أو يكيده ظالماً له، فكتم ذلك عن المقول فيه والمكيد، كان الكاتم لذلك ظالماً مذموماً، ثم إن أعلمه بذلك على وجهه كان ربما قد ولد على الذام والكائد ما لم يبلغه استحقاقه بعد من الأذى، فيكون ظالماً له، وليس من الحق أن يقتص من الظالم بأكثر من قدر ظلمه، فالتخلص من هذا الباب صعب إلا على ذوي العقول. والرأي للعاقل في مثل هذا، إن يحفظ المقول فيه من القائل فقط، دون أن يبلغه ما قال، لئلا يقع في الاسترسال زائد فيهلك. وأما في الكيد فالواجب أن يحفظه من الوجه الذي يكاد منه بألطف ما يقدر في الكتمان على الكائد، وأبلغ ما يقدر في تحفيظ المكيد، ولا يزد على هذا شيئاً.

وأما النميمة فهي التبليغ لما سمع مما لا ضرر فيه على المبلغ إليه، وبالله التوفيق.

النصيحة مرتان: فالأولى: فرض وديانة، والثانية: تنبيه وتذكير، وأما الثالثة: فتوبيخ وتقريع، وليس وراء ذلك إلا التركل واللطام، اللهم إلا في معاني الديانة، فواجب على المرء تزداد النصح فيها رضي المنصوح أو سخط، تأذى الناصح بذلك أو لم يتأذ.

وإذا نصحت فانصح سراً لا جهراً، وبتعريض لا تصريح، إلا أن لا يفهم المنصوح تعريضك، فلا بد من التصريح. ولا تنصح على شرط القبول منك، فإذا تعديت هذه الوجوه فأنت ظالم لا ناصح، وطالب طاعة، وملك لا مؤدي حق أمانة وأخوة.

وليس هذا حكم العقل، ولا حكم الصداقة، لكن حكم الأمير مع رعيته،

والسيد مع عبيده.

لا تكلف صديقك إلا مثل ما تبذل له من نفسك، فإن طلبت أكثر، فأنت ظالم.

ولا تكسب إلا على شرط الفقد. ولا تتول إلا على شرط العزل، وإلا فأنت مضر بنفسك خبيث السيرة.

من أردت قضاء حاجته بعد أن سألك إياها، أو أردت ابتداءه بقضائها، فلا تعمل له إلا ما يريد هو لا ما تريد أنت، وإلا فأمسك، فإن تعديت هذا كنت مسيئاً لا محسناً، ومستحقاً للوم منه ومن غيره لا للشكر، ومقتضياً للعداوة لا للصداقة.

لا تنقل إلى صديقك ما يؤلم نفسه، ولا ينتفع بمعرفته، فهذا فعل الأرذال.

ولا تكتمه ما يستضر بجهله، فهذا فعل أهل الشر، ولا يسرك أن تمدح بما ليس فيك، بل ليعظم غمك بذلك، لأنه نقصك ينبه الناس عليه، ويسمعهم إياه، وسخرية منك وهزؤ بك، ولا يرضى بهذا إلا أحمق ضعيف العقل.

ولا تأس إن ذممت بما ليس فيك، بل افرح به، فإنه فضلك ينبه الناس عليه، ولكن افرح إذا كان فيك ما تستحق به المدح، وسواء مدحت به أو لم تمدح، واحزن إذا كان فيك ما تستحق به الذم، وسواء ذممت به أو لم تذم.

من سمع قائلاً يقول في امرأة صديقه قول سوء، فلا يخبره بذلك أصلاً، لا سيما إذا كان القائل عيابة، وقاعاً في الناس، سليط اللسان، أو دافع معرة عن نفسه، يريد أن يكثر أمثاله في الناس، وهذا كثير موجود. وبالجملة فلا يحدث الإنسان إلا بالحق، وقول هذا القائل لا يدري أحق هو أم باطل، إلا أنه في الديانة عظيم.

فإن سمع القول مستفيضاً من جماعة، وعلم أن أصل ذلك القول شائع وليس راجعاً إلى قول إنسان واحد، أو اطلع على حقيقته إلا أنه لا يقدر أن يوقف صديقه على ما وقف هو عليه، فليخبره بذلك بينه وبينه في رفق،

وليقل له: النساء كثير، أو حصن منزلك، وثقف أهلك، أو اجتنب أمراً كذا، وتحفظ من وجه كذا. فإن قبل المنصوح وتحرز فحظ نفسه أصاب، وإن رآه لا يتحفظ ولا يبالي أمسك ولم يعاوده بكلمة، وتمادى على صداقته إياه، فليس في أن لا يصدقه في قوله ما يوجب قطيعته، فإن اطلع على حقيقة وقدر أن يوقف صديقه على مثل ما وقف عليه هو من الحقيقة، ففرض عليه أن يخبره بذلك، وأن يوقفه على الجلية. فإن غير فذلك، وإن رآه لا يغير اجتنب صحبته؛ فإنه رذل لا خير فيه ولا نقية.

ودخول رجل متستر في منزل المرء، دليل سوء لا يحتاج إلى غيره، ودخول المرأة في منزل رجل على سبيل التستر مثل ذلك أيضاً. وطلب دليل أكثر من هذين سخف.

وواجب أن يجتنب مثل هذه المرأة وفراقها على كل حال، وممسكها لا يبعد عن الدياثة.

الناس في أخلاقهم على سبع مراتب، فطائفة تمدح في الوجه وتذم في المغيب، وهذه صفة أهل النفاق من العيابين، وهذا خلق فاش في الناس غالب عليهم، وطائفة تذم في المشهد والمغيب، وهذه صفة أهل السلاطة والوقاحة من العيابين، وطائفة تمدح في الوجه والمغيب، وهذه صفة أهل الملق والطمع، وطائفة تذم في المشهد وتمدح في المغيب، وهذه صفة أهل السخف والنواكة. وأما أهل الفضل فيمسكون عن المدح والذم في المشاهدة، ويثنون بالخير في المغيب، أو يمسكون عن الذم. وأما العيابون البرآء من النفاق والقحة، فيمسكون في المشهد، ويذمون في المغيب، وأما أهل السلامة فيمسكون عن المدح وعن الذم في المشهد والمغيب ومن كل من أهل هذه الصفات قد شاهدنا وبلونا.

إذا نصحت ففي الخلاء وبكلام لين، ولا تسند سب من تحدثه إلى غيرك فتكون نماماً، فإن خشنت كلامك في النصيحة فذلك إغراء وتنفير، وقد قال الله تعالى:{فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا} [طه: ٤٤] وقال رسول الله ﷺ :﴿لا تنفروا﴾، وإن

نصحت بشرط القبول منك فأنت ظالم، ولعلك مخطئ في وجه نصحك، فتكون مطالباً بقبول خطئك وبترك الصواب.

لكل شيء فائدة، ولقد انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة، وهي أنه توقد طبعي، واحتدم خاطري، وحمي فكري، وتهيج نشاطي، فكان ذلك سبباً إلى تواليف لي عظيمة المنفعة، ولولا استثارتهم ساكني، واقتداحهم كامني، ما انبعثت لتلك التواليف.

لا تصاهر إلى صديق ولا تبايعه، فما رأينا هذين العملين إلا سبباً للقطيعة، وإن ظن أهل الجهل أن فيهما تأكيداً للصلة فليس كذلك، لأن هذين العقدين داعيان كل واحد إلى طلب حظ نفسه. والمؤثرون على أنفسهم قليل جدًّا، فإذا اجتمع طلب كل امرئ حظ نفسه، وقعت المنازعة، ومع وقوعها فساد المروءة.

الطمع أصل لكل ذل، ولكل هم، وهو خلق سوء ذميم. وضده نزاهة النفس، وهذه صفة فاضلة مركبة من النجدة والجود والعدل والفهم، لأنه رأى قلة الفائدة في استعمال ضدها فاستعملها، وكانت فيه نجدة انتجت له عزة نفسه فتنزه، وكانت فيه طبيعة سخاوة نفس فلم يهتم لما فاته، وكانت فيه طبيعة عدل حببت إليه القناعة وقلة الطمع.

فإذن، نزاهة النفس متركبة من هذه الصفات. فالطمع الذي هو ضدها متركب من الصفات المضادة لهذه الصفات الأربع، وهي الجبن والشح والجور والجهل. والرغبة طمع مستوفى متزايد مستعمل، ولولا الطمع ما ذل أحد لأحد. وأخبرني أبو بكر بن أبي الفياض قال: كتب عثمان بن محامس على باب داره بأستجة يا عثمان لا تطمع.

من امتحن بقرب من يكره، كمن امتحن ببعد من يحب ولا فرق.

اقنع بمن عندك، يقنع بك من عندك.

السعيد في المحبة هو من ابتلي بمن يقدر أن يلقي عليه قفله، ولا تلحقه في

مواصلته تبعة من الله عز وجل ولا ملامة من الناس.

إذا ارتفعت الغيرة فأيقن بارتفاع المحبة.

الغيرة خلق فاضل متركب من النجدة والعدل، لأن من عدل كره أن يتعدى إلى حرمة غيره، وإن يتعدى غيره إلى حرمته؛ ومن كانت النجدة طبعاً له، حدثت فيه عزة، ومن العزة تحدث الأنفة من الاهتضام.

أخبرني بعض من صحبناه في الدهر عن نفسه، أنه ما عرف الغيرة قط، حتى ابتُلي بالمحبة فغار. وكان هذا المخبر فاسد الطبع، خبيث التركيب، إلا أنه كان من أهل الفهم والجود.

كنا نظن أن العشق في ذوات الحركة والحدة من النساء أكثر، فوجدنا الأمر بخلاف ذلك، وهو في الساكنة الحركات أكثر، ما لم يكن ذلك السكون بلهاً.

رب مخوف كان التحفظ منه سبب وقوعه، ورب سر كانت المبالغة في طيه علة انتشاره، ورب إعراض أبلغ في الاسترابة من إدامة النظر،، وأصل ذلك كله الإفراط الخارج عن حد الاعتدال.

الخطأ في الحزم خير من التضييع.

من أراد الإنصاف فليتوهم نفسه مكان خصمه، فإنه يلوح له وجه تعسفه.

إذا حضرت مجلس علم فلا يكن حضورك إلا حضور مستزيد علمًا وأجرًا لا حضور مستغن بما عندك طالب عثرة تشنعها أو غريبة تشيعها، فهذه أفعال الأرذال الذين لا يفلحون في العالم أبدا؛ فإذا حضرتها على هذه النية فقد حصّلت خيرًا على كل حال، فإن لم تحضرها على هذه النية فجلوسك في منزلك أروح لبدنك وأكرم لخلقك وأسلم لدينك.

الناس في أخلاقهم على سَبْع مراتب:فطائفة تمدح في الوجه، وتذمّ في المغيب، وهذه صِفَة أهل النِّفاق من العَيَّابينَ، وهذا خلقٌ فاشٍ في الناس، غالبٌ عليهم، وطائفةٌ تذمّ في المشهد والمغيب، وهذه صفة أهل السَّلاطة والوقاحة من العَيَّابينَ، وطائفة تمدح في الوجه والغيب؛ وهذه صفة أهل

المَلَق والطَّمَع.

وطائفةٌ تذمّ في المشهد وتمْدَح في المَغِيبِ؛ وهذه صفة أهلِ السّخْفِ والنَّواكَةِ (١).

وأمَّا أهل الفَضْلِ فيمْسِكونَ عن المَدْح والذَّمِّ في المشَاهَدَةِ، ويثنون بالخير في المَغِيبِ، أو يمْسِكونَ عن الذَّمِّ.

وأمَّا العَيَّابونَ البرآء من النِّفاق والقِحَةِ؛ فيمْسِكون في المَشْهد، ويَذمّون في المَغِيب.

وأمَّا أهل السَّلامة فيمْسِكون عن المدح، وعن الذَّمِّ في المَشْهَدِ والمغيب.

ومن كلٍّ هذه الصِّفاتِ قد شاهَدْنا وبَلَوْنا.

وقال أبو بكر ابن حزم: إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله، فلا يحل لأحدهما أن يفشي على صاحبه ما يكره (٢).

شعر ابن حزم:

لما أحرق له المعتضد بن عباد بعض الكتب قال:

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي ::: تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي ::: وينزل إن أنزل ويدفن في قبري
دعوني من إحراق رق وكاغد وقولوا ::: بعلم كي يرى الناس من يدري
وإلا فعودوا في المكاتب بدأة ::: فكم دون ما تبغون لله من ستر
كذاك النصارى يحرقون إذا ::: علت أكفهم القرآن في مدن الثغر

ولابن حزم أيضًا:

أشهد الله والملائك أني لا ::: أرى الرأي والمقاييس دينا
حاش لله أن أقول سوى ::: ما جاء في النص والهدى مستبينا
كيف يخفى على البصائر هذا ::: وهو كالشمس شهرة ويقينا

(١) النّوك: بالضّم والفتح: الحمق.
(٢) الطرطوشي، سراج الملوك، ص ٨٤.

ومن شعره:

هل الـــدهر إلا مـــا عرفنـــا وأدر ::: كنا فجائعه تبقـــى ولذاتـــه تفـــنى
إذا أمكنت فيـــه مســـرة ســـاعة ::: تولت كمر الطرف واستخلفت حزنا
إلى تبعـــات في المعـــاد وموقـــف ::: نـــود لديـــه أننـــا لم نكـــن كنـــا
حنين لمـــا ولى وشـــغل بمـــا أتـــى ::: وهم لما نخشى فعيشـــك لا يهنـــا
حصلنا على هـــم وإثم وحســـرة ::: وفات الذي كنا نلـــذ بـــه عنـــا
كأن الذي كنا نســـر بكونـــه إذا ::: حققته النفس لفـــظ بـــلا معـــنى

وله على سبيل الدعابة - وهو يماشي أبا عمر بن عبد البر - وقد رأى شابًا مليحًا، فأعجب ابن حزم، فقال أبو عمر: لعل ما تحت الثياب ليس هناك، فقال:

وذي عذل فيمن ســـباني حســـنه ::: يطيل ملامي في الهـــوى ويقـــول
أمن حسن وجه لاح لم تـــر غـــيره ::: ولم تدر كيف الجسم أنـــت قتيـــل
فقلت له:أسرفت في اللوم فاتئـــد ::: فعنـــدي رد لـــو أشـــاء طويـــل
ألم تـــــر أني ظـــــاهري وأنـــــني ::: على ما بدا حـــتى يقـــوم دليـــل

ومن شعره أيضًا:

لا تشمتن حاسدي إن نكبة عرضت ::: فالدهر ليس على حـــال بمتـــرك
ذو الفضل كالتبر طورا تحت ميفعة ::: وتارة في ذرى تاج علـــى ملـــك

ومن شعره:

أنا الشمس في جو العلـــوم مـــنيرة ::: ولكن عيبي أن مطلعـــي الغـــرب
ولو أنني من جانب الشرق طـــالع ::: لجد على ما ضاع من ذكري النهب
ولي نحو أكناف العـــراق صـــبابة ::: ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فإن يترل الرحمن رحلـــي بينـــهم ::: فحينئذ يبدو التأســـف والكـــرب
هنالك يـــدرى أن للبعـــد قصـــة ::: وأن كساد العلم آفتـــه القـــرب

وله:

أنائم أنت عن كتب الحديث ومـــا ::: أتى عن المصطفى فيها من الـــدين
كمسلم والبخاري اللـــذين همـــا ::: شدا عرى الدين في نقـــل وتبـــيين
أولى بأجر وتعظيم ومحمـــدة مـــن ::: كل قول أتى مـــن رأي ســـحنون
يا من هدى بهما اجعلني كمثلـــهما ::: في نصر دينك محضًا غير مفتـــون

وله أيضاً:

لم أشك صدا ولم أذعـــن بهجـــران ::: ولا شعرت مدى دهري بســـلوان
أسماء لم أدر معناهـــا ولا خطـــرت ::: يومًا علـــي ولا جالـــت بميـــداني
لكنما دائي الأدوا الذي عصـــفت ::: علـــي أرواحـــه قـــدمًا فأعيـــاني
تفرق لم تـــزل تســـري طوارقـــه ::: لي مجـــامع أحبـــابي وخـــلاني
كأنما الـــبين بي يـــأتم حيـــث رأى ::: لي مذهبًا فهو يتلـــوني ويغشـــاني
وكنت أحسب عندي للنوى جلدا ::: داء عنا في فؤادي شجوها العـــاني
فقـــابلتني بـــألوان غـــدوت بهـــا ::: مقـــابلاً مـــن صـــباباتي بـــألوان

ولابن حزم:

قالوا تحفظ فإن الناس قد كثـــرت ::: أقوالهم وأقاويـــل الـــورى محـــن
فقلت:هـــل عيبـــهم لي غـــير أني ::: لا أقول بالرأي إذ في رأيهم فـــتن
وأنني مولـــع بـــالنص لســـت إلى ::: سواه أنحـــو ولا في نصـــره أهـــن
لا أنثني لمقـــاييس يقـــال بهـــا في ::: الدين بل حسبي القرآن والســـنن
يا بـــرد ذا القـــول في قلـــبي وفي ::: كبدي ويا سروري به لو أنهم فطنوا
دعهم يعضوا على صـــم الحصـــى ::: كمدًا من مات من قوله عندي له كفن

ومن روائع شعر الإمام ابن حزم رحمه الله تعالى:

كأنك بـــالزوار لي قـــد تبـــادروا ::: وقيل لهم أودى علي بـــن أحمـــد
فيا رب محزون هنـــاك وضـــاحك ::: وكم أدمع تُذْرَى وخـــد مُخَـــدَّدِ
عفااللّه عني يوم أرحـــل ظاعنـــاً ::: عن الأهل محمولاً إلى بطن مَلْحَـــدِ
وأترك ما قد كنـــت مغتبطـــاً بـــه ::: وألقى الذي آنست دهراً مِنْهُ بمَرْصَدِ
فوا راحتي إن كان زادي مقـــدماً ::: ويا نصـــبي إن كنـــت لم أتـــزود

ومن أجمل قصائده قوله:

مناي مـــن الـــدنيا علـــوم أبثهـــا ::: وأنشرها في كـــل بـــاد وحاضـــر
دعاء إلى القرآن والســـنن الـــتي ::: تناسى رجال ذكرها في المحاضـــر
وألزم أطـــراف الثغـــور مجاهـــدًا ::: إذا هيعـــة ثـــارت فـــأول نـــافر
لألقى حمامي مقـــبلاً غـــير مـــدبر ::: بسمر العوالي والرقـــاق البـــواتر
كفاحًا مع الكفار في حومة الوغى ::: وأكرم موت للتفى قتـــل كـــافر
فيا رب لا تجعل حمـــامي بغيرهـــا ::: ولا تجعلني مـــن قطـــين المقـــابر

ومن روائع شعره أيضًا:

إنَّمـــــا العَقْـــــل أَسَـــــاسٌ ::: فَوْقَـــــه الأخـــــلاق ســـــور
فَحَلِّـــي الْعَقْـــلَ بالعلـــــ ::: ـــــم وإلاَّ فهـــو بـــور
جاهـــل الأشـــاء أعمـــى ::: لا يـــرى حيـــث يـــدور
وتمـــام العلـــم بالعـــد ::: ل وإلاَّ فهـــــــو زور
وزمـــام العـــدل بـــالجو ::: د وإلاَّ فيجـــــــور
ومِـــلاك الجـــود بالنَّجْـــــ ::: ـــــدة والجـــبن غـــرور
عـــفَّ إنْ كنـــت غيـــورًا ::: مـــا زنى قـــطّ غيـــور
وكمـــال الكـــلِّ بالتَّقْـــــ ::: ـــوى وقـــول الحـــقِّ نـــور
ذي أصـــول الْفَضْـــلِ عَنْهـــا ::: حَـــدَثَتْ بَعْـــدَ البـــذور

ويقول ابن حزم:

مسهد القلب في خديــه أدمعــه ::: قد طالما شرقت بالوجــد أضــلعه
يأوي إلى زفــرات لــو يباشــرها ::: قاسي الحديد فواقًــا ذاب أجمعــه
يشكو إلى القيد مــا يلقــاه مــن ::: ألم فبالأنين لدى شــكواه يرجعــه
يا هاجعًا والرزايا لا تؤرقــه قــل ::: كيف يهجع من في الكبل مهجــه(١)

(١) ذوة المقتبس: ٣٠٨ - ٣١١، مطمح الأنفس، القسم الثاني المنشور في مجلة المورد. العراقية، المجلد العاشر، العدد، ٣ - ٤ / ١٩٨١ بتحقيق هدى شوكة بهنام ص: ٣٥٤ - ٣٥٧، الذخيرة المجلد الاول، القسم الاول: ١٦٧ - ١٧٥، تاريخ الحكماء، ٢٣٢ - ٢٣٣ الصلة ٢ / ٤١٥ - ٤١٧، بغية الملتمس: ٤١٥ - ٤١٨، معجم الأدباء ١٢ / ٢٣٥، المطرب: ٩٢، المعجب: ٣٢ - ٣٥، المغرب ١ / ٣٥٤ - ٣٥٧، وفيات الاعيان، ٣ / ٣٢٥ - ٣٣٠، تذكرة الحفاظ ٣ / ١١٤٦ - ١١٥٥، العبر ٣ / ٢٣٩، دول الإسلام: ١ / ٢٦٨، مسالك الإبصار: انظر الجزء الثامن، الوافي بالوفيات: المجلد الثاني من الجزء الاول الورقة: ٣٧٤، مرآة الجنان ٣ / ٧٩ - ٨١، البداية والنهاية ١٢ / ٩١ - ٩٢، الإحاطة ٤ / ١١١ - ١١٦، لسان الميزان ٤ / ١٩٨ - ٢٠٢، النجوم الزاهرة ٥ / ٧٥، طبقات الحفاظ: ٤٣٦ - ٤٣٧، طبقات الأمم لصاعد: ٨٦، الإعلام بتاريخ الإسلام: حوادث عام ٤٥٦، أخبار العلماء: ١٥٦، نفح الطيب ٢ / ٧٧ - ٨٤، كشف الظنون: ٢١، ١١٨، ٤٦٦، شذرات الذهب ٣ / ٢٩٩ - ٣٠٠، هدية العارفين ١ / ٦٩٠ - ٦٩١، إيضاح المكنون ١ / ٣١٩، دائرة المعارف الإسلامية ١ / ١٣٦ - ١٤٤، ابن حزم فقهه وآراؤه لمحمد أبي زهرة، مقدمة جمهرة أنساب العرب: ٥ - ١٢، ابن حزم الأندلسي: بقلم الدكتور زكريا إبراهيم سلسلة أعلام العرب " ٥٦ "، وانظر الدراسة القيمة التي كتبها الدكتور عبد الحليم عويس: " ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري " نشر دار الاعتصام بالقاهرة.

الفقيه المجاهد أسد بن الفرات

أسد بن الفرات

أعـلام الفقهـاء

الفقيه المجاهد أسد بن الفرات

في (حرَّان) من ديار بكر، ولد أبو عبد الله الحراني، أسد بن الفرات سنة ١٤٤هـ/ ٧٦١م، ثم قدم القيروان وهو ابن سنتين مع أبيه الذي كان من أعيان الجند في جيش (محمد بن الأشعث الخزاعي) والي إفريقية من قبل الخليفة أبي جعفر المنصور.

تلقى (أسد) دراسته الأولى بالقيروان، ثم رحل مع أبيه إلى تونس فأقام بها تسع سنين لزم خلالها الفقيه المعروف (علي بن زياد) وتعلم منه وتفقَّه عليه، ولم يكتفِ بذلك، بل أراد أن يستزيد من العلم فقرر الرحيل إلى المدينة المنورة سنة ١٧٢هـ/ ٧٨٨م، لينهل من علم الإمام مالك عدة سنين تعلم فيها الكثير، وبعدها قرر الرحيل إلى العراق، فدخل على الإمام مالك مودعًا وشاكرًا، وسأله أن يوصيه، فقال له: (أوصيك بتقوى الله، والقرآن، والنصيحة للناس).

ورحل (أسد) إلى العراق حيث الإمام محمد بن الحسن صاحب الإمام أبي حنيفة، فلزمه، فكان يحضر دروسه العامة، ثم أحب أن يكون له درس خاص يغرف فيه ما استطاع من علم الإمام محمد ليحمله إلى بلاده، فأخذه الإمام محمد إلى بيته، وأعطاه غرفة كان يسهر معه فيها الليل كله، ويضع أمام التلميذ قدح ماء، فإذا نعس نضح وجهه ليصحو، فكان (أسد) أول من جمع بين مذهب الإمام مالك ومذهب أبي حنيفة، ولم يكتفِ أسد بن الفرات بذلك العلم، بل رحل إلى مصر حيث يوجد بها عالمان من تلاميذ الإمام مالك هما (أشهب بن عبد العزيز) و(ابن القاسم) وهناك جمع ما أخذه من ابن القاسم من مسائل، وأفاض عليها من ذهنه وجعلها في رسالة مدونة سُميت بـ (الأسَدِيَّة).

ثم قدم ابن الفرات إلى (القيروان) عاصمة المغرب سنة ١٨١هـ بعد غيبة امتدت نحو عشرين سنة صام نهارها وأحيا ليلها بالعلم والدرس فيها، ولم ينفق لحظة في راحة ولا لعب، ولم يصحب فيها إلا الأئمة والعلماء، حتى

قارب الخمسين، فجلس للتدريس والإفتاء، وكان من تلاميذه (سحنون بن سعيد) و(معمر بن منصور) و(سليمان بن عمر) ثم تقلد القضاء مع (أبي محرز) فكان أبو محرز فيه لينًا، وأما أسد فكان شديدًا في الحق، ومتمكنًا من علمي الحديث والفقه.

وكان مع توسعه في علمه فارسًا شجاعًا مقدامًا، فقد طلب أسد بن الفرات أن يكون مع المجاهدين في الحرب ضد الروم في جزيرة صقلية فأبى الأمير خوفًا عليه، فألح أسد في طلبه وقال: (وجدتم من يسير لكم المراكب من النوتية (الملاحين) وما أحوجكم إلى من يسيرها لكم بالكتاب والسنة).

وكان يريد أن يكون جنديًّا متطوعًا لا يريد الإمارة، فلما أعطيها تألم وقال للأمير: أَبَعْدَ القضاء والنظر في الحلال والحرام تعزلني وتوليني الإمارة؟! فقال: ما عزلتك عن القضاء، ولكن أضفت إليك الإمارة فأنت قاضٍ وأمير، وكان أول من جمع له المنصبان، واجتمع الناس لوداع الجيش والأمير أسد بن الفرات، فقال أسد للناس في وداعهم: (والله يا معشر الناس ما ولي لي أب ولا جد ولاية قط، وما رأى أحد من أسلافي مثل هذا قط، وما بلغته إلا بالعلم، فعليكم بالعلم، أتعبوا فيه أذهانكم، وكدوا به أجسادكم تبلغوا به الدنيا والآخرة.

وزحف الجيش إلى جزيرة صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م، وخرج لهم صاحب صقلية في مائة ألف وخمسين ألفًا، قال رجل: رأيت أسدًا وبيده اللواء يقرأ سورة (يس) ثم حمل بالجيش حملة عنيفة على صاحب صقلية، حتى سقط أسد بن الفرات شهيدًا سنة ٢١٣هـ/ ٨٢٨م، وهو يحمل راية النصر ولم يعْرَفْ له قبر [1].

---

(١) رياض النفوس ١ / ١٧٢ - ١٨٩، الاكمال لابن ماكولا ٤ / ٤٥٤، ٤٥٥، ترتيب المدارك ٢ / ٤٦٥، وفيات الاعيان ٣ / ١٨٢، معالم الايمان ٢ / ٣ - ٢٦، العبر ١ / ٣٦٤، الإحاطة في أخبار غرناطة ١ / ٤٢٢، الديباج المذهب ١ / ٣٠٥، ٣٠٦، قضاة الأندلس: ٥٤، شذرات الذهب ٢ / ٢٨، ٢٩، شجرة النور الزكية ١ / ٦٢.

مواقف من حياته:

فندخل عليه إخواناً ونخرج أعداء:

وأرسل أسد بن الفرات وهو قاض إلى سحنون، وعون وابن رشيد وموسى الصمادحي، فسألهم عن مسألة في الأحكام، فأجاب فيها ابن رشيد وعون، وأبى فيها سحنون عن الجواب. فلما أخرجوا عذلاه في تركه. فقال لهما: منعني إنكما بدرتما بالجواب فأخطأتما، وكرهت أن أخالفكما فندخل عليه إخواناً ونخرج أعداء، وبيَّن لهما وجه خطأهما. فجزياه خيراً، واعترفا. ورجعا إلى أسد، فأخبراه برجوعهما. قال القاضي: لعل سحنون عدل على ما عرف من فضلهما، من أنهما إذا بين لهما وجه خطأهما رجعا، فأعلم أسداً برجوعهما كما فعلا. وإن الحكم، كان بعد لم يحن وقت نفوذه. وإلا فهو في فضله وورعه كان لا يسكت على مثل هذا، إلا رجاء أن يستبين الحق بلا تعلة، ولا مخالفة.

وروي عن أسد بن الفرات أنه قال: أتيت ابن القاسم لأسمع منه، فقال لي:أنا رجل مشغول بنفسي، وقد جعلت الآخرة أمامي، ولكن عليك بابن وهب، فأتيته، فقال لي: إنما أنا صاحب آثار، ولكن عليك بأشهب. قال أسد: فكنت إذا ناظرت أشهب يقول: يا أبا عبد الله جئتنا في العراق وقد ملحوا رأسك (١).

ما أعطاك الله من إنصافك الناس:

وحكى ابن وضاح عن غير واحد أن أسد بن موسى كتب إلى أسد بن الفرات اعلم يا أخي أن ما حملني على الكتب إليك ما أنكر أهل بلادك من صالح ما أعطاك الله من إنصافك الناس وحسن حالك مما أظهرت من السنه وعيبك لأهل البدع وكثرة ذكرك لهم وطعنك عليهم فقمعهم الله بك

(١) الحافظ علاء الدين مغلطاي بن قليج الحنفي، إكمال تهذيب الكمال الجزء الأول والثاني، تحقيق أبو عبد الرحمن عادل بن محمد و أبو محمد أسامة بن إبراهيم، نشر دار الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، ٢ / ٢٤٦.

وشد بك ظهر أهل السنة وقواك عليهم بإظهار عيبهم والطعن عليهم وأذلهم الله بذلك وصاروا ببدعتهم مستترين فأبشر يا أخي بثواب الله واعتد به من أفضل حسناتك من الصلاه والصيام والحج والجهاد

وأين تقع هذه الأعمال من إقامة كتاب الله وإحياء سنة رسوله ﷺ وقد قال رسول الله ﷺ :﴿من أحيا شيئا من سنتي كنت أنا وهو في الجنة كهاتين وضم بين إصبعيه﴾ وقال:﴿أيما داع دعا إلى هذه فاتبع عليه كان له مثل أجر من تبعه إلى يوم القيامة﴾ فمن يدرك يا أخي هذا بشيء من عمله وذكر أيضًا أن لله عند كل بدعة كيد بها الإسلام وليا لله يذب عنها وينطق بعلامتها فاغتنم يا أخي هذا الفضل وكن من أهله فإن النبي ﷺ قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن فأوصاه وقال:﴿لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من كذا وكذا وأعظم القول فيه﴾ فاغتنم ذلك وادع إلى السنة حتى يكون لك في ذلك ألفة وجماعة يقومون مقامك إن حدث بك حدث فيكونون أئمة بعدك فيكون لك ثواب ذلك إلى يوم القيامة كما جاء الأثر فاعمل على بصيرة ونية حسنة فيرد الله بك المبتدع والمفتون الزائغ الحائر فتكون خلفًا من نبيك ﷺ فأحي كتاب الله وسنة نبيه فإنك لن تلقى الله بعمل يشبهه (١).

إنما أخذنا بعض حقوقنا:

وأمر إبراهيم بن الأغلب المعروف بزيادة الله بمال يقسم على الفقهاء فكان منهم من قبل ومنهم من لم يقبل.

فكان أسد بن الفرات فيمن قبل فجعل زيادة الله يغمص على كل من قبل منهم: فبلغ ذلك أسد بن الفرات فقال: لا عليه إنما أخذنا بعض حقوقنا والله سائله عما بقي (٢).

* * *

(١) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٧ - ٨.
(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ١ / ١٩١ - ١٩٢.

الفقيه سحنون بن سعيد

سحنون بن سعيد

أعـلام الفقهـاء

الفقيه سحنون بن سعيد

الإمام العلامة، فقيه المغرب، أبو سعيد، عبد السلام بن حبيب بن حسان بن هلال بن بكار بن ربيعة بن عبد الله التنوخي، الحمصي الأصل، المغربي القيرواني المالكي، قاضي القيروان وصاحب " المدونة "، ويلقب بسحنون ارتحل وحج.

سمع من: سفيان بن عيينة، والوليد بن مسلم، وعبد الله بن وهب، وعبد الرحمن بن القاسم، ووكيع بن الجراح، وأشهب، وطائفة.

ولم يتوسع في الحديث كما توسع في الفروع.

لازم ابن وهب، وابن القاسم، وأشهب، حتى صار من نظرائهم. وساد أهل المغرب في تحرير المذهب، وانتهت إليه رئاسة العلم. وكان موصوفًا بالعقل والديانة التامة والورع، مشهورًا بالجود والبذل، وافر الحرمة، عديم النظير.

أخذ عنه الكثير من العلماء والفقهاء منهم: ولده محمد فقيه القيروان، وأصبغ بن خليل القرطبي، وبقي بن مخلد، وسعيد بن نمر الغافقي الإلبيري الفقيه، وعبد الله بن غافق التونسي، ومحمد بن عبد الله بن عبدوس المغربي، وغيرهم الكثير.

وقد أثني عليه العلماء والفقهاء ممن عاصروه أو جاؤوا بعده فقد روي عن ابن عجلان الأندلسي قال: ما بورك لأحد بعد النبي ﷺ في أصحابه ما بورك لسحنون في أصحابه. فإنهم كانوا في كل بلد أئمة.

وقال الحافظ أحمد بن خالد: كان محمد بن وضاح لا يفضل أحدًا ممن لقي على سحنون في الفقه وبدقيق المسائل.

وعن إسماعيل بن إبراهيم قال: دخلت على سحنون، وهو يومئذ قاض، وفي عنقه تسبيح يسبح به.

وقيل: كان إذا قرئت عليه " مغازي " ابن وهب تسيل دموعه، وإذا قرئ

عليه " الزهد " لابن وهب يبكي.

قال أبو العرب عمن حدثه: كان الذين يحضرون مجلس سحنون من العباد أكثر من الطلبة، كانوا يأتون إليه من أقطار الأرض.

ومعنى كلمة سحنون اسم طائر بالمغرب، يوصف بالفطنة والتحرز، وتوفي الإمام سحنون في شهر رجب سنة أربعين ومائتين. وله ثمانون سنة.

قال أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي: اجتمعت في سحنون خلال قلما اجتمعت في غيره: الفقه البارع، والورع الصادق، والصرامة في الحق، والزهادة في الدنيا، والتخشن في الملبس والمطعم، والسماحة. كان ربما وصل إخوانه بالثلاثين دينارًا، وكان لا يقبل من أحد شيئًا. ولم يكن يهاب سلطانًا في حق، شديدًا على أهل البدع، انتشرت إمامته، وأجمعوا على فضله.

وقال عيسى بن مسكين: سحنون راهب هذه الأمة، ولم يكن بين مالك وسحنون أحد أفقه من سحنون.

وعن سحنون قال: إني حفظت هذه الكتب، حتى صارت في صدري كأم القرآن. وعنه قال: إني لأخرج من الدنيا، ولا يسألني الله عن مسألة قلت فيها برأيي، وما أكثر ما لا أعرف.

وقال مرة لرجل: اقرأ علي: ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة.. فقرأها. فلما بلغ: فستذكرون ما أقول لكم.. قال: حسبك. وهو يبكي.

قال بعضهم: دخلت على سحنون وفي عنقه تسبيح يسبح به. قال حبيب: قال سحنون يتمثل بهذه الأبيات:

كل شيء قد أراه نكراً ::: غير وكزا الرمح في ظل الفرس
وقيام في حناديس الدجا ::: حارساً للقوم في أقصى الحرس[1]

(١) أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة

أما عن سبب تولية سحنون القضاء فقد نقل عنه أنه قال: إذا كان الرجل أهلاً لخطة القضاء، فاستعفى منها، عوفى منها إن وجد لها عوض منه؛ وإن لم يوجد، أجبر عليها؛ فإن أبى، سجن؛ فإن أبى، ضرب. ثم ذكر عن أبي العرب أنه قال: لما عزل القاضي ابن أبي الجواد، قال سحنون: اللهم ولِّ هذه الأمة خيرها وأعدلها فكان هو الذي ولي بعده. وقال: لم أكد أرى قبول هذا الأمر حتى كان من الأمير معنيان، أحدها: أعطاني كل ما طلبت، وأطلق يدي في كل ما رغبت، حتى أني قلت: ابدأ بأهل بيتك وقرابتك وأعوانك؛ فإن قبلهم ظلامات للناس وأموالاً منذ زمان طويل فقال لي: نعم لا تبدأ إلا بهم، وأجر الحق على مفرق رأسي. وجارني من عز منه مع هذا ما يخاف منه المرء على نفسه، وفكرت؛ فلم أجد لنفسي سعة في رده. ولما تمت ولايته، سار حتى دخل على ابنته خديجة؛ وكانت من خيار النساء. فقال لها: اليوم ذبح أبوك بغير سكين فعلم الناس قبوله للقضاء؛ ويومئذ كتب له عبد الرحمن الزاهد بما نصه: أما بعد، فإني عهدتك وشأن نفسك إليك مهما تعلم الخير وتؤدب عليه. وأصبحت، وقد وليت أمر هذه الأمة، تؤدبهم على دنياهم، يذل الشريف بين يديك والوضيع؛ وقد اشترك فيك العدو والصديق. ولكل خطة من العدل: فأي حالتيك أفضل؟ الحالة الأولى أم الثانية؟ والسلام. فراجعه سحنون بأن قال له: أما بعد، فإنه جاءني كتابك وفهمت ما ذكرت فيه؛ وإني أجيبك إنه لا حول ولا قوة في شيء من الأمور إلا بالله تعالى عليه توكلت وإليه أنيب وما كتبت إنك عهدتني وشأن نفسي إلي مهما أعلم الخير وأودب عليه، وقد أصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة وأود بهم على دنياهم. ولعمري إنه من لم تصلح دنياه، فسدت أخراه. وفي صلاح الدنيا إذا صح المطعم والمشرب، صلاح الآخرة.

أعلام مذهب مالك، تحقيق: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م، ١ / ٣٥٧ - ٣٥٨، ٣٧٢.

وقد حدثني ابن وهب ورفع سحنون سنده أن النبي ﷺ قال: نعم المطية الدنيا فارتحلوها فإنها تبلغكم الآخرة ولن تبلغ الدنيا الآخرة من عمل في الدنيا بغير الواجب من حق الله وأما قولك وليت أمر هذه الأمة، فإني لم أزل مبتلى، ينفذ قولي منذ أربعين سنة في أبشار المسلمين وأشعارهم. ومن كلام عبد الله بن أبي جعفر: لن تزالوا بخير ما تعلمتم. فإذا احتيج إليكم، فانظروا كيف تكونون. وإنما المفتي قاض يجوز قوله في أبشار المسلمين وأموالهم. فعليك بالدعاء فألزم ذلك نفسك والسلام.

وذكر القاضي عيسى بن مسكين من طريق آخر كيفية ولايته القضاء بأن الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب كان قد اضطر يحيى بن عمر إلى ولاية القضاء. فقال له: إن دللتك على من هو أفضل مني، في الوجه الذي تحب، تعفيني فقال له: نعم فدله عيسى ابن مسكين. وكان بالحضرة حمديس؛ فقال: إنه، والله أيها الأمير، صاحبنا عند سحنون. جمع الله فيه خلال الخير بأسرها فأرسل فيه إبراهيم إلى كورة الساحل، وأوصله إلى نفسه، وقال: تدري لم بعثت لك؟ قال: لا. قال: لأشاورك في رجل قد جمع الله فيه خلال الخير. أردت أن أوليه القضاء، وألم به شعث هذه الأمة؛ فامتنع. قال: يلزمه أن يلي. قال: تمنع. قال: يجبر على ذلك قال: تمنع. قال: يجلد قال: قم فأنت هو قال: ما أنا الذي وصفت وتمنع. فأخذ الأمير بمجامع ثيابه، وقرب السيف من نحره؛ فتقدم إليه بخنجره. قال حمديس: وكنت في المجلس؛ فقمت من مكاني، لئلا يصيبني من دمه. فلم يزل به حتى ولي على شروط، منها قال له: أستعفيك في كل شهر قال: نعم قال: وأجعلك، وبني عمك، وجندك، وفقراء الناس، وأغنياءهم في درجة واحدة. قال: نعم قال: ولم توجه ورائي، وكذا وكذا. فمتى لم تف لي بشرط، عزلت نفسي. قال: نعم وعرض عليه عند ذلك الكسوة والصلة. فامتنع وقال له: أنا رجل طويل الصمت، قليل الكلام، غير نشيط في أمور، ولا أعرف أهل البلد. فقال له الأمير: عندي مولى نشيط، قد تدرب في الأحكام. أنا أضمه

إليك: يكون عنك كتاباً يصدر عنك في القول. فما رضيت منه، أمضيت؛ وما سخطت، رددت. فضم إليه عبد الله بن محمد بن مفرج. قال المخبر: فكثيراً ما كنت آتي مجلسه وهو صامت لا يتكلم؛ وابن مفرج يقضي. وسئل عن فرط انقباضه في قضائه. فقال: ابتليت بجبار عنيد، خفت أن يبعث إلي من طعامه، أو يدعوني إليه. ولا آتيه؛ فحملت نفسي على ذلك، ليقطع طمعه مني.

وكان سحنون يؤدب الناس على الأيمان التي لا تجوز، من الطلاق والعتاق، حتى لا يحلفوا بغير الله؛ ويؤدبهم على سوء الحال في لباسهم وما نهى عنه، ويأمرهم بحسن السيرة والقصد. وتخاصم إليه رجلان صالحان من أصحابه؛ فأقامهما، وأبى أن يسمع منهما، وقال: استر عني ما ستر الله عليكما وهو أول من نظر في الحسبة من القضاة، وأمر بتغيير المنكر؛ وأول من فرق حلق البدع من الجامع، وشرد أهل الأهواء منه؛ وأول من جعل الودائع عند الأمناء؛ وكانت قبل في بيوت القضاة. قال عيسى بن مسكين: فحصل الناس بولايته على شريعته من الحق؛ ولم يل قضاء إفريقية مثله ويقال إنه ما بورك لأحد، بعد أصحاب رسول الله ﷺ ما بورك لسحنون في أصحابه؛ فإنهم كانوا أئمة بكل بلدة. وكان الذين يحضرون مجلسه من العباد أكثر من طلاب العلم.

وتوفي سحنون رحمه الله صدر شهر رجب سنة ٢٤٠ ودفن من يومه. وصلى عليه الأمير محمد بن الأغلب. ولم يأخذ لنفسه، مدة قضائه، من السلطان شيئاً [١].

(١) تاريخ قضاة الأندلس (المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)، أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي الأندلسين، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الآفاق الجديدة - بيروت / لبنان - ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، ص٢٨ - ٣٢.

مواقف من حياته:

لا أدري فيما يدري:

وسئل سحنون: أيسع العالم أن يقول: لا أدري فيما يدري؟ قال: أما ما فيه كتاب أو سنة ثابتة فلا، وأما ما كان من هذا الرأي ولو كان شيئًا يقصد به الدين لأجبته.

وقيل: إن زيادة الله الأمير بعث يسأل سحنونًا عن مسألة، فلم يجبه، فقال له محمد بن عبدوس: اخرج من بلد القوم، أمس ترجع عن الصلاة خلف قاضيهم، واليوم لا تجيبهم؟!. قال: أفأجيب من يريد أن يتفكه، يريد أن يأخذ قولي وقول غيري، ولو كان شيئًا يقصد به الدين لأجبته، فإنه يسعه ذلك، لأنه لا يدري أمصيب هو أم مخطئ.

حم الغلام البارحة:

وعن عبد الجبار بن خالد قال: كنا نسمع من سحنون بقريته، فصلى الصبح، وخرج، وعلى كتفه محراث، وبين يديه زوج بقر. فقال لنا: حم الغلام البارحة، فأنا أحرث اليوم عنه، وأجيئكم. فقلت: أنا أحرث عنك، فقرب إلي غداءه، خبز شعير وزيتًا.

مت إذا شئت:

وعن يحيى بن عون: قال: دخلت مع سحنون على ابن القصار وهو مريض، فقال: ما هذا القلق؟ قال له: الموت والقدوم على الله. قال له سحنون: ألست مصدقًا بالرسل والبعث والحساب، والجنة والنار، وأن أفضل هذه الأمة أبو بكر، ثم عمر، والقرآن كلام الله غير مخلوق، وأن الله يرى يوم القيامة، وأنه على العرش استوى، ولا تخرج على الأئمة بالسيف، وإن جاروا. قال: إي والله، فقال: مت إذا شئت، مت إذا شئت.

كبرنا وساءت أخلاقنا:

وعن سحنون قال: كبرنا وساءت أخلاقنا، ويعلم الله ما أصيح عليكم إلا لأؤدبكم. وعن سحنون قال: ما عميت علي مسألة إلا وجدت فرجها في كتب ابن وهب.

كأن سحنونـًا يبني الكعبة:

وقيل: إن طالبًا قال: رأيت في النوم كأن سحنونًا يبني الكعبة، قال: فغدوت إليه، فوجدته يقرأ للناس " مناسك الحج " الذي جمعه.

هل الفتيا إلا القضاء!:

ولما ولي سحنون القضاء بأخرة عوتب، فقال: ما زلت في القضاء منذ أربعين سنة، هل الفتيا إلا القضاء؟.. ! قيل: إن الرواة عن سحنون بلغوا تسعمائة.

جئت اليوم ولم أسمع منك شيئـًا:

قال رجل من الطلبة لسحنون: جئت اليوم ولم أسمع منك شيئاً. فقال له: إن كنت في وقت خروجك ممن شيعته الملائكة، فقد سمعت، وإن لم تسمع. وإن كنت ممن لم تشيعه، فلم تسمع، وإن كنت سمعت.

بحراً لا تكدره الدلاء:

قال عيسى: قلت لسحنون تأتيك المسائل مشهورة مفهومة، فتأبى الجواب فيها. فقال سحنون: سرعة الجواب بالصواب أشد فتنة من فتنة المال. قال يحيى بن عمر: لما قدمت إلى سحنون فسألت عنه، فقيل لي خرج إلى البادية، فجئته، فرأيت رجلاً أشعر عليه جبة صوف ومنديل، وهو متول حرثه وشأنه، فاستصغرته وندمت على تركي من تركت بالمشرق، ومجيئي إليه. وقلت ما أراه يحفظ شيئاً من العلم. فرحب بي. فلما جالسته في العلم رأيت بحراً لا تكدره الدلاء، والله العظيم، ما رأيت مثله قط. كأنما جمع العلم عينيه في صدره.

الحمد لله، الذي لم يجمع حبي وبغض أبي بكر وعمر في قلب واحد:

وقيل له: إن يعقوب بن المضار لا يحبك فقال: الحمد لله، الذي لم يجمع حبي وبغض أبي بكر وعمر في قلب واحد.

ليس هم سكانها:

عن سحنون، أنه قال في الحديث: فيمن أخاف أهل المدينة، قال: ليس هم سكانها، بل كان من قال بقولهم، حيث كان.

فرأيت أن أصبر:

قال ابن وضاح: وكان إنسان يشرب قريباً من سحنون ويغني، ولم يغير عليه، فلما قدمت الأندلس، ابتليت بمثله، فأردت رفع أمره، ثم تذكرت أمر سحنون، فاقتديت به، وصبرت. ثم لقيت سحنون بعد ذلك، فلم أسمع جاره ذلك بعد، فسألته عنه، فقال لي: ماذا حملت منه، ولقد كفانيه الفقر، وها هو مؤذن في المسجد. وكنت أقدر أن أغير عليه، وأكلم السلطان فيه، فخشيت أن يحملني في ديني ما هو أضر مني، فرأيت أن أصبر حتى لا يكون للسلطان علي منة.

من جرأك علي:

قال إبراهيم بن محمد بن باز: كنت أقرأ كتاب الهبات، من النذور على سحنون. فمرت مسألة في الكتاب كان في جانب كتابي فيها كلام لأصبغ، فقرأته على سحنون. فقال: إيه. فظننت أنه استفادني. فقلت له: قال: أصبغ. فقال: إيه. فأعدت، فنظر إليّ، وقال: من جرأك علي؟ قلت: أصلحك الله، كذا هو في حاشية كتابي.

فقال لي: تكذب. سعيد بن حسان أعلم الله. يا أهل الأندلس، ما تبالوا عمن تأخذون دينكم. قم والله لا قرأت لكم حرفاً منها. فلما كان بعد أيام، لم نشعر إلا وسحنون واقف على بيتي، عليه فروة وبيده عصا، فقال: السلام عليكم،

أي شيء تكتب؟ فرددت عليه السلام وقلت له: أكتب كتاباً من المدونة. فقال لي يا أهل الأندلس: أنا أحبكم لأنكم قوم سنة، وخير. ثم مضى، فجئناه يوماً ثانياً، وكنت أنا القارىء عليه، وأخذتني زكمةٌ فربطت رأسي، وجلست ناحية، فلما اجتمعنا قال: أين ذا؟ قال: اقرأ. فقلت: عرض لي شيء، قال: اقرأ كما أقول لك.

قال: واستأذنه رجل أن يبني قنطرة، يجوز عليها الناس إلى دار سحنون، فأبى سحنون، لأن كسبه كان من بلدان السودان. وكان لا يشرب من المواجل (١) التي يبنيها السلاطين تورعاً. ويفتي بجواز ذلك. ويقول: إنما هي حجارة جمعوها، ساق الله إليها الماء (٢).

هيهات يا ابن أخي:

وجاء رجل إلى سحنون يسأله عن مسألة فأقام يتردد إليه ثلاثة أيام، فقال: مسألتي أصلحك الله؛ اليوم ثلاثة أيام! فقال له: وما أصنع بمسألتك؟ مسألتك معضلة، وفيها أقاويل، وأنا متحير في ذلك؛ فقال: وأنت أصلحك الله لكل معضلة؛ فقال سحنون: هيهات يا بن أخي، ليس بقولك هذا أبذل لحمي ودمي للنار؛ وما أكثر ما لا أعرف؛ إن صبرتَ رجوتُ أن تنقلبَ بمسألتك؛ وإن أردتَ أن تمضي إلى غيري فامض تجاب في مسألتك في ساعة؛ فقال: إنما جئت إليك ولا أستفتي غيرك؛ قال: فاصبر؛ ثم أجابه بعد ذلك.

وقيل له: إنك تسأل عن المسألة لو سئل عنها أحد من أصحابك لأجاب فيها، فتتوقف فيها؛ فقال: إن فتنة الجواب بالصواب أشد من فتنة المال.

---

(١) المواجل صهاريج تخزن فيها مياه الأمطار.

(٢) أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م، ١ / ٣٥٧ - ٣٥٨، ٣٧٢.

من كلامه رحمه الله:

وروي عن سحنون قال: من لم يعمل بعلمه، لم ينفعه علمه، بل يضره.

وقال سحنون: إذا أتى الرجل مجلس القاضي ثلاثة أيام متوالية بلا حاجة، فينبغي أن لا تقبل شهادته.

وعن سحنون قال: أكل بالمسكنة، ولا أكل بالعلم. محب الدنيا أعمى، لم ينوره العلم. ما أقبح بالعالم أن يأتي الأمراء، والله ما دخلت على السلطان إلا وإذا خرجت حاسبت نفسي، فوجدت عليها الدرك، وأنتم ترون مخالفتي لهواه، وما ألقاه به من الغلظة، والله ما أخذت، ولا لبست لهم ثوبا.

وعن سحنون قال: كان بعض من مضى يريد أن يتكلم بالكلمة، ولو تكلم بها لانتفع بها خلق كثير، فيحبسها، ولا يتكلم بها مخافة المباهاة. وكان إذا أعجبه الصمت تكلم، ويقول: أجرأ الناس على الفتيا أقلهم علما.

وعنه قال: ما وجدت من باع آخرته بدنيا غيره إلا المفتي.

وعنه: سرعة الجواب بالصواب أشد فتنة من فتنة المال.

قال سحنون: ما أقبح بالعالم أن يؤتى إلى مجلسه فلا يوجد فيه. فيسأل عنه، فيقال: هو عند الأمير، هو عند الوزير، هو عند القاضي، فإن هذا وشبهه شرٌّ من علماء بني إسرائيل. وبلغني إنهم يحدثونهم من الرخص ما يحبون، مما ليس عليه العمل، ويتركون ما عليه العمل، وفيه النجاة لهم، كراهة أن يشتغلوهم. ولعمري لو فعلوا ذلك لنجوا، ووجب أجرهم على الله، فوالله لقد ابتليت بهذا القضاء، وبهم. ووالله ما أكلت لهم القمة، ولا شربت لهم شربة، ولا لبست لهم ثوباً، ولا ركبت لهم دابة، وما أخذت لهم صلة. وإني لأدخل عليه، فأكلمهم بالتشديد، وما عليه العمل وفيه النجاة. ثم أخرج عنهم، فأحاسب نفسي، فأجد عليّ الدرك مع ما ألقاهم به في الشدة والغلظة، وكثرة مخالفتي هواهم، ووعظي لهم. فوددت أن أنجو ما دخلت فيه كفافاً.

ومن كلام هذا القاضي رحمه الله: من قاس الأمور، علم المستور. من

حصن شهوته، صان قدره. في تقلب الأحوال، علم جواهر الرجال. الحسن النية، يصحبه التوفيق. المعاش مذل لأهل العلم. كفاك أدباً لنفسك ما كرهته لغيرك. قارب الناس في عقولهم، تسلم من غوائلهم (١).

وقال سحنون: لا يجوز التوضؤ بصحن المسجد لقول الله تعالى:{ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ} [النور: ٣٦] فوجب أن ترفع وتنزه عن أن يتوضأ فيها لما يسقط فيها من غسالة الأعضاء من الأوساخ والتمضمض والاستنشاق وقد يحتاج للصلاة بذلك الموضع آخر. فيتأذى بالماء المهراق فيه، وقد روي أن رسول الله قال:﴿اجعلوا مطاهركم على أبواب مساجدكم﴾.

عن سحنون قال: " كان بعض من مضى يريد أن يتكلم بالكلمة ولو تكلم بها لانتفع بها خلق كثير فيحبسها، ولا يتكلم مخافة المباهاة ".

وقال فقيه المغرب محمد بن سُحنون المالكي: أجمع العلماء أن شاتم الرسول ﷺ المنتقص له كافر، والوعيد جارٍ عليه بعذاب الله، وحكمه عند الأمة القتل، ومن شك في كفره وعذابه كفر.

وقال سحنون: من كفّر أحدًا من أصحاب النبي ﷺ علي أو عثمان أو غيرهما يوجع ضربًا.

وحكى أبو محمد بن أبي يزيد، عن سحنون: من قال في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي: إنهم كانوا على ضلالة وكفر وقتل، ومن شتم غيرهم من الصحابة بمثل ذلك نكّل النكال الشديد.

وقال سُحنون: فتنة الجواب بالصواب أعظم من فتنة المال.

وقال سحنون: أشقى الناس من باعَ آخرتَهُ بدنيا غيره.

وقال سحنون: أشقى الناس من باع آخرته بدنياه؛ وأشقى منه من باع آخرته بدنيا غيره؛ فقال: تفكرت فيه، وجدته المفتي، يأتيه الرجل قد حنث في امرأته ورقيقته، فيقول له: لا شيء عليك، فيذهب الحانث فيستمتع

(١) تاريخ قضاة الأندلس، ص٢٨ - ٣٢.

بامرأته ورقيقته، وقد باع المفتي دينه بدنيا هذا.

قال سحنون: أجرأ للناس على الفتيا، أقلهم علماً. يكون عند الرجل باب واحد من العلم، فيظن أن الحق كله فيه. قال سحنون: إني لأسأل عن المسألة، فأعرف في أي كتاب وورقة وصفحة وسطر، فما يمنعني عن الجواب فيها إلا كراهة الجرأة بعدي على الفتيا.

وقال سحنون: وأنا أحفظ مسائل ما فيه ثمانية أقاويل من ثمان أئمة. فكيف يسعني أن أعجل بالجواب، حتى أتخيّر، وهو الأمر في حبس الجواب، أو كما قال، عبد الجبار بن خالد

وكان يقول: ما أحب أن يكون عيش الرجل إلا على قدر ذات يده. ولا يتكلف ما في وسعه؛ وأكل أموال الناس بالمسكنة والصدقة خير من أكله بالعلم والقرآن.

وهو القائل: من لم يعمل بعلمه، لم ينفعه العلم، بل يضره وإنما العلم نور يضعه الله في القلوب، فإذا عمل به، نور الله قلبه؛ وإن لم يعمل به، وأحب الدنيا، أعمى حب الدنيا قلبه، ولم ينوره العلم.

وكان يقول: ترك الحلال أعظم من جميع عبادة الله؛ وترك الحلال لله أفضل من أخذه وإنفاقه في طاعة الله وقال: ترك دانق مما حرم الله أكثر من سبعين ألف حجة، يتبعها سبعون ألف عمرة مبرورة متقبلة، وأفضل من سبعين فرساً في سبيل الله بزادها وسلاحها، ومن سبعين ألف بدنة يهديها إلى بيت العتيق، وأفضل من عتق سبعين ألف رقبة مؤمنة من ولد إسماعيل قال صاحب المدارك: فبلغ كلامه هذا لعبد الجبار بن خالد؛ فقال: نعم وأفضل من ملء الأرض إلى عنان السماء ذهباً وفضة كسبت وأنفقت في سبيل لا يراد بها إلا وجه الله وهذا القول بناء على أن التروك لا توازيها الأفعال. وكذلك القول في مسألة ترك الحلال لله إنه أفضل من أخذه وإنفاقه في طاعة الله مما وقع فيه الاختلاف بين العلماء. قال عز

الدين أبو محمد بن عبد السلام السلمي: فقالت طائفة تركها أفضل. وقال آخرون: بل فعله مع السلامة أولى. قال صاحب الرعاية: لأنه قد اكتسب من العمل ما لم يكتسب غيره وإنما يسأل عن ذلك كما يسأل عن الصلاة والصيام ليثاب عليه وإنما أمر بالترك خوفاً أن لا يسلم.

* * *

<u>أقضى القضاة الماوردي</u>

أقضى القضاة الماوردي

أعلام الفقهاء

أقضى القضاة الماوردي

في شوارع البصرة وفي زمن العباسيين، كان هناك طفل صغير لم يتجاوز الرابعة من عمره، ورث عن أبيه صناعة (ماء الورد) يقضي النهار كله أمام أبواب المساجد، يبيع ماء الورد لطلاب العلم ورواد المدارس مقابل دراهم معدودة، يتقوَّى بها على متاعب الحياة.

وقد أصبح هذا الصبي من قادة الفكر وحملة مشاعل العلم ومن أبرز رجال السياسة، وقاضيًا من أعدل القضاة، وأديبًا ناضجًا ومؤلفًا عظيمًا في شتى فروع ثقافة أمته.. إنه (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي) الشهير بالماوردي.. ولد عام ٣٦٤هـ - ٩٧٤م في مدينة البصرة، ونشأ فيها يسقي طلاب العلم ماء الورد، ويرتوي من علم العلماء المشهورين في زمانه، وظل في البصرة حتى سمع أن عالمًا ببغداد يقصده الطلاب من كافة الأنحاء هو (أبو حامد الإسفراييني) فتعلم على يديه الفقه والعلوم الشرعية، وأصبح من مريديه، ومازال يرحل ويتنقل في بلاد المسلمين طلبًا للمعرفة حتى عاد إلى بغداد، ليبدأ فيها رحلة الدرس والتأليف، يتلقى عنه الطلاب القادمون من بلاد كثيرة. وتولى الماوردي القضاء في البلاد التي رحل إليها، كما تولى وظيفة قاضي القضاة في نيسابور، وذاعت شهرته، ولقب بأقضى القضاة سنة ٤٢٩هـ، وكان أول من لقب بذلك في تاريخ الإسلام، وعلم الماوردي أن توليه القضاء ليس تشريفًا له، ولكنها رسالة وأمانة في عنقه؛ فكان يتمهل قبل أن يصدر أحكامه، ويقرأ كتاب الله وأحاديث رسوله، حتى لا يضل الطريق؛ فيقضي بحكم فيه ظلم لأحد، كما كان جريئًا عادلاً، لا تأخذه في الله لومة لائم، يحكم بالحق حتى على أولي القربى وأصحاب السلطان. فقد أمر الخليفة العباسي أن يلقب جلال الدين بن بويه بلقب شاهنشاه الأعظم ملك الملوك، واختلف الفقهاء ما بين موافق، وغير موافق لأن هذا اللقب لا يجوز إلا في حق الله، وانحاز عوام الناس إلى رأي الفقهاء المانعين، وانتظر الجميع

رأي القاضي الماوردي الذي كانت تربطه بجلال الدين البويهي صلة ود وصداقة؛ وظهرت شجاعة الماوردي، فانحاز إلى جانب الحق، وضرب مثلاً فريدًا في الثبات على الحق، فأفتى بالمنع، وأعجب جلال الدين بصدقه وشجاعته فقال له: (أنا أعلم أنك لو حابيت أحدًا لحابيتني، لما بيني وبينك من أواصر المحبة، وما حملك إلا الدين، فزاد بذلك محلك عندي). ولما ذاعت شهرة الماوردي أثناء فترة إقامته ببغداد لما عُرِفَ عنه من فضل وعلم، وحسن رأي، وجلالة قدر؛ اختير ليكون سفيرًا بين رجال الدولة في بغداد، وبني بويه في أصبهان من سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م إلى ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م، وكان لقربه من الحياة السياسية في عصره، واختلاطه بالأمراء والوزراء أثر كبير، فقام بكتابة العديد من المؤلفات السياسية الرائعة التي صدرت عن خبرة كبيرة ودراسة واسعة مثل (الأحكام السلطانية والولايات الدينية) وكانت له مكانة ممتازة عند الأمراء والملوك في عصره، فكان يتصدر المراسم والاحتفالات الرسمية، وأسندوا إليه عقد قران الخليفة القائم بأمر الله على خديجة بنت داود أخي السلطان (طغرلبك) سنة ٤٤٨هـ. واشتهر الماوردي بالحلم والوقار والأدب والتعفف عن سؤال غيره، كما عرف عنه التدين والتنزه عن اللهو والهزل، وشهد المعاصرون للماوردي بالصلاح والتقوى، وهم محقون في ذلك، فقد أخفى مؤلفاته عن الناس في عصره خوفًا من أن يكون قد خالطها الرياء وهو يؤلفها، وعهد إلى صديقٍ له ألا يظهرها إلا بعد وفاته، وترك الماوردي العديد من المؤلفات منها: كتاب في التفسير و(الحاوي) في الفقه الشافعي و(قانون الوزارة وسياسة الملك) و(أدب الدنيا والدين). والماوردي مفكر سياسي إسلامي يعد من أوائل من اهتموا بعلم السياسة وأصول الحكم الإسلامي، يأخذ أفكاره وآراءه من وحي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وظل الماوردي في خدمة العلم إلى أن فاضت روحه إلى بارئها في يوم الثلاثاء آخر شهر ربيع الأول سنة ٤٥٠هـ، وحضر جنازته جمع من الخطباء

والعلماء والقضاة يودعونه إلى مثواه الأخير [(١)].

قال محمد بن عبدالملك الهمذاني: حكى أبي قال: حضرت مع قاضي القضاة أبي الحسن الماوردي عزاء، فتكلم الشيخ أبو إسحاق واجلاً، فلما خرجنا، قال الماوردي: ما رأيت كأبي إسحاق! لو رآه الشافعي لتجمل به[(٢)].

الماوردي وآثاره:

كان الماوردي ذا خلق ودين وله علاقة وطيدة مع الخليفة ورجال الدولة في زمانه. وكان الخليفة يثق فيه وجعله سفيراً بينه وبين بني بويه وبينه وبين السلاجقة، وكانت بيد هؤلاء مراكز القوة في الدولة، ولقد أهلته ثقافته العالية ووظائفه المتعددة واتصاله برجال السلطة عن قرب وخبراته السياسية للكتابة في الفقه السياسي. وله مؤلفات في كثير من العلوم وله من الكتب السياسية أربعة كتب:

١ - الأحكام السلطانية.

٢ - قوانين الوزارة.

٣ - نصيحة الملوك.

(١) تاريخ بغداد ١٢ / ١٠٢ - ١٠٣، طبقات الفقهاء للشيرازي: ١٣١، الأنساب: ورقة ٥٠٤ أ، المنتظم ٨ / ١٩٩ - ٢٠٠، معجم الأدباء ١٥ - ٥٢ - ٥٥، الكامل لابن الأثير ٩ / ٦٥١، اللباب / ١٥٦، مختصر تاريخ دولة آل سلجوق: ٢٤، طبقات ابن الصلاح: الورقة ٧٠ ب، وفيات الأعيان ٣ / ٢٨٢ - ٢٨٤، المختصر في أخبار البشر، دول الإسلام ١ / ٢٦٥، العبر ٣ / ٢٢٣، ميزان الاعتدال ٣ / ١٥٥، تتمة المختصر ١ / ٥٤٩، مرآة الجنان ٣ / ٧٢ - ٧٣، طبقات السبكي ٥ / ٢٦٧ - ٢٨٥، طبقات الأسنوي ٢ / ٣٨٧ - ٣٨٨، البداية والنهاية ١٢ / ٨٠، طبقات ابن قاضي شهبة: ورقة / ٢٣ / أ، لسان الميزان ٤ / ٢٦٠ - ٢٦١، النجوم الزاهرة ٥ / ٦٤، طبقات المفسرين للسيوطي: ٢٥، طبقات المفسرين للداوودي ١ / ٤٢٣ - ٤٢٥، مفتاح السعادة ١ / ٣٢٢، طبقات ابن هداية الله: ١٥١ - ١٥٢، كشف الظنون ١ / ١٩، ٤٥، ١٤٠، ١٦٨، ٤٠٨، ٦٢٨ و ٢ / ١١٠١، ١٣١٥، ١٩٧٨، شذرات الذهب ٣ / ٢٨٥ - ٢٨٧، روضات الجنات: ٤٨٣، هدية العارفين ١ / ٦٨٩.

(٢) السبكي، طبقات الشافعية، ٤ / ٢٢٧.

٤ - تسهيل النظر وتعجيل الظفر (في سياسة الملك).

وقد نال كتاب الأحكام السلطانية شهرة واسعة وهو يعد بحق أول من جمع مسائل الفقه السياسي المنثورة في مواضع متفرقة في كتاب واحد. ويقول عن ذلك في مقدمة كتابه:

(لما كانت الأحكام السلطانية بولاة الأمور أحق، وكان امتزاجها بجميع الأحكام يقطعهم عن تصفحها مع تشاغلهم بالسياسة والتدبير أفردت لها كتاباً) (١).

وقد ألف الكتاب بأمر من خليفة العصر فالكتاب بذلك ليس كتاب فقه نظري بل هو موجه للسلطة الحاكمة للعمل به وتنفيذه.

يبدأ الكتاب بإعطاء تعريف للإمامة والمؤهلات المطلوبة لتقلد هذا المنصب الهام، والطرق الصحيحة لانعقاد الإمامة، ثم يبين واجبات الدولة وواجبات الشعب نحوها والأمور التي تؤدي إلى عزل الإمام. وبعد أن يعطي تعريفاً لكل من الوزارة والإمارة يتحدث عن أنواع الوزارة والإمارة وسلطات كل نوع والمؤهلات المطلوبة لتوليها، ثم ينتقل لمناقشة المهام التفصيلية لأجهزة الدولة المالية والقضائية والعسكرية.

والكتاب الثاني من كتب الماوردي السياسية هو كتابه (قوانين الوزارة) وهذه رسالة هامة تبحث في موضوع متخصص من موضوعات الفقه السياسي. فقد بحث المؤلف فيها كل ما يتصل بالوزارة من فقه، ابتداء من تعريف الوزارة وأنواعها، ومؤهلات الوزراء إلى علاقتهم برئيسهم ووظائفهم وما يعينهم من سياسة للقيام بهذه الوظائف. وانتهى في هذه الرسالة إلى أن أهم غايات الوزارة تحقيق الهداف التالية: (دين متبع، سلطان قاهر، عدل شامل، أمن عام، وخصب دائم).

أما كتابا الماوردي الآخران (نصيحة الملوك) و(تسهيل الظفر) فهما كتب

(١) الأحكام السلطانية ص ٣.

الآداب والأخلاق السياسية ولا تدخل في نطاق الفقه [١].

الماوردي والجواري يلبسن الشعر:

قال الماوردي: رأيتُ جاريةً، ونحن عند محمد بن عمرو بن مسعدة، لم أشكّ أنه عاشقٌ لها، وإليها مائلٌ، لِما رأيتُ من حركاته إذا نظرت، وسُروره إذا نطقت، وتهلُّله إذا غنّت. وكانت فوق وصف الواصف من الحُسن والجَمال، وعليها قميصٌ موشَّحٌ، ورداء معيَّنٌ، مكتوبٌ في وشاح القميص:

أغيب عنكَ بوُدٍّ لا يُغيّرُهُ ::: نأي المحلّ ولا صَرفٌ من الزمنِ
تعتلُّ بالشُّغل عنا ما تُكلّمنا ::: الشغل للقلب ليس الشغل للبدنِ

وعلى طراز الرداء:

أقلّ الناس في الدنيا سُروراً ::: محبٌّ قد نأى عنه الحبيبُ

قال: ورأيتُ جارية لبعض الهاشميين يُقال لها عَريب، عليها قميصٌ ملحَمٌ، موشَّحٌ بالذهب، مكتوبٌ في وشاحه:

وإني لأهواه مسيئاً ومحسناً ::: وأقضي على قلبي له بالذي يَقضي
فحتى متى رَوْحُ الرضى لا ينالني ::: وحتى متى أيام سُخطِكَ لا تَمضي

وعلى طراز كُمّه:

إذا صدّ من أهوى وأسلمني الغَري ::: ففُرقة من أهوى أحرُّ من الجمرِ

ورأيتُ على ماجِنَ جارية مكاتم المغنّية قميصاً في وشاحه بالذهب:

زَفَراتي ليس تَفنى ::: وفؤادي بك مُضنى
أترضاكَ وأُبدي ::: لك... سنا
بأبي كم أتمنّى ::: وإلى كم أتمنى
بعدما أصبح قلبي ::: في يد الأحرار رَهنا

قال: ورأيتُ في صدر قميص جارية تَباريح الكوفية مكتوباً بالفضة

---

(١) القاضي أبو يعلى الفراء، د. محمد عبد القادر أبو فارس، ص ٥١٦ وما بعدها.

والذهب سطراً وسطراً:

يا فتى! قلــتُ إذ دعــاني هــواه ::: مســـتجيباً لصـــوته لبّيكــا
مــا بكــت مُقلــتي لفقْــدك إلا ::: جَزَعاً أن أمــوت شــوقاً إليكــا

قـال: ورأيتُ مرة أخرى عليها دُرّاعَة ملْحَمٍ بتَرانين إبريسَم ولِبنة سوسَنْجرْد وفي دور اللّبنة مكتوبٌ:

يا رامياً ليس يدري ما الذي فعلا! ::: أمسك عليكَ فإنّ السهم قد قــتلا
أصبتَ أسودَ قلبي إذ رمَيتَ فــلا ::: شُلّت يمينُــك أن صَــيّرتني مَــثلا

وكتبت بَنان جاريةُ الخيزران على تَرانين دُرّاعةٍ لها بذهب:

لم تقُــلْ قــولاً ولكــن حلفــت ::: أنهــا أحســنُ عــينٍ أُطرفــت
زعمَــت أني قــد لاحظتُهــا ::: أيُّ عــينٍ لَحَظَــت فاعترفَــت
أظهــرت حُجّــة مــن يعشــقها ::: واســتباحَت غفلــةً وانصــرفَت

وعلى طراز كُمّها:

لــيس بي صــبرٌ ولا بي جَلَــدٌ ::: قد نفــى حُبُّــكَ عــني جَلَــدي

وقال الماوردي: رأيتُ جارية لبعض ولد المأمون، وعليها قلنسوة عليها مكتوبٌ:

يــا تــارك الجســم بــلا قَلــب ::: إنْ كــان يَهــواكَ فمــا ذنــبي؟
يــا مفــرَداً بالحُســن أفــردتَني ::: منك بطول الشــوق والكَــرْبِ

وعلى كَرزَن لها:

أنــا العبــد المقــرّ بطــول رقٍّ ::: وليس عليك من عبــدٍ خِــلافُ

قال: ورأيتُ على جارية لا هي كَرزَناً مكتوباً عليه:

عذّبــه بــالهجر مــولاه ::: وزاده شــوقاً وأضْــناهُ
فدمعــه يجــري علــى خــدّه ::: ولم تــنمْ للوَجــد عينــاهُ
قد كتــب الحُــبُّ علــى قلبــه: ::: مُــتْ كمَــداً يرحمُــك اللهُ

مكتوباً على النعال والخِفاف:

ما وجد للمتظرفات والظراف مكتوباً على النعال والخِفاف قال الماوردي: كتبَت جاريةٌ للمارقي على نعلها بالذهب:

لم ألــقَ ذا شَــجَنٍ يبــوح بحبــه :: إلاّ حســـبتُكَ ذلــك المحبوبــا
حذَراً عليكَ وإنــني بــك واثــقٌ :: أنْ لا ينال سوايَ منكَ نصـــيبا[١]

كتاب المنصور:

ذكر أبو الحسن الماوردي: أن أبا جعفر المنصور بلغه عن جماعة من كتاب دواوينه أنهم زوروا فيها وغيروا، فأمر بإحضارهم، وتقدم بتأديبهم، فقال حدث منهم وهو يضرب:

أطـــال الله عمـــرك في صـــلاحٍ ::: وعـــزٍ يـــا أمـــير المؤمنينـــا
بعفـــوك نســـتجير فـــإن تجرنـــا ::: فإنّـــكَ عصـــمةٌ للعالمينـــا
ونحـــن الكـــاتبون وقـــد أســـأنا ::: فهبنـــا للكـــرام الكاتبينـــا

فأمر بتخليتهم، ووصل الفتى وأحسن إليه [٢].

خطوط العلماء في الأغلب رديئة:

وقال الإمام الماوردي: خطوط العلماء في الأغلب رديئة لاشتغالهم بالعلم حتى قال الفضل ابن سهل: من سعادة المرء رداءة خطه أي لئلا يشغله تعلم الخط عن تعلم العلم. قيل: والأسباب المخلة بالخط ثمانية: إسقاط ألفاظ منه أو زيادة ألفاظ فيه أو إسقاط بعض حروف الكلم أو زيادة حروف أثناءها أو وصل المفصول أو فصل الموصول أو تغيير الحرف حتى يشتبه حرف بغيره أو ضعف الخط جملة أو إهمال النقط أو الشكل.

---

(١) الوشاء، الموشى، ص ٧٦، ٧٧، ٨١.
(٢) ابن الأبار، إعتاب الكتاب، ص٦.

لا يسأل عنهما إلاّ علماء الدين:

عن الإمام الماوردي، رحمه الله، قال: كنت بمجلس درسي بالبصرة، فدخل علي شيخ مسن قد ناهز الثمانين أو جاوزها، قال: قصدتك بمسألة اخترتك لها. فقلت: ما هي؟ وظننت إنّه يسأل عن حادثة نزلت به. فقال عن طالع إبليس وطالع آدم من النجوم ما هو؟ فإنَّ هذين لعظيم شأنهما، لا يسأل عنهما إلاّ علماء الدين. قال: فعجبت وعجب من في المجلس من سؤاله. وبادر إليه قوم منهم بالإنكار والاستخفاف، فكففتهم وقلت: هذا لا يقنع مع ما ظهر من حاله، إلاّ بجواب مثله! فأقبلت عليه وقلت: يا هذا، إنَّ المنجمين يزعمون إنَّ نجوم الناس لا تعرف إلاّ بمعرفة مواليدهم. فإنَّ ظفرنا بمن يعرف وقت ميلادهما أخبرك بالطالع. فقال: جزاك الله خيرًا! وانصرف مسرورًا. فلما كان بعد أيام عاد وقال: ما وجدت إلى وقتي هذا من يعرف مولدهما (١).

من كلامه رحمه الله:

قال الماوردي - رحمه الله -: ينبغي أن يكون للعالم فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقته وقدر استحقاقه، ليعطيه ما يتحمله بذكائه أو يضعف عنه ببلادته فإنه أروح للعالم وأنجح للمتعلم.

قال الماوردي - رحمه الله -:

وإذا كانـــت النفـــوس كبـــاراً ::: تعبـــت في مرادهـــا الأجســـام

وقال: والداعي إلى استسهال المصاعب وتحمل المشاق أمور منها علو الهمة وشرف النفس أما علو الهمة فلأنه باعث على التقدم وداع إلى الهمة وشرف النفس التخصيص، أنفة من خمول الضعة واستنكاراً لمهانة النقص.

قال الماوردي - في بيان ما يلزم الإمام من أعمال -: والذي يلزمه من الأمور العامة عشرة أشياء:

---

(١) اليوسي، زهر الأكم في الأمثال و الحكم، ص٢٩٩، ٣٠٣.

أحدها: حفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة، فإن نجم مبتدع أو زاغ ذو شبهة عنه أوضح له الحجة وبين له الصواب وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود، ليكون الدين محروسًا من خلل والأمة ممنوعة من زلل.

والثاني: تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بين المتنازعين؛ حتى تعم النصفة فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم.

والثالث: حماية البيضة والذب عن الحريم؛ ليتصرف الناس في المعاش وينتشروا في الأسفار، آمنين من تغرير بنفس أو حال.

والرابع: إقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك، وتحفظ حقوق عباده من إتلاف واستهلاك.

والخامس: تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة؛ حتى لا تظفر الأعداء بغرة ينتهكون فيها محرمًا، أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دمًا.

والسادس: جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة إليه حتى يسلم أو يدخل الذمة، ليقام بحق الله تعالى في إظهاره (الإسلام) على الدين كله.

والسابع: جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه نصًّا واجتهادًا من غير خوف ولا عسف.

والثامن: تقدير العطايا وما يستحق من بيت المال من غير سرف ولا تقتير، ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.

والتاسع: استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوض إليهم من الأعمال، ويكله إليهم من الأموال؛ لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة والأموال بالأمناء محفوظة.

والعاشر: أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال؛ لينهض بسياسة

الأمة وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض تشاغلاً بلذة أو عبادة[١].

قال الماوردي: قيل: إن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد، فرآه محمد مرتين، وكلمه موسى مرتين [٢].

قال الماوردي: " والقناعة قد تكون على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يقتنع بالبُلغة من دنياه ويصرف نفسه عن التعرض لما سواه؛ وهذا أعلى منازل أهل القناعة، ثم ذكر قول مالك بن دينار: أزهد الناس من لا تتجاوز رغبته من الدنيا بُلغته.

الوجه الثاني: أن تنتهي به القناعة إلى الكفاية، ويحذف الفضول والزيادة، وهذا أوسط حال المقتنع، وذكر فيه قول بعضهم: من رضي بالمقدور قنع بالميسور.

الوجه الثالث: أن تنتهي به القناعة إلى الوقوف على ما سُنح، فلا يكره ما أتاه وإن كان كثيراً، ولا يطلب ما تعذر وإن كان يسيراً، وهذه الحال أدنى منازل أهل القناعة؛ لأنها مشتركة بين رغبة ورهبة، فأما الرغبة: فلأنه لا يكره الزيادة على الكفاية إذا سنحت، وأما الرهبة: فلأنه لا يطلب المتعذر عن نقصان المادة إذا تعذرت.

قال الماوردي: " فينبغي لطالب العلم ألا يني في طلبه، وينتهز الفرصة به، فربما شحّ الزمان بما سمع، وضنّ بما منح، ويبتدئ من العلم بأوله، ويأتيه من مدخله، ولا يتشاغل بطلب ما لا يضرّ الجهل به فيمنعه ذلك من إدراك ما لا يسعه جهله، فإن لكلّ علم فضولاً مذهلة وشروراً مشغلة، متى صرف إليها نفسه قطعته عما هو أهم منها ".

قال الماوردي: " واعلم أن لكلّ مطلوب باعثاً، والباعث على المطلوب شيئان: رغبة أو رهبة، فليكن طالب العلم راغباً وراهباً، أما الرغبة ففي

(١) أبو الحسن الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص ١٧، ١٦.
(٢) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ١٦ / ٢٠٩.

ثواب الله تعالى لطالبي مرضاته وحافظي مفترضاته، وأما الرهبة فمن عقاب الله تعالى لتاركي أوامره ومهملي زواجره، فإذا اجتمعت الرغبة والرهبة أدّتا إلى كنه العلم " (١).

* * *

(١) أدب الدنيا والدين، ص٥٤.

رجاء بن حيوة

رجاء بن حيوة

أعـلام الفقهـاء

رجاء بن حيوة

كثير من الفقهاء والعلماء الذين صحبوا الخلفاء وعاشوا في ركابهم ولكن ما أقل من حافظ على دينه ولم يبع دينه بدنياه، وما أكثر العلماء الذين دخلوا على السلطان وما أقل من نصح لله ولرسوله ﷺ، كان من هؤلاء القلة الفقيه الزاهد رجاء بن حيوة الذي يدين له التاريخ بالفضل لمشورته على الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك باستخلاف عمر بن عبد العزيز، وبتدبير وتخطيط ذهاب الخلافة لعمر بن عبد العزيز على الرغم من المعارضة الشديدة من جانب أمراء البيت الأموي.

رجاء بن حيوة: أبو نصر الكندي، والإمام القدوة، الوزير العادل، الفقيه، من جلة التابعين، حدث عن معاذ بن جبل وأبي الدرداء، وعبادة بن الصامت وطائفة.

قال عنه مسلمة بن عبد الملك أمير السرايا: برجاء بن حيوة وبأمثاله ننصر. وهو من العلماء الذين كان لهم قرب وحظوة عند خلفاء بني أمية قال عنه صاحب الحلية: مشير الخلفاء والأمراء، وقد بدأ اتصاله بهم منذ عهد عبد الملك وقد بلغت مشاركة رجاء وتأثيره السياسي في عهد سليمان بن عبد الملك الذروة، فقد اتخذه سليمان وزير صدق له يستشيره في كثير من الأمور والقضايا المتعلقة بسياسة الدولة وإدارتها فقال عنه سعيد بن صفوان: وكانت له من الخاصة والمنزلة عند سليمان بن عبد الملك ما ليس لأحد يثق به ويستريح إليه، وقد كان رجاء ملازماً لسليمان بن عبد الملك حتى في سفره بدليل أنه كان مع سليمان حين خرج إلى دابق، وكان يخلو معه في مجلسه وأشرف بنفسه على تمريضه حتى مات، على أن أكبر تأثير سياسي لرجاء في عهد سليمان يظهر في إشارته عليه باستخلاف عمر بن عبد العزيز من بعده والتخطيط الدقيق لتنفيذ ذلك بحكمة وحنكة، وسيأتي الحديث عن ذلك في محله بإذن الله لقد كان لموقف رجاء في استخلاف عمر أثر سياسي كبير غير مجرى التاريخ الأموي بصفة خاصة والإسلامي بصفة

عامة وفي عهد عمر بن عبد العزيز ظل رجاء يتبوأ مكانة كبيرة ومنزلة عالية من خلال قربه من عمر وملازمته له، حيث جعله عمر من خواصه وسماره يستشيره ويستنصحه في أمور العامة والخاصة، وبعد وفاة عمر بن عبد العزيز أقبل على شأنه وترك القرب من الخلفاء وذلك حين رأى أنه لم يعد لقربه من الخليفة ما كان يهدف إليه من تحقيق المصالح وبذل الخير لعامة الأمة[١].

يقول أبو الحسن الندوي على موقف رجاء بن حيوة من تولية عمر بن عبد العزيز الخلافة الأموية: وكان لرجاء مأثرة لا ينساها الإسلام، ولا أعرف رجلاً من ندماء الملوك ورجالهم انتفع بقربه ومنزلته عند الملوك مثل انتفاعه، وانتهز الفرصة مثل انتهازه وأسدى للإسلام خدمة مثله، فرحم الله رجاء بن حيوة فقد رسم منهجاً لمن يجلس مع الملوك من العلماء كيف يعز الإسلام ويذكر الخلفاء بالله وينتهز الفرص المناسبة لخدمة دين الله [٢].

وقد كان رجاء له مكانة كبيرة لدى الخلفاء سليمان بن عبد الملك ومن بعده عمر بن عبد العزيز، ولكن تراجعت مكانته في عصر من جاء بعدهما من الخلفاء. فلما مات عمر بن عبد العزيز انقطع عن صحبتهم. فسأله يزيد ابن عبد الملك أن يصحبه فأبى واستعفاه. فقيل له: نخاف عليك من هؤلاء. فقال: يكفينهم الذي تركتهم له.

وقد أثني عليه العلماء والفقهاء وذكروه بالخير فقد قال ابن سعد عنه أنه كان ثقة، عالمًا، فاضلاً، كثير العلم.

وقال النسائي وغيره: ثقة.

و قال مطر الوراق: ما رأيت شاميًا أفضل من رجاء بن حيوة.

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٥٥٧/٤، ٥٦١، أبو نعيم، الحلية ١٧٠/٥، أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية ص١٤٦.
(٢) الندوي، رجال الفكر والدعوة، ٤٠/١.

وقال ضمرة: ما من رجل من أهل الشام أحب إلي أن أقتدي به من رجاء ابن حيوة.

و كان يزيد بن عبد الملك بن مروان قد أجري عطاء من بيت مال المسلمين على رجاء بن حيوة ثلاثين دينارًا في كل شهر، فلما ولي هشام الخلافة غير ذلك وقال: ما هذا برأي. فقطعها، فرأى هشام أباه في النوم، فعاتبه في ذلك، فأجراها.

ولعل السبب وراء ذلك موقف رجاء من صرف الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز وتمكينه منها على خلاف رغبة البيت الأموي.

وظل رجاء على ثباته من النصح لله ورسوله ﷺ ولعامة الناس وخاصتهم حتى توفاه الله سنة اثنتي عشرة ومائة [١].

مواقف من حياته:

هذا زمانك:

عن عوانة بن الحك، قال: لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفد الشعراء إليه فأقاموا ببابه أياماً لا يؤذن لهم، الرحيل، إذ مر بهم رجاء بن حيوة. وكان من خطباء أهل الشام فلما رآه جرير داخلاً على عمر أنشأ يقول:

يا أيها الرجل المرخي عمامته ::: هذا زمانك فاستأذن لنا عمرا

قال: فدخل ولم يذكر من أمرهم شيئاً، ثم مر بهم عدي بن أرطأة، فقال له جرير:

(١) طبقات ابن سعد ٧ / ٤٥٤، طبقات خليفة ت ٢٩٢٤، تاريخ البخاري ٣ / ٣١٢، المعارف ٤٧٢، المعرفة والتاريخ ٢ / ٣٢٩ و ٣٦٨، الجرح والتعديل القسم الثاني من المجلد الأول ٥٠١، الحلية ٥ / ١٧٠، طبقات الفقهاء للشيرازي ٧٥، تاريخ ابن عساكر ٦ / ١١٦، تهذيب الأسماء.
واللغات القسم الأول من الجزء الأول ١٩٠، وفيات الأعيان ٢ / ٣٠١، تهذيب الكمال ٤١١، تاريخ الإسلام ٤ / ٢٤٩، تذكرة الحفاظ ١ / ١١١، العبر ١ / ١٣٨، تذهيب التهذيب ١ / ٢٢٣، البداية والنهاية ٩ / ٣٠٤ تهذيب التهذيب ٣ / ٢٦٥، النجوم الزاهرة ١ / ٢٧١، طبقات الحفاظ للسيوطي ص ٤٥، خلاصة تذهيب التهذيب ١١٧، شذرات الذهب ١ / ١٤٥، تهذيب ابن عساكر ٥ / ٣١٥.

يا أيها الراكب المزجـــي مطيتـــه ::: هذا زمانك إني قد مضـــى زمـــني
أبلغ خليفتنـــا إن كنـــت لاقيـــه ::: أني لدى الباب كالمصفود في قـــرن
لا تنس حاجتنـــا لقيـــت مغفـــرةً ::: قد طال مكثي عن أهلي وعن وطني

قال: فدخل عدي على عمر، فقال: يا أمير المؤمنين! الشعراء ببابك وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة، قال: ويحك يا عدي! ما لي وللشعر، قال: أعز الله أمير المؤمنين، إن رسول الله ﷺ قد امتدح فأعطى، ولك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فقال: كيف؟ قال: امتدحه العباس بن مرداس السلمي فأعطاه حلة قطع بها لسانه، قال: أو تروي من قوله شيئاً؟ قال: نعم، وأنشد:

رأيتك يـــا خـــير البريـــة كلـــها ::: نشرت كتابًا جاء بـــالحق معلمـــا
شرعت لنا دين الهدى بعد جورنـــا ::: عن الحق لما أصبح الحـــق مظلمـــا
ونورت بالبرهـــان أمـــراً مدنســـاً ::: وأطفأت بالبرهان نـــاراً تضـــرما
فمن مبلـــغ عـــني الـــنبي محمـــداً ::: وكل امرئ يجزى بما كـــان قـــدما
أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجـــه ::: وكان قـــديماً ركنـــه قـــد هـــدما
تعالى علواً فـــوق عـــرش إلهنـــا ::: وكان مكان الله أعلـــى وأعظمـــا

قال ويحك يا عدي! من بالباب منهم؟ قال: عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة، قال: أليس هو الذي يقول:

ثم نبهتـــــها فهبـــــت كعابـــــاً ::: طفلة مـــا تـــبين رجـــع الكـــلامِ
ســـــاعة ثم إنهـــــا بعـــــد قالـــــت ::: ويلتا قد عجلت يا ابـــن الكـــرامِ
أعلى غير موعدٍ جئـــت تســـري ::: تتخطـــــى إلى روس النيـــــــامِ
ما تجشمت ما يزين مـــن الأمـــــ ::: ـرِ ولا جئـــت طارقـــاً لخصـــامِ

فلو كان عدو الله إذ فجر كتم نفسه، لا يدخل علي والله أبداً، فمن بالباب سواه؟ قال: همام بن غالب، يعني الفرزدق، قال: أوليس هو الذي يقول:

هما دلتـــاني مـــن ثمـــانين قامـــةً ::: كما انقض بازٍ أقتم الريش كاسرُهُ
فلما استوت رجلاي بالأرض قالتا ::: أحـــي يرجـــى أم قتيـــل نحـــاذره

لا يطأ والله بساطي، فمن سواه بالباب منهم؟ قال: الأخطل، قال: أدي! هو

الذي يقول:

ولست بصائم رمضان طوعاً ::: ولسب بآكل لحم الأضاحي
ولست بزاجر عنساً بكور ::: إلى بطحاء مكة للنجاح
ولست بقائم كالعير يدعو ::: قبيل الصبح حي على الفلاح
ولكني سأشربها شمولاً ::: وأسجد عند منبلج الصباح

والله لا يدخل علي وهو وكافر أبداً، فهل بالباب سوى من ذكرت؟ قال: نعم الأحوص، قال: أليس هو الذي يقول:

الله بيني وبين سيدها ::: يفر مني بها وأتبعه

غرب عنه، فما هو بدون من ذكرت، فمن هاهنا أيضاً؟ قال: جميل بن معمر قال: يا عدي هو الذي يقول:

ألا ليتنا نحيا جميعاً وإن تمت ::: يوافق في موتي ضريحي ضريحها
فما أنا في طول الحياة براغب ::: إذا قيل قد سوي عليها صفيحها

فلو كان عدو الله تمنى لقائها في الدنيا ليعمل بعد ذلك صالحاً، والله لا يدخل علي أبداً، هل سوى من ذكرت أحد؟ قال: جرير بن عطية، قال: أما إنه الذي يقول:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ::: حين الزيارة فارجعي بسلامِ

فإن كان لا بد فهو، قال فأذن لجرير، فدخل وهو يقول:

إن الذي بعث النبي محمداً ::: جعل الخلافة في الإمام العادلِ
وسع الخلائق عدله ووفاؤه ::: حتى ارعوى وأقام ميل المائلِ
إني لأرجو منك خيراً عاجلاً ::: والنفس مولعة بحب العاجلِ

فلما مثل بين يديه قال: ويحك يا جرير، اتق الله ولا تقولن إلا حقاً، فأنشأ جرير يقول:

أأذكر الجهد والبلوى التي نزلت ::: أم قد كفاني ما بلغت من خبري
كم باليمامة من شعثاء أرملةٍ ::: ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر

ممن يعدّك تكفـــي فقـــد والـــده ::: كالفرخ في العش لم ينهض ولم يطر
يدعوك دعة ملـــهوفٍ كـــأن بـــه ::: خبلاً من الجن أو مساً من النشـــرِ
خليفـــة الله مـــاذا تـــأمرون بنـــا ::: لسنا إلـــيكم ولا في دار منتظـــر
ما زلت بعـــدك في هـــم يـــؤرقني ::: قد طال في الحي إصعادي ومنحدري
لا ينفع الحاضر المجهـــود بادينـــا ::: ولا يعود لنا بـــادٍ علـــى حضـــر
إنا لنرجو إذا ما الغيـــث أخلفنـــا ::: من الخليفة ما نرجو مـــن المطـــر
نال الخلافة إذ كانت لـــه قـــدراً ::: كما أتى ربه موسى علـــى قـــدر
هذي الأرامل قد قضيت حاجتـــها ::: فمن لحاجةٍ هذا الأرمـــل الـــذكر
الخير ما دمـــت حيـــاً لا يفارقنـــا ::: بوركت يا عمر الخيرات من عمرِ

فقال: يا جرير! ما أرى لك هاهنا حقاً، فقال: بلى يا أمير المؤمنين، أنا ابن سبيل ومنقطع بي، فأعطاه من صلب ماله مائة درهم، وقد ذكر أنه قال له: ويحك يا جرير! لقد ولينا هذا الأمر وما نملك إلا ثلثمائة درهم، فمائة أخذها عبد الله ومائة أخذتها أم عبد الله، يا غلام أعطه المائة الباقية، قال: فأخذها وقال: والله لهي أحب مما اكتسبته إلي، قال: ثم خرج فقال له الشعراء: ما وراءك؟ قال: ما يسوءكم، خرجت من عند أمير المؤمنين وهو يعطي الفقراء، ويمنع الشعراء، وإني لراض، وأنشأ يقول:

رأيت رقي الشـــيطان لا تســـتفزه ::: وقد كان شيطاني من الجن راقيـــا[١]

إنك قد ابتليت بهذا وابتلي بك:

عن رجاء بن حيوة، قال: كنت واقفًا على باب سليمان إذ أتاني آت لم أره قبل ولا بعد، فقال: يا رجاء، إنك قد ابتليت بهذا وابتلي بك، وفي قربه الوتغ [٢] فعليك بالمعروف وعون الضعيف، يا رجاء، من كانت له منزلة من سلطان، فرفع حاجة ضعيف لا يستطيع رفعها، لقي الله وقد شد قدميه للحساب بين يديه. واعلم يا رجاء أنه من كان في حاجة أخيه المسلم كان الله

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١ / ٢٤ - ٢٥.
(٢)) الوتغ: الهلاك.

في حاجته واعلم يا رجاء أن من أحب الأعمال إلى الله فرحًا أدخلته على مسلم ثم فقده فكان يرى أنه الخضر عليه السلام.

فأنا نكره أن نسمع الخير إلا من أهله:

وروى ضمرة، عن إبراهيم بن أبي عبلة، قال: كنا نجلس إلى عطاء الخراساني، فكان يدعو بعد الصبح بدعوات، فغاب فتكلم رجل من المؤذنين، فأنكر رجاء بن حيوة صوته، فقال: من هذا؟ قال: أنا يا أبا المقدام. قال: اسكت ؛ فإنا نكره أن نسمع الخير إلا من أهله.

احذروا صاحب الكساء:

قال صفوان بن صالح: حدثنا عبد الله بن كثير الدمشقي القارئ، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، قال: كنا مع رجاء بن حيوة، فتذاكرنا شكر النعم، فقال: ما أحد يقوم بشكر نعمة، وخلفنا رجل على رأسه كساء، فقال: ولا أمير المؤمنين؟ فقلنا: وما ذكر أمير المؤمنين هنا! وإنما هو رجل من الناس. قال: فغفلنا عنه، فالتفت رجاء فلم يره، فقال: أتيتم من صاحب الكساء، فإن دعيتم فاستحلفتم فاحلفوا. قال: فما شعرنا إلا بالخليفة ومعه الحرس قد أقبل ووقف على رجاء ومن معه فقال: هيه يا رجاء، يذكر أمير المؤمنين، فلا تحتج له؟! قال: فقلت: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: ذكرتم شكر النعم، فقلتم: ما أحد يقوم بشكر نعمة، قيل لكم: ولا أمير المؤمنين، فقلت: أمير المؤمنين رجل من الناس! فقلت: لم يكن ذلك. قال: آلله؟ قلت: آلله.

قال: فأمر بذلك الرجل الساعي، فضرب سبعين سوطًا، فخرجت وهو متلوث بدمه فقال: هذا وأنت رجاء بن حيوة. قلت: سبعين سوطًا في ظهرك خير من دم مؤمن. قال ابن جابر: فكان رجاء بن حيوة بعد ذلك إذا جلس في مجلس يقول ويتلفت: احذروا صاحب الكساء.

إن أولئك الذين تريد قد ذهبوا:

عن رجاء بن أبي سلمة قال قدم يزيد بن عبدالملك بيت المقدس فسأل رجاء

بن حيوة أن يصحبه فأبى واستعفاه فقال له عقبة بن وساج: إن الله ينفع بمكانك فقال: إن أولئك الذين تريد قد ذهبوا فقال له عقبة: إن هؤلاء القوم قل ما باعدهم رجل بعد مقاربةإلا ركبوه قال: إني أرجو أن يكفيهم الذي أدعهم له.

لأني نظرت للعامة ولم أنظر له:

عَن المعلى بْن روبة؛ قال: قالَ لي رجاء بْن حيوة: ولي الأمير اليوم عَبْد اللهِ بْن موهب القضاء، ولو اخترت بين أن أحمل إلى حفرتي وبين ما ولي ابن موهب لاخترت أن أحمل إلى حفرتي؛ فقلت له: فإن الناس يتحدثون أنك أنت أشرت به؛ قال:صدقوا لأني نظرت للعامة ولم أنظر له [(١)].

استخلاف عمر بن عبد العزيز:

عن عبد الرحمن بن حسان الكناني قال: لما مرض سليمان بدابق قال لرجاء بن حيوة: من لهذا الأمر بعدي، أستخلف ابني قال: ابنك غائب، قال: فابني الآخر، قال: صغير، قال: فمن ترى قال: أرى أن تستخلف عمر بن عبد العزيز، قال: أتخوف إخوتي لا يرضون، قال: فول عمر، ومن بعده يزيد ابن عبد الملك، وتكتب كتاباً وتختم عليه وتدعوهم إلى بيعته مختوماً، قال: لقد رأيت ائتني بقرطاس، فدعا بقرطاس، فكتب فيه العهد، ودفعه إلى رجاء، وقال: اخرج إلى الناس فليبايعوا على ما فيه مختوماً، فخرج، فقال: إن أمير المؤمنين يأمركم أن تبايعوا لمن في هذا الكتاب، قالوا: ومن فيه قال: هو مختوم لا تخبرون بمن فيه حتى يموت. قالوا: لا نبايع. فرجع إليه فأخبره، فقال: انطلق إلى صاحب الشرطة والحرس، فاجمع الناس ومرهم بالبيعة، فمن أبى فاضرب عنقه، قال: فبايعوه على ما فيه. قال رجاء بن حيوة: فبينا أنا راجع إذ سمعت جلبة موكب، فإذا هشام، فقال لي: يا رجاء قد علمت

---

(١) أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ خَلَفِ بْن حَيَّانَ بْن صَدَقَة الضَّبِّيّ البَغْدَادِيّ، أخبار القضاة، حققه وصححه و علق عليه و خرّج أحاديثه: عبد العزيز مصطفى المراغي، نشر المكتبة التجارية الكبرى، الطبعة الأولى عام ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م، ١ / ٢٤.

موقعك منا، وإن أمير المؤمنين صنع شيئاً ما أدري ما هو، وأنا أتخوف أن يكون قد أزالها عني، فإن يكن قد عدلها عني فأعلمني ما دام في الأمر نفس حتى ينظر، فقلت: سبحان الله، يستكتمني أمير المؤمنين أمراً أطلعك عليه، لا يكون ذا أبداً، قال: فأدارني ولاحاني، فأبيت عليه، فانصرف، فبينا أنا أسير إذ سمعت جلبة خلفي، فإذا عمر بن عبد العزيز وقال لي: يا رجاء إنه قد وقع في نفسي أمر كبير من هذا الرجل، أتخوف أن يكون قد جعلها إلي ولست أقوم بهذا الشأن، فأعلمني ما دام في الأمر نفس لعلي أتخلص منه ما دام حياً، قلت: سبحان الله يستكتمني أمير المؤمنين أمراً أطلعك عليه، قال: وثقل سليمان، فلما مات أجلسته مجلسه وأسندته وهيأته وخرجت إلى الناس، فقالوا: كيف أصبح أمير المؤمنين قلت: أصبح ساكناً، وقد أحب أن تسلموا عليه وتبايعوا بين يديه على ما في الكتاب، فدخلوا وأنا قائم عنده، فلما دنوا قلت: إنه يأمركم بالوقوف، ثم أخذت الكتاب من عنده وتقدمت إليهم وقلت: إن أمير المؤمنين يأمركم أن تبايعوا على ما في هذا الكتاب، فبايعوا وبسطوا أيديهم. فلما بايعتهم وفرغت قلت: آجركم الله في أمير المؤمنين، قالوا: فمن ففتحت الكتاب فإذا فيه العهد لعمر بن عبد العزيز، فتغيرت وجوه بني عبد الملك، فلما سمعوا: وبعده يزيد بن عبد الملك كأنهم تراجعوا فقالوا: أين عمر، فطلبوه فإذا هو في المسجد، فأتوه فسلموا عليه بالخلافة، فعقر به فلم يستطع النهوض حتى أخذوا بضبعيه، فدنوا به إلى المنبر وأصعدوه، فجلس طويلاً لا يتكلم، فقال رجاء: ألا تقومون إلى أمير المؤمنين فتبايعونه، فنهض القوم إليه فبايعوه رجلٌ رجلٌ ومد يده إليهم.

قال: فصعد إليه هشام بن عبد الملك، فلما مد يده إليه قال: يقول هشام إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون، حين صار يلي هذا الأمر أنا وأنت. ثم قام: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إني لست بفارض ولكني منفذ، ولست بمبتدع ولكني متبع، وإن من حولكم من الأمصار والمدن إن هم أطاعوا كما أطعتم فأنا واليكم، وإن هم أبوا فلست

لكم بوالٍ. ثم نزل فأتاه صاحب المراكب فقال: ما هذا؟ قال: مركب الخليفة. قال: لا حاجة لي فيه، ائتوني بدابتي، فأتوه بدابته فانطلق إلى منزله، ثم دعا بدواة فكتب بيده إلى عمال الأمصار. قال رجاء: كنت أظن أنه سيضعف، فلما رأيت صنعه في الكتاب علمت أنه سيقوى. وقال عمرو بن مهاجر: صلى عمر بن عبد العزيز المغرب، ثم صلى على جنازة سليمان بن عبد الملك [(1)].

لأطلبن بها شرف الآخرة:

وقال سعيد بن صفوان كان بين عبد الملك بن أرطأة ورجاء بن حيوة الكندي وبين عمر بن عبد العزيز صداقة وصحبة في نسكهم وعبادتهم وكان رجاء بن حيوة من أهل الأردن وكان من أعبد أهل زمانه وكان مرضيًا حكيمًا ذا أناة ووقار وكانت الخلفاء تعرفه بفضله فيتخذونه وزيرًا ومستشارًا وقيمًا على عمالهم وأولادهم وكانت له من الخاصة والمنزلة عند سليمان بن عبد الملك ما ليس لأحد يثق به ويستريح إليه قال: وولى سليمان عمر على المدينة وكانت لعمر بن عبد العزيز عند سليمان منزلة وناحية وخاصة دون بني مروان فأراد سليمان أن يعلم علم عمر وحاله التي هو عليها فبعث إليه رجاء ابن حيوة ليأتي بخبره وطريقته وحاله في سيرته وطعمته للذي كان يحدث به بنفسه فقدم رجاء بن حيوة على عمر بن عبد العزيز فلم يأل عن إلطافه وإكرامه وتقريبه وأقام عنده أيامًا فكان كلما أصبح دخل على عمر بعد صلاة الصبح فيتحدثان لا يدخل عليهما أحد حتى يخرج رجاء من عنده قال: فبينما رجاء ذات يوم عنده وقد رأي رؤيا فأصبح وقد حفظها قال: فجعل يحدث نفسه وعمر يحدثه فأنكره عمر فقال: يا أبا المقدام إني لأنكر بعض حالك اليوم فما شأنك قال: إن الذي ترى وإنكارك إياي لرؤيا رأيتها الليلة فأنا أعجب وأحدث بها نفسي فقال عمر: اقصصها رحمك الله فقال: نعم وإن لك فيها نصيبًا رأيت الليلة كأن أبواب السماء فتحت فبينا أنا أرمقها إذ أقبل ملكان يهويان معهما سرير لم أر مثله حسنا حتى وضعاه بالمدينة ثم

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، ٧ / ١٩٠ - ١٩٢.

صعدا وأنا أنظر إليهما حتى دخلا أبواب السماء فلبثا مليًا ثم أقبلا ومعهما ثياب بيض لم أر مثلها وشممت عبق مسك لم أشم مثله قط فمهداها على ذلك السرير فدنوت منهما فقلت: ما هذه الثياب؟ قالا: هذا السندس والإستبرق الذي ذكر في القرآن ثم صعدا فلبثا مليًا ثم أقبلا معهما برجل أدعج العينين ذي وفرة شديد سواد الشعر بعيد ما بين المنكبين مربوع الجسم عليه هيبة ووقار حتى أقعداه على ذلك السرير من فوق تلك الفرش فدنوت منها فقلت: من هذا الرجل فقالا: هذا محمد ﷺ قال: فهبته هيبة شديدة وتأخرت ناكصًا على عقبي حتى كنت منه بمكان منظر ومسمع فبينا أنا كذلك إذ أتي برجل قد نهزه القتير ضرب الجسم حسن اللحم مشدودة يداه على عنقه حتى وقف بين يديه فأقبل رسول الله ﷺ يثني عليه فيما كان من فعاله في الإسلام ويقول: أنت صاحبي في الغار وأنت أبو بكر الصديق والأمر ههنا إلى غيري ولست أملك لك من الله شيئا فلم يزل قائما: بين يديه ثم أمر به فأطلق عنه وأجلس عند رأس السرير على الأرض ثم أتي برجل حسن اللحم نهزه القتير مجموعة يداه إلى عنقه حتى وقف بين يديه فأقبل رسول الله ﷺ يثني عليه بفعاله في الإسلام ويقول أما إنك الفاروق الذي أعز الله عز وجل به الدين وأنت صاحب اليهودي والأمر ههنا إلى غيري ولست أملك لك من الله شيئا فلم يزل قائمًا بين يديه مليًا ثم أطلق عنه وأجلس مع أبي بكر فما زال كذلك يؤتى بخليفة خليفة حتى أفضى الأمر إليك فلما سمع عمر ذلك منه ارتاع فاستوى جالسًا ثم قال: يا أبا المقدام فماذا صنع بي؟ قال: أتي بك مجموعة يداك إلى عنقك ثم وقفت بين يديه طويلاً ثم أمر بك فأطلق الغل ثم أجلست مع أبي بكر وعمر بن الخطاب فاشتد عجب عمر بن عبد العزيز لرؤيا رجاء بن حيوة ثم قال: يا أبا المقدام والله لولا ما أثق به من صحبتك وورعك وجدك واجتهادك ووفائك وصدقك لأنبأتك أني لا ألي شيئًا من أمر الخلافة أبدًا ولكني قد سمعت كلامك ورؤياك وما أخلق بي سوف أبتلى بأمر هذه الأمة فوالله لئن ابتليت بذلك وإنها شرف الدنيا لأطلبن بها شرف الآخرة.

وجوهاً كراماً ليست بوجوه إنس ولا جان:

قال رجاء بن حيوة: دخلت على عمر حين احتضر، فقال: يا رجاء إني أرى وجوهاً كراماً ليست بوجوه إنس ولا جان، وهو يقلب طرفه يميناً ويصعده ويحدره، ثم رفع يديه فقال: اللهم ربي، أمرتني فقصرت، ونهيتني فعصيت، فإن عفوت فقد مننت، وإن عذبت فما ظلمت، إلا أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك المصطفى، ورسولك المرتضى، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، فعليه السلام والرحمة. ثم قضى رحمه الله (١).

ما أحبَّ الله من عفوك عنه:

طلب عبد الملك بن مروان رجلاً فأعجزه ثم ظفر به، فقال رجاء بن حيوة: ياأمير المؤمنين! قد صنع الله ما أحببت من ظفرك به، فاصنع ماأحبَّ الله من عفوك عنه (٢).

مري السبع فليواسين الثامنة:

قال رجاء بن حيوة: رأيت امرأة تسأل عن دار عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فأرشدناها إلى الدار فرأت داراً متهشمة فقالت لخياط هناك: استأذن لي على فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز. فقال: ادخلي وصوتي لها فإنها تأذن لك. فدخلت فلما أبصرت ما هنالك قالت: جئت أرم فقري من بيت الفقراء وإذا رجل يعمل في الطين وهناك امرأة فسألتها عن أمير المؤمنين فقالت: هو ذاك يعمل في الطين. فقالت له: يا أمير المؤمنين، مات زوجي وترك لي ثماني بنات! فبكى عمر بكاء شديداً ثم قال لها: ما تريدين؟ قالت: تفرض لهن. فقال: نفرض للكبرى ما اسمها؟ قالت: فلانة. فكتبها فقالت: الحمد لله. قال: وما اسم الثانية؟ قالت: فلانة. فكتبها فقالت: الحمد لله حتى كتب السابعة، فقالت: جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين! فطرح القلم من يده وقال

(١) الزمخشري، ربيع الأبرار، ١ / ٤٣٨، ٤٦٩.
(٢) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ص ٨٠.

لها: لو أنك وليت الحمد أهله لأتممناهن لك مري السبع فليواسين الثامنة (١).

الخير سريع الذهاب:

وسأل عمر بن عبد العزيز رجاء بن حيوة عن حال رعيته مع العمال فقال: رأيت الظالم مقهوراً والمظلوم منصوراً والغني موفوراً والفقير مبروراً فقال: الحمد لله الذي وهب لي من العدل ما تطمئن إليه قلوب رعيتي وتعرض له متظلم في بعض الطرق فوقف له وأزال شكايته فقيل له: هلا صرت حتى يستقر بك المنزل؟ فقال: الخير سريع الذهاب وخشيت أن أفوته بنفسي وإنما هي فرصة قدمت فيها العزم واستصحبت الحزم (٢).

أفضها يا أمير المؤمنين:

وقال سليمان عند موت ابن له لعمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة: إي لأجد في كبدي جمرة لا يطفئها إلا عبرة، فقال: عمرك اذكر الله يا أمير المؤمنين وعليك بالصبر. فنظر إلى رجاء بن حيوة كالمستريح إلى مشورته فقال رجاء: أفضها يا أمير المؤمنين فما بذاك من بأس، فقد دمعت عينا رسول الله ﷺ على ابنه إبراهيم وقال: العين تدمع، والقلب يوجع، ولا نقول ما يسخط الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون. فأرسل سليمان عينه فبكى حتى قضى أرباً ثم أقبل عليهما وقال: لو لم أنزف هذه العبرة لا تصدعت كبدي، ثم لم يبك بعدها (٣).

السخي لا تؤدبه التجارب:

عن محمد بن إدريس الشافعي أن رجاء بن حيوة عاتب ابن شهاب في الإسراف وكان يدان فقال: لا آمن أن يحبس هؤلاء القوم أيديهم عنك فتكون قد حملت على أمانيك؛ قال: فوعده أن يقتصد، فمر به بعد ذلك وقد وضع الطعام ونصب موائد العسل فوقف به رجاء فقال: يا أبا بكر هذا الذي افترقنا

(١) الطرطوشي، سراج الملوك، ١ / ١١٠.
(٢) الوطواط، غرر الخصائص الواضحة، ص ١٨.
(٣) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ١ / ٤٨٨.

عليه؟! فقال له ابن شهاب: انزل فإن السخي لا تؤدبه التجارب[١].

من كلامه رحمه الله:

ويروى عن رجاء بن حيوة، قال: من لم يؤاخ إلا من لا عيب فيه قل صديقه، ومن لم يرض من صديقه إلا بالإخلاص له دام سخطه، ومن عاتب إخوانه على كل ذنب كثر عدوه.

عن عبد الرحمن بن عبدالله أن رجاء بن حيوة الكندي قال لعدي ابن عدي ولمعن بن المنذر يومًا وهو يعظهما انظرا الأمر الذي تحبان أن تلقيا الله عليه فخذا فيه الساعة وانظرا الأمر الذي تكرهان أن تلقيا الله عليه فدعاه الساعة

عن رجاء قال: الحلم أرفع من العقل لأن الله تسمى به

عن رجاء بن حيوة قال: ما أكثر عبد ذكر الموت إلا ترك الحسد والفرح

عن رجاء بن حيوة قال: ما أحسن الإسلام يزينه الإيمان

عن رجاء بن حيوة قال: يقال ما أحسن الإسلام يزينه الإيمان وما أحسن الإيمان يزينه التقى وما أحسن التقى يزينه العلم وما أحسن العلم يزينه الحلم وما أحسن الحلم يزينه الرفق.

قال رجاء بن حيوة: إذا تزوج العبد صرخ إبليس صرخة يجمع إليه جنوده، فيقولون: ما بك يا سيدنا؟ فيقول: عصم اليوم ابن آدم من فخ كنت أصيده به [٢].

* * *

(١) بلوغ الأرب بتقريب كتاب الشعب، ٢ / ٢٢١.

(٢) الزمخشري، ربيع الأبرار، ١ / ٤٣٨، ٤٦٩.

الفقيه مكحول الشامي

الفقيه مكحول الشامي

أعـلام الفقهـاء

الفقيه مكحول الشامي

في إحدى قري مدينة كابل بأفغانستان ولد الفقيه الزاهد التابعي الجليل أبو عبد الله مكحول بن عبد الله الشامي، ولم يطل به المقام في تلك البلد وأراد الله به خيرًا فوقع في سبي المسلمين الفاتحين بقيادة القائد سعيد بن العاص في أثناء فتح بلاد السند، ثم وهب هذا الطفل لامرأة من هذيل فأعتقته، فأقبل على تعلم الفقه والحديث، ونبغ فيهما، وسمع الحديث والفقه من أنس بن مالك وواثلة بن الأسقع وأبا هند الداري وغيرهم، وكان مقامه بدمشق. وأسند عن جلة كبيرة من الصحابة وكبار التابعين منهم أنس ابن مالك وواثلة بن الأسقع وأبو أمامة الباهلي وأبو هند الداري وروى عن أبي ثعلبة الخشني وحذيفة بن اليمان وعبدالله بن عمربن الخطاب وعبدالله بن عمرو بن العاص وأبي أيوب الأنصاري وأبي الدرداء وشداد بن أوس وأبي هريرة في آخرين (١).

وكان عالمًا بالفقه ولم يكن في زمنه أبصر منه بالفتيا، وكان لا يفتي حتى يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، هذا رأي والرأي يخطئ ويصيب.

وكان في لسانه عجمة ظاهرة، ويبدل بعض الحروف بغيره.

وقد أثنى عليه كثير من العلماء والفقهاء فقال الزهري: العلماء أربعة، سعيد بن المسيب بالمدينة، والشعبي بالكوفة، والحسن البصري بالبصرة، ومكحول بالشام (٢).

(١) ترجمته في طبقات ابن سعد ٧ ٤٥٣ والمعارف: ٤٥٢ وطبقات الشيرازي: ٧٥ وحلية الأولياء ٥: ١٧٧ والجرح والتعديل ٤/١: ٤٠٧ وتذكرة الحفاظ: ١٠٧ وميزان الاعتدال ٤: ١٧٧ وتهذيب التهذيب ١٠: ٢٨٩ وحسن المحاضرة ١: ١١٩ والشذرات ١: ١٤٦.
(٢) وفيات الأعيان، ٥ / ٢٨٢.

مواقف من حياته رحمه الله:

خير من البقاء مع من لا يؤمن شره:

حدث عبد ربه بن صالح قال: دخل على مكحول في مرضه الذي مات فيه فقيل له: أحسن الله عافيتك أبا عبد الله فقال: ألا لحاق بمن يرجى عفوه خير من البقاء مع من لا يؤمن شره شياطين الإنس وإبليس وجنوده.

ومن لا يحب الجنة!:

عن ابن ثوبان أنه سمع أبا عبد ربه يقول لمكحول: يا أبا عبدالله أتحب الجنة؟ قال: ومن لا يحب الجنة! قال: فأحب الموت فإنك لن ترى الجنة حتى تموت.

فاطلب بما بطن من علم الإسلام محبة وزلفى:

عن سفيان قال: كتب ابن منبه إلى مكحول إنك امرؤ قد أصبت بما ظهر من علم الإسلام شرفًا فاطلب بما بطن من علم الإسلام محبة وزلفى.

أتراك مرابطًا العام؟!:

عن مكحول أنه عاد حكيم بن حزام بن حكيم فقال: أتراك مرابطا العام؟ قال: كيف تسألني عن هذا وأنا على ذي الحال؟! قال: وما عليك أن تنوي ذاك فإن شفاك الله مضيت لوجهك وإن حال بينك وبينه أجل كتب لك نيتك.

الوضوء بركة:

عن بركة الأزدي قال: وضأت محكولاً فأتيته بالمنديل فأبى أن يمسح به وجهه ومسح وجهه بطرف ثوبه فقال: الوضوء بركة وأنا أحب أن لا تعدو ثوبي.

عمن أخذت هذا؟!:

عن مكحول قال: اجتمعت أنا والزهري فتذاكرنا التيمم فقال الزهري: المسح إلى الآباط فقلت: عن من أخذت هذا؟ قال: عن كتاب الله إن الله تعالى يقول:{فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ } [المائدة: ٦] فهي يد كلها. قلت: فإن

الله تعالى يقول:{ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا } [المائدة: ٣٨]، فمن أين تقطع اليد؟ قال: فخصمته.

الآن نعظ ويسمع منا:

عن مكحول قال: أتاه رجل فقال: يا أبا عبدالله قوله عز وجل:{عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ } [المائدة: ١٠٥]، قال: يا ابن أخي لم يأت تأويل هذه بعد إذا هاب الواعظ وأنكر الموعوظ فعليك حينئذ نفسك لا يضرك من ضل إذا اهتديت يا أخي الآن نعظ ويسمع منا.

هذا إبليس يرجو رحمة الله:

عن مكحول قال: بينا امرأة من الحي يقال لها الفارعة بنت المستورد قائمة تتعبد إذا هي بإبليس ساجدًا على صفاة تسيل دموعه على خديه كسريح الجنين فقالت له: يا إبليس ما يغني عنك طول السجود فقال: أيتها المرأة الصالحة بنت الشيخ الصالح أرجو إذا أبر بي قسمه أن يخرجني من النار قال أبو عمر الدروي: هذا إبليس يرجو رحمة الله فكيف نحن عبيد الله.

فحرمت البكاء سنة:

قال مكحول: رأيت رجلاً يصلي وكلما ركع وسجد بكى فاتهمته أنه يرائي ببكائه فحرمت البكاء سنة.

يتعلم التواضع:

عن ابن جابر قال: أقبل يزيد بن عبدالملك بن مروان إلى مكحول وأصحابه فلما رأيناه هممنا بالتوسعة له فقال مكحول: مكانكم دعوه يجلس حيث أدرك يتعلم التواضع.

قال سعيد بن عبد العزيز: كنت جالسًا عند مكحول فاستطال عليه رجل فقال مكحول ذل من لا سفيه له.

انصحنا رحمكَ الله:

قدمَ عطاءٌ الخراسانيٌّ على الخليفة الأموي هشامٍ بن عبد الملك فنزلَ على مكحولٍ فقالَ لمكحولٍ: هاهنا أحدٌ ينصحنا؟ قال: نعم، يزيدُ بنُ ميسرةَ، فأتَوهُ فقال عطاءٌ: انصحنا رحمَكَ الله؛ قالَ: نعمْ، كانتِ العلماءُ إذا عَلِموا عمِلوا، فإذا عملوا شُغِلوا، فإذا شُغِلوا فُقِدوا، فإذا فُقِدوا طُلِبوا، فإذا طُلبوا هَرَبوا؛ قال: أعدْ عليَّ، فأعادَ عليهِ فرجعَ عطاءٌ ولم يلقَ هشاماً.

لو أن سليمان بن داود عندي:

عن مكحول قال: بينا سليمان بن داود على بساط من شعر وأصحابه حوله إذ أمر الريح فاستقلته وسارت الجن والإنس أمامه والطير تظله إذا حراث يحرث على جانب الطريق قال: فقال الحراث: لو أن سليمان بن داود عندي كلمته بثلاث كلمات فأوحى الله تعالى إلى سليمان بن داود أن ائت الحراث قال: فركب على فرس له حتى أتاه قال: يا حراث أنا سليمان فقل ما أردت أن تقول قال: وما علمك أني أردت أن أقول قال: الله أعلمني قال: أشهد له بذلك قال والله إلا أني رأيتك فيما أنت فيه فقلت: والله ما سليمان في لذة لذها أمس ولا في نعيم نعمه وأنا في تعب تعبته أمس وفي نصب نصبته إلا سواء لا سليمان يجد لذة ما مضى ولا أنا أجد تعب ما مضى قال: وأخرى قلتها قال: وما هي؟ قلت: سليمان يموت وأنا أموت قال: صدقت قال: قلت يا سليمان لكني قلت كلمة طيبت بها نفسي قلت: سليمان يسأل غدًا عما أعطي وأنا لا أسأل قال: فخر سليمان ساجدًا على فرسه يبكي وهو يقول: يا رب لولا أنك جواد لا تبخل لسألتك أن تنزع مني ما أعطيتني قال: فأوحى الله تعالى إليه يا سليمان ارفع رأسك فإني لم أنعم على عبد لي نعمة فتكون تلك النعمة رضا فأحاسبه عليها (١).

(١) حلية الأولياء، ٥ / ١٨٤ - ١٨٨.

من كلامه رحمه الله:

عن مكحول قال: من لم ينفعه علمه ضره جهله. اقرأ القرآن ما نهاك فإذا لم ينهك فلست تقرأه.

عن مكحول قال: لا يؤخذ العلم إلا عن من شهد له بالطلب.

عن مكحول قال: لأن تضرب عنقي أحب إلي من أن ألى القضاء ولأن ألى القضاء أحب إلى من بيت المال.

عن مكحول قال: أرق الناس قلوبًا أقلهم ذنوبًا.

قال مكحول:من أحب رجلاً صالحًا فإنما أحب الله ومن ذهب إلى علم يتعلمه فهو في طريق الجنة حتى يرجع.

عن مكحول قال: من أحيى ليلة في ذكر الله أصبح كيوم ولدته أمه.

عن مكحول قال: من قال استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفرت له ذنوبه ولو كان فارًا من الزحف.

عن مكحول قال عينان لا يمسهما العذاب عين بكت من خشية الله وعين باتت من وراء المسلمين.

عن مكحول قال: المؤمنون هينون لينون مثل الجمل الأنف إن قدته انقاد وإن أنخته على صخرة استناخ.

عن مكحول قال: إن كان الفضل في الجماعة فإن السلامة في العزلة.

قال مكحول: يقول لا يأتي على الناس ما يوعدون حتى يكون عالمهم فيهم أنتن من جيفة حمار.

عن مكحول قال: أفضل العبادة بعد الفرائض الجوع والظمأ قال بكر: وكان يقال الجائع الظمآن أفهم للموعظة وقلبه إلى الرقة أسرع وكان يقال كثرة الطعام تدفع كثيرًا من الخير.

عن مكحول قال: التقيا يحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم عليهما السلام

فضحك عيسى في وجه يحيى وصافحه فقال له يحيى: يا ابن خالتي مالي أراك ضاحكًا كأنك قد أمنت فقال له عيسى: يا ابن خالتي مالي أراك عابسًا كأنك قد يئست فأوحى الله عز وجل إليهما عليهما السلام إن أحبكما إلي أبشكما بصاحبه.

عن مكحول قال أربع من كن فيه كن له وثلاث من كن فيه كن عليه فأما الأربع اللاتي له فالشكر والإيمان والدعاء والاستغفار قال الله تعالى:{مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ} [النساء: ١٤٧] وقال:{وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الأنفال: ٣٣] وقال:{مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ} [الفرقان: ٧٧] وأما الثلاث اللاتي عليه فالمكر والبغي والنكث قال الله تعالى:{فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ} [الفتح: ١٠] وقال:{وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ} [فاطر: ٤٣] وقال:{إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم} [يونس: ٢٣].

عن مكحول في قوله تعالى:{وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} [الأحزاب: ٥] قال: وضع عنهم الإثم في الخطأ ووضع المغفرة على العمد.

عن مكحول قال:كان من دعاء داود عليه السلام: " يا رازق الغراب في عشه " وذلك أن الغراب إذا فقس عن فراخه فقس عنها بيضاء فإذا رآها كذلك نفر عنها فتفتح أفواهها فيرسل الله عليها ذبابًا يدخل أفواهها فيكون ذلك غذاء لها حتى تسود فإذا أسودت انقطع الذباب عنها فعاد الغراب إليها فغذاها.

عن مكحول قال: إذا كان في أمة خمسة عشر رجلاً يستغفرون الله كل يوم خمسًا وعشرين مرة لم يؤاخذ الله تلك الأمة بعذاب العامة.

عن مكحول في قوله تعالى:{لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾} [الانشقاق: ١٩] قال تكونون في كل عشرين سنة على حال لم تكونوا على مثلها.

عن مكحول قال: من طابت ريحه زاد في عقله ومن نظف ثوبه قل همه.

عن مكح ول قال: لا تعاهدوا السفيه ولا المنافق فما نقضوا من عهد الله

أكبر من عهدكم.

قال مكحول: بر الوالدين كفارة للكبائر ولا يزال الرجل قادرًا على البر ما دام في فصيلته من هو أكبر منه (١).

أن الرجل يعمل في السر، فيطلبه الشيطان حتى يتحدث به، فيمحى من السر ويكتب في العلانية، ثم يطلبه الشيطان حتى يرائي به، فيمحى ويكتب عليه.

من ستر مخزاة على المؤمن ستره الله يوم القيامة.

كان مكحول إذا رأى جنازة قال: اغدوا فإنا رائحون.

من أوى إلى فراشه ثم لم يتفكر فيما صنع في يومه، فإن عمل خيراً حمد الله، وإن أذنب استغفر الله، كان كالتاجر الذي ينفق ولا يحسب حتى يفلس ولا يشعر (٢).

روي عن مكحول أنه قال: من زار بيت المقدس شوقًا إليه، دخل الجنة وزاره جميع الأنبياء في الجنة وغبطوه بمنزلته من الله تعالى؛ وأيما رفقة خرجوا يريدون بيت المقدس، شيعهم آلاف من الملائكة: يستغفرون لهم ويصلون عليهم، ولهم مثل أعمالهم إذا انتهوا إلى بيت المقدس، ولهم بكل يرم يقيمون فيه صلاة سبعين ملكًا؛ ومن دخل بيت المقدس طاهرًا من الكبائر، تلقاه الله بمائة رحمة إلا ولو قسمت على جميع الخلائق لوسعتهم؛ ومن صلى في بيت المقدس ركعتين يقرأ فيهما بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وكان له بكل شعرة على جسده حسنة؛ ومن صلى في بيت المقدس أربع ركعات، مر على الصراط كالبرق وأعطى أمانًا من الفزع الأكبر يوم القيامة؛ ومن صلى في بيت المقدس ست ركعات، أعطى مائة دعوة مستجابة، أدناها براءة من النار،

(١) حلية الأولياء، ٥ / ١٨٤ - ١٨٨.
(٢) الزمخشري، ربيع الأبرار، ص ٦٢، ١٢١، ١٥٦، ٤٣٢، ٤٧٦،

وجبت له الجنة؛ ومن صلى في بيت المقدس ثمان ركعات، كان رفيق إبراهيم خليل الرحمن؛ ومن صلى في بيت المقدس عشر ركعات، كان رفيق داود وسليمان في الجنة؛ ومن استغفر للمؤمنين والمؤمنات في بيت المقدس ثلاث مرات، كان له مثل حسناتهم، ودخل على كل مؤمن ومؤمنة من دعائه سبعون مغفرة، وغفر له ذنوبه كلها.

- عن مكحولٍ رضي الله عنه أنه كان يدعو في الضالة: اللهم هادي وراد الضوال اردد علي ضالتي ولا تعنني بطلبها ولا تفجعني بمصيبتها فإنها من رزقك وعطائك.

وكان يقول في الآبق: اللهم ضيق عليه البلاد واجعله في أضيق من ضرورة الحمل حتى ترده (١).

قال مكحول: يهب على أهل النار ريح كريهة فيقولون يا ربنا ما وجدنا ريحا أنتن من هذا فيقال لهم هذا ريح الزناة.

قال مكحول: ذكر الله تعالى شفاء، وذكر الناس داء.

قال مكحول التابعي رضي الله عنه: إذا تصدق المؤمن استأذنت جهنم أن تسجد له شكرا على خلاص واحد منها من أمة محمد ﷺ من عذابها وقال ﷺ :﴿اتقوا النار ولو بشق تمرة﴾ (٢).

قال مكحول: ما أخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه.

قال مكحول: أرق الناس قلوباً أقلهم ذنوباً.

قال مكحول: مَن نظف ثوبه قلَّ همُّه، ومن طابت ريحه زاد عقله، ومن

(١) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٣٠٧/١، ٣٠٧/٥.
(٢) عبد الرحمن بن عبد السلام بن عبد الرحمن بن عثمان الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، تحقيق عبد الرحيم مارديني، نشر دار المحبة - دار آية - بيروت - دمشق - ٢٠٠١ / ٢٠٠٢، ١١٢/١، ٢٤٣/٢، ٢٥٣.

جمع بينهما زادت مروءته.

قال مكحول: تفقه الرعاع فساد الدين، وتفقه السفلة فساد الدنيا.

قال مكحول: من مات وعنده مغنية لم يُصَلَّ عليه.

قال مكحول: قلت للحسن: إني أريد الخروج إلى مكة، قال: إياك أن تصحب رجلاً يكرم عليك، فيفسد الذي بينك وبينه.

عن مكحول قال: إذا دعتك أمك وأنت في الصلاة فأجب.

عن مكحول أنه كان يقول: إياك ورفيق السوء فإن الشر للشر خلق.

* * *

محمد بن الحسن الشيباني رحمة الله عليه

محمد بن الحسن
الشيباني

أعلام الفقهاء

محمد بن الحسن الشيباني رحمة الله عليه

ولد في الشام ونشأ وتفقه في الكوفة، لم يكن سبب شهرته درايته بالفقه فقط ولكن زاد عليها التفنن في دروب اللغة العربية، وأهَّله علمه بالحديث والفقه وتفرده بعلوم اللغة العربية لتولي القضاء للخليفة العباسي هارون الرشيد ونال لدية الحظوة والمكانة الكبرى. ويوم وفاته رثاه الخليفة هارون الرشيد بقوله: " اليوم مات الفقه واللغة ".

إنه الفقيه اللغوي القاضي أبو عبد الله " الشيباني من قرية تسمى حرستي من أعمال دمشق قدم أبوه العراق فولد محمد بواسط سنة اثنتين وثلاثين ومائة ونشأ بالكوفة وسمع العلم من الإمام الأعظم أبي حنيفة والأوزاعي والإمام مالك والثوري ومسعر بن كدام وروى عنه الإمام الشافعي وغيره من العلماء الكرام والمشايخ العظام. ولعله اشتهر أيضاً بطول ملازمته للإمام مالك وأخذ الحديث عنه.

ولاه الرشيد القضاء حين خرج معه إلى خراسان ومات بالري سنة تسع وثمانين ومائة وهو ابن ثمان وخمسين سنة ومات الكسائى بعده بيومين. وحكي أنهما ماتا في يوم واحد فقال الرشيد: " دفن الفقه واللغة في الري ". وتشاءم به. وقيل في مرثيتهما.

تصرمت الدنيا فليس خلود ::: لما قد نرى من بهجة ستبيد
ألم تر شبابنا إذا ما ابتلوا البلى ::: وأن الشباب الغض ليس يعود
سيأتيك ما أفنى القرون التي مضت ::: فكن مستعدا للقاء عتيد
أسبلت على قاضي القضاة محمد ::: وأذريت دمعي والفواد عميد
وأوجعني موت الكسائي بعده ::: وكادت بي الأرض الفضاء تميد

" وذكر " السمعاني عن هشام بن عبد الله الذي توفي الإمام في بيته أنه لما حضرته الوفاة بكى فقيل في ذلك فقال: إذا أوقفني الله تعالى بين يديه وقال: يا محمد ما أقدمك على الري أمجاهد في سبيلي أم ابتغاء مرضاتي ما أقول؟.

وقد أثني عليه العلماء والأئمة والفقهاء فعن الشافعي قال: جالسته عشر سنين وحملت من كلامه حملي جمل لو كان يكلمنا على قدر عقله ما فهمنا كلامه لكن كان يكلمنا على قدر عقولنا.

قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: سمعت الشافعي يقول: قال لي محمد بن الحسن: (أقمت على مالك ثلاث سنين، وسمعت من لفظه سبعمئة حديث). قال ابن حجر: (وكان مالك لا يحدث من لفظه إلا نادراً). أقول: إنما كان مالك في يطلب من أحد تلامذته أن يقرأ عليه. فهذا النص يدل على شدة ملازمة محمد بن الحسن لمالك.

و قال الشافعي: (ما رأيت سميناً أخف روحاً من محمد بن الحسن، وما رأيت أفصح منه. كنت إذا رأيته يقرأ، كأن القرآن نزل بلغته. حمل جمل من العلم).

وقال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي يقول: (حملت عن محمد وقر بعير كتباً). وقال الشافعي: (لو أشاء أن أقول أن القرآن نزل بلغة محمد بن الحسن، لقلته، لفصاحته). وقال الشافعي: (ما رأيت أعقل من محمد بن الحسن). وقال الشافعي: (ما ناظرت أحداً إلا تَمَعَّرَ وجهه، ما خلا محمد بن الحسن). وهذا يدل على قوته في المناظرة.

قال الشافعي: لو أنصف الناس الفقهاء لعلموا أنهم لم يروا مثل محمد بن الحسن ما جالست فقيهًا قط أفقه منه ولا فتق لساني بالفقه مثله لقد كان يحسن من الفقه وأسبابه شيئًا يعجز عنه الأكابر..

قال أبو عبيد: (ما رأيت أعلم بكتاب الله من محمد بن الحسن).

قال المعلمي في " التنكيل ": (ومن تدبّر مناظرات الشافعي لمحمد، وجدها مناظرة الأكفاء، وعلم منها أن الشافعي كان حينئذ مجتهداً كاملاً، وأن محمداً كان - مع مكانته من الفقه والسن والمنزلة من الدولة وكثرة الأتباع - على غاية من الإنصاف في البحث والنظر. والإنصاف: أنه كان لتلك

المناظرات أثرٌ في الرجلين، فاتفقا على مسائل رجع فيها الشافعي عما كان يتابع فيه مالكاً، أو رجع محمد عما كان يتابع فيه أبا حنيفة).

والإمام الشافعي على كثرة ترحلاته ولقاءه بأهل العلم واللغة لم يلق أفصح من محمد بن الحسن، فأي منقبة وميزة بعد ذلك؟.

لقد كان الإمام محمد بن الحسن الشيباني من الأئمة المجتهدين والفقهاء الكبار ومن المحدثين.

وأثنى عليه شيخ الإسلام ابن تيمية، ووصفه بأنه أعلم أصحاب أبي حنيفة بالحديث.

ولقد كان يتبع الدليل ويعظمه، وقد خالف أبا حنيفة في ثُلثي مذهبه كما ذكر ذلك الإمام القاضي ابن أبي العز الحنفي شارح الطحاوية في كتابه القيم " الاتباع ".

وما يُحكى من أنه كان جهمياً فمعاذ الله أن يكون كذلك؛ كيف وقد ذكره الإمام الطحاوي في مقدمته للعقيدة الطحاوية.

كتب الشافعي إلى محمد بن الحسن وقد طلب منه كتبه لينسخها فأخرها عنه فكتب إليه:

قل لمن لم تر عين مـــن رآه مثلـــه ::: ومن كأن من رآه قد رأى من قبله
العلم ينهى أهله أن يمنعـــوه أهلـــه ::: لعلـــه يبذلـــه لأهلـــه لعلـــه

قال: فأنفذ الكتب إليه من وقته [(١)].

مواقف من حياته رحمه الله:

فلا تباع السنة:

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: كنا مع محمد بن الحسن إذ أقبل الرشيد فقام الناس كلهم إلا محمد بن الحسن فإنه لم يقم وكان الحسن بن زياد ثقيل

(١) أخبار أبي حنيفة، ١ / ١٢٥.

القلب على محمد بن الحسن فقام ودخل ودخل الناس من أصحاب الخليفة فأمهل الرشيد يسيرًا ثم خرج الأذن فقام محمد بن الحسن ودخل وجزع أصحابه فأمهل ثم خرج طيب النفس مسرورًا فقال: قال لي مالك لم تقم مع الناس قال: قلت كرهت أن أخرج عن الطبقة الذين جعلتني فيهم إنك أهلتني للعلم وكرهت أن أخرج منه إلى طبقة الخدمة التي هي خارجة منه وإن ابن عمك ﷺ قال: **﴿من أحب أن يتمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار﴾** وإنما أراد بذلك العلماء فمن قام بحق الخدمة وإعزاز الملك فهو هيبة للعدو ومن قعد فلا تباع السنة التي منكم أخذت وهو دين لكم قال: صدقت يا محمد ثم سارني[(١)].

والله ما أبالي وقعت على الموت أو وقع الموت علي:

بعث هارون الرشيد إلى محمد بن الحسن فأحضره مجلسه ثم بعث إلى الحسن بن زياد فأحضره وأحضر رجلاً من الطالبيين وأحضر كتاب أمان فدفعه إلى محمد بن الحسن فقرأه وقال: ما تقول فيه قال: هذا أمان صحيح ورفع صوته وقال: يا أمير المؤمنين هذا أمان صحيح ودم هذا الرجل الذي كتب له الكتاب حرام فأمر بالكتاب فأخذ من يده ودفع إلى الحسن بن زياد فأخذه فقرأه وقال بصوت ضعيف هذا أمان فغضب هارون ودخل أبو البختري وهب بن وهب القاضي فمد يده فأخذ الكتاب ولم يؤمر بذلك فقرأه ثم أخرج سكينًا من خفه فقطعه نصفين ثم رمى به وقال: هذا كتاب مفسوخ وليس بأمان بل هو أمان فاسد أقتل هذا الرجل ودمه في عنقي فأخذ هارون دواة كانت بين يديه فضرب بها وجه محمد بن الحسن فشجه قال ابن سماعة وكنت حاضرا فخرج وخرجت على إثره وهو يبكي فلما صار إلى منزله قلت: يا أبا عبد الله لم تبكي من شجة في سبيل الله؟ فقال: والله ما لها بكيت قال قلت: فأي تقصير كان منك قال: كان يجب علي أن أقول لأبي البختري من أين قلت؟ وأقيم عليه الحجة وأتكلم بالحق وإن قتلت ثم قال:

(١) أخبار أبي حنيفة، ١ / ١٢٦.

وأي حجة لقاض من قضاة المسلمين يكون في خفه سكين مثل هذه قال: وقال الطالبي يومئذ لهارون: يا هارون اتق الله تقول لفقيهي الأرض لما لم يريا في أمانك سفك الدماء وقالا لك دع هذه النسمة تموت بأجلها وتنعم عليها وتقبل قول رجل مشهور أنه ادعى نسبًا لم يقر أبوه الذي ادعاه به فأخرج أبو البختري يومئذ من نسبه الذي ادعاه ثم قال له: سل عنه مزبلي أهل المدينة الذين يزبلون في الحمامات حتى يخبروك بعلامات في ظهره يصفونها للناس ومثل هذا لا يجوز أن يقول غير هذا والله ما أبالي وقعت على الموت أو وقع الموت علي ولا أموت إلا بأجلي(١).

لا تسألوني حاجة من حوائج الدنيا:

يقول: قال محمد بن الحسن لأهله: لا تسألوني حاجة من حوائج الدنيا فتشغلوا قلبي خذوا ما تحتاجون إليه من وكيلي فإنه أقل لهمي وأفرغ لقلبي.

وإنما كان أبوه طبالا بالمدينة:

قال أبو حازم: لما أشخصني الرشيد ليقلدني القضاء بالشام وردت مدينة السلام فلقيت أبا يوسف وهو الذي سماني وأشار بي فقلت له: من حقي عليك ولزومي لك وتصييري لك أستاذًا وإمامًا أن تعفيني عن هذا الأمر فقال لي: أنا راكب معك إلى يحيى بن خالد فأكلمه فركب معي إلى يحيى بن خالد فلما دخلنا عليه زال له يحيى عن مصلاه فقعد معه عليه وقعدت بباب البيت فسمعته يقول له: هذا محمد بن الحسن ومن حاله كذا ومن حاله كيت وكيت يصفني وذكر امتناعي عليه فقال له يحيى: ما تقول فيه؟ قال: أقول إنكم إن أعفيتموه لم تجدوا مثله فلما سمع يحيى كلامه لم يلتفت إلى ما أقول وأمضى أمري فلما ورد الرشيد الرقة أحضرت فدخلت إليه أنا والحسن بن زياد اللؤلؤي وأبو البختري وهب بن وهب فأخرج إلينا الأمان الذي كتب ليحيى ابن عبد الله بن الحسن فدفع إلي فقرأته وقد علمت الأمر

(١) أخبار أبي حنيفة، ١ / ١٢٧.

الذي أحضرنا له فمثلت بين أن أظهر شيئًا إن كان يتعلق به فيه فأوجده السبيل إلى قتل الرجل أو أترك الطعن عليه مع ما أعلم أنه ينالني من موجدة الرشيد فآثرت أمر الله والدار الآخرة فقلت هذا أمان مؤكد لا حيلة في نقضه فانتزع الصك من يدي ودفع إلى اللؤلؤي فقرأه وقال كلمة ضعيفة لا أدري سمعت أو لم تسمع هذا أمان فانتزع من يده ودفع إلى أبي البختري فقرأه ثم قال ما أرجيه ولا أرضاه هذا رجل سوء قد شق العصا وسفك دماء المسلمين وفعل وفعل فلا أمان له ثم ضرب بيده إلى خفه وأنا أراه واستخرج سكينًا فشق الكتاب بنصفين ثم دفعه إلى الخادم ثم التفت إلى الرشيد فقال: اقتله ودمه في عنقي قال: فقمنا من المجلس وأتاني رسول الرشيد أن لا أفتي أحدًا ولا أحكم فلم أزل على ذلك إلى أن أرادت أم جعفر أن تقف وقفًا فوجهت إلي في ذلك فعرفتها أني قد نهيت عن الفتيا فكلمت الرشيد فأذن لي قال محمد بن الحسن: فكنت وكل من في دار الرشيد يتعجب من أبي البختري وهو حاكم وفتياه بما أفتى به وتقلده دم رجل من المسلمين ثم من حمله في خفه سكينا قال: ولم يقتل الرشيد يحيى في ذلك الوقت وإنما مات في الحبس بعد مدة قال محمد بن سماعة في حديثه: ثم قرب الرشيد محمد بن الحسن بعد ذلك وتقدم عنده وولاه قضاء القضاة وحمله معه إلى الري فتوفى هو والكسائي بها في يوم واحد فقال الرشيد: دفنت الفقه والنحو بالري قال بكر العمى في حديثه: إن محمد بن الحسن لما أفتى بصحة الأمان وأفتى أبو البختري بنقضه وأطلق له دمه قال له يحيى: يا أمير المؤمنين يفتيك محمد بن الحسن وموضعه من الفقه موضعه بصحة أماني ويفتيك هذا بنقضه وما لهذا والفتيا وإنما كان أبوه طبالاً بالمدينة.

وعن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق قال: أنا حاضر هذا كله من هارون ومحمد بن الحسن وزاد فيه فلما خرج محمد جعل يبكي حتى كثر بكاؤه فقلت له: يا أبا عبد الله أتبكي هذا البكاء

من أجل هذه الشجة؟ وذلك أن الرشيد رماه بدواة فشجه وسالت الدماء على وجهه وثيابه وقال له: إنما يقوى عزم هذا وأمثاله في الخروج علينا أنت وأمثالك فقال: لا والله ما من أجلها أبكي ولكني أبكي لتقصيري قلت له: وأي تقصير كان منك وقد قمت مقامًا ليس لأحد على وجه الأرض أشرف منه فقال: قد كان ينبغي لما قال أبو البختري ما قال أن أقول له: من أين قلت ذلك؟ حتى أقيم عليه الحجة بفساد ما قاله [1].

بيني وبين النور ستر فارتفع عني:

قال محمد بن سماعة: كان عيسى بن أبان حسن الوجه وكان يصلي معنا وكنت أدعوه إلى أن يأتي محمد بن الحسن فيقول: هؤلاء قوم يخالفون الحديث وكان عيسى حسن الحفظ للحديث فصلى معنا يوما الصبح فكان يوم مجلس محمد فلم أفارقه حتى جلس في المجلس فلما فرغ محمد أدنيته إليه وقلت له هذا ابن أخيك أبان بن صدقة الكاتب ومعه ذكاء ومعرفة بالحديث وأنا أدعوه إليك فيأبى ويقول: إنا نخالف الحديث فأقبل عليه وقال له: يا بني ما الذي رأيتنا نخالفه من الحديث لا تشهد علينا حتى تسمع منا فسأله يومئذ عن خمسة وعشرين بابًا من الحديث فجعل محمد بن الحسن يجيبه عنها ويخبره بما فيها من المنسوخ ويأتي بالشواهد والدلائل فالتفت إلي بعدما خرجنا فقال: كان بيني وبين النور ستر فارتفع عني ما ظننت أن في ملك الله مثل هذا الرجل يظهره للناس ولزم محمد بن الحسن لزومًا شديدًا حتى تفقه.

(١) أخبار أبي حنيفة، ١ / ١٢٨.

قال ذاك في أعلى عليين:

قال محمد بن أبي رجاء القاضي: سمعت أبي قال: رأيت محمد بن الحسن في المنام فقلت: ما صنع بك ربك؟ قال: أدخلني الجنة وقال لي: لم أصيرك وعاءًا للعلم وأنا أريد أن أعذبك قال: قلت فأبو يوسف قال: ذاك فوقي أو فوقنا بدرجة قال: قلت فأبو حنيفة قال: ذاك في أعلى عليين [1].

* * *

(١) أخبار أبي حنيفة، ١ / ١٢٥.

داود الطائي

داود الطائي

أعـلام الفقهـاء

داود الطائي

إنه من لو وزن بأهل الارض لوزنهم فضلاً وصلاحًا، من لم يكن في حلقة أبي حنيفة أرفع صوتًا منه، من قال عنه معاصروه لو كان في الصحابة لبرز عليهم ولو كان في الأمم الماضية لقص الله علينا من خبره.

إنه الإمام الرباني داود بن نصير الطائي أبو سليمان أصله من خراسان وانتقل إلى الكوفة ونشأ بها سمع عبد الملك بن عمير وحبيب بن أبي عمرة وسليمان الأعمش ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى؛ روى عنه إسماعيل ابن عيينة ومصعب بن المقدام وأبو نعيم الفضل بن دكين وغيرهم؛ وكان داود ممن شغل نفسه بالعلم ودرس الفقه وغيره من العلوم ثم اختار بعد ذلك العزلة وآثر الانفراد والخلوة فلزم العبادة واجتهد فيها إلى آخر عمره، وقدم بغداد في أيام المهدي ثم عاد إلى الكوفة وفيها كانت وفاته سنة ١٦٥ هـ.

وكان بدء توبته أنه دخل المقبرة، فسمع امرأة عند قبر تقول:

مقيم إلى أن يبعث الله خلقه ::: لقاؤك لا يرجى وأنت قريب

نريد تلاقي كل يوم وليلة ::: وتبلى كما تبلى وأنت حبيب

وقيل: سبب زهده أنه سمع نائحة تندب وتقول:

بأي خديك تبدى البلى ::: وأي عينيك إذا سالا؟(١)

ولما مات جاء الفقيه ابن السماك ووقف على قبره ثم قال:

أيها الناس إن أهل الزهد في الدنيا تعجلوا الراحة على أبدانهم مع يسير الحساب غداً عليهم، وإن أهل الرغبة فيها تعجلوا التعب على أبدانهم مع ثقل الحساب غداً عليهم، والزهادة راحة لصاحبها في الدنيا والآخرة، والرغبة تعب لصاحبها في الدنيا والآخرة؛ رحمك الله أبا سليمان ما كان أعجب شأنك، ألزمت نفسك الصبر حتى قومتها: أجعتها وإنما تريد شبعها،

(١) أخبار أبي حنيفة، ١٢٣.

وأظمأتها وإنما تريد ريها، أخشنت المطعم وإنما تريد طيبه، أخشنت الملبس وإنما تريد لينه؛ أبا سليمان: أما كنت تشتهي من الطعام طيبه، ومن الماء بارده، ومن اللباس لينه بلى ولكن أخرت ذلك لما بين يديك، فما أراك إلا قد ظفرت بما طلبت وما إليه رغبت، فما أيسر ما ضيعت، وأحقر ما فعلت في جنب ما أملت، فمن سعى مثلك عزم عزمك وصبر صبرك، آنس ما يكون إذا كنت بالله خالياً وأوحش ما يكون آنس ما يكون الناس. سمعت الحديث وتركت الناس يحدثون وتفهمت في دين الله وتركتهم يفتون. لا تقبل من السلطان عطية، ولا من الإخوان هدية، سجنت نفسك في بيتك فلا محدث لك، ولا ستر على بابك، فلو رأيت جنازتك وكثرة تابعك علمت أنه قد شرفك وأكرمك وألبسك رداء عملك، فلو لم يرغب عبد في الزهد في الدنيا إلا لمحبة هذا الستر الجميل والتابع الكثير لكان حقيقاً بالاجتهاد، فسبحان من لا يضيع مطيعاً ولا ينسى لأحد صنيعاً.

وقيل: إن ابن السماك لما قام على قبر داود قال: رحمك الله يا داود! كنت تسهر ليلك والناس نائمون، وكنت تربح إذ الناس يخسرون، فقال الناس جميعاً: صدقت؛ وكنت تسلم إذ الناس يخوضون، فقال الناس جميعاً: صدقت؛ حتى عدد فضائله كلها. ولما فرغ قام أبو بكر النهشلي فحمد الله ثم قال: يا رب إن الناس قد قالوا: ما عندهم مبلغ ما علموا، اللهم فاغفر له برحمتك ولا تكله إلى عمله، وفرغ من دفنه وقام الناس [1].

وقيل: إنه صام أربعين سنة ما علم به أحد من أهله، فكان يحمل غذاءه معه ويتصدق به في الطريق ويرجع إلى أهله يفطر عشاء، ولا يعلمون أنه صائم.

(١) ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص ٣٤، أخبار أبي حنيفة، ١٢٣، عبد القادر بن أبي الوفاء محمد ابن أبي الوفاء القرشي، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، ١ / ٥٤٠، تاريخ بغداد، ٨: ٣٤٧، طبقات الشيرازي، ص ٤٠، تهذيب التهذيب، ٣: ٢٠٣، حلية الأولياء ٧: ٣٣٥؛ وفيات الأعيان، ٢ / ٢٦٠.

وقال له رجل: ألا تسرح لحيتك قال: إني عنها مشغول.

وقالت أخته: لو تنحيت عن الشمس، فقال: هذه خطي لا أدري كيف تكتب.

مواقف من حياته رحمه الله:

لا ذاق داود تمراً ما دام في الدنيا:

قال الوليد بن عقبة: كان يخبز لداود الطائي ستون رغيفًا فيعلقها بشريط ويفطر كل ليلة على رغيفين وملح وماء فأتى ليلة بفطره فجعل ينظر إليه ومولاة له تنظر إليه فقامت فجاءته بشيء من تمر فأفطر ثم قام فصلى حتى أصبح ثم أصبح صائمًا فلما جاء وقت الإفطار أخذ الرغيفين وجعل ينظر إليهما قال الوليد بن عقبة فحدثني جار له قال: سمعته يعاتب نفسه ويقول اشتهيت البارحة تمرًا قد أطعمتك واشتهيت الليلة تمرًا لا ذاق داود تمرًا ما دام في الدنيا فما ذاقه حتى مات.

فكان في اعتزالي أكثر العافية:

قال القاسم بن معن: لما اعتزل داود الطائي أتيته فقلت: يا أبا سليمان تركت أخوانك ومجالسة من يذاكرك العلم فسكت طويلاً ثم قال: رحمك الله إني رأيت قلوبًا لاهية وألسنة مؤتلفة وهممًا مختلفة وأهواء متبعة ودنيا مؤثرة فكان في اعتزالي أكثر العافية.

لقد هان الخلق على داود:

عن حبان بن علي قال: احتاج الحسن بن قحطبة أن يسأل داود الطائي عن مسألة فهابه أن يأتيه وحده فقال لرجل من وجوه طيء وشيوخها: إني احتجت إلى لقاء داود فكن معي فأتياه فدخلا وسلما عليه ورد السلام عليهما فلما عرف ابن قحطبة تقبض وجعل لا ينظر إليهما فابتدأ الحسن فسأله عن المسألة فلم يجبه ولم يكلمه فأعاد عليه فأعرض بوجهه عنه فلما رأى ذلك ابن قحطبة خرج وتوقف الشيخ عنده فقال له: يا أبا سليمان يجيئك ابن عم لك يسألك من مسألة من أمر دينه فلا تجيبه فنظر إليه نظرة

منكـــرة ثـــم قـــال{ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾} [المؤمنون: ١٠١] فقام الشيخ مبـادرًا فأصـاب ابـن قحطبـة ينتظـره فـأخبره فقـال ابن قحطبة لقد هان الخلق على داود طوبى له ثم ذهب.

وهى تريد الجنة غداً:

ويروى أنه خرج يوماً إلى السوق، فرأى الرطب، فاشتهته نفسه، فجاء إلى البائع فقال: " أعطني بدرهم إلى الغد ". فقال له: " اذهب إلى عملك " فرآه بعض من يعرفه، فأخرج له صرة فيها مائة درهم، وقـال لـه: " اذهب فـإن أخذ منك بدرهم رطباً فالمائـة لك ". فلحقه البـائع، وقـال لـه: " ارجـع خـذ حاجتك " فقال: لا حاجة لي فيه. أنا جربت هذه النفس، فلم أرها تسوى في هذه الدنيا درهماً، وهى تريد الجنة غداً ".

كان لنا عند الله مذخوراً:

عن حماد بن أبي حنيفة أن مولاة لداود الطائي كانت تخدمه فقالت لـه: لو صنعت لك دسمًا قال: وددت فطبخت له شحما وجاءت به فقال لها: ما فعل أيتام بني فلان قالت: على حالهم قال: اذهبي بـه إليهم قالت: فديتك إنك لم تأكل أدمًا منذ كذا وكذا قال: إن هذا إذا أكلوه كان لنا عند الله مذخورًا وإذا أكلته كان في الحش (١).

أقل من إتياني:

قال نعيم بن يعقوب: سمعت سفيان بن عيينـة يقول كنت ربمـا أتيت داود الطـائي فـإذا أتيتـه تبينت ثقل موضـعي عليـه وأراه يتململ فقـال لـي يومـا: يا سفيان أما لك شغل يا سفيان أقل من إتياني (٢).

ولما شبت صرت مرائياً:

ودخل عليه رجل، فقال له: " ما حاجتك؟ "، قـال: " زيارتك " فقـال: " أمـا

(١) أخبار أبي حنيفة، ١ / ١٢١.
(٢) أخبار أبي حنيفة، ١٢٣.

أنت فقد فعلت خيراً حين زرت، ولكن انظر ما ينزل بي أنا، إذا قال لي: من أنت لتزار؟. من الزهاد؟ والله. أنت من العباد؟ لا والله. أنت من الصالحين؟. لا والله ". ثم أقبل يوبخ نفسه " كنت في الشبيبة فاسقاً، ولما شبت صرت مرائياً ".

وأنا أستحي من الله:

ودخل عليه بعض أصحابه، فرأى جرة ماء، قد انبسطت عليها الشمس، فقال له: " ألا تحملها إلى الظل؟ " فقال: " حين وضعتها لم يكن شمس، وأنا أستحي من الله أن يراني أمشي لما فيه حظ نفسي ".

ادعه حتى أشتهيه:

ودخل عليه رجل، فوجده يأكل ملحاً جريشاً بخبز يابس، فقال له: " كيف يشتهى هذا؟ " قال: " ادعه حتى أشتهيه " (١).

تلك ضالة لا توجد:

وأتاه الفضيل بن عياض يعوده فقال له: أقلل من زيارتنا فإني خليت الناس فجاءه يومًا ولم يفتح له الباب فقعد فضيل يبكي في الخارج وداود في الداخل فقال له: دلني على رجل أجلس إليه قال: تلك ضالة لا توجد (٢).

كنت أخاصم نفسي:

وقال إسماعيل بن حسان: جئت إلى باب داود الطائي فسمعته يخاطب نفسه فظننت أن عنده أحداً، فأطلت القيام على الباب ثم استأذنت فدخلت، فقال: ما بدا لك في الاستئذان قلت: سمعتك تتكلم فظننت أن عندك أحداً، قال: لا ولكن كنت أخاصم نفسي؛ اشتهت البارحة تمراً فخرجت فاشتريت لها، فلما جئت اشتهت جزراً، فأعطيت الله عهداً أن لا آكل تمراً ولا جزراً حتى

(١) ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص ٣٤.
(٢) عبد القادر بن أبي الوفاء محمد بن أبي الوفاء القرشي، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، ١ / ٥٤٠.

ألقاه.

إن في قبولهما عتق رقبانا من الرق:

وقدم محمد بن قحطبة الكوفة فقال: أحتاج إلى مؤدب يؤدب أولادي حافظ لكتاب الله تعالى عالم بسنة رسول الله ﷺ وبالآثار والفقه والنحو والشعر وأيام الناس؛ فقيل له: ما يجمع هذه إلا داود الطائي، فسير إليه بدرة عشرة آلاف درهم، وقال: استعن بها على دهرك، فردها فوجه إليه بدرتين مع غلامين مملوكين وقال لهما: إن قبل البدرتين فأنتما حران، فمضيا بهما إليه فأبى أن يقبلهما، فقالا: إن في قبولهما عتق رقبانا من الرق، فقال لهما: إني أخاف أن يكون في قبولهما وهق رقبتي في النار، رداهما إليه وقولا له: إن ردهما على أخذهما منه أولى من أن يعطيني أنا.

فما أبقيت لآخرتي:

قال أبو الربيع الأعرج: دخلت على داود الطائي بيته بعد المغرب فقرب لي كسيرات يابسة، فعطشت فقمت إلى دن فيه ماء حار، فقلت: رحمك الله! لو اتخذت دفاً غير هذا يكون فيه الماء بارداً، فقال لي: إذا كنت لا أشرب إلا بارداً ولا آكل إلا طيباً ولا ألبس إلا ليناً، فما أبقيت لآخرتي قال: قلت له: أوصني، قال: صم عن الدنيا، واجعل إفطارك فيها الموت، وفر من الناس فرارك من السبع، وصاحب أهل التقوى إن صحبت فإنهم أخف مؤونة وأحسن معونة، ولا تدع الجماعة، حسبك هذا إن عملت به.

فأني أحب أن أرزق وقتاً من الليل:

وقال داود الطائي: ما حسدت أحداً على شيء إلا أن يكون رجلاً يقوم الليل؛ فإني أحب أن أرزق وقتاً من الليل. قال أبو خالد: وبلغني أنه كان لا ينام الليل، إذا غلبته عيناه احتبى قاعداً؛ ومكث عشرين سنة لا يرفع رأسه إلى السماء.

إنما يفعل هذا بالصبيان:

وقدم هارون الرشيد الكوفة فكتب قوماً من القراء فأمر لكل واحد منهم بألفي درهم فكان داود الطائي ممن كتب فيهم ودعي باسمه أين داود الطائي فقالوا: داود يجيبكم أرسلوا إليه، قال ابن السماك وحماد بن أبي حنيفة: نحن نذهب إليه، قال ابن السماك لحماد في الطريق: إذا نحن دخلنا عليه فانثرها بين يديه فإن للعين حظها، فقال حماد: رجل ليس عنده شيء يؤمر له بألفي درهم يردها!! فلما دخلوا عليه فنثروها بين يديه قال: سوءة، إنما يفعل هذا بالصبيان، وأبى أن يقبلها (١).

رأيت خيرها كثيراً:

قال جعفر بن نفيل الرهبي: رأيت داود الطائي بعد موته فقلت له: كيف رأيت خير الآخرة قال: رأيت خيرها كثيراً، قلت: فماذا صرت إليه قال: صرت إلى خير الحمد لله، قال فقلت له: هل لك من علم بسفيان بن سعيد فقال: كان يحب الخير وأهله فرقاه الخير إلى درجة أهل الخير.

هذا إن قبلك:

لقي رجلٌ داود الطائي فقال: من أين يا داود وإلى أين؟ قال داود: استوحشت من الناس وأنست بالله تعالى، فقال: يا داود، هذا إن قبلك، فصاح صيحةً وخرّ مغشياً عليه ثم أفاق فقال: نبّهك الله إذ نبّهتني (٢).

ولكن أحب أن أعيش في عز القناعة:

أصابت داود الطائي ضيقة شديدة، فجاءه حماد بن أبي حنيفة بأربعمائة درهم من تركة أبيه، فقال داود: هي من مال رجل ما أقدم عليه أحداً في زهده وورعه وطيب كسبه، ولو كنت قابلاً من أحد شيئاً لقبلتها إعظاماً

(١) وفيات الأعيان، ٢ / ٢٦٢.
(٢) أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، البصائر والذخائر، ٣/٣٠، ٤٦/٨.

للميت وإيجاباً للحي، ولكن أحب أن أعيش في عز القناعة (١).

ثم صاروا يراؤون بما لا يقولون ولا يفعلون:

قال ثابت البناني: دخلت على داود الطائي فقال لي: ما حاجتك؟ قلت: زيارتك قال: ومن أنا حتى أزار؟ ليس من العباد أنا لا والله ولا من الزهاد أنا لا والله ثم ضرب بيده على لحيته وأقبل على نفسه يوبخها وقال: كنت في زمن الشباب فاسقاً ثم تبت فصرت مرائياً والله إن المرائي لشر من الفاسق ويقال: كان الناس يراؤون بما يفعلون لا بما يقولون فصاروا يراؤون بما يقولون ولا يفعلون ثم صاروا يراؤون بما لا يقولون ولا يفعلون (٢).

أردت أن تخدعني؟:

وقال عطاء بن مسلم الحلبي: عاش داود عشرين سنة بثلثمائة درهم ينفقها على نفسه، فأتاه ابن أخيه فقال: عم تكره التجارة؟قال: لا، قال: فأعطني شيئاً أتجر به، قال: فأعطاه ستين درهماً وقال: فمكث شهراً ثم جاءه بعشرين ومائة درهم فقال: هذه ربحها، فقال: أنت كل شهر تربح للدرهم درهماً؟ ينبغي أن يكون عندك بيت مال، أردت أن تخدعني؟قال: فرمى بها عليه وقال: رد علي رأس مالي.

إنما طلقت نفسي من هذه الشهوات:

ودخل رجل على داود الطائي فقال: يا أبا سليمان بعت كل شيء حتى التراب، وبقيت تحت نصف سقف، فلو سويت هذا السقف فكان يكنك من الحر والبرد والمطر، فقال داود: اللهم غفراً، كانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام، يا عبد الله، اخرج عني، فقد شغلت قلبي، إنّي أبادر جفوف القلم وطي الصحيفة. قال: يا أبا سليمان، أنا عطشان، قال:

(١) الزمخشري، ربيع الأبرار، ١ / ٣، ١٢٤، ١٣٢، ١٨٥، ٣٠٥، ٤٨٧، ٤٨٩.
(٢) الوطواط، غرر الخصائص الواضحة، ١ / ٢٣.

اخرج واشرب، فجعل يدور في الدار لا يجد ماء، فرجع إليه فقال: يا أبا سليمان ليس في الدار حب ولا جرة، فقال: اللهم غفراً، بل هناك ماء، فخرج يلتمس فإذا دن من هذه الأصص الذي ينقل فيه الطين وخزفة أسفل كوز فأخذ تلك الخزفة فغرف بها فإذا ماء حار كأنه قد غلي لم يقدر أن يسيغه، فرجع إليه وقال: يا أبا سليمان: مثل هذا الحر؟ الناس يكادون ينسلخون من شدة الحر، ودن مدفون في الأرض وكوز مكسور فلو كانت جريرة وقلة؟ فقال داود: حب حيري وجرة مذارية وقلال منقشة، وجارية حسناء وأثاث وناض - يعني بالناض الدنانير والدراهم •وفضول، لو أردت هذا الذي يشغل القلب لم أسجن نفسي ها هنا، إنما طلقت نفسي من هذه الشهوات، وسجنت نفسي حتى يخرجني مولاي من سجن الدنيا إلى روح الآخرة. فقال: يا أبا سليمان ففي هذا الحر أين تنام وليس لك سطح؟ قال إني أستحي من مولاي أن يراني أخطو خطوة ألتمس راحة نفسي في الدنيا حتى يكون مولاي هو الذي يخرجني من الدنيا [1].

اغتبت رجلا في هذا الموضع:

مر داود الطائي رحمه الله تعالى يومًا بموضع فوقع مغشيًا عليه فحمل إلى منزله فلما أفاق سئل عن ذلك فقال: ذكرت أني اغتبت رجلاً في هذا الموضع فذكرت مطالبته لي بين يدي الله تعالى [2].

ما شعرت بذلك!! :

وقال إسحاق بن خلف: كان داود الطائي - رحمه الله تعالى - على سطح في ليلة قمراء فتفكر في ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويبكي حتى وقع في دار جار له، قال: فوثب صاحب الدار من فراشه عرياناً وبيده سيف وظن أنه لص، فلما نظر إلى داود رجع ووضع السيف، وقال: من ذا الذي طرحك من السطح، قال: ما شعرت بذلك!!.

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ١ / ٤٣.
(٢) الصفوري، زهة المجالس ومنتخب النفائس، ١ / ٧٧، ١٦٧.

لعل تركه أن يكون أنجى:

وجاء داود الطائي أحد أصحابه بألفي درهم وقال: هذا شيء جاء الله به لم تطلبه ولم تشره له نفسك. قال داود: إنه لمن أمثل ما يأخذون قال: فما يمنعك منه قال: لعل تركه أن يكون أنجى [(١)].

ما يوقفك هنا؟:

وعن عبد الأعلى بن زياد الأسلمي قال: (رأيت داود الطائي يومًا قائمًا على شاطئ الفرات مبهوتًا؛ فقلت: يا أبا سليمان، ما يوقفك هنا؟ قال: انظر إلى الفلك، كيف تجري في البحر مسخرات بأمر الله تعالى؟) [(٢)].

من كلامه رحمه الله:

قال محمد بن عبد العزيز التيمي: قلت لداود الطائي يا أبا سليمان بما أقوى على نفسي قال: بقذعها عما تحب وإخراجها عما لا يعنيها وبفعلها ما لا بد لها منه قلت: يا أبا سليمان فكيف السبيل إلى ذلك قال: بقطعها عن رؤية العالم فهو أول باب تقوى به على ذلك فإذا فقدت رؤيتهم خلت من همومهم قلت: يا أبا سليمان إنها تطالبني بهم كثيرا قال: يا أبا محمد اقذعها اقذعها وإلا أوردتك المهالك [(٣)].

عن داود الطائي قال: ما أخرج الله تعالى عبدًا من ذل المعاصي إلى عز التقوى إلا أغناه بلا مال وأعزه بلا عشيرة وآنسه بلا أنيس.

عن بكر بن محمد العابد قال: قال لي داود الطائي فر من الناس كما تفر من الأسد.

اترك الدنيا قبل أن تتركك واعتبر فيها قبل أن يعتبر بك واحمد أيامها قبل أن تذمك وأعمرها بعمارة آخرتك وخربها بصلاح دينك وتزود منها ليوم

---

(١) بلوغ الأرب بتقريب كتاب الشعب، ١/ ٣٦٧، ٣٨٨، ٢ / ١٧٥.
(٢) عبد الله بن محمد أبو بكر القرشي، الهم والحزن، تحقيق: مجدي فتحي السيد، الناشر: دار السلام - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢ - ١٩٩١، ص ٩١.
(٣) أخبار أبي حنيفة، ١ / ١٢١.

وفاتك.

وكان من دعاء داود الطائي: اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا واكفنا من سعى علينا ولا تشمت بنا عدونا اكفنا كل هول بين أيدينا حتى تبلغنا من رحمتك ما أنت أهله آمين آمين آمين ثلاثا.

قال الوليد بن عقبة: سمعت داود الطائي يقول: كم من مسرور بأمر فيه هلكته وكم من كاره لأمر فيه صلاح دينه ودنياه غيبت عنا الخيرة فليس إلا التسليم والرضا والاستكانة والتضرع [١].

وقال عبد الله بن إدريس قلت لداود: " أوصني " فقال: " أقلل من معرفة الناس ". قلت: " زدني "، قال: " ارض باليسير من الدنيا، عن سلامة الدين، كما رضى أهل الدنيا بالدنيا، مع فساد الدين ". قلت: " زدني "، قال: " اجعل الدنيا كيوم صمته، ثم أفطر على الموت ".

" لا عبادة لمن لا مروءة له ".

ما أخرج الله عبداً من ذل المعاصي إلى عز التقوى إلا أغناه بلا مال، وأعزه بلا عشيرة، وآنسه بلا بشر ".

من رضى بالدنيا كلها عوضاً عن الآخرة " [٢].

العلم العمل فإذا فني العمر في الآلة متى تعمل.

وقال له الحارث بن إدريس عظني: قال: عسكر الموتى ينتظرونك [٣].

قال داود الطائي: يا بن آدم ارتحلك الحرص فأنساك أجلك، ونصب لك أملك ورب حريص محروم، وواجد مذموم.

قال داود الطائي: من خاف الوعيد قصر عليه البعيد، ومن طال أمله قصر

(١) أخبار أبي حنيفة، ١٢٣.
(٢) ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص ٣٤.
(٣) عبد القادر بن أبي الوفاء محمد بن أبي الوفاء القرشي، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، ١ / ٥٤٠.

عمله [(١)].

قال داود الطائي: إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة بعد مرحلة، حتى تنتهي بهم إلى آخر سفرهم، فان استطعت أن تقدم في كل مرحلة زاداً لما بين يديها فافعل، فإن انقطاع السفر عن قريب، والأمر أعجل من ذاك، وكأنك قد بغتك. وعنه: لا تمهر الدنيا دينك، فإن من أمهر الدنيا دينه زفت إليه الندم. وسأله رجل أراد أن يتعلم الرمي، فقال: إنَّ الرمي حسن، ولكنها أيامك فانظر بم تقطعها.

كلم فضيل داود الطائي في عزلته فقال: أن كان لك بدينك حاجة ففر من الناس فرارك من الأسد، ولقد جالستهم، اللهم غفراً، فأما صغيرهم فلا يوقرك، وأما كبيرهم فيحصى عليك عيوبك.

قال داود الطائي: ما أخرج الله عبداً من ذل المعاصي إلى عز التقوى إلا أغناه بلا مال، وأعزه بلا عشيرة، وآنسه بلا أنيس.

قال: وكان داود الطائي يقول: اللهم خلص خلص، ويقول: إنما يسأل السلامة من لم يقع، أما من فإنما يسأل الخلاص.

قال داود الطائي: أرأيت المحارب إذا أراد أن يلقى الحرب؟ أليس يجمع آلته؟ فإذا أفنى عمره في جمع الآلة فمتى يحارب؟ إن العلم آلة العمل، وإذا أفنى عمره في جمعه فمتى يعمل؟ كان إبراهيم بن أدهم يستقي ويرعى، ويعمل بكراء، ويحفظ البساتين للناس والمزارع، ويحصد بالنهار، ويصلي بالليل [(٢)].

(١) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ص ٢٩، ٢٤٧.
(٢) الزمخشري، ربيع الأبرار، ١ / ٣، ١٢٤، ١٣٢، ١٨٥، ٣٠٥، ٤٨٧، ٤٨٩.

قال داود: اليأس سبيل أعمالنا هذه، ولكن القلوب تحن إلى الرجاء [1].

قال داود الطائي: يا بن آدم، فرحت ببلوغ أملك، وإنما بلغته بانقضاء أجلك، ثم سوفت بعملك، كأن منفعته لغيرك [2].

وذكر داود الطائي عند بعض الأمراء؛ فأثنوا عليه فقال: (لو يعلم الناس بعض ما نحن فيه ما ذل لنا لسان بذكر خير أبدا).

قال داود الطائي: رأيت الخير كله إنما يجمعه حسن النية وكفاك به خيراً وإن لم تنصب؛ أي حتى وإن لم تتعب فإن ما حصلته من اجتماع قلبك لله وقوة إرادة رضاه ومثوبته وكثرة الحرص على طاعته وشدة الرغبة فيها: أمر عظيم جداً؛ قال الفضيل: إنما يريد الله عز وجل منك نيتك وإرادتك.

وقال داود الطائي أيضاً: البر همة التقي، ولو تعلقت جميع جوارحه بحب الدنيا لردته يوماً نيته إلى أصلها.

قال داود الطائي: إن للخوف حركات تعرف في الخائفين ومقامات تعرف في المحبين وإزعاجات تعرف في المشتاقين وأين أولئك؟! أولئك هم الفائزون.

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ١ / ٤٣.
(٢) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٥ / ٢٤٤.

عن داود الطائي قال: أبت الدنيا أن تجري إلا بالاختلاط [(١)].

قالت أم سعيد بن علقمة النخعي وكانت أمه طائية: كان بيننا وبين داود الطائي جدار قصير فكنت أسمع حسه عامة الليل لا يهدأ

قالت: وربما سمعته يقول في جوف الليل: اللهم همك عطل علي الهموم وحالف بيني وبين السهاد وشوقي إلى النظر إليك أوشق من وحال بيني وبينك اللذات فأنا في سجنك أيها الكريم مطلوب.

قالت: وربما ترنم في السحر بالشيء في القرآن فأرى أن جميع نعيم الدنيا جع في ترنمه. وقالت: وكان يطوف في الدار وحده وكأنه لا يصبح فيها [(٢)].

(١) بلوغ الأرب بتقريب كتاب الشعب، ١/ ٣٦٧، ٣٨٨، ٢ / ١٧٥.
(٢) عبد الله بن محمد أبو بكر القرشي، الهم والحزن، تحقيق: مجدي فتحي السيد، الناشر: دار السلام - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢ - ١٩٩١، ص ٩١.

سيد الفقهاء البويطي

سيد الفقهاء البويطي

أعـلام الفقهـاء

سيد الفقهاء البويطي

الإمام العلامة سيد الفقهاء الزاهد، الذي طلب الشهادة ونالها، طلبوه أن يجيبهم إلى القول بخلق القرآن فأبى، قيدوه بالحديد في يديه ورجليه وأوثقوه بالأغلال في عنقه فما زاده إلا ثباتاً على الحق، ضربوه وعذبوه فما أراح لهم بالاً ولا أجاب لهم سؤالاً. قال له والي مصر: ارفق بنفسك وأجبني بالموافقة فيما بيني وبينك ولا أعلم أحدًا بذلك فأبي وقال: " لا يقتدي بي أحد في باطل " وقام مقام الصديقين فحملوه في الأغلال إلى العراق فحبس وعذب وقال قولته الشهيرة: " لأموتن في حديدي هذا حتى يأتي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم ".

كان إمامًا جليلاً عابدًا زاهدًا فقيهًا عظيمًا مناظرًا جبلاً من جبال العلم والدين غالب أوقاته الذكر والتشاغل بالعلم غالب ليله التهجد والتلاوة سريع الدمعة

تفقه على الشافعى واختص بصحبته.

وله من المؤلفات المختصر المشهور والذى اختصره من كلام الشافعى رضى الله عنه، وكان الشافعى رضى الله عنه يعتمد على البويطى في الفتيا ويحيل عليه إذا جاءته مسألة واستخلفه على أصحابه بعد موته فتخرجت على يديه أئمة تفرقوا في البلاد ونشروا علم الشافعى في الآفاق وكان من الشافعى بمكان مكين.

وكانت الفتاوى ترد على البويطى من السلطان فمن دونه وهو متنوع في صنائع المعروف كثير التلاوة لا يمر يوم وليلة غالبًا حتى يختم فسعى به من يحسده وكتب فيه إلى وزير السوء ابن أبى دؤاد بالعراق فكتب إلى والى مصر أن يمتحنه فامتحنه فلم يجب.

كان إذا سمع المؤذن وهو في السجن يوم الجمعة اغتسل ولبس ثيابه ومشى حتى يبلغ باب السجن، فيقول له السجان: أين تريد فيقول: أجيب داعي الله،

فيقول: ارجع عافاك الله، فيقول أبو يعقوب: اللهم إنك تعلم أني قد أجبت داعيك فمنعوني.

إنه الفقيه شهيد الحق أبو يعقوب يوسف بن يحيى المصري البويطي [١]، صاحب الشافعي رضي الله عنه؛ كان واسطة عقد جماعته وأظهرهم نجابةً، اختص به في حياته، وقام مقامه في الدرس والفتوى بعد وفاته، سمع الأحاديث النبوية من عبد الله بن وهب الفقيه المالكي ومن الإمام الشافعي، وروى عنه أبو إسماعيل الترمذي وإبراهيم بن إسحاق الحربي والقاسم بن المغيرة الجوهري وأحمد بن منصور الرمادي وغيرهم. وكان قد حمل في أيام الواثق بالله من مصر إلى بغداد في مدة المحنة وأريد على القول بخلق القرآن.

كان البويطي حين مرض الشافعي بمصر هو وابن عبد الحكم والمزني، فتنازعوا الحلقة، فبلغ ذلك الشافعي، فقال: الحلقة للبويطي.

فلهذا اعتزل ابن عبد الحكم الشافعي وأصحابه، وكانت أعظم حلقة في المسجد.

وتوفي يوم الجمعة قبل الصلاة في رجب سنة إحدى وثلاثين ومائتين، في القيد والسجن ببغداد، ونال الشهادة كيفما أراد في قوله: " لأموتن في حديدي هذا حتى يأتي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم " [٢]

(١) والبويطي، بضم الباء الموحدة وفتح الواو وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها طاء مهملة، هذه النسبة إلى بويط، وهي قرية من أعمال الصعيد الأدنى من ديار مصر.

(٢) الجرح والتعديل ٩ / ٢٣٥، الفهرست: ٢٦٥، ٢٦٦، طبقات الشافعية للعبادي: ٧، تاريخ بغداد ١٤، ٢٩٩، ٣٠٣، طبقات الفقهاء للشيرازي: ٧٩، اللباب ١ / ١٨٩، وفيات الاعيان ٧ / ٦١، ٦٤، تهذيب الكمال: ١٥٦٢، ١٥٦٣، تذهيب التهذيب ٤ / ١٩٢ / ١، العبر ١ / ٤١١، طبقات الشافعية للسبكي ٢ / ١٦٢، ١٧٠، طبقات الشافعية للإسنوي: ٢٠٨، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: ٤٥، تهذيب التهذيب ١١ / ٤٢٧، ٤٢٩، النجوم الزاهرة ٢ / ٢٦٠، ٢٦١، حسن المحاضرة ١ / ١٢٣، خلاصة تذهيب الكمال: ٤٤٠، شذرات الذهب ٢ / ٧١، ٧٢. سير أعلام

وقد أثنـي عليـه الفقهـاء والعلمـاء المحـدثين كثيـرًا فقـالوا عنـه بأنـه " كـان صـالحاً متنسكـاً عابـداً زاهداً.

وقال أبو حاتم: " هو صدوق. وكان إمامًا في العلم، قدوة في العمل، زاهدًا ربانيًا، متهجدًا، دائم الذكر والعكوف على الفقه.

و قال الشافعي: ليس في أصحابي أحد أعلم من البويطي.

وقـال الربيـع بـن سليمان: كـان البـويطي أبـدًا يحـرك شـفتيه بـذكر الله، ومـا أبصـرت أحدًا أنزع بحجة من كتاب الله من البويطي.

ولقد رأيته على بغل في عنقه غل، وفي رجليه قيد، وبينه وبين الغل سلسلة فيها لبنة وزنها أربعون رطلاً، وهو يقول: إنما خلق الله الخلـق بـ " كن "، فإذا كانت مخلوقة، فكأن مخلوقًا خلق بمخلوق.

ولئن أدخلت عليه لأصدقنه. (يعني بذلك الخليفة العباسي الواثق)، ولأموتن في حديدي هذا حتى يأتي قوم يعلمون أنه قد مـات فـي هذا الشـأن قوم فـي حديدهم [(١)].

وقال أبو الوليد بن أبي الجارود: كان البويطي جاري فما كنت أنتبه سـاعة من الليل إلا سمعته يقرأ ويصلي.

وقال أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم: رأيت أبي في المنام فقال لي: يـا بني عليك بكتاب البويطي فليس في الكتب أقل خطأ منه.

وقال الربيع أيضاً: كتب إليّ أبو يعقوب من السجن: إنـه ليـأتي علـي أوقـات لا أحس بالحديـد أنـه علـى بدني حتـى تمسـه يـدي، فـإذا قـرأت كتـابي هذا فأحسن خلقك مع أهل حلقتك، واستوص بالغربـاء خاصـة خيـراً، فكثيـراً مـا كنت أسمع الشافعي رضي الله عنه يتمثل بهذا البيت:

أهين لهم نفسـي لأكرمهـا بهـم ::: ولن تكرم النفس الـتي لا تهينـها

النبلاء، ١٢ / ٥٩.
(١))وفيات الأعيان، ٧ / ٦٣.

مواقف من حياته رحمه الله:

ليس أحد أحق بمجلسي من يوسف:

قال ابن خزيمة: كان محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أعلم من رأيت بمذهب مالك، فوقع بينه وبين البويطي خلاف عند موت الشافعي، فتنازع ابن عبد الحكم والبويطي مجلس الشافعي، فقال البويطي: أنا أحق به منك، وقال الآخر كذلك.

فجاء الحميدي، وكان بمصر، فقال: قال الشافعي: ليس أحد أحق بمجلسي من يوسف، ليس أحد من أصحابي أعلم منه.

فقال ابن عبد الحكم:

كذبت.

قال: بل كذبت أنت وأبوك وأمك.

وغضب ابن عبد الحكم.

فجلس البويطي في مكان الشافعي، وجلس ابن عبد الحكم في الطاق الثالث. وترك طاقاً بين مجلس الشافعي ومجلسه، وجلس البويطي في مجلس الشافعي في الطاق الذي كان يجلس فيه [١].

وقد كان الشافعي عليه السلام آخى محمد بن عبد الحكم المصري وكان يحبه ويقربه، ويقول: ما يقيمني بمصر غيره، واعتل محمد فعاده الشافعي، فحدثني القرشي عن الربيع قال: سمعت الشافعي ينشد وقد عاد محمدا:

مرض الحبيب فعدته ... فمرضت من حذري عليه
وأتى الحبيب يعودني ... فبرأت من نظري إليه

وما شك أهل مصر أن الشافعي يفوض أمر حلقته إليه، وأنه يستخلفه بعد

(١) سير أعلام النبلاء، ١٢ / ٦٠.

موته ويأمر الناس بالحضور عنده، حتى سئل عن ذلك في علته فقيل له: يا أبا عبد الله إلى من نجلس بعدك، ومن يكون صاحب الحلقة، وهم يظنون أنه يشير إلى محمد فاستشرف لذلك محمد وتطاول لها، وكان جالسا عند رأسه فقال: سبحان الله أيشك في هذا أبو يعقوب البويطي، فانكسر لها محمد ووجد في نفسه ومال أصحابه إلى أبي يعقوب البويطي، وقد كان محمد حمل علم الشافعي ومذهبه وفارق مذهب مالك، إلا أن البويطي كان أزهد وأورع، فحمل الشافعي نصحه للدين والنصيحة للمسلمين، ولم يداهن في ذلك بأن وجه الأمر إلى أبي يعقوب، وآثره لأنه كان أولى، فلما قبض الشافعي رضي الله عنه انتقل محمد بن عبد الحكم مذهبه، وفارق أصحابه ورجع إلى مالك، وروى كتب أبيه عن مالك، وتفقه فيها، فهو اليوم من كبار أصحاب مالك رضى الله عنه.

أنت تموت في الحديد:

وما كان أبو يعقوب ليموت إلا في الحديد كيف وقد قال الربيع: كنت عند الشافعى أنا والمزنى وأبو يعقوب فقال لى: أنت تموت في الحديث وقال لأبى يعقوب: أنت تموت في الحديد وقال للمزنى: هذا لو ناظره الشيطان لقطعه

قال الربيع: فدخلت على البويطى أيام المحنة فرأيته مقيدًا إلى أنصاف ساقيه مغلولة يداه إلى عنقه

هذا لساني:

وقال الربيع: كان أبو يعقوب أبداً يحرك شفتيه بذكر الله تعالى، وما رأيت أحداً أنزع بحجة من كتاب الله تعالى من أبي يعقوب البويطي. وقال الربيع أيضاً: كان لأبي يعقوب منزلة من الشافعي، وكان الرجل ربما يسأله عن المسألة فيقول له: سل أبا يعقوب، فإذا أجابه أخبره فيقول: هو كما قال. وقال أيضاً: ربما جاء رسول صاحب الشرطة إلى الشافعي فيوجه أبا يعقوب البويطي ويقول: هذا لساني.

لعل الله يخلصنى بدعائهم:

وقال أبو عمرو المستملى: حضرنا مجلس محمد بن يحيى الذهلى فقرأ علينا كتاب البويطى إليه وإذا فيه والذى أسألك أن تعرض حالى على إخواننا أهل الحديث لعل الله يخلصنى بدعائهم فإنى في الحديد وقد عجزت عن أداء الفرائض من الطهارة والصلاة فضج الناس بالبكاء والدعاء له.

انظر إلى هذا الحبر رحمه الله لم يكن أسفه إلا على أداء الفرائض ولم يتأثر بالقيد ولا بالسجن فرضى الله عنه وجزاه عن صبره خيرا

اللهم إنك تعلم أني قد أجبت داعيك فمنعوني:

كان أبو يعقوب البويطي إذا سمع المؤذن وهو في السجن يوم الجمعة اغتسل ولبس ثيابه ومشى حتى يبلغ باب السجن، فيقول له السجان: أين تريد؟ فيقول: أجيب داعي الله، فيقول: ارجع عافاك الله، فيقول أبو يعقوب: اللهم إنك تعلم أني قد أجبت داعيك فمنعوني [1].

من كلامه رحمه الله:

قال الربيع: كتب إلي أبو يعقوب البويطي أن اصبر نفسك للغرباء، وحسن خلقك لأهل حلقتك، فإني لم أزل أسمع الشافعي يقول كثيرًا ويتمثل:

أهين لهم نفسي لكـــي يكرموهـــا ::: ولن تكرم النفس الـــتي لا تهينـــها

* * *

(١) وفيات الأعيان، ٧ / ٦٣.

الإمام المفسر الفقيه مجاهد بن جبر

الفقيه مجاهد بن جبر

أعـلام الفقهـاء

الإمام المفسر الفقيه مجاهد بن جبر

العالم الحبر ذو الأحلام والصبر أبو الحجاج مجاهد بن جبر صاحب التأويل والتفسير والأقاويل والتذكير.

الإمام التابعي مجاهدا بن جبر القرشي المخزومي مولاهم، المتوفى - رحمه الله تعالى - عام ١٠٤هـ كان من كبار أعلام التابعين، ومن الأئمة الذين اشتهروا بالرواية للحديث والآثار عن النبي ﷺ وعن الصحابة الأخيار، حتى إنه ليعد من أئمة التابعين وفقهائهم، ومن كان لهم فضل كبير في نشر علوم الصحابة - رضوان الله عليهم - خاصة من لازمهم منهم.

وإن من أهم الجوانب التي اشتهر بها الإمام مجاهد، وأكثر السلف رضوان الله عنهم من النقل عنه فيها: جانب التفسير، فلا يكاد يخلو كتاب من كتب التفسير، سواء بالمأثور أو بالرأي أو التفسير الإشاري وغيرها من النقل عنه، أو عرض بعض تفسيراته وتأويلاته.

وباستعراض تفسير الإمام مجاهد، نجده يفسر بالقرآن أحيانًا، ويفسر بالحديث أحيانًا، ويفسر بفتاوى الصحابة، ويفسر بمعاني اللغة، ويفسر بالإسرائيليات وما رواه من صحف بني إسرائيل. فمادة التفسير عنده - رحمه الله - خصبة، كثيرة الجذور والمستقيات.

هو أبو الحجاج مجاهد بن جبر، ويقال: ابن جبير. المكي. أبو محمد. القرشي المخزومي، مولاهم، الفارسي أصلاً.

ولد بمكة المكرمة في خلافة أمير المؤمنين عمر الخطاب رضي الله عنه سنة ٢١ هجرية. وبولادته في هذه الفترة التي هي فترة انتشار الصحابة في البلاد، وبأخذه عن جملة فإنه يعد من طبقة التابعين.

وقد امتد عمره ليشمل حكم جل الخلفاء الراشدين الأربعة، وبني أمية إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، واستوطن بين مكة المكرمة والكوفة، وهو الأمر الذي هيأ له الأخذ عن جمع كبير من الصحابة الكرام، وأن

يأخذ عنه جمع من التابعين وتابعيهم، من أئمة الأمصار الذين انتشروا في البلاد فيما بعد.

وكانت لمجاهد رغبة خاصة في السفر، فكان لا يسمع بأعجوبة إلا ذهب فنظر إليها، فقد رحل إلى اليمن، وحضرموت التي زار بها بئر برهوت، وبابل. كما زار مصر، وروى بها عن مسلمة بن مخلد، وعنه جمع كبير.

والكوفة استقر بها وقتًا كبيرًا حتى عد من أعلام العراق.

كما زار مدينة " توج " في منطقة ما بين النهرين، ومدينة " رودس " التي كان مجاهدا في الفوج الذي فتحها وأقام بها سبع سنين يعلم القرآن، وزار القسطنطينية وشارك في الجيش الذي حاول فتحها كذلك.

أما المدينة المنورة ومكة المكرمة؛ فقد استوطنهما وأخذ بهما عن جملة من الصحابة وغيرهم.

أخذ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، والتزمه، كما سمع من علي بن أبي طالب، وأبي بن كعب، وعبد الله بن عمر، وسعد بن أبي وقاص، وعائشة الصديقة، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وعبد الله بن عمرو، وجابر بن عبد الله، ورافع بن خديج.. وغيرهم.

سكن الكوفة، وسمع منه كثيرون، وكان من الثقات الذين أخذ عنهم وانتشرت روايتهم. كما انتشر ما كان يبديه من رأي في الأحكام الفقهية وفي الفتاوى، وتفسير بعض الآيات، ورد بعض الكلمات إلى أصولها من لغات أخرى: الفارسية، والسريانية، والنبطية.. وغيرها.

فهو محدث مفسر لغوي، باحث عن الأخبار والآثار، وقد انعكست معارفه هذه على تفسيره الذي اشتهر منذ العصور الأولى، واعتمده كثير من الأئمة ونقلوا عنه منقولات كثيرة، وفي مقدمتهم: سفيان الثوري.

أخذ عن الإمام مجاهد رضي الله عنه جمع من أئمة التابعين وتابعيهم،

منهم: عكرمة مولى ابن عباس، والفضيل بن عمرو، وقتادة بن دعامة السدوسي، وعطاء بن أبي رباح، وعمرو بن دينار، ومحمد بن مسلم، وعمرو بن عبد الله بن عبيد، وأيوب بن كيسان، وفطر بن خليفة، وعبد الله ابن عون البصري وغيرهم.

وتظهر مكانة الإمام مجاهد من شهادات أئمة السلف، وأعلام الجرح والتعديل فيه؛ فقد قال ابن سعد: " ثقة فقيه عالم، كثير الحديث ". وقال يحيى ابن معين: " ثقة "، وقال أبو حاتم ابن حبان: " كان فقيهًا ورعًا عابدًا، متقنًا ". وقال يحيى القطان: " أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به ". وقال قتادة: " أعلم من بقي بالتفسير: مجاهد ". وقال الطبري: " كان قارئًا عالمًا ".

وقال الحافظ الذهبي: " أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به ". وقال الحافظ ابن كثير: " أحد أئمة التابعين والمفسرين، كان من أخصاء أصحاب ابن عباس، وكان أعلم أهل زمانه بالتفسير حتى قيل: إنه لم يكن أحد يريد بالعلم وجه الله إلا مجاهد وطاووس ". وقال الحافظ ابن حجر: " ثقة، إمام في التفسير وفي العلم ".

توفي الإمام مجاهد بن جبر - رحمه الله تعالى - بمكة المكرمة، وكانت وفاته بين عامي ١٠١ - ١٠٤ هـ، على خلاف بين المؤرخين في ذلك، وله من العمر نيف وثمانون عامًا (١).

(١) طبقات ابن سعد ٥ / ٤٦٦، طبقات خليفة ت ٢٥٣٥، تاريخ البخاري ٧ / ٤١١، المعارف ٤٤٤، المعرفة والتاريخ ١ / ٧١١، الحلية ٣ / ٢٧٩، طبقات الفقهاء للشيرازي ٦٩، تاريخ ابن عساكر ١٦ / ١٢٥، تهذيب الكمال ص ١٣٠٦، تاريخ الإسلام ٤ / ١٩٠، تذكرة الحفاظ ١ / ٨٦، العبر ١ / ١٢٥، تذهيب التهذيب ٤ / ٢٢، البداية والنهاية ٩ / ٢٢٤، العقد الثمين ٧ / ١٣٢، غاية النهاية ت ٢٦٥٩، الإصابة ت ٨٣٦٣، تهذيب التهذيب ١٠ / ٤٢، طبقات الحفاظ للسيوطي ص ٣٥، خلاصة تذهيب التهذيب ٣٦٩، شذرات الذهب ١ / ١٢٥.

مواقف من حياته رحمه الله:

إنك ضيق الخلق:

عن مجاهد قال: كنت أصحب ابن عمر رضي الله عنهما في السفر فإن أردت أن أركب يأتيني فيمسك ركابي وإذا ركبت سوى ثيابي قال مجاهد: فجاءني مرة فكأني كرهت ذلك فقال: يا مجاهد إنك ضيق الخلق [1].

أهلكت نفسك وأهلكتني:

عن الأعمش قال: كان مجاهد لا يسمع بأعجوبة إلا ذهب ينظر إليها قال: وذهب إلى حضر موت إلى بئر برهوت قال: وذهب إلى بابل قال: وعليها والصديق لمجاهد قال: فقال مجاهد: تعرض على هاروت وماروت قال: فدعا رجلا من السحرة فقال: اذهب بهذا واعرض عليه هاروت وماروت فقال اليهودي: بشرط أن لا يدعو الله عندهما قال مجاهد: فذهب بي إلى قلعة فقلع منها حجرًا قال: ثم قال خذ برجلي فهو بي حتى انتهى إليهما فإذا هما متعلقين منكسين كالجبلين العظيمين فلما رأيتهما قلت سبحان الله خالقكما فاضطربا قال: فكأن جبال الدنيا قد تدكدكت قال: فغشي علي وعلى اليهودي قال: ثم أفاق اليهودي قبلي فقال: قم قد أهلكت نفسك وأهلكتني[2].

يؤتى بثلاثة نفر يوم القيامة:

عن مجاهد قال: يؤتى بثلاثة نفر يوم القيامة بالغني وبالمريض والعبد فيقول للغني: ما منعك عن عبادتي؟ فيقول: أكثرت لي من المال فطغيت فيؤتى بسليمان بن داود عليه السلام في ملكه فيقال له: أنت كنت أشد شغلاً أم هذا قال: بل هذا قال: فإن هذا لم يمنعه شغله عن عبادتي قال: فيؤتى بالمريض فيقول: ما منعك عن عبادتي؟ قال: يا رب أشغلت على جسدي قال: فيؤتى بأيوب عليه السلام في ضره فيقول له أنت كنت أشد ضرًا أم هذا قال: فيقول: لا بل هذا قال: فإن هذا لم يمنعه ذلك أن عبدني قال: ثم

(١) حلية الأولياء، ٣ / ٢٨٤.
(٢) حلية الأولياء، ٣ / ٢٨٨.

يؤتى بالمملوك فيقال له: ما منعك عن عبادتي فيقول: جعلت علي أربابا يملكونني قال: فيؤتى بيوسف الصديق عليه السلام في عبوديته فيقال: أنت أشد عبودية أم هذا قال: لا بل هذا قال: فإن هذا لم يشغله شيء عن عبادتي.

ذهبوا وبقيت أعمالهم:

عن مجاهد قال: مررت مع ابن عمر على خربة فقال: يا مجاهد ناد يا خربة ما فعل أهلك أين أهلك؟ قال: فناديت فقال: ابن عمر ذهبوا وبقيت أعمالهم.

إني لا أحب الظلم:

عن مجاهد قال: مر نوح عليه السلام بالأسد فضربه برجله فخمشه فبات ساهرًا فشكى نوح ذلك إلى الله عز وجل فأوحى الله تعالى إليه إني لا أحب الظلم.

وقد أتاك رسول يقطع أثرك من الدنيا:

قال مجاهد: ما من مرض يمرضه العبد إلا رسول ملك الموت عنده حتى إذا كان آخر مرض يمرضه أتاه ملك الموت فقال: أتاك رسول بعد رسول فلم تعبأ به وقد أتاك رسول يقطع أثرك من الدنيا.

خلوا سبيله:

عن مجاهد قال: يؤمر بالعبد إلى النار يوم القيامة فتنزوي عنه فيقول: ما شأنك ما شأنك؟ فتقول: إنه قد كان يستجير مني في الدنيا فيقول خلوا سبيله.

عن مجاهد قال: يؤمر بالعبد إلى النار يوم القيامة فيقول ما كان هذا ظني فيقول: ما كان ظنك فيقول أن تغفر لي فيقول: خلوا سبيله.

الحمد لله الذي أراحني من الدنيا وأهلها:

عن مجاهد قال: ما من يوم ينقضي من الدنيا إلا قال ذلك اليوم: الحمد لله الذي أراحني من الدنيا وأهلها ثم يطوي عليه فيختم إلى يوم القيامة حتى يكون الله هو الذي يفض خاتمه رواه المعافى بن عمران عن طلحة بن عمرو فقال عن قيس بن سعد عن مجاهد وهو الصواب.

أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة:

عن مجاهد في قوله تعالى:{ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ} [النساء: ٧٨] الآية قال: كان فيمن كان قبلكم امرأة وكان لها أجير فولدت جارية وقالت لأجيرها: اقتبس لنا نارًا فخرج فوجد بالباب رجلاً فقال له، الرجل: ما ولدت هذه المرأة؟ قال: جارية فقال: أما أن هذه الجارية لا تموت حتى تبغي بمائة ويتزوجها أجيرها ويكون موتها بالعنكبوت قال فقال الأجير في نفسه فأنا أريد هذه بعد أن تفجر بمائة لأقتلنها فأخذ شفرة فدخل فشق بطن الصبية وخرج على وجهه وركب البحر وخيط بطن الصبية فعولجت وبرأت وشبت فكانت تبغي فأتت ساحلاً من سواحل البحر فأقامت عليه تبغي ولبث الرجل ما شاء الله ثم قدم ذلك الساحل ومعه مال كثير فقال لامرأة من أهل ساحل البحر: ابغيني امرأة من أجمل الناس في القرية أتزوجها فقالت: ها هنا امرأة من أجمل الناس وإنها تبغي قال: ائتني بها فأتتها فقالت: قد قدم رجل له مال كثير وقال لي كذا وكذا فقلت: كذا وكذا فقالت إني قد تركت البغاء ولكن إن أراد تزوجته قال: فتزوجها فوقعت منه موقعًا فبينا هو يوم عندها إذ أخبرها بأمره فقالت: أنا تلك الجارية وأرته الشق في بطنها وقد كنت أبغي فما أدري بمائة أو أقل أو أكثر قال: فإنه قال لي يكون موتها بالعنكبوت قال: فبنى لها برجا في الصحراء وشيده فبينما هما يومًا في ذلك البرج إذا عنكبوت في السقف فقال هذا عنكبوت فقالت: هذا يقتلني لا يقتله أحد غيري فحركته فسقط فوضعت إبهام رجلها عليه فشدخته وساخ سمه بين ظفرها واللحم فاسودت

رجلها فماتت فنزلت هذه الآية:{ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ} [النساء: ٧٨] (١).

من كلامه رحمه الله:

عن مجاهد قال: من أعز نفسه أذل دينه ومن أذل نفسه أعز دينه.

عن مجاهد قال: ذهبت العلماء فما بقي إلا المتعلمون وما المجتهد فيكم إلا كاللاعب فيمن كان قبلكم.

عن مجاهد قال: إن المسلم لو لم يصب من أخيه إلا أن حياءه منه يمنعه من المعاصي لكفاه.

كان مجاهد يقول: الفقيه من يخاف الله عز وجل.

عن مجاهد قال: إن العبد إذا أقبل على الله تعالى بقلبه أقبل الله عز وجل بقلوب المؤمنين إليه أخبار.

عن مجاهد في قوله تعالى:{وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا} [المزمل: ٨] قال: أخلص له إخلاصًا.

عن مجاهد في قوله تعالى:{وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾} [المدثر: ٤] قال: وعملك فأصلح.

عن مجاهد في قوله تعالى:{وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ} [النساء: ٣٢] قال ليس بعرض الدنيا.

عن مجاهد في قوله تعالى:{ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ} [الزمر: ٣٣] قال: هم الذين يجيئون بالقرآن يقولون هذا الذي قد أعطيتمونا قد اتبعنا ما فيه.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ} [الزمر: ٣٣] قال: هم الذين يجيئون بالقرآن قد اتبعوه أو قال قد اتبعوا ما فيه.

عن مجاهد قال: إن القرآن يقول إني معك ما اتبعتني فإذا لم تتبعني اتبعتك.

عن مجاهد في قوله تعالى:{وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا} [القصص: ٧٧]

(١) حلية الأولياء، ٣ / ٢٨٨ - ٢٩٥.

قال: خذ من دنياك لآخرتك أن تعمل فيها بطاعته.

عن مجاهد في قوله تعالى:{لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ} [التكاثر: ٨] قال: عن كل شيء من لذه الدنيا.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾} [الرحمن: ٤٦] قال: للذي يذكر الله عز وجل عند المعاصي.

عن مجاهد في قوله تعالى:{سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم} [الفتح: ٢٩] قال: الخشوع في الصلاة.

عن مجاهد في قوله تعالى:{وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ} [البقرة: ٢٣٨] قال: القنوت الركوع والخشوع وغض البصر وخفض الجناح من رهبة الله تعالى قال: وكانت العلماء إذا قام أحدهم إلى الصلاة هاب الرحمن عز وجل أن يشذ نظره أو يلتفت أو يقلب الحصى أو يعبث بشيء أو يحدث نفسه بشيء من الدنيا إلا ناسيًا ما دام في الصلاة.

عن مجاهد قال: كنت إذا رأيت العرب استجفيتها وإن فتشتها وجدتها من وراء دينها وإذا دخلوا في الصلاة فكأنها أجساد ليس فيها أرواح.

عن مجاهد في قوله تعالى:{فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ} [مريم: ٥٩] قال: عند قيام الساعة وذهاب صالحي أمة محمد ﷺ واتبعوا الشهوات قال: ينزوا بعضهم على بعض زناة في الأزقة.

مجاهدًا يقول: القلب بمنزلة الكف فإذا أذنب الرجل ذنبًا انقبض إصبع حتى تنقبض أصابعه كلها إصبعًا إصبعًا قال: ثم يطبع عليه فكانوا يرون أن ذلك الران قال الله تعالى:{كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾} [المطففين: ١٤] (١).

عن مجاهد في قوله تعالى:{بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ} [البقرة: ٨١] قال: الذنوب تحيط بالقلوب كلما عمل ذنبًا ارتفعت حتى تغشى القلب وحتى يكون هكذا ثم قبض يده ثم قال هو الران.

(١) حلية الأولياء، ٣ / ٢٨٣.

عن مجاهد في قوله تعالى:{يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾} [القيامة: ١٣] قال: بأول عمله وآخره.

عن مجاهد في قوله تعالى:{فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾} [الشرح: ٧ - ٨] قال: إذا فرغت من أمر الدنيا فقمت إلى الصلاة فاجعل رغبتك إليه ونيتك له.

عن مجاهد في قوله تعالى:{يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾} [الفجر: ٢٧ - ٢٨] قال: النفس التي أيقنت أن الله عز وجل ربها وضربت جأشًا لأمره وإطاعته.

عن مجاهد قال: ما من ميت يموت إلا عرض عليه أهل مجلسه إن كان من أهل الذكر فمن أهل الذكر وإن كان من أهل اللهو فمن أهل اللهو.

عن مجاهد قال: لا يكون الرجل من الذاكرين الله كثيرًا حتى يذكر الله قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا.

عن مجاهد قال: لابن آدم جلساء من الملائكة فإذا ذكر الرجل المسلم أخاه المسلم بخير قالت الملائكة: ولك مثله وإذا ذكره بسوء قالت الملائكة: يا ابن آدم المستور عورته أربع على نفسك واحمد الله الذي ستر عليك.

عن مجاهد قال إبليس: إن يعجزني ابن آدم فلن يعجزني من ثلاث خصال أخذ مال بغير حقه وإضاعة إنفاقه في غير حقه ومنعه عن حقه.

عن مجاهد قال: لم ير إبليس ابن آدم ساجدًا قط إلا التطم ودعا بالويل ثم يقول: أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فلم أسجد فلي النار.

عن مجاهد قال: من لم يستحي من الحلال خفت مؤونته وأراح نفسه.

عن مجاهد قال: ما من يوم يمضي من الدنيا إلا قال الحمد لله الذي أخرجني من الدنيا فلا أعود إليها أبدا.

عن مجاهد في قوله تعالى:{فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ} [الأنبياء: ٨٧] قال: هو أن

يعاقبه بذنبه.

عن مجاهد قال: الرعد ملك يزجر السحاب بصوته.

عن مجاهد قال: إن الله تعالى ليصلح بصلاح العبد ولده وولد ولده.

قال مجاهد: بلغني أن عيسى بن مريم عليه السلام كان يقول: طوبى للمؤمن ثم طوبى له كيف يخلفه الله تعالى فيمن ترك بخير.

عن مجاهد في قوله تعالى:{وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ} [البقرة: ١٦٦] قال: الأوصال التي كانت بينهم في الدنيا.

عن مجاهد في قوله تعالى:{ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً} [التوبة: ١٠] قال: الإل الله عز وجل.

عن مجاهد في قوله تعالى:{بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ} [هود: ٨٦] قال طاعة الله عزو جل [1].

عن مجاهد في قوله تعالى:{ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ} [لقمان: ٦] قال الغناء.

عن مجاهد قال: كان يقال إن الصبر عند الصدمة الأولى.

عن هلال بن خباب قال: زاملت مجاهدًا إلى مكة فكان إذا مر على القبور قال: السلام عليكم يا أهل الديار المؤمنين منكم والمسلمين يرحم الله المستقدمين منكم وإنا إن شاء الله بكم لاحقون.

عن مجاهد قال: جعلت الأرض لملك الموت مثل الطست يتناول منها حيث شاء وجعلت له أعوان يتوفون الأنفس ثم يقبضها منهم.

عن مجاهد قال: لما أهبط آدم إلى الأرض قال له ربه عز وجل: ابن للخراب ولد للفناء.

- عن مجاهد قال في قوله تعالى:{وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ} [البقرة: ١٥٩] قال: يلعنهم

(١) حلية الأولياء، ٣ / ٢٨٤.

دواب الأرض وما شاء الله تعالى الحيات والعقارب قال: يقولون نمنع القطر بذنوبهم.

عن مجاهد في قوله تعالى:{إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦} [العاديات: ٦] قال لكفور.

عن مجاهد قال: إن هذا العلم لا يتعلمه مستح ولا متكبر.

عن مجاهد في قوله تعالى:{عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ} [ق: ١٧] قال: اسم كاتب السيئات قعيد.

عن مجاهد في قوله تعالى:{مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ} [ق: ٢٩] قال: قضيت ما أنا قاض.

عن مجاهد في قوله تعالى:{وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ} [يوسف: ٢٦] قال: ليس بإنس ولا جان وهو خلق من خلق الله عز وجل.

عن مجاهد في قوله تعالى:{يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ} [الرحمن: ٣٥] قال: لهب منقطع من النار.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا} [الأنعام: ١١٢] قال: تزيين الباطل بالألسنة.

عن مجاهد قال: إن الروح خلق على صورة ابن آدم.

عن مجاهد في قوله تعالى:{وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ} [الذاريات: ١٩] قال: سوى الزكاة.

قال قطن بن خليفة: سألت مجاهدًا عن هذه الآية: " ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون " قال: ما بين الموت والبعث وقوله بينهما برزخ لا يبغيان قال: بينهما حاجز من الله تعالى لا يبغي أحدهما على الآخر لا يبغي المالح على العذب ولا العذب على المالح.

عن مجاهد في قوله تعالى:{فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ} [البقرة: ١٧٥] قال: ما أعملهم بأعمال أهل النار.

عن مجاهد قال: لأهل النار جناب يستريحون إليه فإذا أتوه لسعتهم عقارب كأمثال البغال الدهم.

عن مجاهد قال: كان طعام يحيى بن زكريا عليه السلام العشب وإن كان ليبكي من خشية الله تعالى حتى لو كان القار على عينيه لحرقه.

عن مجاهد في قوله تعالى:{وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا} [الرعد: ١٥] قال الطائع المؤمن والكاره الكافر.

عن مجاهد في قوله تعالى:{وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ} [الرعد: ١٣] قال: العداوة.

عن مجاهد في قوله تعالى:{بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ} [الرعد: ٣١] قال: الويه.

عن مجاهد في قوله تعالى ويخلق ما لا تعلمون قال: السوس في النبات.

عن مجاهد في قوله تعالى:{وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي} [مريم: ٤] قال: شكى ذهاب أضراسه.

عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه في قوله تعالى:{سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا} [مريم: ٤٧] قال: رحيما.

عن مجاهد قال: لو أن رجلاً أنفق مثل أحد في طاعة الله تعالى لم يكن من المسرفين.

عن مجاهد في قوله تعالى:{يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ} [البقرة: ٢٦٩] قال: العلم والفقه.

عن مجاهد في قوله تعالى:{وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ} [النساء: ٥٩] قال: الفقهاء والعلماء.

عن مجاهد قال: أتته امرأة فقالت: إني أجد في نفسي شيئًا لا أستطيع أن أتكلم به قال: ذاك محض الإيمان فقلت: ما هو يا أبا الحجاج؟ قال: إن المؤمن إذا عصم من الشيطان في الذنوب جاءه فقال: أرأيت الله من خلقه.

عن مجاهد قال: سأل موسى عليه السلام ربه عز وجل أي عبادك أغنى قال: الذي يقنع بما يؤتى قال: فأي عبادك أحكم قال: الذي يحكم

للناس بما يحكم لنفسه قال: فأي عبادك أعلم قال: أخشاهم.

عن مجاهد في قوله تعالى:{وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ} [الأنعام: ١٥٣] قال: البدع والشبهات.

عن مجاهد قال: أفضل العبادة الرأي الحسن يعني اتباع السنة.

عن مجاهد قال: ما أدري أي النعمتين أفضل أن هداني للإسلام أو عافاني من الأهواء.

عن مجاهد في قوله تعالى:{وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ} [النساء: ٥٩] قال: أصحاب محمد ﷺ وربما قال أولوا العقل والفضل في دين الله تعالى.

عن مجاهد في قوله تعالى:{فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ} [النساء: ٥٩] قال: إلى كتاب الله وإلى رسوله ما دام حيًا فإذا قبض فإلى سنته.

عن مجاهد قال: كانت مريم تقول: كان عيسى إذا كان عندي أحد يتحدث معي سبح في بطني فإذا خلوت فلم يكن عندي أحد حدثني وحدثته وهو في بطني.

عن مجاهد في قوله تعالى:{وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً} [لقمان: ٢٠] قال: أما الظاهرة فالإسلام والرزق وأما الباطنة فما ستر من العيوب والذنوب.

عن مجاهد قال: لما قدمت ملكة سبأ على سليمان بن داود عليه السلام ورأت حطبًا جزلاً فقالت لغلام سليمان: هل يعرف مولاك كم وزن هذا الدخان؟ فقال: أنا أعلم فكيف مولاي قالت: فكم وزنه فقال: الغلام يوزن الحطب ثم يحرق ثم يوزن رماده فما نقص فهو دخانه.

عن مجاهد في قوله تعالى:{تَوْبَةً نَّصُوحًا} [التحريم: ٨] قال: النصوح أن تتوب من الذنب ثم لا تعود.

عن مجاهد قال: من لم يتب إذا أصبح وإذا أمسى فهو من الظالمين.

قال عبيد بن مهران المكتب: سمعت مجاهدًا يسأل عن هذه الآية:{قُل لِّلَّذِينَ

ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ} [الجاثية: ١٤]، قال هم الذين لا يدرون أنعم الله عليهم أم لم ينعم ثم قرأ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله فقال موسى: ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم قال: فهي النعم.

عن الحسن بن عبدالله قال: سمعت مجاهدًا يقول: إذا خرج الرجل حضره الشيطان فإذا قال: باسم الله قيل: هديت فإذا قال: توكلت على الله قيل: كفيت وإذا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله قيل: حفظت فيقال: كيف يكون بمن قد هدى وكفى وحفظ.

عن مجاهد أنه أعطى رجلاً خمسمائة درهم على مصحف يكتب له.

عن مجاهد في قوله تعالى:{وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا} [الفرقان: ٧٤] قال: مؤتمين لهم مقتدين بهم حتى يأتم بهم من خلفنا.

عن أبي بكر بن عياش أخبرني أبو يحيى أنه سمع مجاهدًا يقول: قال لي ابن عباس: لا تنامن إلا على وضوء فإن الأرواح تبعث على ما قبضت عليه.

عن مجاهد في قوله تعالى:{ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ} [المؤمنون: ٩٦] قال: هو السلام عليه إذا لقيته.

عن مجاهد قال: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام اتق لا يأخذنك الله على ذنب لا ينظر فيه إليك فتلقاه حين تلقاه وليست لك حجة.

حدث قيس بن سعد أنه سمع مجاهدًا يقول: ما من يوم إلا يقول: ابن آدم قد دخلت عليك اليوم ولم أرجع بعد اليوم فانظر ما تعمل في ولا ليلة إلا قالت كذلك.

عن مجاهد في قوله تعالى:{سَأَلَ سَآئِلُۢ} [المعارج: ١] قال: دعا داع.

عن مجاهد في قوله تعالى:{مَّآءً غَدَقٗا ﴿١٦﴾ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ} [الجن: ١٦ - ١٧] قال: حتى يرجعوا إلى علمي فيه.

عن مجاهد في قوله تعالى:{يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ} [النور: ٥٥] قال: لا يحبون غيري.

عن مجاهد في قوله تعالى:{وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودٗا ﴿١٣﴾} [المدثر: ١٢ - ١٣] قال: الوليد بن المغيرة ماله ألف دينار وبنوه عشرة.

عن مجاهد في قوله تعالى:{وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ} [فاطر: ١٠] قال: المراؤون.

عن مجاهد قال: كان بالمدينة أهل بيت ذو حاجة عندهم رأس شاة فأصابوا شيئا فقالوا: لو بعثنا بهذا الرأس إلى من هو أحوج إليه منا قال: فبعثوا به فلم يزل يدور بالمدينة حتى رجع الى أصحابه الذين خرج من عندهم.

عن مجاهد قال: إذا لقي الرجل الرجل فضحك في وجهه ذابت عنهم الذنوب كما ينثر الريح الورق اليابس عن الشجر قال: فقال ويحك إن هذا من العمل يسير فقال: أما سمعت قوله تعالى:{لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ} [الأنفال: ٦٣].

عن مجاهد قال: ما من مؤمن يموت إلا تبكي عليه الأرض أربعين صباحًا.

عن مجاهد في قوله تعالى:{فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ} [الروم: ٤٤] قال: في القبر.

عن مجاهد وسعيد بن المسيب قالا: يبعث داود عليه السلام وذكر خطيئته ووجله منها في قلبه منقوشة في كفه فإذا رأى أهاويل الموقف لم يجد منه متعوذًا ولا محرزًا إلا برحمة ربه وقربه فيشير إليه أن ها هنا وأشار بيمينه إلى جنبه فذلك قوله عز وجل:{وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٠﴾} [ص: ٤٠].

عن مجاهد قال: ما التقى مسلمان فتصافحا إلا غفر لهما ذنوبهما قبل أن يتفرقا أو تحاتت عنهما ذنوبهما! قلت: إن ذلك يسير قال: لا تقل ذلك إن الله عز وجل يقول:{لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ} [الأنفال: ٦٣]، قال: فكان مجاهد أفقه مني.

عن مجاهد قال: كان يحج من بني إسرائيل مائة ألف فإذا بلغوا أنصاب الحرم قلعوا نعالهم ثم دخلوا الحرم حفاة.

عن مجاهد في قوله تعالى:{ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ} [آل عمران: ٤٣] قال: أطيلي الركوع.

عن مجاهد في قوله تعالى:{ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ } [الإسراء: ٦٤] قال: المزامير.

عن مجاهد في قوله تعالى:{ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ﴿١٢﴾} [المزمل: ١٢] قال: قيودا.

عن مجاهد في قوله تعالى:{لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ } [الشورى: ١٥] قال: لا خصومة بيننا وبينكم.

عن مجاهد في قوله تعالى:{لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ } [التكاثر: ٨] قال عن كل لذه في الدنيا.

عن مجاهد في قوله تعالى:{ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾} [القمر: ٤٨] قال: هم المكذبون بالقدر.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ} [سبأ: ١٠] قال: سبحي معه.

عن مجاهد في قوله تعالى:{ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ} [المؤمنون: ٩٦] قال: المصافحة.

عن مجاهد قال: رن إبليس أربعًا حين لعن وحين أهبط وحين بعث النبي ﷺ وقد بعث على فترة من الرسل وحين أنزلت الحمد لله رب العالمين وأنزلت بالمدينة وكان يقال: الرنة والنخرة من الشيطان فلعن من رن أو نخر.

عن مجاهد في قوله تعالى:{ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ } [الشعراء: ١٢٨] قال: برزخ الحمام.

عن مجاهد في قوله تعالى:{وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ} [الجمعة: ١٠] قال: اطلبوا التجارة

في البحر.

عن مجاهد في قوله تعالى:{أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ} [البقرة: ٢٦٧] قال: من التجارة.

عن خصيف قال: سمعت مجاهدًا يقول: أيما امرأة قامت إلى الصلاة ولم تغط شعرها لم تقبل صلاتها.

عن مجاهد:{إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ} [فصلت: ٣٠]، قال: فلم يشركوا حتى ماتوا.

- عن مجاهد في قوله تعالى:{ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴿٤﴾} [الإخلاص: ٤] قال صاحبة.

عن مجاهد قال: النملة التي كلمت سليمان عليه السلام كانت مثل الذئب العظيم.

عن مجاهد قال: كان الغلام من قوم عاد لا يحتلم حتى يبلغ مائتي سنة.

عن مجاهد قال: ليس أحد إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ.

قال مجاهد بن جبر: قال لقمان لابنه: إياك إذا سئل غيرك أن تكون أنت المجيب، كأنك أصبت غنيمة أو ظفرت بعطية، فإنك إن فعلت ذلك، أزريت بالمسؤول، وعنفت السائل، ودللت السفهاء على سفاهة حلمك، وسوء أدبك.

قال مجاهد بن جبر: خصلتان تفسدان الصيام: الغيبة والكذب [(١)].

* * *

(١) حلية الأولياء، ٣ / ٢٨٨ - ٢٩٧.

الإمام الحافظ الليث بن سعد

الليث بن سعد

أعـلام الفقهـاء

الإمام الحافظ الليث بن سعد

من أشهر الفقهاء في زمانه فاق في علمه وفقهه إمام المدينة الإمام مالك غير أن تلامذته لم يقوموا بتدوين علمه وفقهه ونشره في الآفاق مثلما فعل تلامذة الإمام مالك، وكان الإمام الشافعي يقول: الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به. إنه الإمام الليث بن سعد بن عبد الرحمن الإمام الحافظ شيخ الإسلام وعالم الديار المصرية ولد بقرقشندة وهي قرية من أسفل أعمال مصر في سنة أربع وتسعين للهجرة.

طلبه للعلم:
تلقى الليث العلم على عدد من كبار علماء عصره، فسمع من عطاء بن أبي رباح وابن أبى مليكة ونافعًا العمري وسعيد بن أبي سعيد المقبري وابن شهاب الزهري وأبا الزبير المكي وغيرهم كثير.

وفي عدة روايات يصف الليث رحلاته في طلب العلم قال ابن بكير: سمعت الليث يقول: سمعت بمكة سنة ثلاث عشرة ومائة من الزهري وأنا ابن عشرين سنة.

قال يحيى بن بكير: أخبرني من سمع الليث يقول: كتبت من علم ابن شهاب علمًا كثيرًا وطلبت ركوب البريد إليه إلى الرصافة فخفت أن لا يكون ذلك لله فتركته ودخلت على نافع فسألني فقلت: أنا مصري فقال: ممن قلت؟ من قيس قال: ابن كم؟ قلت: ابن عشرين سنة قال: أما لحيتك فلحية ابن أربعين؟ قال أبو صالح: خرجت مع الليث إلى العراق سنة إحدى وستين ومائة خرجنا في شعبان وشهدنا الأضحى ببغداد قال: وقال لي الليث ونحن ببغداد سل عن منزل هشيم الواسطي فقل له: أخوك ليث المصري يقرئك السلام ويسألك أن تبعث إليه شيئًا من كتبك فلقيت هشيمًا فدفع إلي شيئًا فكتبنا منه وسمعتها مع الليث.

مكانته العلمية:
يقول الحافظ أبو نعيم: كان الليث رحمه الله فقيه مصر ومحدثها ومحتشمها

ورئيسها ومن يفتخر بوجوده الإقليم بحيث إن متولي مصر وقاضيها وناظرها من تحت أوامره ويرجعون إلى رأيه ومشورته ولقد أراده المنصور على أن ينوب له على الإقليم فاستعفى من ذلك.

ولليث أحاديث كثيرة في كتب الصحاح، ومن الأحاديث التي رويت عن الليث ما رواه الترمذي قال: حدثنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن سعد بن سنان عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال:﴿**يكون بين يدي الساعة فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمنًا ويمسي كافرًا ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا**﴾.

قال أبو صالح: كان الليث يقرأ بالعراق من فوق على أصحاب الحديث والكتاب بيدي فإذا فرغ رميت به إليهم فنسخوه.

قال ابن سعد: كان الليث قد استقل بالفتوى في زمانه.

روى عبد الملك بن شعيب عن أبيه قال: قيل لليث أمتع الله بك إنا نسمع منك الحديث ليس في كتبك فقال: أو كل ما في صدري في كتبي لو كتبت ما في صدري ما وسعه هذا المركب.

وقال عبد الله بن أحمد: سمعت أبي يقول: أصح الناس حديثًا عن سعيد المقبري الليث بن سعد يفصل ما روي عن أبي هريرة وما روي عن أبيه عن أبي هريرة هو ثبت في حديثه جدًا.

ومما يروى عنه أيضًا عن الليث بن سعد عن هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائمًا مسندًا ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش والله ما فيكم أحد على دين إبراهيم غيري وكان يحيى الموؤودة يقول الرجل: إذا أراد أن يقتل ابنته مه لا تقتلها أنا أكفيك مؤنتها فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤنتها

ولليث أسانيد إلى أبي هريرة ومنها: عن الليث عن سعيد المقبري عن أبيه

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال:﴿إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة﴾.

مناقبه وفضائله:

قال ابن بكير: كان الليث فقيه البدن عربي اللسان يحسن القرآن والنحو ويحفظ الحديث والشعر حسن المذاكرة.

روي عن شرحبيل بن جميل قال: أدركت الناس أيام هشام الخليفة وكان الليث بن سعد حدث السن وكان بمصر عبيد الله بن أبي جعفر وجعفر بن ربيعة والحارث بن يزيد ويزيد بن أبي حبيب وابن هبيرة وإنهم يعرفون لليث فضله وورعه وحسن إسلامه عن حداثة سنة ثم قال ابن بكير: لم أر مثل الليث، وروى عبد الملك بن يحيى بن بكير عن أبيه قال: ما رأيت أحدًا أكمل من الليث.

قال عثمان بن صالح: كان أهل مصر ينتقصون عثمان حتى نشأ فيهم الليث فحدثهم بفضائله فكفوا وكان أهل حمص ينتقصون عليًا حتى نشأ فيهم إسماعيل بن عياش فحدثهم بفضائل علي فكفوا عن ذلك، وروي عن حرملة يقول: كان الليث بن سعد يصل مالكًا بمائة دينار في السنة فكتب مالك إليه على دين فبعث إليه بخمس مائة دينار فسمعت ابن وهب يقول: كتب مالك إلى الليث إني أريد أن أدخل بنتي على زوجها فأحب أن تبعث لي بشيء من عصفر فبعث إليه بثلاثين حملاً عصفرًا فباع منه بخمس مائة دينار وبقي عنده فضله، قال أبو داود: قال قتيبة: كان الليث يستغل عشرين ألف دينار في كل سنة وقال: ما وجبت علي زكاة قط وأعطى الليث ابن لهيعة ألف دينار وأعطى مالكًا ألف دينار وأعطى منصور بن عمار الواعظ ألف دينار وجارية تساوى ثلاث مائة دينار.

قال صالح بن أحمد الهمذاني: قدم منصور بن عمار على الليث فوصله بألف دينار واحترقت دار ابن لهيعة فوصله بألف دينار ووصل مالكًا بألف دينار وكساني قميص سندس فهو عندي.

وروي عن محمد بن رمح يقول كان دخل الليث بن سعد في كل سنة ثمانين ألف دينار ما أوجب الله عليه زكاة درهم قط.

وروي عن أشهب بن عبد العزيز يقول: كان الليث له كل يوم أربعة مجالس يجلس فيها أما أولها فيجلس للسلطان في نوائبه وحوائجه وكان الليث يغشاه السلطان فإذا أنكر من القاضي أمرًا أو من السلطان كتب إلى أمير المؤمنين فيأتيه العزل ويجلس لأصحاب الحديث وكان يقول: نجحوا أصحاب الحوانيت فإن قلوبهم معلقة بأسواقهم ويجلس للمسائل يغشاه الناس فيسألونه ويجلس لحوائج الناس لا يسأله أحد فيرده كبرت حاجته أو صغرت وكان يطعم الناس في الشتاء الهرائس بعسل النحل وسمن البقر وفي الصيف سويق اللوز في السكر.

وروي عن يعقوب ابن داود وزير المهدي قال:قال أمير المؤمنين لما قدم الليث العراق الزم هذا الشيخ فقد ثبت عندي أنه لم يبق أحد أعلم بما حمل منه.

وكان الليث بن سعد يقول: بلغت الثمانين وما نازعت صاحب هوى قط، ويعلق الحافظ أبو نعيم على قوله فيقول: كانت الأهواء والبدع خاملة في زمن الليث ومالك والأوزاعي والسنن ظاهرة عزيزة فأما في زمن أحمد بن حنبل وإسحاق وأبي عبيد فظهرت البدعة وامتحن أئمة الأثر ورفع أهل الأهواء رؤوسهم بدخول الدولة معهم فاحتاج العلماء إلى مجادلتهم بالكتاب والسنة ثم كثر ذلك واحتج عليهم العلماء أيضًا بالمعقول فطال الجدال واشتد النزاع وتولدت الشبة نسأل الله العافية.

قال بكر بن مضر: قدم علينا كتاب مروان بن محمد إلى حوثرة والي مصر إني قد بعثت إليكم أعرابيا بدويا فصيحا من حاله ومن حاله فأجمعوا له رجلاً يسدده في القضاء ويصوبه في المنطق فأجمع رأي الناس على الليث بن سعد وفي الناس معلماه يزيد بن أبي حبيب وعمرو بن الحارث، قال أحمد بن صالح: أعضلت الرشيد مسألة فجمع لها فقهاء الأرض حتى

أشخص الليث فأخرجه منها.

ثناء العلماء عليه:

كان الإمام الشافعي يقول: الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به.

وقال ابن وهب: لولا مالك والليث لضل الناس.

وقال عبد الله بن صالح: صحبت الليث عشرين سنة لا يتغدى ولا يتعشى إلا مع الناس وكان لا يأكل إلا بلحم إلا أن يمرض.

وقال أحمد بن سعد الزهري: سمعت أحمد بن حنبل يقول: الليث ثقة ثبت، وقال أيضا: الليث كثير العلم صحيح الحديث

وقال عثمان الدارمي: سمعت يحيى بن معين يقول: الليث أحب إلي من يحيى بن أيوب ويحيى ثقة قلت: فكيف حديثه عن نافع؟ فقال: صالح ثقة.

وعن أحمد بن صالح وذكر الليث فقال: إمام قد أوجب الله علينا حقه لم يكن بالبلد بعد عمرو بن الحارث مثله.

قال ابن سعد: استقل الليث بالفتوى وكان ثقة كثير الحديث سريًا من الرجال سخيًا له ضيافة

وقال العجلي والنسائي: الليث ثقة.

وقال ابن خراش: صدوق صحيح الحديث.

وروي عن يحيى بن معين قال: هذه رسالة مالك إلى الليث حدثنا بها عبد الله بن صالح يقول فيها: وأنت في إمامتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك وحاجة من قبلك إليك واعتمادهم على ما جاءهم منك.

وقال يحيى بن بكير: الليث أفقه من مالك ولكن الحظوة لمالك رحمه الله.

قال علي بن المديني: الليث ثبت.

قال العلاء بن كثير: الليث بن سعد سيدنا وإمامنا وعالمنا.

مواقف من حياته:

قال الحسن بن يوسف بن مليح: سمعت أبا الحسن الخادم قال: كنت غلامًا لزبيدة (زوجة الرشيد) وأتي بالليث بن سعد تستفتيه فكنت واقفًا على رأس ستي زبيدة خلف الستارة فسأله الرشيد فقال له: حلفت إن لي جنتين فاستحلفه الليث ثلاثًا إنك تخاف الله فحلف له فقال: قال الله:{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾} [الرحمن: ٤٦] فأقطعه الرشيد قطائع كثيرة بمصر.

وروي عن الليث قال: قال لي أبو جعفر المنصور تلي لي مصر قلت: لا يا أمير المؤمنين إني أضعف عن ذلك إني رجل من الموالي فقال: ما بك ضعف معي ولكن ضعفت نيتك في العمل لي.

قال: وجاءت امرأة إلى الليث فقالت: يا أبا الحارث إن ابنًا لي عليلاً واشتهى عسلاً فقال: يا غلام أعطها مرطًا من عسل والمرط عشرون ومائة رطل.

وعن الحارث بن مسكين قال: اشترى قوم من الليث ثمرة فاستغلوها فاستقالوا فأقالهم ثم دعا بخريطة فيها أكياس فأمر لهم بخمسين دينارًا فقال له ابنه الحارث في ذلك فقال: اللهم غفرا إنهم قد كانوا أملوا فيها أملاً فأحببت أن أعوضهم من أملهم بهذا.

وروي عن الليث قال: لما ودعت أبا جعفر المنصور ببيت المقدس قال: أعجبني ما رأيت من شدة عقلك والحمد لله الذي جعل في رعيتي مثلك قال شعيب: كان أبي يقول: لا تخبروا بهذا ما دمت حيًّا.

قال يحيى بن بكير: قال الليث: قال لي المنصور تلي مصر؛ فاستعفيت قال: أما إذا أبيت فدلني على رجل أقلده مصر قلت: عثمان بن الحكم الجذامي رجل له صلاح وله عشيرة. قال: فبلغ عثمان ذلك فعاهد الله ألا يكلم الليث.

وروي عن سعيد الآدم قال: مررت بالليث بن سعد فتنحنح فرجعت إليه

فقال لي: يا سعيد خذ هذا القنداق فاكتب لي فيه من يلزم المسجد ممن لا بضاعة له ولا غلة. فقلت: جزاك الله خيرًا يا أبا الحارث. وأخذت منه القنداق ثم صرت إلى المنزل فلما صليت أوقدت السراج وكتبت بسم الله الرحمن الرحيم ثم قلت فلان بن فلان ثم بدرتني نفسي. فقلت: فلان بن فلان. قال: فبينا أنا على ذلك إذا أتاني آت فقال: هالله يا سعيد تأتي إلى قوم عاملوا الله سرًّا فتكشفهم لآدمي ما الليث وما شعيب أليس مرجعهم إلى الله الذي عاملوه. فقمت ولم أكتب شيئا، فلما أصبحت أتيت الليث فتهلل وجهه فناولته القنداق فنشره فما رأى فيه غير بسم الله الرحمن الرحيم فقال: ما الخبر فأخبرته بصدق عما كان فصاح صيحة فاجتمع عليه الناس من الحلق فسألوه فقال: ليس إلا خير ثم أقبل علي فقال: يا سعيد تبينتها وحرمتها صدقت ما الليث وما شعيب أليس مرجعهم إلى الله.

عن أبي صالح كاتب الليث قال: كنا على باب مالك فامتنع عن الحديث فقلت: ما يشبه هذا صاحبنا فسمعها مالك فأدخلنا وقال: من صاحبكم؟ قلت: الليث قال: تشبهونا برجل كتبت إليه في قليل عصفر نصبغ به ثياب صبياننا فأنفذ منه ما بعنا فضلته بألف دينار.

وفاته:

قال يحيى بن بكير وسعيد بن أبي مريم: مات الليث للنصف من شعبان سنة خمس وسبعين ومائة قال يحيى: يوم الجمعة وصلى عليه موسى بن عيسى.

قال خالد بن عبد السلام الصدفي: شهدت جنازة الليث بن سعد مع والدي فما رأيت جنازة قط أعظم منها رأيت الناس كلهم عليهم الحزن وهم يعزي بعضهم بعضًا ويبكون فقلت يا أبت كأن كل واحد من الناس صاحب هذه الجنازة فقال: يابني لا ترى مثله أبدا [١].

(١) المصدر: طبقات ابن سعد: ٧ / ٥١٧، التاريخ لابن معين: ٥٠١، طبقات خليفة: ٢٩٦. تاريخ خليفة: ٤٤٩، التاريخ الكبير: ٧ / ٢٤٦، التاريخ الصغير: ٢ / ٢٠٩، المعارف لابن قتيبة: ٥٠٥، ٥٠٦، الجرح والتعديل: ٧ / ١٧٩ - ١٨٠، مشاهير علماء الأمصار:(١٥٣٦): ١٩١، مروج الذهب: ٣ / ٣٤٩، الحلية: ٧ / ٣١٨، الفهرست: ١ / ١٩٩، تاريخ بغداد: ١٣ / ٣، صفوة الصفوة: ٤ / ٢٨١، وفيات الأعيان: ٤ / ١٢٧ - ١٣٢، تهذيب الكمال للمزي: ١١٥٢، تذكرة الحفاظ: ١ / ٢٢٤ - ٢٢٦، ميزان الاعتدال ٣ / ٤٢٣، العبر للذهبي: ١ / ٢٦٦، صبح الأعشى: ٢ / ٣٩٩، تهذيب التهذيب: ٨ / ٤٥٩، النجوم الزاهرة: ٢ / ٨٢، الجواهر المضيئة: ١ / ٢٦٦، شذرات الذهب: ١ / ٢٨٥.

الإمام الفقيه الطبري

الإمام الفقيه الطبري

أعـلام الفقهـاء

الإمام الفقيه الطبري

في بلاد (طبرستان).. بلاد العلم والأدب والفقه، وفي أجمل مدنها.. مدينة (آمُل) العريقة عاصمة طبرستان، والتي تقع الآن في دولة أذربيجان، جنوب بحر قزوين، وُلد حجَّة العلوم، وعالم العلماء في عصره، الإمام (محمد ابن جرير الطبري)سنة ٢٢٤هـ، ولُقب بالطبري لأن أهل طبرستان جميعًا يُنْسَبون إليها؛ فيقال لكل واحد منهم طبري، فكان أهل طبرستان كثيري الحروب، فكان كل منهم يحمل سلاحه في يده، وهو نوع من الأشجار يسمى (الطبر).

لم يكد الطبري يبلغ السن التي تؤهله للتعلم حتى عهد به والده إلى علماء (آمُل) وسرعان ما تفتح عقله، وبدت عليه علامات النبوغ، فكان هذا النبوغ المبكر حافزًا لأبيه على إكمال تعليم ابنه، وبخاصة أنه رأى رؤية تفاءل من تأويلها، قال الطبري: (رأى أبي في النوم أنني بين يدي رسول الله ﷺ، ومعي مِخلاة مملوءةٌ بالأحجار، وأنا أرمي بين يديه) وقصَّ رؤياه على مفسر للأحلام، فقال له: إن ابنك إن كبر نصح في دينه، ودافع عن شريعته، فحرص أبي على معونتي من أجل طلب العلم وأنا حينئذ صبي صغير.

أخذ ابن جرير الطبري يرحل في طلب العلم، فتعلم الفقه ببغداد، والمغازي والسير في الكوفة، ثم توجه ناحية مصر، وفي طريقه إليها مرَّ ببيروت، وقضى بها عدة أيام حتى قرأ القرآن برواية الشاميين، ثم واصل مسيرته، وفي مصر تلقى الطبري العلم، فأخذ من علمائها قراءة (حمزة) (وَوَرْش) ثم عاد إلى بغداد مرة أخرى، وانقطع للعلم والدراسة والتأليف في كثير من الأوقات، وكان يتاجر بقية الوقت ليأتي برزقه.

وكان الطبري عالي الهمة، عظيم الاجتهاد؛ ومما يحكى عنه: أن رجلاً جاءه يسأله في العَرُوض (وهو علم يعرف به الشعر من النثر) ولم يكن الطبري له إلمام كبير بهذا العلم فقال له: علي قولٌ ألا أتكلم اليوم في شيء

من العروض، فإذا كان في غد فتعالَ إلي، ثم طلب أبو جعفر كتاب العروض، فتدارسه في ليلته، وقال: أمسيت غير عَرُوضي، وأصبحت عروضيًّا.

وقد تمكن ابن جرير من نواحي العلم، وأدلى بدلوه فيها، حتى أصبح إمام عصره بغير منازع، وقد قيل عنه: كان كالقارئ الذي لا يعرف إلا القرآن، وكالمحدث الذي لا يعرف إلا الحديث، وكالفقيه الذي لا يعرف إلا الفقه، وكالنحوي الذي لا يعرف إلا النحو.. وظل الطبري أربعين عامًا يكتب كل يوم أربعين ورقة، قاصدًا بذلك وجه الله، بما ينفع به الإسلام والمسلمين، وكان رحمه الله من العباد الزهاد، يقوم الليل، نظيفًا في ظاهره وباطنه، ظريفًا، حسن العشرة، مهذبًا في جميع أحواله.

مؤلفات الطبري:

كان الطبري من أكثر علماء عصره نشاطًا في التأليف، أشهر مؤلفاته تفسيره المعروف بتفسير الطبري، وكتاب " تاريخ الأمم والملوك " روي عنه أنه قال: استخرت الله وسألته العون على ما نويته من تصنيف التفسير قبل أن أعمله ثلاث سنين فأعانني [١].

قال الحاكم: وسمعت أبا بكر بن بالويه يقول: قال لي أبو بكر بن خزيمة: بلغني أنك كتبت التفسير عن محمد بن جرير قلت: بلى كتبته عنه إملاء قال: كله قلت: نعم، قال: في أي سنة قلت: من سنة ثلاث وثمانين ومائتين إلى سنة تسعين ومائتين قال: فاستعاره مني أبو بكر ثم رده بعد سنين ثم قال: لقد نظرت فيه من أوله إلى آخره وما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير [٢].

قال أبو محمد الفرغاني: تم من كتب محمد بن جرير كتاب التفسير الذي لو ادعى عالم أن يصنف منه عشرة كتب كل كتاب يحتوي على علم مفرد

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٩٥/١١.
(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٩٤/١١.

مستقصى لفعل [١].

وتم من كتبه " كتاب التاريخ " إلى عصره وتم أيضًا كتاب " تاريخ الرجال من الصحابة والتابعين وإلى شيوخه الذين لقيهم " وتم له كتاب " لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام " وهو مذهبه الذي اختاره وجوده واحتج له وهو ثلاثة وثمانون كتابًا وتم له كتاب " القراءات والتنزيل والعدد " وتم له كتاب " اختلاف علماء الأمصار " وتم له كتاب " الخفيف في أحكام شرائع الإسلام " وهو مختصر لطيف وتم له كتاب " التبصير " وهو رسالة إلى أهل طبرستان يشرح فيها ما تقلده من أصول الدين وابتدأ بتصنيف كتاب " تهذيب الآثار " وهو من عجائب كتبه ابتداء بما أسنده الصديق مما صح عنده سنده وتكلم على كل حديث منه بعلله وطرقه ثم فقهه واختلاف العلماء وحججهم وما فيه من المعاني والغريب والرد على الملحدين فتم منه مسند العشرة وأهل البيت والموالي وبعض مسند ابن عباس فمات قبل تمامه. قلت: هذا لو تم لكان يجيء في مائة مجلد، قال: وابتدأ بكتابه " البسيط " فخرج منه كتاب الطهارة فجاء في نحو من ألف وخمسمائة ورقة لأنه ذكر في كل باب منه اختلاف الصحابة والتابعين وحجة كل قول وخرج منه أيضًا أكثر كتاب الصلاة وخرج منه آداب الحكام وكتاب المحاضر والسجلات و" كتاب ترتيب العلماء " وهو من كتبه النفيسة ابتدأه بآداب النفوس وأقوال الصوفية ولم يتمه وكتاب " المناسك " وكتاب " شرح السنة " وهو لطيف بين فيه مذهبه واعتقاده وكتابه " المسند المخرج " يأتي فيه على جميع ما رواه الصحابي من صحيح وسقيم ولم يتمه ولما بلغه أن أبا بكر بن أبي داود تكلم في حديث غدير خم عمل كتاب " الفضائل " فبدأ بفضل أبي بكر ثم عمر وتكلم على تصحيح حديث غدير خم واحتج لتصحيحه ولم يتم الكتاب.

وقال بعض العلماء: لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل تفسير محمد

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٩٤/١١.

بن جرير لم يكن كثيرًا.

أسلوبه في التأليف:

يقول أحمد بن خلكان: " لأبي جعفر في تأليفه عبارة وبلاغة فمما قاله في كتاب الآداب النفيسة والأخلاق الحميدة القول في البيان عن الحال الذي يجب على العبد مراعاة حاله فيما يصدر من عمله لله عن نفسه قال: إنه لا حالة من أحوال المؤمن يغفل عدوه الموكل به عن دعائه إلى سبيله والقعود له رصدًا بطرق ربه المستقيمة صادًا له عنها كما قال لربه عز ذكره إذ جعله من المنظرين:{لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ} [الأعراف: ١٦، ١٧] طمعًا منه في تصديق ظنه عليه إذ قال لربه{لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٦٢] فحق على كل ذي حجى أن يجهد نفسه في تكذيب ظنه وتخييبه منه أمله وسعيه فيما أرغمه ولا شيء من فعل العبد أبلغ في مكروهه من طاعته ربه وعصيانه أمره ولا شيء أسر إليه من عصيانه ربه واتباعه أمره فكلام أبي جعفر من هذا النمط وهو كثير مفيد ".

وروي عن أبي سعيد الدينوري مستملي ابن جرير " أخبرنا أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري بعقيدته فمن ذلك وحسب امرئ أن يعلم أن ربه هو الذي على العرش استوى فمن تجاوز ذلك فقد خاب وخسر وهذا تفسير هذا الإمام مشحون في آيات الصفات بأقوال السلف على الإثبات لها لا على النفي والتأويل وأنها لا تشبه صفات المخلوقين أبدا " (١).

ثناء العلماء عليه:

قال أبو سعيد بن يونس: محمد بن جرير من أهل آمل كتب بمصر ورجع إلى بغداد وصنف تصانيف حسنة تدل على سعة علمه.

وقال الخطيب البغدادي: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب كان

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١١/٢٩٥.

أحد أئمة العلماء يُحكم بقوله ويُرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره فكان حافظا لكتاب الله عارفًا بالقراءات بصيرًا بالمعاني فقيهًا في أحكام القرآن عالمًا بالسنن وطرقها صحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها عارفا بأقوال الصحابة والتابعين عارفًا بأيام الناس وأخبارهم. وكان من أفراد الدهر علمًا وذكاء وكثرة تصانيف قل أن ترى العيون مثله.

مواقف من حياته:

قيل: إن المكتفي أراد أن يحبس وقفًا تجتمع عليه أقاويل العلماء فأحضر له ابن جرير فأملى عليهم كتابًا لذلك فأخرجت له جائزة فامتنع من قبولها فقيل له: لا بد من قضاء حاجة قال: أسأل أمير المؤمنين أن يمنع السؤال يوم الجمعة ففعل ذلك وكذا التمس منه الوزير أن يعمل له كتابًا في الفقه فألف له كتاب الخفيف فوجه إليه بألف دينار فردها.

وروي عن محمد بن أحمد الصحاف السجستاني سمعت أبا العباس البكري يقول: جمعت الرحلة بين ابن جرير وابن خزيمة ومحمد بن نصر المروزي ومحمد بن هارون الروياني بمصر فأرملوا ولم يبق عندهم ما يقوتهم وأضر بهم الجوع فاجتمعوا ليلة في منزل كانوا يأوون إليه فاتفق رأيهم على أن يستهموا ويضربوا القرعة فمن خرجت عليه القرعة سأل لأصحابه الطعام فخرجت القرعة على ابن خزيمة فقال لأصحابه: أمهلوني حتى أصلي صلاة الخيرة قال: فاندفع في الصلاة فإذا هم بالشموع ورجل من قبل والي مصر يدق الباب ففتحوا فقال: أيكم محمد بن نصر؟ فقيل: هو ذا فأخرج صرة فيها خمسون دينارًا فدفعها إليه ثم قال: وأيكم محمد ابن جرير؟ فأعطاه خمسين دينارًا وكذلك للروياني وابن خزيمة ثم قال: إن الأمير كان قائلاً بالأمس فرأى في المنام أن المحامد جياع قد طووا كشحهم فأنفذ إليكم هذه الصرر وأقسم عليكم إذا نفذت فابعثوا إلي أحدكم.

وقال أبو محمد الفرغاني في ذيل تاريخه على تاريخ الطبري قال: حدثني

أبو علي هارون بن عبد العزيز أن أبا جعفر لما دخل بغداد وكانت معه بضاعة يتقوت منها فسرقت فأفضى به الحال إلى بيع ثيابه وكمي قميصه فقال له بعض أصدقائه: تنشط لتأديب بعض ولد الوزير أبي الحسن عبيد الله بن يحيى ابن خاقان قال: نعم فمضى الرجل فأحكم له أمره وعاد فأوصله إلى الوزير بعد أن أعاره ما يلبسه فقربه الوزير ورفع مجلسه وأجرى عليه عشرة دنانير في الشهر فاشترط عليه أوقات طلبه للعلم والصلوات والراحة وسأل استلافه رزق شهر ففعل وأدخل في حجرة التأديب وخرج إليه الصبي وهو أبو يحيى فلما كتبه أخذ الخادم اللوح ودخلوا مستبشرين فلم تبق جارية إلا أهدت إليه صينية فيها دراهم ودنانير فرد الجميع وقال: قد شرطت على شيء فلا آخذ سواه فدرى الوزير ذلك فأدخله إليه وسأله فقال: هؤلاء عبيد وهم لا يملكون فعظم ذلك في نفسه.

وكان ربما أهدى إليه بعض أصدقائه الشيء فيقبله ويكافئه أضعافًا لعظم مروءته. وكان ممن لا تأخذه في الله لومة لائم مع عظيم ما يلحقه من الأذى والشناعات من جاهل وحاسد وملحد فأما أهل الدين والعلم فغير منكرين علمه وزهده في الدنيا ورفضه لها وقناعته رحمه الله بما كان يرد عليه من حصة من ضيعة خلفها له أبوه بطبرستان يسيرة، وكان ينشد لنفسه:

إذا أعسرت لم يعلم رفيقي ::: وأستغني فيستغني صديقي
حيائي حافظ لي ماء وجهي ::: ورفقي في مطالبتي رفيقي
ولو أني سمحت بماء وجهي ::: لكنت إلى العلى سهل الطريق
وله خلقان لا أرضى فعالهما ::: بطر الغنى ومذلة الفقر
فإذا غنيت فلا تكن بطرا ::: وإذا افتقرت فتِهْ على الدهر

قال أبو القاسم بن عقيل الوراق: إن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا؟ قالوا: كم قدره فذكر نحو ثلاثين ألف ورقة فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه فقال: إنا لله ماتت الهمم

فاختصر ذلك في نحو ثلاثة آلاف ورقة ولما أن أراد أن يملي التفسير قال لهم نحوا من ذلك ثم أملاه على نحو من قدر التاريخ [١].

وكان الطبري لا يقبل المناصب خوفًا أن تشغله عن العلم من ناحية ولأن من عادة العلماء البعد عن السلطان من ناحية أخري، فقد روى المراغي قال: لما تقلد الخاقاني الوزارة وجه إلى أبي جعفر الطبري بمال كثير فامتنع من قبوله فعرض عليه القضاء فامتنع فعرض عليه المظالم فأبى فعاتبه أصحابه وقالوا: لك في هذا ثواب وتحيي سنة قد درست وطمعوا في قبوله المظالم فذهبوا إليه ليركب معهم لقبول ذلك فانتهرهم وقال: قد كنت أظن أني لو رغبت في ذلك لنهيتموني عنه قال: فانصرفنا خجلين.

وفاته:

قال أبو محمد الفرغاني حدثني أبو بكر الدينوري قال: لما كان وقت صلاة الظهر من يوم الاثنين الذي توفي في آخره ابن جرير طلب ماءً ليجدد وضوءه فقيل له: تؤخر الظهر تجمع بينها وبين العصر فأبى وصلى الظهر مفردة والعصر في وقتها أتم صلاة وأحسنها، وحضر وقت موته جماعة منهم أبو بكر ابن كامل فقيل له قبل خروج روحه: يا أبا جعفر أنت الحجة فيما بيننا وبين الله فيما ندين به فهل من شيء توصينا به من أمر ديننا وبينة لنا نرجو بها السلامة في معادنا فقال: الذي أدين الله به وأوصيكم هو ما ثبت في كتبي فاعملوا به وعليه وكلامًا هذا معناه وأكثر من التشهد وذكر الله عز وجل ومسح يده على وجهه وغمض بصره بيده وبسطها وقد فارقت روحه الدنيا.

قال أحمد بن كامل: توفي ابن جرير عشية الأحد ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاث مئة ودفن في داره برحبة يعقوب يعني ببغداد قال: ولم يغير

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٩٤/١١ - ٢٩٧.

شيبة وكان السواد فيه كثيرًا وكان أسمر أقرب إلى الأدمة (السواد) أعين نحيف الجسم طويلاً فصيحًا وشيعه من لا يحصيهم إلا الله تعالى.

حقيقة تشيع الطبري!!:

نود أن نثبت أن الذي أثار هذه التهمة قديماً هو الحافظ أحمد بن علي السليماني وهو الذي صرح أن الطبري يضع الحديث للروافض وإزاء تلكم المقولة قال الحافظ أبو حيان: إن ابن جرير إمام من أئمة الشيعة الإمامية. وقبل أن نتحدث عن معطيات وأسباب هذا الاتهام أود أن نثبت رأي علماء الجرح والتعديل يدلون بشهادتهم لتستبين حقيقة هذه التهمة:

قال الحافظ أبو الوفاء الحلبي الطرابلسي ت ٨٤١ هـ:

" محمد بن جرير الطبري الإمام المفسر أبو جعفر شيخ الإسلام وصاحب التصانيف الباهرة توفي سنة عشر وثلاثمائة ثقة صادق فيه تشيع وموالاة لاتضر أقذع أحمد بن علي السليماني الحافظ فقال كان يضع للروافض " (١).

وقال الحافظ المؤرخ شمس الدين الذهبي ت٧٤٨هـ:

" محمد بن جرير بن يزيد الطبري الإمام الجليل المفسر أبو جعفر صاحب التصانيف الباهرة ثقة صادق فيه تشيع يسير وموالاة لاتضر. أقذع أحمد بن علي السليماني الحافظ فقال: كان يضع للروافض كذا قال السليماني. وهذا رجم بالظن الكاذب بل إن ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين وما ندعي عصمته من الخطأ ولايحل لنا أن نؤذيه بالباطل والهوى، فإن كلام العلماء بعضهم في بعض ينبغي أن يتأنى فيه ولاسيما في مثل إمام كبير " (٢).

لكن كيف يتهم إمام حافظ مثل السليماني على جلالة قدره لابن جرير

---

(١) أبو الفواء الحلبي الطرابلسي، الكشف الحثيث، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ٢٢١/١.
(٢) الذهبي، ميزان الاعتدال، دار الكتب العلمية، بيروت، ٩٠/٦.

الطبري؟! فما أدلته على هذه التهمة؟!

يجيب على هذه الشبهة أيضاً الحافظ شمس الدين الذهبي:

" فلعل السليماني أراد الآتي: محمد بن جرير بن رستم أبو جعفر الطبري رافضي له تواليف منها كتاب الرواة عن أهل البيت رماه بالرفض عبد العزيز الكتاني " (١).

أما الحافظ ابن حجر العسقلاني ت٨٥٢هـ، فيقول عن الطبري: " محمد ابن جرير بن يزيد الطبري الإمام الجليل المفسر صاحب التصانيف الباهرة مات سنة عشر وثلاث مائة، ثقة صادق فيه تشيع يسير وموالاة لاتضر أقذع أحمد بن علي السليماني الحافظ فقال: كان يضع للروافض كذا قال السليماني وهذا رجم بالظن الكاذب بل ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين وما ندعي عصمته من الخطأ ولا يحل لنا أن نؤذيه بالباطل والهوى فإن كلام العلماء بعضهم في بعض ينبغي أن يتأنى فيه ولاسيما في مثل إمام كبير مثل السليماني فلعل السليماني أراد (محمد بن جرير بن رستم أبو جعفر) ولو حلفت أن السليماني ما أراد إلا (محمد بن جرير بن رستم أبو جعفر) لبررت والسليماني حافظ متقن كان يدري ما يخرج من رأسه فلا أعتقد أنه يطعن في مثل هذا الإمام بهذا الباطل والله أعلم.

وقد اغتر شيخ شيوخنا أبو حيان بكلام السليماني فقال في الكلام على الصراط في أوائل تفسيره وقال أبو جعفر الطبري وهو إمام من أئمة الأمامية. ونبهت عليه لئلا يغتر به فقد ترجمه أئمة النقل في آلاف(٢) وبعده فلم يصفوه بذلك وإنما ضره الاشتراك في اسمه واسم أبيه ونسبه وكنيته ومعاصرته وكثرة تصانيفه " (٣).

(١) الذهبي، ميزان الاعتدال، دار الكتب العلمية، بيروت، ٩٠/٦.
(٢) الألاف: بتشديد اللام الذين يؤلفون الكتب.
(٣) ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، مؤسسة الأعلمي لمطبوعات، بيروت، ١٠٠/٥.

وهذه شهادة الحافظ أحمد بن علي أبي بكر الخطيب البغدادي ت٤٦٣هـ يترجم للطبري ترجمة مطولة في تاريخه نختار منها:

قال الشيخ أبو بكر " استوطن الطبري بغداد وأقام بها إلى حين وفاته وكان أحد أئمة العلماء يحكم بقوله ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل الآلاف وكان حافظًا لكتاب الله عارفًا بالقراءات بصيراً بالمعاني فقيهًا في أحكام القرآن عالمًا بالسنن وطرقها صحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها عارفًا بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الخالفين في الأحكام ومسائل الحلال والحرام عارفًا بأيام الناس وأخبارهم وله الكتاب المشهور في تارخ الأمم والملوك وكتاب في التفسير لم يصنف أحد مثله وكتاب سماه تهذيب الآثار لم أر سواه في معناه إلا أنه لم يتمه وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة واختيار من أقاويل الفقهاء وتفرد بمسائل حفظت عنه وسمعت على بن عبيد الله بن عبد الغفار اللغوي المعروف بالسمسماني يحكى أن محمد بن جرير مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة وبلغني عن أبي حامد أحمد بن أبي طاهر الفقيه الإسفرائيني أنه قال لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيرًا أو كلامًا هذا معناه أخبرنا القاضي أبو عبد الله محمد قال: ثنا علي بن أحمد بن الصناع عبيد الله بن أحمد السمسار وأبي أن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ فقال: ثلاثون ألف ورقة فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة ثم قال: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟ قالوا: كم قدره فذكر نحواً مما ذكره في التفسير فأجابوه بمثل ذلك فقال: إنا لله ماتت الهمم " [(١)].

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٦٢/٢ وما بعدها.

في ضوء ماسبق نستطيع أن نخلص بالنتائج التالية:

لا نستطيع أن نجزم اتهام الحافظ العلامة ابن جرير الطبري مما هو منسوب إليه من تهمة الرفض والتشيع ووضع أحاديث لمصلحة أهل البيت.

قد يكون الحافظ السليماني اختلط عليه الأمر حيث ظن أن الشيعي أبا جعفر محمد بن جرير بن رستم هو نفسه أبو جعفر بن جرير الطبري صاحب التاريخ والتفسير.

أما الرجل الآخر الذي يتفق اسمه وكنيته ولقبه مع ابن جرير السني يقول عنه الحافظ ابن حجر: " محمد بن جرير بن رستم أبو جعفر الطبري رافضي له تواليف منها كتاب الرواة عن أهل البيت رماه بالرفض عبد العزيز الكتاني انتهى وقد ذكره أبو الحسن بن بابويه في تاريخ الري بعد ترجمة محمد بن جرير الإمام فقال: هو الآملي قدم الري وكان من جلة المتكلمين على مذهب المعتزلة وله مصنفات روى عنه الشريف أبو محمد الحسن بن حمزة الرعيني وروى أيضًا عن أبي عثمان المازني وجماعة وعنه أبو الفرج الأصبهاني في أول ترجمة ابن الأسود من كتابه وذكر شيخنا في الذيل بما تقدم أولاً وكأنه سقط من نسخته أراد الآتي بعد لعل السليماني إلى آخره وكأنه لم يعلم بأن في الرافضة من شاركه في اسمه واسم أبيه ونسبه وإنما يفترقان في اسم الجد ولعل ما حكي عن محمد بن جرير الطبري من الاكتفاء في الوضوء بمسح الرجلين إنما هو هذا الرافضي فإنه مذهبهم " (١).

(د) الطبري من أئمة علماء أهل السنة بشهادة علماء الجرح والتعديل وصيارفة الإسلام في علم أحوال الرجال كالذهبي وابن حجر والبغدادي والطرابلسي وغيرهم.

---

(١) لسان الميزان، ١٠٣/٥.

(هـ) أما أنه كان فيه تشيع يسير وموالاة لأهل البيت لا تضر.. لايعني ذلك أن الرجل كان يميل إلى عقيدة الشيعة بالمعنى الانحرافي؛ فالطبري شأنه شأن بعض العلماء الذين يوالون علياً رضي الله عنه في خلافه مع معاوية رضي الله عنه فقط. وهذه النعوت كان يستخدمها بعض علماء أهل السنة كابن قتيبة فكان يقول عن الرجل أو الراوي أنه شيعي بمجرد الموالاة لعلي بن أبي طالب وآل بيته دون الحط من منزلة الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ودون أن يستتبع ذلك غلو أو سب في عموم الصحابة فإذا تجاوز هذا الحد إلى درجة الغلو فهنا يتحول المصطلح من شيعي إلى رافضي وهم خارجون على منهج أهل السنة والجماعة. هذا هو المقصود من مصطلح شيعي قديماً أما بعد تطور هذا المصطلح عقب العصور المختلفة في تاريخ الإسلام فقد تغير مدلوله الآن وصارمصطلحاً يتناقض ومنهج أهل السنة ومن ثم فلا يتصور أن يستخدم هذا المصطلح في وقتنا الحاضر بغية نعت أحد علماء أهل السنة بحجة أنه يوالي علياً رضي الله عنه وآل البيت لأن كلمة شيعي الآن لها دلالة تختلف عن معناها الاصطلاحي قديماً.

حقيقة اتهام الطبري أنه كان يروي عن بعض الرواة الضعفاء المتهمين لدى علماء الجرح والتعديل كأبي مخنف ومحمد بن السائب الكلبي وابنه هشام وغيرهم.

مما لاشك فيه أن الطبري روى عن أبي مخنف وابن الكلبي؛ ولنا وقفة مع هؤلاء الإخباريين بعد أن نلقي الضوء على أهم المصادر التي استند عليها الطبري في تاريخه:

الأول: تاريخ الطبري يبدأ منذ بدء الخليقة حتى أحداث سنة ٣٠٢هـ.

الثاني: مصادر الطبري في تاريخ الرسل والأنبياء ابن إسحاق وكتب وهب ابن منبه.

الثالث: في تاريخ العرب قبل الإسلام على مرويات عبيد بن شرية ومحمد ابن كعب القرظي وهشام الكلبي وابن إسحاق أيضاً.

الرابع: وفي السيرة النبوية استند إلى مرويات أبان بن عثمان وعروة بن الزبير وموسى بن عقبة وعاصم بن عمر والزهري وابن إسحاق وشرحبيل بن سعد.

الخامس: مصادره عن حروب الردة عن مرويات سيف بن عمر والمدائني.

السادس: أما مصادره في معركتي الجمل ٣٦هـ، وصفين ٣٧هـ فعلى مرويات أبي مخنف ومحمد بن السائب وابنه هشام الكلبي وسيف بن عمر.

السابع: ومصادره عن الدولة الأموية من مرويات عوانة بن الحكم وأبي مخنف والواقدي وابن الكلبي وعمر بن شبة.

الثامن: مصادره عن العصر العباسي على مرويان أحمد بن أبي خيثمة وابن زهير والمدائني وعمر بن راشد والهيثم بن عدي والواقدي.

نلاحظ أنه لم يعتمد على مرويات أبي مخنف وابني الكلبي فقط بل إنه قد نوع مصادره كما هو واضح. لكن أخطر مصادره بحق هي مرويات أبي مخنف عن موقعتي الجمل وصفين لأن هناك تزويراً وتلفيقًا وسبًّا يخلص المرء بعد قراءته لهاتين الموقعتين أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا مجموعة من أصحاب الدنيا الذين يتقاتلون على ملك زائل يشتم بعضهم بعضاً ويسب بعضهم بعضاً وصحابة رسول الله براء من هذه المرويات الكاذبة التي رواها أبو مخنف وابنا الكلبي، ومن ثم لزام علينا أن نلقي الضوء على هؤلاء الإخباريين:

أما أبو مخنف لوط بن يحيى ت١٥٧هـ:

يقول عنه ابن حجر العسقلاني: " إخباري تالف لايوثق به تركه أبو حاتم وغيره، وقال الدارقطني: ضعيف. وقال يحيى بن معين: ليس بثقة، وقال مرة: ليس بشيء. وقال ابن عدي شيعي محترق. وقال أبو عبيد

الآجري: سألت أبا حاتم عنه فنض يده وقال: أحد يسأل عن هذا وذكره في الضعفاء " [١].

وقال فيه الحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ت٢٧٢هـ: " قرئ على العباس بن محمد الدوري قال: سمعت يحيى بن معين يقول: أبومخنف ليس بثقة نا عبد الرحمن قال: سمعت أبي يقول: متروك " [٢].

وقال الحافظ أبو أحمد عبد الله بن عدي ت٢٦٥هـ: " معروف بكنيته واسمه حدث بأخبار من تقدم من السلف الصالحين ولا يبعد منه أن يتناولهم وهو شيعي محترق صاحب أخبارهم " [٣].

أما عن محمد بن السائب الكلبي ت١٤٦هـ:

يقول الذهبي: " العلامة الأخباري أبو النضر محمد بن السائب بن المفسر وكان أيضًا رأسًا في الأنساب إلا أنه شيعي متروك الحديث يروي عنه ولده هشام وطائفة " [٤].

وقال الذهبي أيضاً في ميزان الاعتدال عن محمد بن السائب الكلبي:

وقال يزيد بن زريع وكان سبئيًا قال أبو معاوية: قال الأعمش: اتق هذه السبئية فإني أدركت الناس وإنما يسمونهم الكذابين. وقال ابن حبان (عن ابن الكلبي): سبئيًّا من أولئك الذين يقولون إن عليًا لم يمت وإنه راجع إلى الدنيا ويملؤها عدلاً كما ملئت جوراً وإن رأوا سحابة قالوا: أمير المؤمنين فيها. وقال الجوزجاني وغيره: كذاب وقال الدارقطني وجماعة: متروك. وقال ابن حبان: مذهبه في الدين ووضوح الكذب فيه أظهر من أن يحتاج إلى الإغراق في وصفه " [٥].

(١) لسان الميزان، ٤٩٣/٤.
(٢) عبد الرحمن بن أبي حاتم، الجرح والتعديل، دار إحياء التراث، بيروت، ١٨٢/٧.
(٣) ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال، دار الفكر، بيروت، ٩٣/٦.
(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٤٨/٦.
(٥) ميزان الاعتدال، ١٦١/٦.

وقال ابن حجر العسقلاني في تقريب التهذيب: " محمد بن السائب أبو النضر الكوفي النسابة المفسر متهم بالكذب ورمي بالرفض " [١].

أما هشام بن السائب الكلبي ت٢٠٤هـ:

يقول عنه ابن حجر: " هشام بن محمد بن أبوالمنذر الأخباري النسابة العلامة روى عن أبيه أبي المفسر وعن مجالد وحدث عنه جماعة قال أحمد بن حنبل: إنما كان صاحب سمر ونسب ما ظننت أن أحداً يحدث عنه وقال الدارقطني وغيره: متروك وقال ابن عساكر: رافضي ليس بثقة " [٢].

وذكره الخطيب البغدادي بعد أن ساق بسقده قائلاً: " حدثنا عبد الله ابن أحمد قال: سمعت أبى يقول هشام بن محمد بن من يحدث عنه إنما هو صاحب نسب وسمر وما ظننت أن أحداً يحدث عنه بلغني أن هشام مات في سنة أربع ومائتين وقيل سنة ست ومائتين " [٣].

وقال ابن عدي في كتابه الكامل في ضعفاء الرجال: " هشام بن محمد بن السائب ومحمد بن السائب والده صاحب التفسير سمعت ا بن حماد يقول: حدثني عبد الله سمعت أبى يقول: هشام من يحدث عنه إنما هو صاحب سمر ونسبة وما ظننت أن أحدًا يحدث عنه وهذا كما قال أحمد هشام الغالب عليه الأخبار والأسمار والنسبة ولا أعرف له شيئًا من المسند " [٤].

صفوة القول أن أبا مخنف إخباري رافضي تالف متهم بالكذب، شيعي محترق. أما محمد بن السائب الكلبي وابنه هشام فهما إخباريان متهمان بالرفض والتشيع وتلفيق المرويات التاريخية.

لكن يبقى السؤال قائماً: لماذا روى الطبري عن هؤلاء الإخباريين رغم

(١) ابن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، دار الرشيد، سوريا، ٤٧٩/١.
(٢) لسان الميزان، ١٩٦/٦.
(٣) تاريخ بغداد، ٤٥/١٤.
(٤) الكامل في ضعفاء الرجال، ١١٠/٧.

تجريح العلماء لهم؟

نجد الإجابة على هذا التساؤل في مقدمة تاريخ الطبري إذ يوضح لنا منهجه بكل صراحة حين يقول:

فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ولا معنى في الحقيقة فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا (١).

هكذا يلقي الطبري تبعة الرواية على عهدة الراوي لأنه يعلم أنه بمجرد ذكراسم الراوي الذي أخذ عنه الخبر أو الحديث فإنه يكون قد أدى الأمانة لأصحابها لأن الناظر علمه بحال الراوي وخاصة في حالة الرواة المجروحين فإنه لن يقبل هذه الرواية الواهية أو المكذوبة. وهذه كانت طريقة كثير من علماء السلف قديمًا الذين لم يكونوا يشترطون على أنفسهم الصحة في كل المرويات التي يكتبونها. وكنا نود أن يعلق الطبري على الأخبار والخرافات والأساطير والأكاذيب التي قيلت في حق الصحابة رضوان الله عليهم وخاصة في موقعتي الجمل وصفين تلك المرويات التي اعتمد عليها كل من أراد النيل من تاريخ الصحابة الأخيار رضوان الله عليهم حتى صار الأمر ببعض البسطاء باعتقادهم أن ماشجر بين الصحابة مسلم به لأنه مروي عن ابن جرير لأنه المصدر الأساسي لكل هذه الكتب التي تناولت الحقبة التاريخية الأولى التي رواها الإخباري الخبيث أبو مخنف وابنا الكلبي (٢).

(١) ابن جريرالطبري، تاريخ الطبري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ٥/١.
(٢) هاني السباعي، مدير مركز المقريزي للدراسات التاريخية بلندن.

ونريد أن نقول إن اتهام الطبري بالتشيع لم يثبت، وإن كانت كتاباته كانت نقلاً (في أحيان كثيرة) عمن اتهم ليس بالتشيع فقط بل بالرفض والوضع والتشنيع على الصحابة الأطهار الأخيار وأهل السنة الأبرار، لذا وجب التنويه على القارئ والباحث في كتابات الطبري توخي الحذر من مروياته لا سيما في الجوانب الخلافية بين الصحابة وأهل السنة والجماعة والشيعة.

* * *

الفقيه القاضي شريح الكندي

الفقيه القاضي شريح

أعـلام الفقهـاء

الفقيه القاضي شريح الكندي

أبو أمية شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم بن معاوية بن عامر بن الرائش بن الحارث بن معاوية بن ثور بن مرتع الكندي؛ من كبار التابعين، وأدرك الجاهلية والإسلام، واستقضاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الكوفة، فأقام قاضياً خمساً وسبعين سنة لم يتعطل فيها إلا ثلاث سنين امتنع فيها من القضاء في فتنة ابن الزبير، واستعفى الحجاج بن يوسف من القضاء فأعفاه، ولم يقض بين اثنتين حتى مات.

كان أعلم الناس بالقضاء، ذا فطنة وذكاء ومعرفة وعقل ورصانة، قال ابن عبد البر: وكان شاعراً محسناً، وهو أحد السادات الطلس (١).

ولما أراد عمر بن الخطاب أن يولي شريح القضاء كتب إليه: إذا أتاك أمر في كتاب الله، فاقض به، فإن لم يكن في كتاب الله وكان في سنة رسول الله ﷺ فاقض به ؛ فإن لم يكن فيهما، فاقض بما قضى به أئمة الهدى، فإن لم يكن فأنت بالخيار، إن شئت تجتهد رأيك، وإن شئت تؤامرني، ولا أرى مؤامرتك إياي إلا أسلم لك.

وكان يحب المزاح، فقد دخل عليه عدي بن أرطاة فقال له: أين أنت أصلحك الله فقال: بينك وبين الحائط، قال: استمع مني، قال: قل أسمع، قال: إني رجل من أهل الشام، قال: مكان سحيق، قال: تزوجت عندكم، قال: بالرفاء والبنين، قال: وأردت أن أرحلها، قال: الرجل أحق بأهله، قال: وشرطت لها دارها، قال: الشرط أملك، قال: فاحكم الآن بيننا، قال: قد فعلت، قال: فعلى من حكمت قال: على ابن أمك، قال: بشهادة من قال: بشهادة ابن أخت خالتك (٢).

وكان سبب تولية شريح القضاء أن عُمَر بْن الخطاب أخذ من رجل فرساً

(١) والأطلس: الذي لا شعر في وجهه. والأربعة هم: عبد الله بن الزبير، وقيس بن سعد بن عبادة، والأحنف بن قيس الذي يضرب به المثل في الحلم، والقاضي شريح المذكور.
(٢) وفيات الأعيان، ٢ / ٤٦٢.

على سوم يحمل عليه رجلاً، فعطب الفرس فقالَ عُمَرُ: اجعل بيني وبينك رجلاً فقالَ: الرجل: اجعل بيني وبينك شريحاً العراقي فأتيا شريحاً فقال: يا أمير المؤمنين أخذته صحيحاً سليماً على سوم، فعليك أن ترده سليماً كما أخذته قال: فأعجبه ما قالَ: ثم بعثه قاضياً، ثم قال: ما وجدت في كتاب الله فالزم السنة فإن لم يك في السنة فاجتهد رأيك (١).

وكانت وفاة القاضي شريح سنة سبع وثمانين للهجرة وهو ابن مائة سنة(٢).

ولما وقعت فتنة ابن الزبير اعتزل شريح القضاء، وقال: لا أقضي فبقي لا يقضي تسع سنين. ولما انصرف يوماً من مجلس قضائه، فاعترضه رجل فقال له: أما حان لك أن تخاف الله؟ كبرت سنك، وفسد ذهنك، فصارت الأمور تجوز عليك. فقال: والله، لا يقولها أحد بعدك. فلزم بيته حتى مات.

وكان شريح يقول للشاهدين: إنما يقضي على هذا الرجل أنتما، وإني لمتق بكما فاتقيا.

وكان إذا سأل كيف أصبحت؟ قال: أصبحت وشطر الناس علي غضاب.

وكان لشريح بيت يخلو فيه يوم الجمعة، لا يدري الناس ما يصنع فيه.

ولبث شريح في فتنة ابن الزبير تسع سنين معتزلاً لها لا يسأل عن أحداثها حتى لا يميل إلي أي طرف، فقيل له: قد سلمت. قال: كيف بالهوى.

عَنه قال: ما تخيرت ولا تخبرت يعني في الفتنة، ولا كلمت مسلماً ولا معاهداً منذ وقعت الفتنة، فقال له رجل: لو كنت مثلك لسرني أن أموت الآن، قال: فما تأمرني بما في قلبي ولم يلتق فئتان إلاَّ سرني أن يغلب إحداهما(٣).

(١) أخبار القضاة، ٢ / ١٩١.
(٢) وفيات الأعيان، ٢ / ٤٦٤.
(٣) أخبار القضاة، ٢ / ١٨٩.

وكان شريح شاعراً معجباً [١].

وكان شريح إذا دخل السوق يقوم عند درج المسجد، فيقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاَّ الله، والله أكبر، ثم ينصرف.

وكان شريح يقبل الهدية ويثيب عليها.

مواقف من حياته رحمه الله:

اذهب فأنت من أفضل الناس:

وروي أن عليًّا رضي الله عنه قال: اجمعوا لي القراء، فاجتمعوا في رحبة المسجد، فقال: إني أوشك أن أفارقكم، فجعل يسائلهم: ما تقولون في كذا ما تقولون في كذا وشريح ساكت، ثم سأله، فلما فرغ منهم قال: اذهب فأنت من أفضل الناس، أو من أفضل العرب.

رأيت رجالاً يضربون نساءهم:

وتزوج شريح امرأة من بني تميم تسمى زينب، فنقم عليها شيئاً فضربها، ثم ندم وقال:

رأيت رجالاً يضربون نساءهم ::: فشلت يميني يوم أضرب زينبا
أأضربها من غير ذنب أتت به ::: فما العدل مني ضرب من ليس مذنبا
فزينب شمس والنساء كواكب ::: إذا طلعت لم تبق منهن كوكبا وهكذا[٢]

ولولا الأمانة في المشورة لوددت أنه قطع يده:

ويروى أن زياد بن أبيه كتب إلى معاوية بن أبي سفيان: يا أمير المؤمنين، قد ضبطت لك العراق بشمالي، وفرغت يميني لطاعتك، فولني الحجاز، فبلغ ذلك عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وكان مقيماً بمكة، فقال: اللهم اشغل عنا يمين زياد، فأصابه الطاعون في يمينه، فجمع الأطباء واستشارهم، فأشاروا عليه بقطعها، فاستدعى القاضي شريحاً وعرض

(١) أخبار القضاة، ٢ / ٢٠١.
(٢) وفيات الأعيان، ٢ / ٤٦٢.

عليه ما أشار به الأطباء، فقال: لك رزق معلوم وأجل مقسوم وإني أكره إن كانت لك مدة أن تعيش في الدنيا بلا يمين، وإن كان قد دنا أجلك أن تلقى ربك مقطوع اليد فإذا سألك: لم قطعتها قلت: بغضاً في لقائك وفراراً من قضائك. فمات زياد من يومه، فلام الناس شريحاً على منعه من القطع، لبغضهم له، فقال: إنه استشارني والمستشار مؤتمن، ولولا الأمانة في المشورة لوددت أنه قطع يده يوماً ورجله يوماً وسائر جسده يوماً يوماً (١).

وأنك وإياهم لعلى بساط واحد:

وكتب شريح إلى أخ له هرب من الطاعون: أما بعد فإنك أنت الذي بعين من لا يعجزه من طلب ولا يفوته من هرب، والمكان الذي خلفته لم يعجل امرأً حمامه ولم يظلمه أيامه، وأنك وإياهم لعلى بساط واحد؛ إن المنتجع من غير ذي قدرة لقريب والسلام (٢).

جاؤوا أباهم عشاء يبكون:

وعن الشعبي قال: شهدت شريحاً وجاءته امرأة تخاصم رجلاً فأرسلت عينيها فبكت، فقلت أنا: ما أظن هذه البائسة إلا مظلومة، فقال: يا شعبي أن إخوة يوسف عليه السلام جاؤوا أباهم عشاء يبكون (٣).

أكان مؤمناً!:

وسئل شريح عن الحجاج: أكان مؤمناً؟ قال: نعم، بالطاغوت، كافراً بالله تعالى.

فأنهن النساء:

عن الشعبي قال: قال لنا شريح: يا شعبي عليكم بنساء بني تميم فإنهن النساء، قلنا: وكيف ذلك يا أبا أمية؟ قال: رجعت يوماً من جنازةٍ مظهراً

(١) وفيات الأعيان، ٢ / ٤٦٣.
(٢) وفيات الأعيان، ٢ / ٤٦٣.
(٣) وفيات الأعيان، ٢ / ٤٦٣.

فمررت بخباءٍ فإذا بعجوز معها جارية رؤد، فاستسقيت فقالت: اللبن أعجب إليك أم الماء أم النبيذ؟ قال قلت: اللبن أعجب إلي. قالت: يا بنية اسقيه لبناً فإني أظنه غريباً، فسقتني، فلما شربت قلت: من هذه الجارية؟ قالت: هذه بنتي زينب بنت حدير إحدى نساء بني تميم ثم من بني حنظلة ثم من بني طهية، قلت: أتزوجينيها، قالت: نعم إن كنت كفؤنا، قال: فانصرفت إلى منزلي، فامتنعت من القيلولة، فلما صليت الظهر وجهت إلى إخواني الثقات: مسروق بن الأجدع والأسود بن يزيد فصليت العصر ثم رحت إلى عمها وهو في مسجده، فلما رآني تنحى لي عن مجلسه، فقلت: أنت أحق بمجلسك، ونحن طالبو حاجةٍ، فقال: مرحباً بك يا أبا أمية، ما حاجتك؟ قلت: إني ذكرت زينب بنت أخيك، فقال: والله ما بها عنك رغبة ولا بك عنها مقصر، قال: وتكلمت فزوجني ثم انصرفت فما وصلت إلى منزلي حتى ندمت وقلت: ماذا صنعت بنفسي، فهممت أن أرسل إليها بطلاقها، ثم قلت: لا أجمع بين حمقتين، ولكني أضمها إلي، فإن رأيت ما أحب حمدت الله تعالى، وإن تكن الأخرى طلقتها. فأرسلت إليها بصداقها وكرامتها، فلما أهديت إلي وقام النساء عنها قالت: يا هذا إن من السنة إذا أهديت المرأة إلى زوجها أن تصلي ركعتين خلفه ويسألا الله عز وجل البركة، فقمت أصلي فإذا هي خلفي، فلما فرغت رجعت إلى مكانها، ومددت يدي فقالت: على رسلك، فقلت: إحداهن ورب الكعبة، فقالت: الحمد لله وصلى الله على محمد وآله، أما بعد، فإني امرأة غريبة، ولا والله ما ركبت مركباً هو أصعب علي من هذا، وأنت رجل لا أعرف أخلاقك، فخبرني بما تحب آته وبما تكره أزدجر عنه، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولك. قال فقلت: الحمد لله وصلى الله على محمد وآله، أما بعد فقد قدمت خير مقدمٍ، قدمت على أهل دارٍ زوجك سيد رجالهم، وأنت إن شاء الله سيدة نسائهم، أحب كذا وأكره كذا، قالت: فحدثني عن أختانك [1]، أتحب أن يزوروك؟ قال

(١) أصهارك.

قلت: إني رجل قاضٍ وأكره أن يملوني، وأكره أن ينقطعوا عني، قال: فأقمت معها سنةً أنا كل يومٍ أشد سروراً مني باليوم الذي مضى، فرجعت يوماً من مجلس القضاء فإذا عجوز تأمر وتنهي في منزلي، فقلت: من هذه يا زينب؟ قالت: هذه ختنتك، هذه أمي، قلت: كيف حالك يا هذه؟ قالت: كيف حالك يا أبا أمية، وكيف رأيت أهلك؟ قال قلت: كل الخير، قالت: إن المرأة لا تكون أسوأ خلقاً منها في حالتين: إذا ولدت غلاماً وإذا حظيت عند زوجها، فإن رابك من أهلك ريب فالسوط السوط، قلت: أشهد أنها ابنتك، قد كفيتني الرياضة وأحسنت الأدب. فكانت تجيئني في كل حولٍ مرةً فتوصي بهذه الوصية ثم تنصرف، فأقمت معها عشرين سنة ما غضبت عليها يوماً ولا ليلةً، إلا يوماً وكنت لها ظالماً وذلك أني ركعت ركعتي الفجر وأبصرت عقرباً فعجلت عن قتلها فكفأت عليها الإناء وبادرت إلى الصلاة وقلت: يا زينب إياك والإناء، فعجلت إليه فحركته فضربتها العقرب، فلو رأيتني يا شعبي وأنا أمص إصبعيها وأقرأ عليهما المعوذتين، وكان لي جار يقال له قيس ابن جرير لا يزال يقرع مريئته، فعند ذلك أقول:

رأيت رجالاً يضربون نساءهم ::: فشلت يميني يوم أضرب زينبا

وأنا الذي أقول:

إذا زينب زارها أهلها ::: حشدت وأكرمت زوارها

وإن هي زارهم زرتها ::: وإن لم تكن لي هوى دارها

يا شعبي، فعليك بنساء بني تميم فإنهن النساء [(١)].

أحسنت:

عن عامر، قال: جاءت امرأة إلى علي - رضي الله عنه - تخاصم زوجها طلقها فقالت: قد حضت في شهرين ثلاث حيض. فقال علي لشريح: اقض

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١ / ٣٧١.

بينهما: قال: يا أمير المؤمنين، وأنت هاهنا؟! قال: اقض بينهما. قال: إن جاءت من بطانة أهلها من يرضى دينه وأمانته يزعم أنها حاضت ثلاث حيض تطهر عند كل قرء، وتصلي، جاز لها، وإلا فلا. قال علي: أحسنت.

ما الذي أحدثت في القضاء؟:

عن أبي هاشم، أن فقيهًا جاء إلى شريح فقال: ما الذي أحدثت في القضاء؟ قال: إن الناس أحدثوا، فأحدثت.

قد علمت من أين أتيت:

عن أبي حصين، قال: قال خصم لشريح: قد علمت من أين أتيت، فقال شريح: لعن الله الراشي والمرتشي والكاذب.

بل سنتكم بينكم:

واختصم إليه غزالون، فقال بعضهم: إنه سنة بيننا، قال: بل سنتكم بينكم.

لا حبس عن فرائض الله:

قال عطاء بن السائب: مر علينا شريح فقلت: رجل جعل داره حبسًا على قرابته، قال: فأمر حبيبًا، فقال: أسمع الرجل: لا حبس عن فرائض الله.

بل هو ولد هرتي:

عن مجاهد قال: اختصم إلى شريح في ولد هرة، فقالت امرأة: هو ولد هرتي. وقالت الأخرى: بل هو ولد هرتي، فقال شريح: ألقها مع هذه، فإن هي قرت ودارت واسبطرت [1] فهي لها، وإن هي هرت وفرت واقشعرت، فليس لها.

هو الذي أخرجها:

قال أبو إسحاق السبيعي: خرجت قرحة بإبهام شريح، فقيل: ألا أريتها طبيبًا؟ قال: هو الذي أخرجها.

---

(١) اسبطرت، أي امتدت للرضاع.

فأحمد الله عليها أربع مرات:

وعن الشعبي، قال شريح: إني لأصاب بالمصيبة، فأحمد الله عليها أربع مرات، أحمد إذ لم يكن أعظم منها، وأحمد إذ رزقني الصبر عليها، وأحمد إذ وفقني للاسترجاع لما أرجو من الثواب، وأحمد إذ لم يجعلها في ديني.

إنه ابنهما يرثهما ويرثانه:

وعَن شريح: أن رجلين وقعًا على جارية في طهر واحد، فأتت بولد، فادعاه كلاهما، فكتب بذلك شريح على عُمَر فكتب: إنه ابنهما يرثهما ويرثانه، ولو بينا لبين لهما، وللباقي منهما ولكنهما لبسا فلبس عليهما فهو للباقي منهما (١).

أفي كتاب الله وجدت هَذَا أو في سنة رسول الله ﷺ!:

عَن حكم بْن عقال، أن شريحاً أتى في امرأة تركت ابني عمها أحدهما زوجها والآخر أخوها، لأمها، فقالَ شريح: للزوج النصف، وللأخ من الأم ما بقى، فارتفعوا إلى علي رضي الله عنه فقالوا: إن شريحاً قال: كذا وكذا، قال: ادعوا لي العَبْد! فأتاه، فقال: أفي كتاب الله وجدت هَذَا أو في سنة رسول الله ﷺ؟ قال: في كتاب الله؛ قالَ: الله:{وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ} [الأنفال: ٧٥] قال: أفهو هَذَا؟ قالَ: علي: للزوج النصف وللأخ السدس وما بقي بينهما (٢).

قص فمثلك يقص:

حَدَّثَنَا علي بْن عَبْد اللهِ بْن معاوية بْن ميسرة بْن شريح، قال: حَدَّثَنِيْ أبي، عَن أبيه، عَن ميسرة، عَن شريح قال: مررت مع علي بْن أبي طالب رضي الله عنه في سوق الكوفة وفي يده لدرة وهو يقول: يا معشر التجار خذوا الحق وأعطوا الحق تسلموا لا تمنعوا قليل الربح فتحرموا كثيراً.

(١) أخبار القضاة، ٢ / ١٩١.
(٢) أخبار القضاة، ٢ / ١٩٣.

حتى انتهى إلى قاص يقص ونحن حديثو عهد برَسُوْل اللهِ ﷺ أما أني أسألك عَن مسألتين إن خرجت منهما، وإلا أوجعتك ضرباً، قال: فاسأل يا أمير المؤمنين قال: ما ثبات الإيمان وزواله؟ قال: ثبات الإيمان الورع، وزواله الطمع، قال: قص فمثلك يقص.

هَذَا خبر ما عندنا:

عَن شريح قال: مررت مع علي بْن أبي طالب على المقابر، فقال: يا أهل المقابر أما الديار فقد سكنت، وأما الأموال فقد اقتسمت، وأما الذراري فقد نكحت، هَذَا خبر ما عندنا، هاتوا خبر ما عندكم ثم التفت إلي فقال: لو أذن لهم في الجواب لقالوا:{وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ} [البقرة: ١٩٧] (١).

عمن أخذت هذه القصة؟!:

عَن شريح: قال: تقدمت إلى شريح امرأة، فقالت: أيها القاضي أني جئتك مخاصمة، فقالَ لهَا: وأين خصمك؟ قالت: أنت خصمي، فأخلى المجلس، قالَ: لها تكلمي، قالت: إني امرأة لي إحليل، ولي فرج، قال: قد كان لأمير المؤمنين في هَذَا قضية، ورث من حَيْثُ يجيء البول، قالت: إنه يجيء منهما جميعاً، قالَ: فانظري من أين يسبق، قالت ليس شيء منهما يسبق صاحبه إنما يجيئان في وقت، وينقطعان في وقت، قال: إنك لتخبريني بعجيب، قالت: وأخبرك بأعجب من ذلك، تزوجني ابن عم لي، فأخذ مني خادماً فوطئتها فأولجتها، وإنما جئتك لما ولد لي لتفرق بيني وبين زوجي، فقام من مجلس القضاء فدخل علي رضي الله عنه، فأخبره، فقالَ: علي: علي بالمرأة، فأدخلت، فقال: أحق ما يقول القاضي؟ قالت: هو كما قال: قالَ: فدعا بزوجها، فقال: هذه امرأتك وابنة عمك؟ قال: نعم، قال: فعلمت ما كان؟ قال: نعم، قال: أخدمتها خادماً فوطئتها فأولدتها ثم وطئتها أنت بعد؟ قال: نعم، قال: لأنت أحسن من خاصي أسد، علي بدينار الخادم،

(١) أخبار القضاة، ٢ / ١٩٦.

وامرأتين فجيء بهم، فقال: خذوا هذه المرأة، إن كانت امرأة فادخلوها بيتاً وألبسوها ثياباً، وعدوا أضلاع جنبيها، ففعلوا، فقال: عدد الجنب الأيمن أحد عشر، وعدد الأيسر اثنا عشر؛ فقالَ علي: الله أكبر فأمر لها برداء وحذاء وألحقها بالرجال. فقالَ زوجها: يا أمير المؤمنين زوجتي وابنة عمي، فرقت بيني وبينها، فألحقتها بالرجال؛ عمن أخذت هذه القصة؟ قال: إني أخذتها عَن أبي آدم ﷺ. إن الله عز وجل خلق حواء، ضلع من أضلاع آدم فأضلاع الرجال، أقل من أضلاع النِّسَاء بضلع ثم أمر بهم فأخرجوا (١).

أما كان من رقعة تستر بها وجهك؟!:

عَن شريح، قال: كنت مع علي بْن أبي طالب في المسجد جالساً، فجاء رجل فشكا إليه الحاجة، وكثرة العيال، فقال: يا عَبْد اللهِ أما كان من رقعة تستر بها وجهك؟ (٢).

أفلا تجيز شهادة سيد شباب أهل الجنة؟!:

وروي أن علياً وجد درعاً له عند يهودي التقطها فعرفها فقال: درعي سقطت عن جمل لي أورق. فقال اليهودي: درعي وفي يدي، ثم قال اليهودي: بيني وبينك قاضي المسلمين، فأتيا شريحاً، فلما رأى شريح علياً قد أقبل تحرف عن موضعه وجلس علي عليه السلام فيه، ثم قال: لو كان خصمي من المسلمين لساويته في المجلس، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول:﴿لا تساووهم في المجلس وألجئوهم إلى أضيق الطريق، فإن سبوكم فاضربوهم، وإن ضربوكم فاقتلوهم﴾. ثم قال شريح: ما تشاء يا أمير المؤمنين؟ قال: درعي سقطت مني وعرفتها، قال شريح: يا يهودي ما تقول؟ قال اليهودي: درعي وفي يدي، فقال شريح: صدقت والله يا أمير المؤمنين إنها لدرعك ولكن لا بد من شاهدين، فدعا قنبراً مولاه والحسن

(١) أخبار القضاة، ٢ / ١٩٦.
(٢) أخبار القضاة، ٢ / ١٩٨.

ابنه فشهدا إنها لدرعه، فقال شريح: أما شهادة مولاك فقد أجزناها، وأما شهادة ابنك فلا نجيزها. فقال علي: ثكلتك أمك، أما سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله ﷺ :﴿الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة؟﴾ قال: اللهم نعم، قال: أفلا تجيز شهادة سيد شباب أهل الجنة؟ والله لأوجهنك إلى بانقيا تقضي بين أهلها أربعين ليلة، ثم قال لليهودي: خذ الدرع. فقال اليهودي: أمير المؤمنين إنها لدرعك سقطت عن جمل أورق التقطتها، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فوهبها له وأجازه بتسعمائة، وقتل معه يوم صفين (١).

لئن رأيت أني لا أخطىء لبئس ما رأيت:

كان شريح يطوف فجاء إليه رجل، فقال: كيف القضاء في كذا وكذا؟ قال: كذا وكذا فورب هذه البلية لقد قضيت علي بخلاف هَذَا! قال: فانتزع يده من يده، وقال: لئن رأيت أني لا أخطىء لبئس ما رأيت (٢).

وما كان منذ أسكن منه الليلة:

قال الأصمعي: مات ابن شريح، فلم يشعر بموته، ولم تصرخ عليه صارخة؛ فقيل له: يا أبا أمية، كيف ابنك؟ قال: قد سكن علزه، ورجاه أهله، وما كان منذ أسكن منه الليلة (٣).

أنت رجل تعرف نعمة الله على غيرك وتنساها من نفسك:

عَن الشعبي؛ قال: جاء الأشعث بْن قيس إلى شريح في مجلس القضاء، فقال الأشعث: مرحباً بشيخنا وسيدنا ها هنا، ها هنا، فأجلسه معه فإذا رجل جالس بين يدي شريح فقال: مالك يا عَبْد اللهِ؟ قال: جئت أخاصم الأشعث ابْن قيس؛ قال شريح للأشعث: قم مع خصمك؛ قال الأشعث: وما عليك أن تقضي وأنا ها هنا؛ قال شريح: قم قبل أن تقام، فقام الأشعث وهو مغضب؛

(١) أخبار القضاة، ٢ / ٢٠٠.
(٢) أخبار القضاة، ٢ / ٢٠٩.
(٣) أخبار القضاة، ٢ / ٢١٦.

ثم قال: عهدي بك يا ابن أم شريح وإن بثيابك السوس؛ قال شريح: أنت رجل تعرف نعمة الله على غيرك وتنساها من نفسك (١).

لا نسب أموات قريش ولا نعصي أحياءها:

قال الهيثم بْن عدي: شهدت شريحاً، ودخل على الضحاك بْن قيس الفهري؛ ، فقال الضحاك: يا شريح هَلْ رأيت بناءً قط أحسن من هَذَا ؟ قال: نعم قد رأيت ما هو أحسن من هَذَا؛ قال: كذبت والله يا شريح؛ قالَ: شريح: سبحان الله! وأين السماء وما بناها؛ قال الضحاك: أقسم بالله لتسبن علي بْن أبي طالب؛ قال شريح: أقسم بالله لا أفعل؛ قال: لم؟ قال: لأنا لا نسب أموات قريش ولا نعصي أحياءها؛ قال: جزاك الله خيراً (٢).

أما كنتم فاعلين؟!:

قالَ: شريح: أرأيتم لو جاءكم ملك بوحي من السماء حتى إذا كان بحَيْثُ يسمعكم الصوت افترش أجنحته ثم قال:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾} [النساء: ٢٩] أما كنتم فاعلين؟ قالوا: كنا والله متناهين، فقال: فقد جاءكم بها الملك أكرم ملائكة الله عليكم إلى أكرم أهل الأرض عليه (٣).

إياك والحنانة، إياك والمنانة، إياك والأنانة:

قال يزيد بن إبراهيم الحوري: كان شريح إذا جلس للقضاء يجلس وعلى رأسه سيامان فجاءته امرأة برجل تزوجها، لها ولد من غيره يطلب النفقة، وكان شريح سمح الوجه، فلما جلس الرجل بين يديه ضحك، فقالَ لهُ شريح: أتضحك مني، لا أم لك؟ فقال: أصلحك الله ما مثلك يضحك منه ولكن أضحك من وصية أوصاني بها والدي، فخالفته إلى غيره؛ فقال: ما

(١) أخبار القضاة، ٢ / ٢١٦.
(٢) أخبار القضاة، ٢ / ٢١٣.
(٣) أخبار القضاة، ٢ / ٢١٦.

أوصاك به أبُوك؟ قال: أوصاني ألا أتزوج بذات الجلاوزة؛ فقال: شريح: فإذا كان في العشى فأتى إلي حتى أوصيك بوصايا تصلها إلى وصية أبيك؛ قال: أوصني ها هنا؛ قال: إني لم أجلس ها هنا للحديث فلما كان العشى راح إليه، فقالَ لهُ شريح: إياك والحنانة، إياك والمنانة، إياك والأنانة، إياك والنقارة، إياك والرقراقة، إياك والربور ربوق إياك وذات الجلاوزة، فقالَ لهُ: أصلحك الله فسره لي؛ قال: أما الحنانة، فالمرأة التي كان لها زوج، فهي تحن إليه، وأما المنانة فهي التي تمن على زوجها بمالها، وأما الأنانة فهي التي تئن عند الجماع، وأما النقارة فهي التي إذا رآها زوجها تكون فوق سطحها، وأما الرقراقة فهي الصغيرة التي تفشي سر زوجها، وأما الرنق ورنوق فهي الرسحاء، وأما ذات الجلاوزة. فهي التي لها أولاد من غيره، قال: فأشر على قالَ: عليك بالزرق فإن لهن يمنا [(١)].

ألا أعلمتها الرجعة كما أعلمتها الطلاق!:

عَن عمير بْن يزيد؛ قال: كنت عند شريح، فجاء رجل وامرأته يختصمان؛ فقالت المرأة: طلقني ولم يعلمني الرجعة حتى انقضت العدة، فتزوجت رجلاً ودخل عليها زوجها؛ فقال: ألا أعلمتها الرجعة كما أعلمتها الطلاق؟ ولم يردها عليه [(٢)].

لم ترون ذلك!:

عَن الشعبي؛ قال: جاءت امرأة تخاصم زوجها إلى شريح في مهرها، وقد كانت قالت لزوجها: طلقني، ولك ما عليك، ففعل، فقالت: لا حتى تطلقني ثلاثاً، ففعل، فقالَ: جلساء شريح: أما امرأتك فقد حرمت عليك حتى تنكح زوجاً غيرك ولا نرى مالك إلاَّ قد ذهب؛ فقالَ: شريح: لم ترون ذلك؟ والله إن الإسلام إذاً أضيق من حد السيف؛ أما امرأتك فقد حرمت عليك حتى

---

(١) أخبار القضاة، ٢ / ٢٢٢.
(٢) أخبار القضاة، ٢ / ٢٣٤.

تنكح زوجاً غيرك، وأما مالك فلك [١].

وأين ربح مثله!:

عَن شريح، قال: اختصم إليه رجلان في دار باعها أحدهما صاحبها فرد البيع فَقالَ: الرجل:أين غلة داري؟ فَقالَ: شريح: وأين ربح مثله؟

كيف رأيت!:

عَن الشعبي أن رجلاً شهد عند شريح فلما قام قالَ: للمشهود عليه: كيف رأيت؟ قالَ: فرد عليه شريح شهادته [٢].

ذاك أحرى ألا تكون ظالمًا:

عَن الشعبي، قال: قالَ: رجل لشريح: ما خاصمت إليك قط إلاَّ حكمت علي؛ قال: ذاك أحرى أن لا تكون ظالماً [٣].

إنهما قد اجتمعا على ألف. :

شهد رجلان عند شريح على رجل، فشهد أحدهما بألف وخمسمائة دينار وشهد الآخر بألف، فقضى شريح بأقل المالين، فقال الرجل: أتقضي علي وقد اختلفا؟ فقال شريح: إنهما قد اجتمعا على ألف.

أدخلوها داراً لها بابان:

قال ابن سيرين: اشترى رجل بغلة فوجدها حمارة، فخاصم فيها إلى شريح فقال: أدخلوها داراً لها بابان ثم أخرجوا البغال من باب والحمير من باب، فإن اتبعت الحمير فهي حمارة، وإن اتبعت البغال فليست بحمارة.

اذهبي فداعبيه:

قال هشام بن محمد: تزوج رجل ابنة عبد خياط، فولدت غلاماً فانتفى منه، فارتفعت إلى شريح فقال لها: اكشفي عن وجه الصبي فكشفت، فقال

(١) أخبار القضاة، ٢ / ٢٤١.
(٢) أخبار القضاة، ٢ / ٢٤٥.
(٣) أخبار القضاة، ٢ / ٢٥٨.

شريح: لو كنت حالفاً لحلفت أنه ابنك، ولكن الذي حملك على أن تتزوج ابنة عبد خياط، وأنت رجل من العرب في شرف من العطاء هو الذي حملك على أن تنتفي منه؛ اذهبي فداعبيه [1].

قول شريح في الجراد:

قال عامر: سئل شريح القاضي عن الجراد قال: قبح الله الجرادة فيها خلقة سبعة جبابرة: رأسها رأس فرس وعنقها عنق ثور وصدرها صدر أسد وجناحها جناح نسر ورجلاها رجلا جمل وذنبها ذنب حية وبطنها بطن عقوب[2].

لم ثنّيت عليه الضرب؟:

قال: وكان لشريح القاضي ابن يكثر البطالة فنظر إليه شريح يوماً وهو يهارش بكلب له فكتب رقعة إلى معلمه وفيها هذه الأبيات:

ترك الصلاة لأكلب يسعى بها ::: طلب الهراش مع الغواة الرُّجس
فإذا أتاك فغطّه بملامة ::: وعظته موعظة الرفيق الأكيس
فإذا هممت بضربه فبدرةٍ ::: وإذا ضربت بها ثلاثاً فاحبس
وليحملن مني إليك صحيفةً ::: نكراء مثل صحيفة المتلمّس
اعلم بأنك ما أتيت فنفسه ::: مع ما يجرّعني أعزُّ الأنفس

فضربه المعلم عشراً عشراً. فقال له شريح: لم ثنّيت عليه الضرب؟ فقال: العشر الأولى للبطالة والثانية للبلادة حيث لا يدري ما يحمل [3].

تركته يأمر وينهي:

وخرج شريح من عند زياد وهو يجود بنفسه، فقيل له: كيف تركت الأمير؟ قال: تركته يأمر وينهي يوهمهم أنه لا بأس عليه فلم يلبثوا أن نعى

(١) أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، البصائر والذخائر، ص ٣٠، ٢٠٢.
(٢) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١/ ٣٥٩.
(٣) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص٢٤٧.

لهم، فقيل له في ذلك فقال: نعم تركته يأمر بالوصيّة وينهى عن البكاء [١].

أحب الأشياء إليه الخبز واللحم!:

شهد رجل عند شريح فقال المشهود عليه: أتقبل شهادته وأن أحب الأشياء إليه الخبز واللحم؟ فتوقف في إمضاء شهادته فقيل له: لمَ توقفت؟ فقال: إنه يعني أنه يشهد بأكلة [٢].

لا خير فيها إذن!:

عن محمد بن سيرين، قال: كان رجل عياب فأبصر بغلة تحت شريح، فقال: أبا أمية، إن بغلتك لفارهة! قال: إنها إذا ربضت لم تقم حتى تبعث. قال: لا خير فيها إذن! [٣].

وعد خيراً:

قال الأعمش: اشتكى شريح رجله فطلاها بالعسل وجلس في الشمس فدخل عليه عواده فقالوا: كيف تجدك؟ قال: صالحاً، فقالوا: ألا أريتها الطبيب؟ فقال: قد فعلت فقالوا: فما قال لك؟ قال: وعد خيراً.

هل رأيت البرق قط!:

عرض شريح ناقة للبيع فقال له المشتري: كيف غزارتها؟ قال: احلب في أي إناء شئت، قال: فكيف وثاقها؟ قال: احمل على حائط ما شئت، قال: كيف وطاؤها؟ قال: افرش ونم، قال: كيف نجاؤها؟ قال: هل رأيت البرق قط؟

ما كنت أرى أن أحداً هكذا بقي:

عن الشعبي، قال: جاء رجلان إلى شريح، فقال أحدهما: اشتريتُ من هذا دارًا فوجدتُ فيها عشرة آلاف درهم، فقال: خذها، فقال له: إنما اشتريتُ

(١) الميمني، سمط اللآلي، ص ٦٨.
(٢) محاضرات الأدباء، ١ / ٧، ٩٣، ٢٥٢، ٢ / ٥٢.
(٣) الجاحظ، البغال، ص٥.

الدارَ.

فقال للبائع: فخذها أنت، فقال له: ولم وقد بعته الدار بما فيها فأدار الأمر بينهما.

فأتى الوالي زياد بن أبيه فأخبره، فقال: ما كنت أرى أن أحدًا هكذا بقي، وقال لشريح: أدخل بيت المال فألق في كل جراب قبضة حتى تكون للمسلمين.

انج بنفسك:

تزوج بعض الخصيان في زمن شريح بامرأة، فأتت بولد، فتبرأ الخصي منه، فترافعا إلى شريح فألحق الولد به وألزمه أن يحمله على تلك الحال. فاستقبله خصي آخر، فقال: انج بنفسك فإن شريحاً يريد أن يفرق أولاد الزنا على الخصيان (١).

مَن هم يا أبا أمية؟!:

ومرّ شريح بمجلس بهمدان فسلّم فردّوا عليه وقاموا ورحبّوا به فقال: يا معشر همدان إني لأعرف أهل بيت منكم لا يَحِلّ لهم الكذب فقالوا: مَن هم يا أبا أمية؟ فقال: ما أنا بالذي يخبركم فجعلوا يسألونه وتبعوه ميلاً أو قريباً منه ويقولون له: من هم؟ وهو يقول: لا أُخبركم فانصرفوا عنه يتلّهفون: ليته أخبرنا بهم (٢).

فعلى من قضيت؟!:

قيل: أتى عدي بن أرطاة شريحاً القاضي ومعه امرأة له من أهل الكوفة يخاصمها إليه، فلما جلس عدي بين يدي شريح، قال عدي: أين أنت؟ قال: بينك وبين الحائط. قال: إني امرؤ من أهل الشام، قال: بعيد الدار. قال:

(١) التذكرة الحمدونية، ١ / ١١٠، ١٥٦، ٣ /٣٩، ٣ /٢١٥.
(٢) أبو البركات بدر الدين محمد بن محمد الغزي، المراح في المزاح، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم - بيروت - ١٤١٨ هـ ١٩٧٧م، ص ٩٠.

وإنـي قدمت العراق، قـال: خير مقدم. قـال: وتزوجـت هذه المـرأة، قـال: بالرفاء والبنين. قال: وإنها ولدت غلاماً، قال: ليهنك الفارس. قال: وقد أردت أن أنقلها إلى داري، قال: المرء أحق بأهله. قال: كنت شرطت لها دارها، قال: الشرط أملك. قال: اقض بيننا، قال: قد فعلت. قال: فعلى من قضيت؟ قال: على ابن أمك [١].

من كلامه رحمه الله:

عَن أبي حصين، قال: كان شريح إذا قيل له: ممن أنت؟ قال: ممن أنعم الله عليه بالإسلام عديد كندة.

عَن شريح، عَن عُمَر، قال: لا تغالوا بصدقات النِّسَاء، فإنها لو كانت مكرمة عند الله، أو تقوى، كان أحقكم بها رسول الله ﷺ، والله ما أصدق رسول الله أحداً من نسائه، ولا أصدق أحدًا من بناته أكثر من اثنى عشر أوقية.

- عَن شريح قال: كتب إلى عُمَر: بخمس من صوافي الأمراء، إن الأسنان سواء والأصابع سواء، وفي عين الدابة ربع ثمنها، وإن الرجل يسأل عند موته عَن ولده، فأصدق ما يكون عند موته، وجراحة الرجال والنِّسَاء سواء إلى ثلث دية الرجل.

- وعَن الشعبي قال: كتب شريح إلى عُمَر في رجل أهدى إلى رجل هدية، فماتا جميعاً، فكتب إليه عُمَر: إن كانت الهدية فضلت، والمهدى إليه حي، فهي لورثة المهدى له، وإن لم تفضل فهي لورثة المهدي [٢].

عَن شريح؛ قال: ما هاجت ريح قط إلاَّ بسقم صحيح أو بشفاء سقيم[٣].

وكانت كلمة شريح: إنما نحن بالله وله.

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب، ٣/١٥٠، ٤ / ١١.
(٢) أخبار القضاة، ٢ / ٢٠١.
(٣) أخبار القضاة، ٢ / ٢٠٩.

مطل الغنى ظلم.

عَن الشعبي، أن شريحاً قال:ما التقى رجلان قط إلاَّ بدأ بالسلام أولاهما بالله.

عَن الشعبي؛ قال: كان شريح يقول: خصمك داؤك، وشهودك شفاؤك، ولا نعنت الشهود، ولا نفهم الخصوم، ولم نسلط على إشعاركم ولا إنصاركم، إنما سلطان أن نقضي بينكم، فمن سلم لقضائنا فيها ونعمت، ومن لا أمرنا به إلى السجن حتى يسلم لقضائنا (١).

عَن الشعبي، قالَ: كان شريح يورث الأسير، ويقول: إنه أحوج ما يكون إلى نصيبه في الميراث إذا كان أسيراً في يد العدو، فإما أن يفادوه، حتى يجيء ما جاء (٢).

عَن شريح؛ قال: البيعان بالخيار ما لم يفترقا.

عَن شريح، أنه قالَ: لا شفعة ليهودي، ولا نصراني، ولا لمجوسي، على مسلم.

قال الشيباني: أخبرني صديق لي قال: سمعني شريح وأنا أشتكي بعض ما غمني إلى صديق لي، فأخذ بيدي وقال: يا ابن أخي إياك والشكوى إلى غير الله! فإنه لا يخلو من تشكو إليه أن يكون صديقاً أو عدواً، فأما الصديق فتحزنه ولا ينفعك، وأما العدو فيشمت بك.

وعَن شريح، قال: الشفعة للحيطان.

مرَّ شريحٌ بقومٍ وهم يلعبون فقال: ما لكم؟! قالوا: فرغنا يا أبا أمية! قال: ما بهذا أمر الفارغ (٣).

(١) أخبار القضاة، ٢ / ٢٣٠.
(٢) أخبار القضاة، ٢ / ٢٤٥.
(٣) عن شعبة حدثنا سعيد الجريري قال غنيم بن قيس: كنا نتواعظ في أول الإسلام: ابن آدم اعمل في فراغك لشغلك وفي شبابك لهرمك وفي صحتك لمرضك وفي دنياك لآخرتك وفي حياتك

عَن الشعبي، قال: كان شريح يجيز شهادة، كل ملة على ملتها، ولا يجيز شهادة اليهودي، على النصراني، ولا النصراني على اليهودي، إلاَّ المسلمين فإنه كان يجيز شهادتهم على الملل كلها.

عَن شريح؛ قال: المسلمون عند شروطهم ما لم يعص الله (١).

كان شريح إذا جلس للقضاء يلهج بهولاء الكلمات: سيعلم الظالمون حظ من نقصوا، إن الظالم ينتظر العقاب، وإن المظلوم ينتظر النصر.

يقال: كان من دعاء شريح: اللهم إني أسألك الجنة بلا عمل عملته. وأعوذ بك من النار بلا ذنب تركته (٢).

وكان شريح يقول إذا ما أتاه الشاهدان: ما دعوتكما ولا أنهاكما أن ترجعا إن شئتما، وما أنا أقضي على هذا المسلم، إن يقض عليه إلا خيركما، وإني متق بكما فاتقيا (٣).

وقال شريح:الحلم كنز موقر، والحليم مطية الجهول (٤).

قال شريح: لئن أزاول الأحمق أحب إلي من أزاول نصف الأحمق؛ قيل: يا أبا أمية ومن نصف الأحمق؟ قال: الأحمق المتعاقل.

قال شريح لرجل: يا عبد الله دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فوالله لا تدع من ذلك شيئاً فتجد فقده.

عن محمد بن سيرين أن رجلاً شهد عند شريح فقال: (أشهد بشهادة الله)؛ فقال له شريح: لا تشهد بشهادة الله، ولكن اشهد بشهادتك، فإن الله لا يشهد إلا على حق.

لموتك.

(١) أخبار القضاة، ٢ / ٢٧٥.

(٢) أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، البصائر والذخائر، ص ٣٠، ٢٠٢.

(٣) البصائر والذخائر، ٦ / ٣١.

(٤) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١/ ١٣٤.

كان شريح يقول: ما التقى رجلان قط إلا بدأ بالسلام أفضلهما، قال الشعبي: فكان قل ما سبق أحد شريحاً بالسلام.

قال شريح: من سأل حاجة فقد عرض نفسه على الرق، فإن قضاها المسؤول استعبده بها، وإن رده رجع حراً، وهما ذليلان، هذا بذل اللؤم وهذا بذل السؤال (١).

ومن شعره رحمه الله:

ومن قوله:

تصوبن واستصعدن حتى كأنما ::: يطأن برضراض الحصى جاحم الجمر
ألا كل من يدعى حبيباً، لو بدت ::: مروته يفدي حبيب بني فهر
همام يقود الخيل حتى زيرها ::: حياض المنايا لا تبيت على وتر
هبطن واستبعدن حتى كأنما ::: يطأن برضراض الحصى جاحم الجمر(٢)

و من قول شريح:

رأيت رجالاً يضربون نساءهم ::: فشلت يميني يوم أضرب زينبا

وسبب قوله هَذَا البيت، ما حَدَّثَنِيْ عُمَر بْن مُحَمَّد بْن عَبْد الحكم، قال:حَدَّثَنَا صلت بْن مسعود، قال:حَدَّثَنَا سُفْيَان بْن موسى الحرمي، وعَن شريح، قالَ:تقدمت إلي امرأة معها ابن لها بعد موت الأب وتزويج الأم وقالت:

أبا مية أتيناك ::: وأنت المرء يأتيه
أتاك ابني وأماه ::: وكلتانا تفديه
غلام هالك الوال ::: د أرجو أن أربيه
تزوجت فهاتيه ::: ولا يذهب بك التيه
فلو كنت تأيمت ::: له نازعتها فيه
ألا أيها الحاك ::: م هذي قصتي فيه

(١) محاضرات الأدباء، ١ / ٧، ٩٣، ٢٥٢، ٢ / ٥٢.
(٢) زعم ابن الكلبي، عَن أبيه، أن شريحاً قالَ: هذه الأبيات؛ لما بعث معاوية حبيب بْن سلكة الفهري لنصرة عُثْمَان فلم يدركه حتى قتل.

فقالت الأم:

ألا أيهـــــا الحـــــاكم ::: قـــد قالـــت لـــك الجـــدة
مقـــالاً فاســـتمع مـــني ::: ولا تـــــــرهقني رده
غـــلام هالــــك الـــوال ::: د يتـــيم ضـــائع الوحـــده
تزوجـــــت رجـــاء الخ ::: يـــر مـــن يحســـن لي رفـــده
فكيـــف الصـــبر عَـــن ابـــني ::: وكبـــدي حملـــت كبـــده

فقالَ: شريح:

قد سمع الحاكم مـا قـد قلتمـا ::: ثم قضـى بينكمـا ثم فصـل
وبقضـــاء جـــائز بينكمـــا ::: إن على الحاكم جهـداً إن عقـل
أيتـها الجـدة بـيني بالصـبي ::: ثم خذي ابنك مـن ذات العلـل
فإنهـا لـو صـبرت كـان لهـا ::: من بعـد دعواهـا يمـين البـدل

حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن منصور الرمادي، قال:حَدَّثَنَا أَبُو سلمة، قال:حَدَّثَنَا أَبُو عوانة، عَن أشعث بْن سليمان؛ أن جده وأمه اختصما إِلَى شريح فِي صبي فقالت الجدة:

أبـــا ميـــة أتينـــاك ::: وأنـــت المـــرء نأتيـــه
أتـــاك ابـــني وأمـــاه ::: وكلتانـــا تفدّيـــه
فلـــو كنـــت تأيمـــت ::: لمـــا نازعتـــك فيـــه
تزوجـــت فهاتيـــه ::: ولا يـــذهب بـــه التيـــه
ألا يأيهـــا القاضـــي ::: هـــذي قصـــتي فيـــه

فقالت الأم:

ألا يأيهـــا القاضـــي ::: قـــد قالـــت لـــك الجـــدة
مقـــالاً فاســـتمع مـــني ::: ولا تنظـــــروني رده
أعـــزي الـــنفس عَـــن ابـــني ::: وكبـــدي حملـــت كبـــده
فلمـــا كـــان في حجـــري ::: يتيمـــاً ضـــائعاً وحـــده
تزوجـــت رجـــاء الخـــير ::: مـــن يكلـــف لي رفـــده

ومـــــن يظهـــــر لي الـــــود ::: ومـــــن يكفـــــيني فقـــــده

فقالَ: شريح:

قد سمع الحاكم مـــا قـــد قلتمـــا ::: ثم قضـــى بينكمـــا ثم فصـــل

هَـــذَا قضـــاء جـــائز بينكمـــا ::: إن على القاضي لجهـــد إن عقـــل

فَقَـــالَ: للجـــدة بـــيني بالصـــبي ::: ثم خذي ابنك مـــن ذات العلـــل

فإنهـــا لـــو صـــبرت كـــان لهـــا ::: من قبل دعـــواه يتبعهـــا البـــدل

وكان شريح ربما سئل عَن الشعر، فقالَ: يوماً:

أبر علـــى الـــدنيا الملامـــة إنـــه ::: حريص على استخلاصها من يلومها[(١)]

* * *

---

(١) أخبار القضاة، ٢ / ٢٠٨.

الخاتمة

أعـلام الفقهـاء

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الحمد لله رب العالمين حمداً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربُّنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه وعزِّ جلاله، غير مَكْفِيٍّ ولا مكفورٍ ولا مودَّع ولا مستغني عنه ربُّنا، ونسأله أن يوزعنا شكر نعمته، وأن يوفّقنا لأداء حقه، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يرزقنا الشهادة في سبيله، وأن يجعل ما قصدنا له في هذا الكتاب وفي جميع أقوالنا وأفعالنا خالصاً لوجهه الكريم، ونصيحة لعباده. فيا أيها القارئ له، لك غُنْمُه وعلى مؤلفه غُرْمُه، لك ثمرتُه وعليه تَبِعَتُه، فما وجدتَ فيه من صوابٍ وحقٍ فاقبله ولا تلتفت إلى قائله، بل انظر إلى ما قال لا إلى من قال وقد ذمَّ الله تعالى من يَرُدَّ الحقَّ إذا جاء به مَن يبغضه، ويقبله إذا قاله من يحبه فهذا خُلُقُ الأمة الغضبية أي: اليهود. فقد قال ابن القيم رحمه الله: ": اقبل الحق ممن قاله وإن كان بغيضاً، ورُدَّ الباطل على من قاله وإن كان حبيباً.

وقرر أنه لا يردُّ كل قول من أخطأ جملة، بل لا بد من تمييز الحق من الباطل، فقال: " فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة، وأهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات ".

وقال أيضًا: ".. فإن كل طائفة معها حق وباطل، فالواجب موافقتهم فيما قالوه من الحق، ورد ما قالوه من الباطل، ومن فتح الله له بهذه الطريق فقد فتح له من العلم والدين كل باب، ويسر عليه من الأسباب " (١).

وما وجد القارئ فيه من خطأ فإن قائله لم يألُ جهد الإصابة، ويأبى الله إلا أن يتفرد بالكمال، كما قيل:

والنَّقْصُ في أصلِ الطبيعةِ كامنٌ ::: فَبَنُو الطبيعةِ نَقْصُهم لا يُجْحَدُ

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ص٣٧٨.

وكيف يُعْصَمُ من الخطأ من خُلق ظلوماً جهولاً، ولكن من عُدَّت غلطاتُه أقربُ إلى الصوابِ ممن عُدَّت إصاباتُه، وعلى المتكلم في هذا الباب وغيره أن يكون مصدر كلامه عن العلم بالحق، وغايته النصيحة لله، ولكتابه، ولرسوله، ولإخوانه المسلمين، وإن جعلَ الحقَ تبعاً للهوى: فَسَدَ القلبُ والعملُ والحالُ والطريقُ.. والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على خاتم المرسلين محمدٍ وعلى آله أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير إلي عفو ربه ومغفرته ورضوانه،

رجب محمود إبراهيم بخيت

* * *

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

أعـلام الفقهـاء

المصادر والمراجع

محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري، الطبقات الكبرى، المحقق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، الطبعة: ١ - ١٩٦٨ م.

عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج بن الجوزي: صفة الصفوة، تحقيق: محمود فاخوري - د. محمد رواس قلعجي، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩ - ١٩٧٩.

أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، المحقق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت.

أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار.

الشعراني: الطبقات الكبرى.

خليفة بن خياط أبو عمر الليثي العصفري، الطبقات، تحقيق: د. أكرم ضياء العمري، الناشر: دار طيبة - الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٢ - ١٩٨٢

محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو عبد الله البخاري الجعفي، التاريخ الكبير، تحقيق: السيد هاشم الندوي، دار الفكر،

ابن قتيبة الدينوري: المعارف.

أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي [ت: ٢٧٧هـ]، المعرفة والتاريخ، المحقق: د أكرم العُمَري، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨١.

أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء،

دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥.

أبو إسحاق الشيرازي، طبقات الفقهاء، هذبهُ: محمد بن جلال الدين المكرم (ابن منظور)، المحقق: إحسان عباس، دار الرائد العربي، ١٩٧٠، بيروت - لبنان

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ).

١ - تذكرة الحفاظ، الناشر: صحح عن النسخة القديمة المحفوظة في مكتبة الحرم المكي تحت إعانة وزارة معارف الحكومة العالية الهندية دار إحياء التراث العربي

تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري. دار الكتاب العربي. لبنان/ بيروت. الطبعة: الأولى. ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٣ - سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة بيروت - الطبعة التاسعة ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

٤ - العبر في خبر من غبر، المحقق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت

٥ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت - لبنان.

٦ - العلو للعلي الغفار، تحقيق أبو محمد أشرف بن عبدالمقصود، الناشر: مكتبة أضواء السلف - الرياض، الطبعة الأولى.

أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، طبعة جديدة محققة الطبعة الاولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

أبو المحاسن بن تغربردي: النجوم الزاهرة.

السيوطي: طبقات الحفاظ.

الحنبلي: شذرات الذهب.

د/ عبد الرحمن رأفت الباشا: صور من حياة التابعيين.

محمد بدر الدين: سعيد بن المسيب.

تقي الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح، طبقات الفقهاء الشافعية، تحقيق محيي الدين علي نجيب، دار البشائر الإسلامية، ١٩٩٢م، بيروت.

البلاذري: أنساب الأشراف.

الإمام أحمد بن حنبل: الزهد

أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية - بيروت،

ابن عساكر: تاريخ ابن عساكر

اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان

أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية - بيروت.

محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفى: ٢٨٥هـ)، الكامل في اللغة والأدب، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر: دار الفكر العربي - القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م،

ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم بشرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم، المحقق: ماهر ياسين فحل.

محمد بن إسحاق أبو الفرج النديم، الفهرست، دار المعرفة - بيروت، ١٣٩٨ – ١٩٧٨.

ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله، معجم البلدان، دار الفكر –

بيروت.

محمد بن محمد أبو شهبة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، مكتبة السنة، الطبعة الرابعة.

السلمي: طبقات الصوفية.

يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي [٦٥٤ - ٧٤٢]، تهذيب الكمال مع حواشيه، المحقق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠ - ١٩٨٠

الحافظ الفقيه صفي الدين أحمد بن عبد الله الخزرجي الأنصاري اليمني، خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، الناشر مكتب المطبوعات الإسلامية/دار البشائر، مكان النشر حلب / بيروت، سنة النشر ١٤١٦ هـ.

اليافعي: روض الرياحين.

أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني ت: ٨٥٢هـ، تهذيب التهذيب، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة الأولى، ١٣٢٦هـ.

ابن الشجري، الأمالي الشجرية.

ابن حمدون: التذكرة الحمدونية.

ابن عبد ربه، العقد الفريد.

أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، البصائر والذخائر، تحقيق: د. وداد القاضي، دار صادر - بيروت / لبنان - ١٤١٩هـ - ٩٩٩ م، الطبعة الرابعة.

محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفى: ٢٨٥هـ)، الكامل في اللغة والأدب، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي - القاهرة، الطبعة: الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م.

أبـو عبـد الله يـاقوت بـن عبـد الله الرومـي الحمـوي، معجـم الأدبـاء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، الناشر دار الكتب العلمية، سنة النشر ١٤١١ هـ - ١٩٩١م، بيروت.

أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م الطبعة: الأولى.

كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري، حياة الحيوان الكبرى، تحقيق أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة الثانية، - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

أبي عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق المحامي فوزي عطوي، دار صعب - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨.

هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي أبو القاسم، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، تحقيق د. أحمد سعد حمدان، الناشر: دار طيبة - الرياض، ١٤٠٢.

أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري، نسب قريش، تحقيق ليفي بروفسال، دار المعارف - القاهرة.

أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، العلل ومعرفة الرجال، تحقيق وصي الله بن محمد عباس، المكتب الإسلامي، دار الخاني - بيروت، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ - ١٩٨٨.

ابن الكلبي: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الثالثة، - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

محمد بن محمد العواجي، مرويات الإمام الزهري في المغازي، الطبعة: الأولى ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

الحسين بن مسعود البغوي، شرح السنة - للإمام البغوى، تحقيق: شعيب

الأرناؤوط - محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - دمشق - بيروت، الطبعة: الثانية، - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م،

الطرطوشي، سراج الملوك.

تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، المعروف بابن دقيق العيد (المتوفى: ٧٠٢هـ)، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، المحقق: مصطفى شيخ مصطفى ومدثر سندس، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م،

يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي [٦٥٤ - ٧٤٢]، تهذيب الكمال مع حواشيه، المحقق: د. بشار عواد معروف، نشر مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠ - ١٩٨٠، ٥/ ٣٩٢

العصامي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي

أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري، عقلاء المجانين.

- شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق د. مفيد محمد قميحة، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦.

الشيخ بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، الكشكول، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان الطبعة: الأولى، - ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

عبد الرحمن بن عبد السلام بن عبد الرحمن بن عثمان الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، تحقيق: عبد الرحيم مارديني، دار المحبة -
دار آية - بيروت - دمشق - ٢٠٠١ / ٢٠٠٢.

أبو بكر محمد بن الحسين بن عبدالله الاجري، أخلاق العلماء، تحقيق ومراجعة: إسماعيل بن محمد الأنصاري وعبد الله بن عبد اللطيف آل

الشيخ، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، الطبعة: ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

محمد بن حبان البستي أبو حاتم، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٣٩٧ - ١٩٧٧.

أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي، الأمثال من الكتاب والسنة، تحقيق: د. السيد الجميلي، دار ابن زيدون - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥.

محمد بن أحمد بن جميع الصيداوي أبو الحسين، معجم الشيوخ، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري، مؤسسة الرسالة، دار الإيمان، مكان النشر بيروت، طرابلس، سنة النشر ١٤٠٥.

محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، مشاهير علماء الأمصار، تحقيق: م. فلايشهمر، دار الكتب العلمية - بيروت، - ١٩٥٩.

ابن أبي الدنيا، مجابو الدعوة.

محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، المحقق: إحسان عباس، : دار صادر - بيروت.

ابن أبي الدنيا، الأولياء، المحقق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣.

أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي الخطيب، المنتخب من كتاب الزهد والرقائق، تحقيق د. عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية، مكان النشر بيروت / لبنان، سنة النشر ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي أبو محمد، التوابين، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤٠٣ - ١٩٨٣.

أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، أخبار الظراف والمتماجنين،

تحقيق: بسام عبد الوهاب الجاني، دار ابن حزم - بيروت - ١٩٩٧م.

ابن الملقن، طبقات الأولياء.

بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، الكشكول، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان الطبعة: الثانية، - ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ، الطبعة: الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.

بلوغ الأرب بتقريب كتاب الشعب، (تهذيب لكتاب شعب الإيمان للبيهقي)، هذبه: محمد خلف سلامة.

أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان الطبعة الأولى - ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م.

المشتولي، سلوة الأحزان للاجتناب عن مجالسة الأحداث والنسوان.

أبو الحسين بن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، المحقق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة - بيروت.

أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد الأزدي، طبقات الصوفية، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ.

ابن الكلبي، أنساب الخيل.

الثعالبي، اللطف واللطائف.

الصولي، أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم.

أبو حيان التوحيدي، الصداقة والصديق.

أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية - بيروت.

كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري، حياة الحيوان الكبرى، تحقيق: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة: الثانية١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس أبو محمد الرازي التميمي، الجرح والتعديل، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٢٧١ - ١٩٥٢.

أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تحقيق: د. إحسان عباس ود. عبد المجيد عابدين، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣.

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة: الأولى ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.

محمد بن حبان البستي أبو حاتم، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٣٩٧ - ١٩٧٧.

ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس.

عائض القرني، سلسلة دروس القمم لأهل الهمم الصوتية.

الدكتور عبد الله عبد المحسن التركي: أصول مذهب الإمام أحمد.

عبد الحليم الجندي: أحمد بن حنبل إمام أهل السنة.

أحمد عبد الجواد الدومي: أحمد بن حنبل بين محنة الدين ومحنة الدنيا.

ولتر م. باتون: أحمد بن حنبل والمحنة، ترجمة عبد العزيز عبد الحق.

أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي: الفتح الرباني وشرحه بلوغ الأماني.

ابن الجوزي: مناقب الإمام أحمد.

عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل، أحمد بن حنبل، مجلة البحوث الإسلامية.

طه جابر فياض العلواني، أدب الاختلاف في الإسلام.

محمد بن حبان البستي أبو حاتم، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٣٩٧ - ١٩٧٧.

أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي، معجم السفر، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، المكتبة التجارية - مكة المكرمة.

الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر.

محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة: الثانية، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

إبراهيم بن إسحاق الحربي، رسالة في أن القرآن غير مخلوق، تحقيق: علي بن عبد العزيز بن علي الشبل، دار العاصمة - الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٥.

ابن كنان، يوميات شامية.

الإمام النووي، تهذيب الأسماء واللغات، تحقيق مكتب البحوث والدراسات في دار الفكر، دار النشر دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى سنة النشر ١٩٩٦.

سعيد بن علي بن وهف القحطاني، الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

الوطواط، غرر الخصائص الواضحة.

عبد الله بن عبد المحسن التركي، مجمل اعتقاد أئمة السلف، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، ١٤١٧هـ.

اليوسي، زهر الأكم في الأمثال والحكم.

زَيْنُ الْعَابِدِيْنَ بْنِ إِبْرَاهِيْمِ بْنِ نُجَيْمٍ (٩٢٦ - ٩٧٠هـ)، الأَشْبَاهُ وَالنَّظَائِرُ عَلَى مَذْهَبِ أَبِيْ حَنِيْفَةَ النُّعْمَانِ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٠هـ -١٩٨٠م.

القاضي أبي عبد الله حسين بن علي الصيمري، أخبار أبي حنيفة وأصحابه، عالم الكتب، سنة النشر ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

التقي الغزي، الطبقات السنية في تراجم الحنفية.

أبي الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر - بيروت، الطبعة الثانية.

الصفدي، صرة الثائر على المثل السائر.

محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين دراسة وتحقيق:طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، القاهرة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

أبو البركات بدر الدين محمد بن محمد الغزي، المراح في المزاح، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم - بيروت - ١٤١٨ هـ ١٩٧٧م.

أبو الفواء الحلبي الطرابلسي، الكشف الحثيث، مكتبة النهضة العربية،

بيروت، ٢٢١/١.

أبو الحسن الماوردي:

١ - الأحكام السلطانية والولايات الدينية.

٢ - أدب الدنيا والدين.

الوشاء: الموشى.

ابن الأبار، إعتاب الكتاب.

أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي الأندلسين، تاريخ قضاة الأندلس (المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الآفاق الجديدة - بيروت / لبنان - ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م.

المرزباني، نور القبس.

أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، الناشر: المكتب التجاري - بيروت.

أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين.

العبدلكاني الزوزني، حماسة الظرفاء.

أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري: لباب الآداب، دار الكتب العلمية - تحقيق أحمد حسن لبج الطبعة الأولى، بيروت / لبنان - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

* * *

الفهرس

الفهـرس

أعـلام الفقهـاء

الفهرس

المؤلف في سطور

الدكتور/ رجب محمود إبراهيم بخيت

ولد في محافظة البحيرة بجمهورية مصر العربية عام (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م).

حصل على ليسانس الآداب من جامعة طنطا (تخصص تاريخ) في عام ١٩٩٦ م.

حصل على دبلوم الدراسات العليا (تخصص تاريخ وحضارة إسلامية) عام ١٩٩٧م.

نال درجة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية (تخصص آسيا الوسطى والقوقاز) من جامعة طنطا - كلية الآداب - عام ٢٠٠١ م.

نال درجة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية (تخصص آسيا الوسطى والقوقاز) من جامعة عين شمس - كلية الآداب - عام ٢٠٠٦ م.

* * *

أهم أعمال المؤلف

م	عنوان الكتاب	دار النشر
١	تاريخ دولة المماليك	دار الإيمان بالمنصورة
٢	تاريخ الدولة الأيوبية	دار الإيمان بالمنصورة
٣	الشيعة... التاريخ الكامل	دار الإيمان بالمنصورة
٤	تاريخ المغول	دار الإيمان بالمنصورة
٥	تاريخ الإسلام في الأندلس	دار الإيمان بالمنصورة
٦	الفتح الإسلامي لبلاد القوقاز	دار العلم والإيمان
٧	الفتح الإسلامي لأذربيجان	دار العلم والإيمان
٨	معارك فاصلة في التاريخ الإسلامي	دار الإيمان بالمنصورة
٩	سلاح المؤمن (الذكر والدعاء)	دار الإيمان بالمنصورة
١٠	شهداء العلماء	دار الإيمان بالمنصورة
١١	فاعتبروا يا أولي الأبصار	دار الإيمان بالمنصورة
١٢	الظالمون في الدنيا وكيف كان نهايتهم	دار الإيمان بالمنصورة
١٣	ماذا يعني حب النبي ﷺ؟	دار العلم والإيمان
١٤	مطالب الظالمين في الآخرة	دار الإيمان بالإسكندرية
١٥	مختصر سير أعلام النبلاء	دار الإيمان بالمنصورة
١٦	مختصر تاريخ الإسلام للذهبي	دار الإيمان بالمنصورة
١٧	مختصر المنتظم لابن الجوزي	دار الإيمان بالمنصورة
١٨	مختصر الطبقات الكبرى لابن سعد	دار الإيمان بالمنصورة
١٩	مختصر النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة	دار الإيمان بالمنصورة
٢٠	مختصر السلوك في معرفة دول الملوك	دار الإيمان بالمنصورة
٢١	مختصر نفح الطيب للمقري	دار الإيمان بالمنصورة

٢٢	ألف حكمة وحكمة من حكم الحكماء ومواعظ الصالحين	دار الإيمان بالمنصورة
٢٣	١٠٠٠ قصة من حياة الأئمة الأربعة	دار الإيمان بالإسكندرية
٢٤	قصص ونوادر الأنام في الرؤى والأحلام	دار الإيمان بالمنصورة
٢٥	قصص ونوادر من حياة الطفيليين والبلاغيين والنحاة	دار الإيمان بالمنصورة
٢٦	قصص ونوادر من حياة البخلاء	دار الإيمان بالإسكندرية (تحت الطبع)
٢٧	مختصر تاريخ الطبري	دار الإيمان بالمنصورة
٢٨	مختصر وفيات الأعيان لابن خلكان	دار الإيمان بالمنصورة
٢٩	من مشاهير أعلام المسلمين	دار الإيمان بالمنصورة
٣٠	أعلام التابعين	دار الإيمان بالمنصورة
٣١	أعلام الفقهاء	دار الإيمان بالمنصورة

* * *